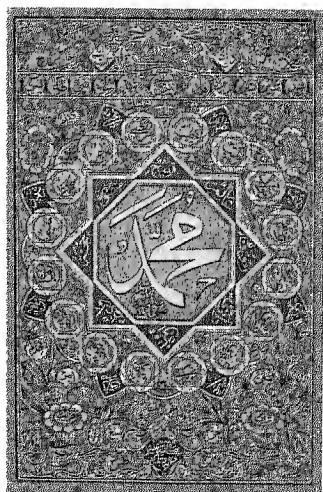


الشيخ عبد الله لعلايلي

مَشَاهِد وقَصَص

مِنْ أَيَّامِ النُّبُوَّةِ



دار الجديد

الشيخ عبد الله عيسى

مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ مَشَاهِدٌ وَقَصَصٌ

دار الجدي

© دار الجديد، طبعة ثانية مُنقَّحة، ١٩٩٣

٣٤٣٧٥٢ - ٥٢٢٢ / ١١ - نصّيد النص: علي حمدان - صَبَطَه بالشَّكْل على

أُصُوله: محمود عشاف - خطّ الخطوط: علي عاصي - رَسَم الغلاف: محمد شمس الدين -

L'Islam nelle Stampe, BE-MA Editrice, Milano, 1988 صورة الغلاف مُقتبسة من:

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطبعة

أَبَتْ هَذِهِ الدَّارُ الْكَرِيمَةُ إِلَّا أَنْ تَجْعَلَ مِنْ بَعْضِ قَدِيمِي جَدِيداً
كَاسِمِهَا، فَأَخَذْتُ بِأَسْبَابِ نَشْرِ هَذَا الْكِتَابِ، بِحُلَّةِ قَشِيَّةٍ فِي
حَوَاشِيهَا إِغْرَاءً، شَأْنَهَا فِيمَا تَنْشُرُ.

وَأَقْتَرَحْتُ عَلَيْهَا أَنْ يُمَثَّلَ لِلنَّاسِ هَذِهِ الْمَرَّةَ بِعُتْوَانٍ جَدِيدٍ،
كَوَلِيدِ تَقْمِصٍ فِي يَوْمِهِ غَيْرِ ثَوْبِ أَمْسِهِ... أَوْ تَنَاسُخٍ فِي خَلْقِهِ
خَلْقُهُ الْبَدِيءُ، وَأَنْتَظَمْتُهُ أَمْشَاجَ تَكُونِهِ الْأَوَّلِ. فَأَكْبَرُ فُصُولِ
الْكِتَابِ تَدَوُّرُ عَلَى أَسْمِهِ هَذَا أَلْمُسْتَحْدَثِ: مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ - مَشَاهِدُ
وَقَصَصُ، بَعْدَ أَنْ كُنْتُ دَفَعْتُهُ إِلَى الْقَارِيءِ مِنْ قَبْلِ سَنَةِ ١٩٤٧ عَنْ
دَارِ الْعِلْمِ لِلْمَلَايِينِ أَيَّامَ يَفَاعِيهَا وَحَبْوِهَا، إِبَّانَ كَانَتْ تَنَاقُلُ بَيْنَ
الْحَبْوَةِ وَالْحَبْوَةِ، وَتَتَشَنَّى بَيْنَ الْخَطْوَةِ وَالْخَطْوَةِ، بِأَسْمِ: أَيَّامِ
الْحُسَيْنِ.

وَلَمْ أَبْعُدْ بِالتَّسْمِيَةِ الْخَاصِرَةِ أَلْعَتِيدَةِ عَنْ تِلْكَ الْقَدِيمَةِ
أَلْعَهِيدَةِ، فَالْحُسَيْنُ (ع)، فِي جَوْهَرِهِ وَحَقِيقَتِهِ، يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ النَّبُوَّةِ،
وَهَذَا أَكْبَرُ لَهُ وَأَزْحَبُ وَأَغْنَى وَأَحَبُّ.

وَجَاءَ اقْتِرَاحُ الدَّارِ، دَارِ الْجَدِيدِ، عَلَيَّ، بَعْدَ إِبْلَالِي مِمَّا أَلَمَّ بِي
وَأَذْخَلَنِي الْمُسْتَشْفَى. وَاتَّفَقَ لِي لِلْأَوْنَةِ أَنْ رَأَيْتُ الَّذِينَ
بَلَوْتُهُمْ مُنْذُ سَنَةِ ١٩٣٥، أَعَانِيهِمْ وَأَعَانِي مَعَهُمْ إِلَى أَعْوَامي هَذِهِ
الْأَخِيرَةِ، عَلَى حَقَائِقِهِمْ. فَكَانَتْ حَصِيلَةُ بِيَادِرِي مِنْهُمْ، فِي أَكْبَرِ
شَأْنِهَا، زُؤَانًا إِلَّا بَقِيَّةً هِيَ الْكَرَائِمُ مِنَ الْحَبِّ وَاللُّبَابِ، شَفَعَتْ بِمَا
كَانَ اجْتَمَعَ عِنْدِي مِنَ أَكْدَاسٍ «غَرَابِيبِ سُود».

فَكَانَ فِي مُقَدِّمَةِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الْكَرِيمِ الَّذِينَ ذَكَرُونِي أَيَّامَ
تَقَطَّرْتُ أَلْمًا حُزْبَائِي وَسُوَيْدَاءُ نَفْسِي، مِنْ أَصْحَابِ السَّمَاخَةِ الشَّيْخِ
مُحَمَّدٍ مَهْدِي شَمْسِ الدِّينِ الَّذِي قَالَ، وَلَمْ يَتَوَرَّغْ، عَلَى مَسْمَعٍ
وَمَزَأَى، وَلَكِنْ بِتَغْيِيرٍ يَتَضَمَّنُ مَغْنَاهُ: مَا اتَّفَقَ لِي وَشَهِدْتُ ظُلُمًا مِنْ
ذَوِيهِ كَالْعَلَايِلِيِّ، وَلَا رَأَيْتُ ظُلُومًا كَقَوْمِهِ، وَالشَّيْخِ الصَّدِيقِ ابْنِ
الشَّيْخِ الصَّدِيقِ مُحَمَّدٍ رَشِيدٍ رَاغِبٍ الْقَبَانِي الْقَائِمِ بِأَعْبَاءِ
الْفَتْوَى... وَمِنْ أَصْحَابِ الدَّوْلَةِ سَلِيمِ الْخَصِّ وَرَشِيدِ الصَّلْحِ
وَشَفِيقِ الْوَزَانِ... وَمِنْ أَصْحَابِ أَلْعَالِي مِشَالِ إِدْهٍ، وَمِنْ سُورِيَّةِ
تَفَضَّلَ بَيْنَ نَابٍ عَنْهُ أَلْدُّكْتُورُ عَبْدِ الرَّؤُوفِ أَلْكَسَمِ حَامِلًا بَاقَةَ زَهْرٍ.
وَحَصَصْتُهَا بِالذِّكْرِ إِذْ كَانَ لِي فِيهَا أَيَّامٌ وَأَيَّامٌ فِي الْأَرْبَعِينَاتِ
وَالْخَمْسِينَاتِ، وَلَا سِيَّما يَوْمُ الْمَهْرَجَانِ التَّائِبِيَّ الْأَوَّلِ لِعَدْنَانَ
أَلْمَالِكِيِّ وَكَانَ غَرَبِيًّا جَامِعًا، يَوْمَ ٥ آبِ سَنَةِ ١٩٥٥. وَأُكْتَفِيَ
لِتَعْرِفَ مَا كَانَ مِنْ وَقْعِي عَلَى النَّاسِ أَنْ تُرَاجَعَ الصَّحَافَةُ فِيهَا
يَوْمَ ذَلِكَ، وَبِخَاصَّةِ مَجَلَّةِ الْجَيْشِ السُّورِيِّ نَفْسِهِ. وَلَكِنِّي أَتَعَزَّى بِمَا
قَالَ ابْنُ الْمُقَرِّيِّ صَاحِبُ نَفْحِ الطَّيِّبِ:

سُبْحَانَ مَنْ قَسَمَ الْخُطُوبَ فَلَا عِتَابَ وَلَا مَلَامَةَ
أَعْمَى، وَأَعشى، ثُمَّ ذُو بَصَرٍ وَرَزَقَاءُ الْيَمَامَةِ
وتَوَجَّ عيادتي، أَنَّهُ أَقْبَلَ مُهْزُولاً صَاحِبُ الْفَخَامَةِ رَئِيسُ
الْجُمْهُورِيَّةِ، وَلَا تَظُنُّهُ مَنْ قَدْ يَتَبَادَرُ إِلَى ذِهْنِكَ أَوْ مَنْ تَعْرِفُ، بَلْ
هُوَ الْأَرْفَعُ وَالْأَكْرَمُ وَالْأَحَبُّ، إِنَّهُ فَخَامَةُ رَئِيسِ جُمْهُورِيَّةٍ عَبَقَرُ،
الإِبْدَاعِي سَعِيدُ عَقْلٍ.

وَلَا تَأْسَ أَوْ تَبْتَئِسْ مِنْ قِلَّةِ الرِّعْيَةِ فِي جُمْهُورِيَّتِكَ، فَقَدِيمَا
قَالَ رَصِيفُكَ السَّمَوَّلُ:

تَعْيَرْنَا أَنَا قَلِيلٌ عَدِيدُنَا فَقُلْتُ لَهَا: إِنَّ الْكِرَامَ قَلِيلٌ

وَكَانَ سَبَقَ دُخُولِي الْمُسْتَشْفَى، بِادِرَةِ مُوَاسِيَةٍ عَلَى غَيْرِ
أَنْتِظَارٍ، بَلْ عَلَى تَفْتَةٍ، أَيْ عَلَى حِينِ بَغْتَةٍ، مِنْ الْقِيَمَةِ الْمَشْرِفَةِ عَلَى
مَسَاعِ إِنْسَانِيَّةٍ فِي صَيْدَا، أَخْتَصَّصْتَنِي بِدِرْعِ مُؤَسَّسَاتِهَا، وَلَأنَّهَا بَاتَتْ
أَلَانْ فِي مَكَانٍ مَسْئُولِيَّةٍ أَتَجَاوَزُ وَأَطْوِي أَلَأَسْمَ، لِئَلَّا تَنْقَلِبَ كَلِمَةُ
الشُّكْرِ كَلِمَةً زُلْفَى... وَأَنَا مَا تَعَوَّذْتُهَا وَأَنَا بَعْدُ فَتَى، فَكَئِيفَ بِي وَأَنَا
الْثَمَانِيْنِي...

فَكَانَ هَؤُلَاءِ «مِجَنِّي دُونَ مَنْ كُنْتُ أَتَّقِي»، وَهُمْ عَلَى أَيْ
حَالٍ أَهْمٌ وَأَجَلٌ مِنْ مِجَنِّ ابْنِ أَبِي رَبِيعَةَ «ثَلَاثُ شُخُوصٍ كَاعِبَانِ
وَمُغْصَرٌ».

وَالْغَرِيبُ أَنَّهُ فِي شَرِيطِ هَذِهِ التَّرَاثِيَاتِ، تَبَدَّى لِي حَامِلُ قَلَمٍ
كَانَتْ كَلِمَتِي فِي رِثَاءِ أَبِيهِ وَخَدَهَا شَافِعَةً لِيَذْكَرَ... وَحِينَ أُنْوَهُ

بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ أُشِيرُ إِلَى أَنَّهَا كَلِمَةٌ^(١) كَانَ يَحْفَظُ وَيُرَدِّدُ أَكْثَرَ

(١) أثبت نصها الكامل هنا لتلا يذهب بها دهر الدُّهَاري، وتَلَسَّفُها دُوَامَةُ الأعاصير كأكثر ما كنت كتبت. فلم تُنشر إلا في جريدة الحياة لصاحبها المرحوم كامل مروءة، وذلك بتاريخ ٢١/٢/١٩٤٧ عدد ٤٩٦ وهذا نصها:

وَأَيُّهَا الْفَقِيدُ الْكَبِيرُ: هُنَيْهَةٌ وَتَغْضُّهَا كَانَ لِي مِنْ عُمْرِكَ، يَوْمَ مَشَى الْقَدَرُ عِنْدِي بِحَظِّ سَعِيدٍ، فَعَرَفْتُكَ وَمَا كَانَ طَوِيلًا وَلَقَيْتُكَ وَمَا كَانَ كَثِيرًا.

وفي حَسِّ الْقَلْبِ، أَيُّ شَأْنٍ لِلزَّمَنِ الَّذِي يُخْتَصِرُ بِجَبَرُوتِهِ عِنْدَ عَتَبَتِهِ، فَقَدْ آتَقَلَبْتُ وَكَأَنَّ أَمْسِي مَا أَتَسَّعَ إِلَّا لَكَ، وَكَأَنَّ يَوْمِي لَيْسَ يَمِي إِلَّا ذِكْرَكَ.

هي هُنَيْهَةٌ، وَلَكِنْ مِمَّا تَرَكْتُ فِي حَسِّ نَفْسِي بَتْ أَشْعُرُ لَكَأَنَّمَا هُوَ عُمْرِي كُلُّهُ جَاءَ فِي مِقْدَارِ هُنَيْهَةٍ.

عَرَفْتُكَ إِنْسَانًا، وَلَا أَزِيدُكَ، بِصِفَاتِ أَنْتَ تَمْلِكُ أَكْرَمَهَا، فَلَيْسَ قَلِيلًا فِي دُنْيَايَ وَدُنْيَاكَ، أَنْ تَعْرِفَ إِنْسَانًا يَعْشُقُ حَقًّا بِقَلْبِهِ، بِكِبَرِيَاءٍ قَلْبِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِحَقَائِقِهِ؛ بِعُزِّي حَقَائِقِهِ؛ إِنْسَانًا يَعْشُقُ بِقِيَمِهِ، بِوُغْيِ قِيَمِهِ فِي نَاسٍ، دَحِ الْمَغْنَى الْإِنْسَانِي، ثُمَّ قُلْ: إِنَّهُمْ يَعْشُقُونَ بِمَا تَشَاءُ أَنْ تَقُولَ، وَلَا أَحَاوِرُكَ، بَلْ لَعَلِّي أَجَارِيكَ.

فَرَأَيْتُكَ فَحَبَبِكَ إِلَيَّ مَا قَرَأْتُ، ثُمَّ عَرَفْتُكَ فَأَحْسَسْتُ مَا قَرَأْتُ لَكَ حَيَاةً، فَاحْزَنُفْ مَا كَانَ يَنْخَدِرُ عَنْ قَلْبِكَ، إِلَّا بِحَزَبٍ مِثْلِهِ أَنْخَدَرَ إِلَيْهِ مِنْ مَغْنَاكَ.

فَمَا أَكْثَرْتُ مِنْكَ وَلَا غَيْرَكَ عِنْدِي، بَلْ لَكَأَنِّي يَوْمَ عَرَفْتُكَ أَقْرَأَكَ أَيْضًا، وَلَكِنْ فِي نَبْرَةٍ هِيَ أَكْثَرُ أَشْيَا، وَمَا كَانَ لِهَذَا الْوَرَقِ أَنْ يَنْهَضَ بِكُلِّ حَرَاظَتِهَا.

فَكُنْتُ، فِيمَا تَحُطُّ وَتَقُولُ، تَتَقَدَّمُ إِلَى هَيْكَلِ هَذَا الْوَطَنِ بِدُورِكَ وَقَرَابِيِّكَ... كَالَّذِي يُضَلِّي، وَمَعْنَى اللَّهِ فِي صَلَاتِهِ أَكْبَرُ صَلَاتِهِ، فَوْقَ آخَرِينَ أَكْبَرُ مَعْنَى اللَّهِ فِي أَنْفُسِهِمْ حُطُّ أَنْفُسِهِمْ، فَصَلَاتُهُمْ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ رَجَسٌ، وَصَلَاتُكَ فِي مَعْبَدِ الْوَطَنِ قُدْسٌ...

وَلَيْسَ فِي هَذِهِ الْوَفْرَةِ الَّتِي أَنْطَوَتْ عَلَيْهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ، حُرُوفٌ اسْتَرَتْ فِي الْفَاظِ، وَمِثْلَمَا تَعَوَّدُ أَنْ يَجِدَ الْقَاسُ فِي كَلِمَاتٍ دُمُوعِهِمْ وَأَلْفَانٍ دُمُوعِهِمْ... وَأَمَّا هِيَ حَشَاةُ أَرْطَشَتْ قَطْرَاتِهَا، وَجَرَتْ فِي حُرُوفٍ رَسَمَتْهَا، ثُمَّ جَمَعَتْ فِيهَا.

مَقَاطِعِهَا، وَلَعَلَّكَ تَسْتَغْرِبُ وَلَا تُصَدِّقُ، أَمِينُ نَخْلَةِ الَّذِي كَانَ، فِي
الْعَرَبِيَّةِ، الْأَدَبِ، الْأَدَبِ الدَّمَقَسِ الْحَرِيرِ.

وَأَرَدْتُ مَعَ شَاعِرِنَا الْعَرَبِيِّ الْقَدِيمِ لَبِيدِ قَوْلُهُ:

ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَيَقِيتُ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ
وَقَوْلَ الْآخَرِ الْعَبَّاسِيِّ:

قُمْ فَاسْقِئَنِي بِالْكَبِيرِ وَعَشِي ذَهَبَ الَّذِينَ يَعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ
وَالْأَعْرَبُ الْأَعْرَبُ فِي هَذَا الزَّمَنِ، الزَّمَنِ ذِي التَّعَاجِبِ، أَنْ
الْقَدَرُ بِكُلِّ مَا فِيهِ مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ، كَأَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْ سَيِّدًا مِنْ أَجَلَّةِ
الْعَالِيَةِ الَّذِي اخْتَفَى فَجَاءَهُ، إِلَّا قَنْطَرَةٌ غُبُورٍ لِشَيْءٍ لَا أَذْرِي مَا أَسْمُهُ،
لِيُضْبَحَ وَخَدَهُ الدُّنْيَا، كُلُّ الدُّنْيَا، وَبِكُلِّ حَذَافِيرِهَا أَيْضًا...

وَيَنْقَطِعُ عَجَبِي كُلُّهُ، أَنَّنِي فِي مِضْمَارِ عَرَضٍ بَغِضٍ مِنْ أَيَّامِ
الثَّبُوءِ، وَسَبَقْتُ بِأَنَّ الْحُسَيْنَ مِنْ أَكْبَرِ أَيَّامِهَا، فَلَا بَدْعَ أَنْ أَبْلِسَ

وَأَنَا، عَلِمَ اللَّهُ، مَا كُنْتُ لِأَجْرِي خَافًا عَلَى قِرْطَاسٍ، لَوْ أَنَّ مِنْ أَكْثَبِ عَنْهُ يَقْرَأُنِي، أَوْ يَقْرَأُ لِي
يُؤْمِرُهُ عَنْ أَنفْسِهِ.

وَلَكِنْ هِيَ ذِكْرَاهُ الَّتِي أَفَلْتُ عَلَيَّ، يَوْمَ بَاتَتْ أَخْبَرَ مِنْ حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَأَوْسَعَ مِنْ وَاقِعِهَا
فِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ.

أَيُّهَا الرَّاجِلُ الْكَرِيمُ: لَقَدْ أَبْطَلْتُ شَأْنَ النَّاسِ هُنَا، فَانْزِلْ الْغُرْبَةَ، وَلَكِنْ مَنْ كَانَ يَذْرِي أَلَكِ
سَطَطِهَا غُرْبَةً إِلَى غُرْبَةٍ، هِيَ قَرِيبَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا عِنْدَ مُنْخَدَرِ يَدِكَ، وَبَعِيدَةٌ حَتَّى لَكَائِهَا وَرَاءَ
مُنْخَدَرِ الشَّمْسِ.

فَيَا أَيُّهَا الْقَرِيبُ الْبَعِيدُ لَنْ نَقْفِدَكَ، فَأَنْتَ يَوْمًا ذَهَبْتَ تَهْدِيهِمْ وَتَبِي، وَهَذَا مِيرَاثُكَ.

وَأَنْتَ الْيَوْمَ ثُبَارُكَ وَثُشِيرُ، وَهَذَا هَمْسُكَ هَمْسُ ذِكْرَاكَ...».

بُرَحَاءَ بَلَوَايَ بِالْعَظَائِمِ مِنْ بُرَحَاءِ بَلَوَاهُ الَّتِي تَحْمِلُ فِي ثَنَائِهَا
الْعَزَاءَ، لِبَاطِفَةِ الْمُعَذِّبِينَ، وَالطَّمَأْنِينَةَ كُلَّ الطَّمَأْنِينَةِ لِلْمَفْجُوعِينَ
الْمَكْرُوبِينَ، مِنْ دَهْرِهِمْ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ...

عَلَى أَنِّي أَتَأَسَّى بِقَوْلَيْنِ لِشَاعِرَيْنِ سَبَقَا فِي أَدْبِنَا الزَّاهِرِ،
أَحَدُهُمَا أَبُو الْحَسَنِ الْجُزْجَانِيُّ يَوْمَ أَخَذَ عَلَيْهِ النَّاسُ غَزَلَتَهُ فَأَجَابَ
مُتَعَلِّيًا:

يَقُولُونَ لِي: فَيْكَ أَنْقِبَاضٌ وَإِنَّمَا رَأَوَا رَجُلًا عَنْ مَنْزِلِ الدَّلِّ أَحْجَمًا
إِلَى أَنْ رَفَعَ عَقِيرَتَهُ مُتَلَوِّمًا:
أَأَشْقَى بِهِ غَرْسًا وَأَجْنِيهِ ذِلَّةٌ إِذَا فَاتَّبَاعَ الْجَهْلُ قَدْ كَانَ أَخْزَمًا
ثُمَّ أَخَذْتُ نَفْسِي بِمَا أَخَذَ بِهِ صَاحِبُنَا أَبُو ذُوئَيْبٍ الْهَذَلِيُّ الَّذِي
رَاضَ مُيُولَ هَوَاهُ، وَكَبَّحَ جَمَاحَ صَبَوَاتِهِ فِي قَدَرٍ وَحَدٍّ:
وَالنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إِذَا رَغِبَتْهَا وَإِذَا تَرَدُّ إِلَى قَلِيلٍ تَفْتَنُ
وَكَانَ عُقْبَى كُلِّ أَوْلَيْكَ أَنِّي سَعِدْتُ سَعَادَةً بَوَذَا بِمَعْنَى لَقْبِهِ
فِي السَّنْسِكْرِيتِيَّةِ: الْمُسْتَنِيرِ.

أَيْسْتُ بِوُخْدَتِي وَرَضِيْتُ بِغُدِي فَطَابَ الْجَوُّ لِي وَدَنَا السُّرُورُ
وَأَخْكَمَنِي الزَّمَانُ، فَلَا أَبَالِي ... أَسَارَ الْجَيْشِ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

الفاتحة

هذه فُصولٌ من حياةٍ تَمَجَّدَتْ فيها أخلَامُ الإنسانيةِ، واتَّصَلَتْ
في الواقعِ بِقَدْرِ غَيْرِ مَحْدُودٍ مِنْ رَوْعَةِ الأخلَامِ...

فلمْ تَعُدْ تَحْمِلُ اسْمَهَا التَّقْلِيدِيَّ «الأخلَامُ النَّائِيَّةُ» الَّذِي أَعْطَاهُ أَفْذَمُ
نَاطِقِي الشُّعْرِ، مُنْذُ فَجَّرَ الإنسانيةَ، يَوْمَ غَدَتْ واقِعاً حَيّاً لِكَاثِرِينَ حَيٍّ...

*

وكانَ هذا الفَجْرُ قَدْ آنَبَقَ في الغابِ، واتَّصَلَ بِأُلُيَّهِ في المغاورِ
والكُهوْفِ، حيثُ أَطْلَّ الإنسانُ، لأوَّلِ مَرَّةٍ، إلى الأفقِ مُتَأَمِّلاً، وشَعَرَ
بوجودِهِ...

ولكنْ لمْ يَشْقُطْ من وجودِهِ إلَّا على أشباحِ ورُؤوسِ، ثُمَّ لمْ يَفْهَمْ...

*

اتَّصَلَتْ حَيَزةُ الإنسانِ بِكُنْهِ إنسانِيَّتِهِ في مراحلِ التَّشَوُّعِ العَقْلِيِّ، ومَدَّ
الخيالَ في مَعْنَى الحَيَزةِ...

ولم يزل يلجج، مَعْصُوبَ الْعَيْنَيْنِ، هَيْكَلِ الْوُجُودِ الْأَصَمِّ، حَيْثُ لَا
يَكُونُ لِلصَّوْتِ رَجْعٌ وَلَا صَدَى، إِلَّا حَفِيفاً خَافِئاً وَلَغْطاً يَنْبَعِثُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ،
يَبْدَأُ أَنَّهُ مُبْهَمٌ كَنَغْمَةِ الْوَتْرِ الْمَقْطُوعِ، أَوْ رَجْفَةِ الْحَنِينِ الشَّارِدَةِ الدَّائِيَةِ...

*

يَمُرُّ شَرِيطُ الْوُجُودِ سَرِيعاً كَاللُّمَحَةِ الْمُضْمَحِلَّةِ. وَمَا يَبْهَتْ مِنْهُ إِلَّا
رُؤْيَى يَمُدُّهَا الشَّرَابُ وَالْآلُ، كَتَلِكِ الرُّؤْيَى الَّتِي تَتَرَاقَصُ عَلَى الْقِمَمِ فِي عَيْنِ
الْفَجْرِ وَأَعْتِمَاضِ الْغُرُوبِ...

إِنَّ إِنْسَانَ الْيَوْمِ، حِينَ يَلْتَقِي، فِي بَعْضِ مُنْخَدَرَاتِ (*) الطَّرِيقِ، بِإِنْسَانِ
التَّارِيخِ الْبَعِيدِ، لَنْ يَجِدَ لَدَيْهِ، بَعْدَ رِحْلَةِ الزَّمَنِ الطَّوِيلَةِ بِهِ، مَا يُخْبِرُهُ عَنْهُ...

*

وَأخيراً ثَبَتَ فِي طَبْعِ الْإِنْسَانِ أَنَّ بَحْثَ الْوُجُودِ يَحُولُ دُونَ تَذَوُّقِهِ،
فَانْكَفَأَ عَلَيْهِ، وَنَسَجَ أَحْلَامَهُ عَنِ السَّعَادَةِ وَالْخَيْرِ وَالْجَمَالِ...

وَكثيراً مَا كَانَ يَمُرُّ بَيْنَ حَيْنٍ وَآخَرَ، فِي جَوْ الْإِنْسَانِ، كَوَاكِبُ
مُلْتَمِعَةٍ تُضِيءُ جَوَانِبَ هَذَا الْوُجُودِ، وَهِيَ تُجَنِّحُ أَحْيَاناً وَتَذْهَبُ صُبْعاً أَحْيَاناً،
لِتَنْقُلَ الْبَشَرَ مِنَ الْحَيْرَةِ إِلَى التَّأَمُّلِ، مَأْخُودِينَ بِنَشْوَةِ خَفِيفَةٍ تَظَلُّ الذِّكْرَى تُشْيِعُهَا
أَبَداً...

وإلى هذه الذِّكْرَى، الَّتِي تَحْمِلُ مَعْنَى أَرْلِيَّاءَ، قَصَدْنَا فِي عَرْضِ ذِكْرَى

(*) كِنَايَةٌ عَنِ الْقَبْرِ.

النُّبُوَّةُ التَّارِكَةُ أَلْوَانَهَا الْمِثَالِيَّةَ تُشِيرُ إِلَى الْخُلُودِ، وَتَنْسَدِلُ بِشَفَقِهَا الْمُشِيعِ عَلَى
الْبَقَاءِ...

مُقدِّمة

لم أقصِد في هذه المَشْهَدِيَّاتِ إلى التاريخ، إلا فيما يَدْخُلُ في حَدِّ تَصْحيحِ الروايةِ أوِ الحَبْرِ، وأما ما وَرَاءَ ذَلِكَ فَقَدْ أَوْسَعْتُ تَحْقِيقَهُ وَدَرَسَهُ فِي تَارِيخِ الْحُسَيْنِ: نقد وتحليل الَّذِي خَصَّصْتُهُ بِالْوَجْهِ التَّارِيخِيِّ الْمَحْضِ، وما يَدْخُلُهُ مِنْ قُرْبٍ أَوْ بُعْدٍ، لَكِنِّي يَتَسَنَّى لِلْمُطَّلِعِ أَنْ يَتَّصِلَ بِالشَّخْصِيَّةِ، الَّتِي يَدُورُ الْبَحْثُ عَلَيْهَا، اتِّصَالاً تَاماً يُحَوِّلُهُ أَنْ يُصْدِرَ حُكْماً، بِسَلْبٍ أَوْ إِيجَابٍ.

وحاولنا، هناك، أَنْ نَتَفَهَّمَ حَرَكَاتِ الثَّبُوتِ وَالنَّبْيِ، بِالإِضَافَةِ إِلَى عَوَامِلِ الْعَصْرِ الَّتِي لَا بُدَّ أَنْ تُقَيَّدَ مَجَارِي التَّارِيخِ، إِنَّ لِلْجَمَاعَةِ أَوْ لِلْأَفْرَادِ.

وهذه العواملُ، الَّتِي هِيَ مَصْدَرُ أَلْوَانِ الزَّمَنِ، نُسَمِّيها تَارِيخاً حِينَمَا تَقَعُ فِي الْمَكَانِ، وَتُحَرِّكُ الْجُمُوعَ عَلَى مَا آسَتْتَتْ مِنْ أَتْجَاهَاتٍ وَحَدَّدَتْ مِنْ مَذَاهِبٍ. وبدونها لَا نَفْهَمُ مِنَ التَّارِيخِ إِلَّا أَنَّهُ تَكَرَّرَ لِحَرَكَاتٍ مُبْهَمَةٍ لَا تُعْبَرُ لَنَا عَنْ شَيْءٍ يَدْخُلُ فِي حَدِّ فَايِدَتِنَا.

وَيَكُونُ الْغَرَضُ مِنَ التَّارِيخِ قَدْ ضَاعَ، حِينَ لَا يَتَسَنَّى لَنَا أَنْ نَصِلَ الْجَانِبَ الْوَاقِعِي مِنَ الْحَيَاةِ الَّتِي نَعِيشُهَا بِالْجَانِبِ التَّارِيخِيِّ، فَإِنَّ الْحَيَاةَ كَلِمَةٌ مُؤَلَّفَةٌ مِنَ الْوَاقِعِ وَالتَّارِيخِ جَمِيعاً، وَإِنَّ الْجُزْءَ الْأَهَمَّ فِينَا، جَمَاعَاتُ كُنَّا أَوْ أَفْرَاداً، تَارِيخِيٍّ مَحْضٍ. وما دُمْنَا لَمْ نَسْتَطِيعْ أَنْ نَصِلَ مَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ الْوَاقِعِيَّةِ بِمَا آسَتْوَى فِينَا مِنَ التَّارِيخِيَّةِ،

فلنْ تَكُونْ لَنَا فَايِدَةٌ مِنَ التَّارِيخِ.

يَبْدَأُنَا نَشْعُرُ بِالْحَاجَةِ إِلَى التَّارِيخِ. حَتَّى لَيَخَيَّلُ إِلَيْنَا أَنَّ لَدَى الْإِنْسَانِ، طِفْلاً وَشَيْخاً، حَاسَةً سَادِسَةً تَارِيخِيَّةً تُلْخِصُ فِيهِ بِحَاجَتِهَا، وَتُشَيِّعُ فِي دَخِيلَتِهِ أَطْمِئْنَاناً مَشْفُوعاً بِتَلَبُّسٍ لِلْقِصَّةِ، كَأَنَّمَا هُوَ يَسْمَعُ حِكَايَةَ نَفْسِهِ، أَوْ كَأَنَّمَا آتَنَقَّلُ، عَبْرَ الزَّمَنِ، إِلَى حَيْثُ يَكُونُ الزَّمَانُ الْمُؤَهَّمُ، وَتَقُومُ وَقَائِعُ الْمَاضِي.

وَهَذَا الْمِثْلُ فِي الْإِنْسَانِ يَرْجِعُ، عِنْدِي، إِلَى مَا آسْتَوَى فِي مِزَاجِ التَّقْسِ وَوَحَدَتِهَا مِنَ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ، فَإِذَا صَادَفَ مَا يَبْعَثُهُ تَحْرُكٌ بِقُوَّتِهِ، وَأَخْضَعَ الْمَشَاعِرَ لِمَدِّهِ فِي نَوْعٍ مِنَ الْهَيَامِ وَالْحَنِينِ، وَفِي نَوْعٍ مِنَ الْإِحْسَاسِ الْعَمِيقِ بِأَنَّهُ شَيْءٌ يَتَّصِلُ بِهِ آتِصَالاً ذَاتِيّاً، كَأَنَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مُنْذُ بَعِيدٍ.

وَهَذَا يُبَيِّحُ لَنَا أَنْ نَسْتَنْتِجَ أَنَّ الْإِنْسَانَ الْفِطْرِيَّ - أَوْ بِعِبَارَةٍ أَشْمَلٍ، الْإِنْسَانَ الَّذِي لَمْ يُكُونْ لَهُ تَارِيخاً - يَفْقِدُ هَذَا الْجُزْءَ، وَلِذَلِكَ هُوَ لَا يَتَحَسَّسُ بِهَذَا الْمِثْلِ أَوْ التَّرْوَعِ.

وَعَلَيْهِ فَفَقَّرُ الْقِصَّةَ، أَوْ عَدَمُهَا، فِي أَدَبِ أُمَّةٍ مَا، يَرْجِعُ إِلَى ضَعْفِ هَذَا التَّرْوَعِ، إِلَى عَدَمِ تَوَافِي الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِيهَا وَآسْتَوَائِهِ. وَهَذَا ظَاهِرٌ لَدَى عَرَبِ الْجَاهِلِيَّةِ الَّذِينَ لَمْ تَكُنِ الْقِصَّةُ تَسْتَهْوِيهِمْ آسْتِهْوَاءً يَجِيءُ فِي دَرَجَةِ شَهَوَاتِ النَّفْسِ أَوْ الْجَسَدِ الْأُخْرَى؛ بَيْنَمَا نَجِدُ الْقِصَّةَ بَدَأَتْ تَبْرُزُ فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الَّذِينَ آسْتَقَرُّوا وَكَوْنُوا لَهُمْ تَارِيخاً نَوْعاً مَا، كَالْحَيَرِيِّينَ فِي عَهْدِ الْمَنَازِرَةِ، وَالشَّامِيِّينَ فِي عَهْدِ الْغَسَاسِيَّةِ، فَتَوَلَّدَ لَدَيْهِمُ الْمِثْلُ إِلَى قَصَصِ التَّارِيخِ. وَلَعَلَّ فِي الظَّاهِرَةِ الْآتِيَةِ مَا يَقْطَعُ كُلَّ رَيْبٍ فِي صِحَّةِ هَذَا الرَّأْيِ، وَهِيَ أَنَّ الْقِصَّةَ الْمُرَكَّزَةَ لَا تَكُونُ إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ لِلْأُمَّةِ تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ.

فَالْعَرَبُ عَادُوا، بَعْدَ التَّارِيخِ، إِلَى تَذَوُّقِ الْقِصَّةِ، لِأَنَّهُ تَوَافَرَتْ فِيهِمْ لَذَّةُ

الاستماع التي يبعثها الجزء التاريخي في النفس، وقد قويت هذه اللذة إراكاً مع التاريخ، وتقوى كذلك في كل أمة وقبيل.

ونحن نلتمس، في عصرنا الحالي، ميلاً أشد إلى القصة، حتى كادت تتميز بأسم الأدب وتشتبه به عما سواها، ولقد قال بعض التأقدين: إن الأدب هو القصة في القرن العشرين.

وأما الشعور بكلية الحياة، والشعور بأن التاريخ والقصة يعبران عن معان مشتركة، هما اللذان يعلل بهما، عادة، الميّل إلى القصة، فقد تولد، بلا ريب، بعد التاريخ. فإن هذين الشعورين نتيجة تجربات ومقارنات قام الإنسان بها بين نفسه وبين الماضين، وأدرك هذه الصلة وتحقق من كلية الحياة بعدها. فتغليل الميّل إلى التاريخ والقصة، بهذا الشعور التجريدي الكلي، تغليل بالسبب المنفعل دون السبب الفاعل الحقيقي.

وهذا الرأي، الذي نعطيه من بواعث القصة ولذتها وتعلق الجمهور بها، حتى وصلت إلى درجة أن تصبغ الأدب وتسيطر عليه بصبغتها، حقيقي جداً... وأنا أشعر بحاجة إلى الزيادة من إيضاحه، لأنه يصحح جملة الأوهام، وطائفة الأخطاء الشائعة في الموضوع.

لا ريب في أن الإنسان، الذي أسلمته التاريخ إلى العصور، يمتاز بحاسة تاريخية خاصة، تفصله عن الإنسان الذي أسلمته الطبيعة الأولى، والذي آتبع من يد الله. وهذه الحاسة تزداد عملاً في الإنسان بآزدياد عمل التاريخ فيه، وتنبهه العصور في أعماقه. والميّل إلى التاريخ أو القصة وليد وجود الحاسة المذكورة وتوافرها، وهو - أي الميّل - يتفاوت على مقدار تفاوت الجزء التاريخي في الكائن البشري. ومن الخطأ الظن بأن ميّل الإنسان إلى القصة فطري أو غوي، بل هو نتيجة تلبد أجيال من التاريخ في جوهره النفسي ومدّه بإيحاها. وهذه الحاسة

التاريخية الحية تَتَطَلَّبُ غِذاءَهَا، وتَكُونُ في بَعْضِ مِنَ الشُّعُوبِ نَهْمَةً، وَنَهْمَةً إِلَى حَدٍّ كَبِيرٍ، وَلَكِنَّ هَذَا النَّهْمَ لَيْسَ مَثْرُوكاً لِلْعَقْلِ وَالطَّبِيعَةِ الْعَرَقِيَّةِ، بَلْ هُوَ خَاضِعٌ لِسُنَّةِ نُسُوبِيَّةٍ خَالِصَةٍ، مَا دَامَتِ الْأُمَّةُ قَدِ اتَّصَلَتْ بِالتَّارِيخِ وَاتَّخَذَتْ خُطُوبَاتِهَا فِيهِ.

وهذا الرُّأْيُ يَنْتَهِي بنا إِلَى تَفْسِيرٍ: لِمَاذَا كَانَ أَدَبُ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنَ الْقِصَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهِمْ؟

ولماذا أَثَّرُوا بِالْقِصَّةِ بَعْدَ التَّارِيخِ؟

ولماذا كَانَ أَدَبُ الْعَرَبِ كَأَدَبِ الْيُونَانِ فَقِيراً مِنْهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، ثُمَّ أَثَّرَ بِهَا بَعْدَ التَّارِيخِ، حَتَّى بَلَغَتْ قِمَّتَهَا فِي أَلْفِ لَيْلَةٍ؟

ولماذا بَلَغَ نَهْمُ الْحَاسَّةِ التَّارِيخِيَّةِ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِي الْجُمْهُورِ الْعَرَبِيِّ إِلَى دَرَجَةٍ لَمْ يَنْبُتْ أَمَامَهَا نَحْوُ مِنَ الْأَدَبِ وَالْفَنِّ، كَمَا تَشْهَدُ بِهَذَا قِصَّةُ حُبِّ عَلِيِّ بْنِ آدَمَ، وَابْتِخَالَهُ لِلجَاحِظِ، وَرِسَالَةُ الْغُفْرَانِ لِلْمَعْرِيِّ، وَالتَّوَابِعِ وَالزَّوَابِعِ لِأَبْنِ شَهِيدٍ، وَحَيَّ أَبْنُ يَقْظَانَ لِأَبْنِ طُقَيْلٍ، وَالْمَقَامَاتُ لِلْحَرِيرِيِّ، وَأَحَادِيثُ أَبْنِ دُرَيْدٍ الْأَرْبَعُونَ، وَمَصَارِغُ الْعُشَاقِ لِأَبْنِ السَّرَّاجِ، وَأَعْطَتْ عُصُورُ النَّهْمِ قِصَصَ عَنَتَرَةَ، وَأَبْنِ زَيْدٍ الْهَلَالِيِّ، وَالْمَلِكِ سَيْفٍ؟

ولماذا زَادَ الْمَيْلُ إِلَى الْقِصَّةِ، فِي الْأَدَبِ الْأُورُوبِيِّ الْحَدِيثِ، عَنْهُ فِي الْقُرُونِ الْوُسْطَى؟

وَنَحْنُ إِنَّمَا نَخْصُرُ نَظَرَنَا فِي الْأَدَبِ، دُونَ أَنْ نَلْتَمِسَ أَنْحَاءَ أُخْرَى، لِأَنَّ الْأَدَبَ أَكْثَرَ اسْتِجَابَةً إِلَى رَغَبَاتِ الْجُمْهُورِ وَتَطَلُّعِ الْحَيْطِ، وَهُوَ، إِلَى ذَلِكَ، يَتَلَوَّنُ بِمُخْتَلَفِ الْأَلْوَانِ، وَيَحْفَظُ بَتَلَوْنِهِ تَرَاوُخَ الْعَوَامِلِ الَّتِي أَثَّرَتْ فِيهِ.

فَعَدَمُ وُجُودِ أَدَبِ الْقِصَّةِ، فِي أَدَبِ الْعَرَبِ الْجَاهِلِيِّ، مَعْنَاهُ عَدَمُ مَيْلِ الْجُمْهُورِ إِلَيْهَا، أَوْ ضَعْفُ هَذَا الْمَيْلِ عِنْدَهُ، التَّابِعُ لَضَعْفِ الْجُزْءِ التَّارِيخِيِّ فِي مِزَاجِ النَّفْسِ

وَوَحْدَتِهَا.

فَمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِذَا مُؤَرِّخُو الْآدَابِ، مِنْ إِسْنَادِ خَصَائِصٍ وَاسْتِعْدَادَاتٍ مِزَاجِيَّةٍ لِبَعْضِ الشُّعُوبِ دُونَ بَعْضٍ أَقْتَضَتْ ذَلِكَ، خَطَأً مَحْضٌ؛ نَاهِيكَ أَنَّ تَعْلِيلَ غَارِقٍ بـ «أَوْهَامِ الْكَهْفِ وَالسُّوقِ»^(١) عَلَى مَا يُسَمَّى ذَلِكَ يَكُونُ فِي مَنْطِقِهِ الْجَدِيدِ، كَمَا أَنَّهُ تَعْلِيلٌ يُعْطِي فِي كُلِّ مِثَالٍ^(٢) رَأْيًا، وَلَا يَقُومُ فِي قَانُونٍ يُبَيِّنُ الْعِلَاقَةَ الْمُوَحَّدَةَ بَيْنَ حَادِثِ السَّبَبِ وَحَادِثِ الْأَثَرِ.

وَالْقِصَّةُ، عَلَى أَيِّ حَالٍ وَبِإِطْلَاقٍ، لَا يُمَكِّنُ أَنْ تَنْشَأَ إِلَّا فِي أُمَّةٍ اجْتَمَعَ لَهَا تَارِيخٌ مُنَوَّعٌ، وَمَرَّ بِهَا زَمَنٌ كَانَ كَفِيلًا بِتَرْوِيدِ الْأَفْرَادِ بِحَاسَةِ تَارِيخِيَّةٍ تَجْعَلُهُمْ يَتَذَوَّقُونَهَا، وَيَمِيلُونَ إِلَيْهَا.

وَهَذَا الرَّأْيُ الَّذِي تُقَرَّرُهُ يَكْشِفُ، عِداَ الْخَطَأِ الْمَذْكُورِ، عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الْأَوْهَامِ التَّزْوِيَّةِ الَّتِي جَنَحَتْ إِلَى الْقِصَّةِ، كَأَسْلُوبِ الْأَطْفَالِ بِتَعْمِيمِ خَاطِيءٍ. بَلْ لَا بُدَّ لِسَلَامَةِ التَّطْبِيقِ مِنْ مُرَاعَاةِ مُرُورِ الزَّمَنِ، وَقِيَمَةِ هَذَا الزَّمَنِ فِي تَوْفِيرِ الْحَاسَةِ التَّارِيخِيَّةِ فِي الْوَسْطِ الْمَشْتَرَكِ لِلطُّفْلِ وَتَفَاوُتِهَا. وَقَدْ يَنْتَهِي بِنَا هَذَا الرَّأْيِ إِلَى إِخْضَاعِ الْأَسْلُوبِ التَّرْبَوِيِّ لِلْقِصَّةِ لِمَنْ هُمْ فَوْقَ الطُّفُولَةِ، إِذَا كَانَتِ الْحَاسَةُ فِيهِمْ أَكْثَرَ تَحْكَمًا وَأَقْتِيَادًا.

كَمَا يَدُلُّنَا عَلَى السَّبَبِ الصَّحِيحِ لِإِخْفَاقِ أَدَبِ الْقِصَّةِ لَدَى بَعْضِ الشُّعُوبِ، وَالسَّبَبِ فِي عَدِّهَا نَسِيجًا أَعْلَى عِنْدَ بَعْضِ الشُّعُوبِ الْأُخْرَى، وَأَيْضًا يَدُلُّنَا عَلَى أَنَّ

(١) يَعْني بِالْكَهْفِ شَخْصِيَّةَ الْفَرْدِ الَّتِي تُكَوِّنُهَا الطَّبِيعَةُ وَالْبَيْئَةُ وَالتَّغْذِيَةُ وَالتَّرْبِيَّةُ. وَلَمَّا كَانَتْ تِلْكَ الْعَوَامِلُ مُخْتَلِفَةً بِاخْتِلَافِ الْأَفْرَادِ كَانَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ تَرْاعُتُهُ الْحَاسَةُ وَأَخْطَاؤُهُ الْحَاسَةُ. وَيَعْني بِالسُّوقِ عَقْلِيَّةَ الْوَسْطِ، وَلَهَا أَوْهَامٌ تَنْخَلُ فِي نَفْسِهِمُ الْأَفْرَادُ وَتَعْقِلُهُمْ.

(٢) مِنْ مِثَالٍ قَعْرِ الْأَدَبِ الْعَرَبِيِّ بِعَدَمِ اسْتِعْدَادِ الْعَرَبِ الطَّبِيعِيِّ لَهَا، وَتَغْلِيلِ الْقِصَّةِ عِنْدَ بَعْضِ الْأَدْبَاءِ الْعَرَبِ فِي الْعَهْدِ الْعَبَّاسِيِّ بِالتَّأَثُّرِ الْأَدَبِيِّ وَالْذَمِّيِّ، وَتَغْلِيلِ ظُهُورِ أَلْفِ لَيْلَةٍ بِالمِزَاجِ الْأَدَبِيِّ الْحَلِيقِ، وَتَغْلِيلِ الْقُوَّةِ وَالضَّغَبِ فِي الْقِصَّةِ عِنْدَ الْأُمَمِ الْمُسْتَعْدَةِ لَهَا، فِي مَزْجِهِمْ، بِتَعَالِيلَ شَتَّى لَا تَسْتَعِذُّ إِلَى تَغْلِيلِ يَقُومُ عَلَى مُؤَرِّرٍ وَاجِدٍ.

العناصر، التي تَلَزَمُ لِتَذَوُّقِ القِصَّةِ، تَتَفَارَقُ بِتَفَاوُتِ الحَاسَّةِ المَذْكُورَةِ. والقِصَّةُ، في نظري، لا فَنٌّ لها ولا عناصرَ قَاعِدِيَّةٍ إِلَّا نِسْبِيَّةٌ فَقَطْ، فهي مَحْدُودَةٌ بِالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْكَائِنِ. والمُحَاكَاةُ أَوْ الِاخْتِذَاءُ وَهَمٌّ وَبُعْدٌ عَنْ فَهْمٍ مَا ثَبَتَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ الْمُتَحَوِّلِ، الَّذِي يَمَسُّحُ الْفَنُّ بِهَاوِيلِهِ، وَيُمَدُّ الْأَدَبُ بِالْحَيَاةِ وَالرُّوحِ.

فَالدَّاعِيَةُ الْخَفِيَّةُ فِينَا إِلَى التَّارِيخِ وَالْقَصَصِ الَّتِي نُحِسُّ بِهَا ظَامِئَةً عَلَى الدَّوَامِ، مُتَطَلِّعَةً عَلَى الدَّوَامِ، هِيَ وَلِيدَةٌ مَا اسْتَحَالَ فِي جَوْهَرِ النَّفْسِ مِنْ أَشْيَاءِ الْمَاضِي الْمَتَلَبِّدِ، وَتَمَدَّدَ فِي بَنَائِهِ كَهَلَامِيَّاتٍ عَامِلَةٍ حَيَّةٍ. وَإِذَا ثَبَتَ أَنَّ فِينَا جَانِبًا تَارِيخِيًّا، فَلَا مُتَغَلَّبَ لَنَا عَنْ أَنْ نَفْقَهُمُ وَقَائِعَ الْمَاضِي كِتَابِيًّا، وَأَنْ نَتَّصِلَ بِالشَّاعِرِ الَّتِي سَيَطَّرَتْ فِيهِ كَعَرُضٍ وَقَصَصٍ، وَبِذَلِكَ يَظَلُّ التَّارِيخُ مَادَّةً حَيَّةً شَاعِرَةً.

وَأَشْتَوَاءُ الْحَيَاةِ فِي الْحَاضِرِ إِنَّمَا يَقُومُ عَلَى دَوَائِعِ الْمَاضِي وَجَوَازِبِ الْمُسْتَقْبَلِ، فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى التَّارِيخِ التَّعْلِيلِيِّ مِنْ حَيْثُ نَتَّصِلُ بِالمُؤَثَّرَاتِ الْحَقِيقِيَّةِ، وَدَاعِيَّةٍ إِلَى التَّارِيخِ الْوَصْفِيِّ، مِنْ حَيْثُ نَرَى الصُّورَ الْمُخْتَلِفَةَ الَّتِي طَفَّتْ عَلَى سَطْحِ الْحَيَاةِ الْمُحْتَجِجَةِ.

وَنَحْنُ، هُنَا، نُحَاوِلُ عَرُوضَ مَا اتَّصَلَ بِالنُّبُوَّةِ بِشَيْءٍ مِنَ الْقَصَصِ الْوَاقِعِيِّ، الَّذِي لَا بُدَّ أَنْ يُنَبِّهَ فِينَا كَامِنَ الْحِسِّ بِمَا يَبْثُ مِنَ الْإِيحَاءِ الصَّامِتِ، وَيُهِيمُ بِجَوْهَرِ النَّفْسِ لِمَا سَمَّاهُ تُولَسْتُوِي «عَدْوَى الشُّعُورِ»، وَهُوَ ذُو أَثَرٍ بَعِيدٍ، فَعَالٍ فِي تَكْوِينِ الشَّخْصِيَّةِ الْمُفْتَازَةِ.

وَقِصَّةُ عَصْرِ النُّبُوَّةِ لَا تَدْعُنَا نَخْرُجُ بِتَأْمُلٍ سَلْبِيِّ تَخْتَلِطُ فِيهِ الدَّهْشَةُ بِالْإِعْجَابِ فَقَطْ، بَلْ تَزُوْدُنَا بِمَا يَدْعُونَهُ «الِاشْتِرَاكُ فِي الْوَعْيِ» أَنِّي، بِتَأْمُلٍ إِيْجَابِيِّ، يَجْعَلُ فِينَا أَشْتِرَاكًا فِي الصِّفَةِ الشُّعُورِيَّةِ.

وَكَذَلِكَ تَسْتَحِيلُ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ اسْتِحَالَةً أُخْرَى بِمَا أُسَمِّيهِ «عَدْوَى التَّارِيخِ». فَعَلَيْنَا لِذَلِكَ أَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَسْتَنْمِرُ التَّارِيخَ مِثْلَ قُوَّةٍ تَنْصَبُ فِي شَرَابِينَا وَغُرُوقِنَا، وَكَيْفَ نُحَوِّلُ تَيَازَهُ الْمُبَغْتَرِ فِي اللَّجِّ الْبَاهِتِ لِيَرِيدَ حَيَاتِنَا حَرَكَةً، وَحَاضِرِنَا

آندفاعاً ومضاء.

وتابع النبوة شخصية إيمان ومبادئ، وشخصية دعة وسلام. فهو يُرَبِّنا
في كُلِّ جانبٍ من جوانب الحياة ألواناً وألواناً.

فَيَكُونُ جُزْءٌ من تاريخه عقيدة، والجُزْءُ الآخرُ جهاداً، فَيُكْتَبُ الخلودُ له،
وَيُكْتَبُ عَلَيْنَا أَنْ نَأْتَمَّ بِهِ لِنَجْزِبَ إيماننا في الجهاد، وجهادنا في الإيمان.

وَأَيُّهُ شَخْصِيَّةٌ هِيَ أَحْفَلُ مِنْ شَخْصِيَّتِنَا الَّتِي نُدِيرُ الْحَدِيثَ عَلَيْهَا، بِمَعْنَوِيَّاتِهَا
وَفَعَالِيَّاتِهَا، وَأَيُّهَا أَحْظَى بِأَثَارِهَا، فَلَمْ يَكُنْ لَنَا مَعْدِلٌ عَنْ أَنْ نَتَوَخَّاهَا وَنَسْتَفِيدَ مِنْهَا
فِي الذِّكْرِ، كَمَا اسْتَفَدْنَا مِنْهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَلَسْتُ أَزْعُمُ لِنَفْسِي شَيْئاً مِنَ الْفَضْلِ، وَإِنْ جَهِدْتُ فِي تَفْهَمِ الْمُسْلِمِ الْمُحْمَدِيِّ
زَمَناً غَيْرَ يَسِيرٍ، فَإِنِّي كَلَّمَا أَوْغَلْتُ فِيهَا رَأَيْتُنِي أَخْوَجُ مَا أَكُونُ إِلَى آيْتِدَاءِ دَرْسِهَا مَرَّةً
أُخْرَى بِمَعْنَى جَدِيدٍ. وَكَذَلِكَ سَتَظَلُّ يَتَّبِعُونَ يَرْدُهُ الصَّادِي، وَهُوَ يَجِدُ فِي كُلِّ رَشْفَةٍ
مَعْنَى وَلَذَّةً وَنَكْهَةً، ثُمَّ لَا يَحُورُ مَغْنَاهَا وَلَذَّتُهَا وَنَكْهَتُهَا فِي مَذْهَبِ إِحْسَاسِهِ
وَشُعُورِهِ.

يوم المدينة

كُنْتُ تَرَى النَّاسَ فِي الْمَدِينَةِ يَرُوحُونَ أَفْوَاجاً وَيَغْدُونَ أَفْوَاجاً، وَالْغِبْطَةُ تَمْلَأُ
جَوَانِحَهُمْ بِهَذَا الْحَدَثِ الْحَبِيدِ. وَهُمْ، وَإِنْ لَمْ يَنْصُبُوا «قَوْسَ النَّصْرِ» حَقّاً، فَقَدْ كَانَ
مَعْنَاهُ فِي قُلُوبِهِمِ الطَّافِحَةُ بِكِبْرِيَاءِ الْعَقِيدَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَعْنَى، وَفِي عَزَائِمِهِمِ الطَّافِحَةُ
بِكِبْرِيَاءِ الذَّائِبَةِ وَكِبْرِيَاءِ الْمَجْدِ. وَكَانَ النَّاسُ يَخْتَلِطُونَ وَيَتَحَلَّقُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ،
وَعَلَى أَفْوَاهِهِمْ كَلِمَاتٌ ضَاحِكَةٌ بِسِرِّ الْمَرْحِ الْمُنْشُورِ، فَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ يَوْمَ الظَّفَرِ
يَتَذَرُ^(١).

عَدَّتِ الْمَدِينَةُ، مُنْذُ هَذَا الْيَوْمِ، بَلَدَ الدَّوْلَةِ، بَعْدَ أَنْ لَبِثَتْ زَمَناً وَهِيَ بَلَدُ
الْعَقِيدَةِ، وَفَازَتْ بِتَجْرِبَتِهَا الرَّائِعَةِ، وَخَطَّتْ أَنْهَى سَطْرِ فِي مَجْدِ الْعَرَبِ وَمَجْدِ
الْإِنْسَانِيَّةِ جَمِيعاً. فَلَمْ يَكُنْ هَذَا النَّصْرُ تَسْجِلاً لِهَزِيمَةِ فَرِيقٍ وَظَفَرٍ آخَرَ، بَلْ كَانَ
تَسْجِلاً لَظْفَرِ الْإِنْسَانِيَّةِ الْجَدِيدَةِ الْمُحَرَّرَةِ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ الرَّجْعِيَّةِ الْعَتِيقَةِ، الْإِنْسَانِيَّةِ
الْأَغْلَالِ وَالْقُيُودِ، وَالْإِنْسَانِيَّةِ الْاسْتِعْبَادِ الْوَحْشِيِّ الْمُنْكَرِ.

كَانَ هَذَا الظَّفَرُ، فِي حَقِيقَتِهِ، ظَفَرُ الْفِكْرَةِ الْجَدِيدَةِ وَالْعَقْلِيَّةِ الْمُتَطَلِّعَةِ، وَظَفَرُ
الْمِثَالِيَّةِ وَالْأَخْلَاقِ عَلَى الْمَادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ وَالْإِبَاحِيَّةِ الْجَامِحَةِ، وَكَانَ يَوْمَ تَحْرِيرِ الْإِنْسَانِ

(١) الْمَغْرَكَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ الْكُبْرَى ضِدَّ الْمُشْرِكِينَ.

من شتى العبوديات الدينية والاجتماعية، ويوم تجديد الإنسان وإنشائه آخر.
 غدت المدينة، في أبنائها وأمجادها الحفيلة، بلداً جديداً، فلم تعد «يُرب
 القديمة» التي كانت، كغيرها، وتُكرأ من أوكار الفكر البالي والعقلية الجامدة، التي لا
 لون لها سوى ذلك اللون القاتم، وكان يشيع في جزيرة العرب، ولم تعد ألبسة، بعد
 اليوم، موزناً للنظام الاجتماعي المتأخر الموروث من شرائع الغاب، وفيه الطبيعة
 البربرية، وكان يشيع بشتى مظاهره في كل العالم القديم. فالشعب ضحية
 الطبقات، وهؤلاء جميعاً ضحايا فردٍ مُستبدٍ يلاشي كيان الأمة في كيانهِ، ويحول
 تيار النشاط في الشعب إلى ما يُغذي أطماعه ويُشبع ميوله ورغباته.

غدت المدينة، منذ هذا اليوم، مركز الفكر التاهض المشيع، والنظام
 الإصلاحي في كل حفل من حقول الاجتماع، ومركز الدولة الحية الجديدة التي
 بدأت تنزع الأغلال السابغة عن كل إنسان في كل مكان. وكذلك امتدت
 وأنطلقت، كما تمتد وينطلق خيط النور سريعاً سريعاً، حتى انتظمت مُعظم العالم
 القديم.

لبت المدينة أياً ما مديدة وهي غارقة بتهجاتها، مُنتشبة بما أحرزت من نجاح،
 فقد حملت شعلة الإصلاح، وغدت رسول المدائن والأمصار، وهي لن تتنازل عن
 رسالتها إلى العالم مهما كلفها تبليغ هذه الرسالة من تضحيات دامية وثبات
 حمراء.

إختصت المدينة عقيدة خالدة ونظاماً إصلاحياً خالداً، ثم ألفت جزأً
 خلافاً، فدولة مُحَرَّرة. وكان من حظ بلاد العرب أنها شهدت، لأول مرة، تجربة
 نظام مُحمَّد الاجتماعي، وقد نجحت في حدودها ونجحت خارج حدودها، وفيها
 القدرة على النجاح دائماً.

كَانَ فِي أَقْوَامِ النَّاسِ حَدِيثٌ وَاجِدٌ كُلُّهُ إِعْجَابٌ، مِنْذُ تَسَنَّى لِفَقَةٍ قَلِيلَةٍ
مُؤْمِنَةٍ أَنْ تُحْطَمَ حَمَلَةٌ كَامِلَةٌ جَهَّزَتْهَا مَكَّةُ وَتَمَزَّقَتْ شِعَاعاً. وَخُطُورُهُ النَّصِيرِ تَرْجِعُ إِلَى
أَنَّ الْمَعْرَكَةَ لَمْ تَكُنْ مِنْ تَوَعُّدِ الْمَعَارِكِ الَّتِي تَحْدُثُ كَثِيراً وَتَقَعُ كَثِيراً، وَأَمَّا كَانَتْ
صِرَاعاً بَيْنَ مَبْدَأَيْنِ وَعَقْلِيَّتَيْنِ وَحَيَاتَيْنِ، وَقَدْ آتَتْهُيْ بِغَلَبَةِ الْأَصْلَحِ مِنْهُمَا فِي كُلِّ
أَوَّلِكَ جَمِيعاً، فَشَاعَ فِي النَّاسِ كَافَتِهِمْ نَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ الْعَقْلِيِّ كَالَّذِي يُحْسِنُ بِهِ
رَجُلُ الْفِكْرِ، وَهُوَ يَجْهَدُ لِيُجَاهِدَ بِسَبِيلِ الْمَعْرِفَةِ، وَنَوْعٌ مِنَ الْفَرَحِ النَّفْسِيِّ كَالَّذِي
يَسْتَحِفُّ الْمَكَافِخَ الظَّافِرَ وَالْأَمَلَ الْوَاجِدَ.

وَكَانَ يَمُزُّ بَيْنَ جُمُوعِ النَّاسِ رَجُلَانِ يَهُودِيَّانِ مُطْرِقَيْنِ فِي تَأَمُّلٍ، فِي أَكْثَرِ
تَطَوُّفِهِمَا، وَأَحْيَاناً يَأْخُذَانِ بِأَطْرَافِ الْحَدِيثِ الْخَفِيفِ الْهَامِسِ، وَهَمَا: مُخَيَّرِقُ^(٢)
وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ.

قَالَ مُخَيَّرِقُ: لَشَدَّ مَا يُدْهِشُنِي وَيَرُوعُنِي هَذَا الظَّفَرُ الَّذِي أَحْزَرَهُ مُحَمَّدٌ
وَجَزَبُهُ، فَقَدْ كَانَ ظَفَراً سَرِيعاً وَنَاجِحاً، وَلَا يَنْشَبُ أَنْ يَنْخَطِىَ حُدُودَهُ الضَّيِّقَةَ،
وَيَشْمَلُ الْجَزِيرَةَ كُلَّهَا بِنِظَامِهِ الْإِصْلَاحِيِّ الْقَوِيمِ، وَتَعَالِيهِ الْوَاعِيَةِ الْأَخَاذَةِ، حَتَّى لَقَدْ
بَلَغَ مِنْ مَدَى فَاعِلِيَّتِهَا أَنَّهَا تُحَقِّقُ لِنَفْسِهَا الْإِنْتِشَارَ السَّرِيعَ دُونَ مَا دِعَايَةٍ وَتَبْشِيرِ.

قَالَ آبْنُ سَلَامٍ: لَكَأَنَّكَ - يَا مُخَيَّرِقُ - تُحْسِنُ بِمَا فِي نَفْسِي وَتَنْطَلِقُ عَنْ
لِسَانِي، فَإِنِّي دَهِشْتُ كَدَهْشَتِكَ وَمَزُوعٌ كَارْتِيَاعِكَ، وَمَا أَحْسَبُ مُحَمَّدًا إِلَّا مُفْضِياً
إِلَى مُنْتَهَى عَظِيمِ جَلَالٍ، وَكُلُّ مَا يَتَدَوَّلِي يُبْذَرُنِي بِهَذَا الْمُنْتَهَى، إِنَّ لَمْ يَكُنْ أَقْلٌ مَا
سَيَبْلُغُ إِلَيْهِ.

(٢) هُوَ مُخَيَّرِقُ النَّصْرِيُّ الْإِسْرَائِيلِيُّ. قِيلَ مِنْ بَنِي قَيْسِقَاعَ، وَقِيلَ مِنْ بَنِي الْفَيْطُولِ. وَذَكَرَ الْوَائِدِيُّ وَالتَّبْلَادِيُّ
أَنَّهُ كَانَ عَالِماً وَأَسْلَمَ. قَالَ لِلْيَهُودِ يَوْمَ أُحُدٍ: أَلَا تَنْظُرُونَ مُحَمَّدًا؟ وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّهُ نَصْرَتُهُ حَقٌّ عَلَيْكُمْ
بِمُقْتَضَى الْمَعَاهِدَةِ. فَقَالُوا: الْيَوْمَ يَوْمُ الشُّبِّ. فَقَالَ: لَا سَبْتَ. وَأَخَذَ سَيْفَهُ وَلَحِقَ بِالتِّي فَجَرَحَ جِرَاحاً قَاتِلَةً،
فَلَمَّا حَضَرَهُ الْمَوْتُ قَالَ: أُمُوَالِي إِلَى مُحَمَّدٍ يَضَعُهَا حَيْثُ شَاءَ. رَاجِعِ الْإِصَابَةَ لِآبْنِ حَجَرٍ الْعَسْقَلَانِيِّ، ج ٦،

ومحمد واثق كاشد ما يكون، فقد أوجد مادة حيّة، وصحّحها تصحيحاً مغنويّاً، وولّد فيها قوى لا حدّ لها، وغدّاها بتعاليم تفاعلت مع نفسيّات العرب تفاعلاً يكفي أن يكون بينهم وحدة في الصّفة العقليّة والشّعوريّة، كما غرس في قلوبهم طبيعة الإيمان الصّحيح الذي يزّدي هبة العاصفات، وحرّز أفيدتهم من الأساطير والأوهام، وبلّور عليهم الفكر، وعوّدهم النّظام، وألزمهم الطّاعة وكلمة التّقوى، فكانوا أحقّ بها وأهلها. وليس يُخطئني ظنّي في أنه لن تقوم لشريعته شريعة، ولن يثبت لقومه قوم.

قال مُخَيَّرِي: هَيَّجَتْ، وائِثُّمُ اللّهِ، في نفسي حديثاً طالماً كُنْتُ أدودُهُ عن لِساني ذِباداً، حتّى لا يَجْري به، ولا أَراني إلّا مُفْضِياً به إليك:

نَظَرْتُ في شرائعِ العالمِ ونُظمِهِ، على آخِلافِ ألوانِها، وقَلْبْتُها على شَتَى وجوهِها، فانتَهَيْتُ إلى أنها تَتَنَاصَرُ على سَحْقِ قُوى الأَفرادِ والجماعاتِ واستِغْلالِهم استِغْلالاً أَنانياً صارِماً. وهذه الشّرائعُ والنّظُمُ مُتَعَاوِنَةٌ فيما بينها، من أَجلِ هذه الغاية الّتي لا تَتَقَفُّ بحالٍ والحُرِّيَّةُ الدّائِيةُ للبَشَرِ، فسبيلُها القضاءُ على الكِفاياتِ والقابليّاتِ الّتي هي عُنوانُ آمِتيارِ الإنسانِ، ليُحوّلوا دونَ أنْ يُتِمَّ التّشوّءُ دَوْرَتَهُ، وبذلك يَسْتَسْلِمُ لَهُمُ القَطِيعُ.

ولقد باتَ المجموعُ البَشَرِيُّ، من تأثيرِ هذه الأدوارِ، في رُوحِيّةٍ جِدِّ مَرِيضَةٍ، وأنكَفَأَتِ الجماعاتُ تَهْوِي في أَتونِ التّنازُعِ السّاجِقِ، حتّى لَكَانَ البشريّةُ في دَوْرٍ اخْتِصارٍ، لا تَلَبُّثُ معه طويلاً أنْ تَنْقَلِبَ هَامِدَةً لا حراكَ فيها.

فلم يَعدْ في الأديانِ ما يَزْوِي ظَمّاً النّفوسِ، بلْ على العَكْسِ، غَدَتِ الأديانُ مادّةَ الظّمِّ، كطالِبِ الرّئيِّ بالَحَنَظَلِ، فإنّه لا يَزْوِي، ولكِنَّه يَزِيدُ شُعوَراً بالحاجةِ إلى الرّئيِّ. فالأديانُ الدّاويّةُ الكَسِيفَةُ، والهَرَوَطَقاتُ المُستَطيَرَةُ، والأَوْضاعُ الاجتماعيّةُ الفاسِدةُ، والنّظُمُ الاقْصاديّةُ الّتي أَذْكَتْ نِضالَ الطّبقاتِ بِشَرِيّهِ المُفْطِعةِ، والتّداعي

الأخلاقي، وبِقَظَّة الإِبَاحِيَّة الطَّامِسَةِ، كُلُّ ذَلِكَ أَعَدَّ الْعَالَمَ، بِقَصْدٍ، وَدُونَ قَصْدٍ، إِلَى أَنْتِظَارِ كَلِمَةِ الْبِنَاءِ الْعَالَمِيِّ. وَلَا أَظُنُّ مُحَمَّدًا إِلَّا ذَلِكَ الْبِنَاءَ الْعَالَمِيَّ الْأَعْظَمَ، وَلَا أَظُنُّ دَوْلَتَهُ الصَّغِيرَةَ، فِي حُدُودِ الْمَدِينَةِ، إِلَّا نَوَاةَ تِلْكَ الدَّوْلَةِ الْعَالَمِيَّةِ الْعَامَّةِ الَّتِي سَتَضَهُرُ فِي بَوْتَفَتِهَا الْفَوَارِقِ الْمَلِيَّةِ، وَتَشْتَغِلِي عَلَى الْأَجْنَاسِ وَالشَّيْعِ، فَالْإِسْلَامُ عَقِيدَةٌ وَدَوْلَةٌ وَأَنْتِمَائِيَّةٌ.

عَرَفَ مُحَمَّدٌ سِلْسِلَةَ الْأَرْبَابِ الْمُتَرَابِطَةِ فِي نَسَبِي، وَعَرَفَ أَنَّ الْبَشَرِيَّةَ لَنْ تَتَحَرَّرَ مِنْ هَذِهِ الْعُبُودِيَّاتِ الْمُرْكَبَةِ الْمُتَدَاخِلَةِ، الَّتِي تُؤَلَّفُ خَطَرًا عَلَى الْفِكْرِ الْبَشَرِيِّ، وَبَوَارِزِ الْاِمْتِيَازِ الْإِنْسَانِيِّ، وَتُعْلُ التَّشَاطُ الْحَيَوِيِّ بِمَا تَزْرُحُ بِهِ كَكَابُوسٍ ضَاغِطٍ وَجَائِثٍ مُزْرِعٍ إِلَّا بِعَمَلٍ عَنِيفٍ، وَعَرَفَ أَنَّ حَجَرَ الْأَسَاسِ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ الشَّامِخَةِ هِيَ الطَّبَقَةُ الرُّوحِيَّةُ الَّتِي تَسُوقُ الْجُمُوعَ طَائِعَةً بِمَا تُسَيِّطِرُ بِهِ عَلَى مَنَاطِقِ اللَّادُعِيِّ وَمَرَائِزِ اللَّاشُعُورِ. فَأَعْمَلَ مِعْوَلَهُ الْأَقْدَسَ فِي بِنَايَةِ الْعُبُودِيَّاتِ الرَّاسِخَةِ، الَّتِي شَهِدَتْ، مِنْ نَوْعِ تِلْكَ الْعَوَاصِفِ، شَيْئًا كَثِيرًا، فَمَزَقَتْ رِيَاخَهَا الْمُتَنَاوِخَةَ الْمُزْمَجِرَةَ، وَبَقِيَتْ فِي مَحَلِّهَا شَامِخَةً رَاسِخَةً. لَكِنْ مُحَمَّدًا عَرَفَ سِرَّ نَبَاتِهَا فَسَدَّدَ ضَرْبَتَهُ الْأُولَى الْمَاضِيَّةَ إِلَى هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَرُبُوبِيَّتِهَا^(٣)، وَتَحَدَّاهَا فِي نَوْعٍ مِنَ الشُّخْرِيَّةِ وَالْاِسْتِغْزَازِ الْمُثِيرِ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَزَلْزَلَ حَجَرُ الْأَسَاسِ، وَخَرَّتْ صُرُوحُ الرُّبُوبِيَّاتِ، الَّتِي سَخِرَتْ بِالزَّمَنِ مَذْرُورَةً، مُتَنَائِرَةً فِي حَالَتِي تَبَعُّثٍ وَتَرَاكُمٍ.

ثُمَّ وَقَفَ مُحَمَّدٌ فَوْقَ أَطْلَالِهَا شَامِخًا، يُغْلِبُ حُرِّيَّةَ الْإِنْسَانِ^(٤) وَحُقُوقَهُ فِي

(٣) قَالَ تَعَالَى: «وَتَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» (آل عمران ٣: ٦٤).

(٤) قَالَ تَعَالَى: «وَنَحْشُرْ قُنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى، فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى» (الذاريات ٧٩: ٢٥). وَقَالَ: «فَاسْتَحَفَّ قَوْمُهُ فَأَطَاعُوهُ» (الزخرف ٤٣: ٥٤). وَقَالَ «لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُضَيِّطٍ» (الغاشية ٨٨: ٢٢). وَقَالَ: «رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا الشَّيْطَانُ» (الأحزاب ٣٣: ٦٧).

الاستقلال^(٥)، الذاتِي، ويُعلنُ حُرِّيَّةَ^(٦) العملِ والإنتاج والجُهد، ويُقرِّرُ مَبْدَأَ^(٧) المَسْئُولِيَّةِ الشَّخْصِيَّةِ فِي الحَقُوقِ والجَزَاءِ ونَظَرِيَّةَ الجَزَاءِ لِلحَقِّ العامِّ^(٨)، وَيُنْزِعُ أَغْلَالَ الفِكرِ. فمَحَمَّدٌ حَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الأَوْتَانِ الجامِدةِ، وحَارَبَ الرُّبُوبِيَّةَ فِي شَخْصِ الأَوْتَانِ الاجتماعيَّةِ الحَيَّةِ، وبذلكَ حَرَّرَ الفِكرَ وَحَرَّرَ المُجْتَمَعَ.

والمُدْهَشُ - يَا آتِنَ سَلَامٍ - فِي مَنَهِجِ مُحَمَّدٍ الإِصْلَاحِيِّ أَنَّهُ قَامَ عَلَى الزَّلْزَلَةِ الفِكرِيَّةِ، لِيُعِدَّ النَّفْسَ الَّتِي خَلَصَتْ^(٩) مِنْ وِراثَتِهَا إِلَى آغْتِنَاقِ كُلِّ مَبْدَأٍ صَالِحٍ، مَهْمَا بَدَأَ نَايِئاً وَالمَبَادِيءَ السَّائِدَةَ، وَيَفْسَحَ لِلأَفْرَادِ والجماعاتِ سَبِيلَ التَّفْكِيرِ المُنْطَقِيِّ الهَادِيءِ الخَالِي مِنْ شَوَائِبِ الأَفْكَارِ الأُولَى وَنَزَغَاتِهَا. وَكَذَلِكَ لَمْ يَغْمِذْ إِلَى تَصْحيحِ الأَوْضَاعِ القَائِمَةِ وَتَغْيِيرِهَا فَقَطْ، كَمَا عَمَدَ المُصْلِحُونَ مِنْ قَبْلُ، بَلْ قَصَدَ إِلَى تَصْحيحِ فِكْرَةِ الحَيَاةِ أَوَّلًا، لِيُضْمَنَ رُوحِيَّةً جَدِيدَةً يَتَوَقَّى مَعَهَا الرَّدَّةُ والائْتِكَاسُ اللَّاشَعُورِيَّينَ، وَكَانَا آفَةً كُلُّ إِصْلَاحٍ خَرَجَ عَنْ يَدِ المُصْلِحِينَ السَّالِفِينَ.

أولئكَ كانوا يُصَحِّحُونَ الأَوْضَاعَ وَيُشِيعُونَهَا فِي المُجْتَمَعِ، وَرُوحِيَّةُ الجماعةِ لَمْ تَزَلْ غَارِقَةً فِي الأَوْحَالِ والأمْرَاضِ، وَلَمْ تَزَلْ تَالِفَةً أَشَدَّ مَا يَكُونُ التَّلَفُ. فَلَا تَلَبُّثْ

(٥) قَالَ تَعَالَى: «لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ» (البقرة ٢: ٢٨٦). وَيَتَبَيَّنُ أَنَّ يَلَاخِظَ أَنَّ القانونَ العامَّ يُخَضِّعُ للقانونِ الأَدْنَى.

(٦) قَالَ تَعَالَى: «وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى، وَأَنْ سَغِيغُهُ سَوْفَ يُرَى، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الأَوْفَى» (النجم ٥٣: ٢٩، ٤٠، ٤١).

(٧) قَالَ تَعَالَى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ» (سورة الإسراء ١٧: ١٣). وَقَالَ: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» (الإسراء ١٧: ١٥).

(٨) قَالَ تَعَالَى: «وَلَكُمْ فِي القِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (سورة البقرة ٢: ١٧٩).

(٩) قَالَ تَعَالَى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا، أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ» (البقرة ٢: ١٧). وَفِي هَذِهِ الآيَةِ تَحْرِيرٌ للعقلِ مِنَ الوِثَاقِ، وَدَعْوَةٌ إِلَى تَقْدِيرِهَا عَلَى ضَرْوَةِ المُنْطَقِيِّ والفِكرِ المَحْرُودِ، وَبِذَلِكَ قَضَى القُرْآنُ عَلَى الوِثَاقِ كَأَسَاسٍ للفِكرِ وَحَكْمَ العقلِ بِهَا، فَلَمْ يَشْجِبِ القَدِيمَ المَورُوثَ مَرَّةً وَاحِدَةً، بَلْ القَدِيمُ الَّذِي يُضْطَلَمُ بِالمُنْطَقِ فِي سُنَّةِ النُّشُوءِ، وَجَاءَ تَحْرِيرُهُ للعقلِ مِنْ حَيْثُ إِنَّهُ قَضَى عَلَيْهَا كَأَسَاسٍ للفِكرِ.

الأوضاع أن تفسد بفساد روجية الجموع ويقع الانتكاس في المجتمع وتعاوده الحتمي، ويكون المصليح لم يزد عن أنه نجم التمتع فجأة، ثم ابتلعه خضم الليل الحالك... ولكن محمداً لم يكن من طراز هؤلاء، فقد صحح فكرة الحياة وروحية الجماعة أولاً، ثم صحح الظلم والأوضاع، وبذلك ضمن سلامة المجتمع أبداً، ووقى الكائن الاجتماعي من الانتكاس والحتم.

فمحمداً لم يصنع أمة في عداد الأمم، بل صنع أمة في عداد الرسل إلى كل الأمم، وأكبر ظني أن أمة ستنتطق في جسم العالم المتداعي، كما تنطلق العصاة، وفيها الحرارة والحياة والحركة. فهذا اليوم - يا آبن سلام - بداءة دنيا جديدة، وأول يوم من تاريخ عالم جديد، فقد استدار الزمان وبدأ يخط دورة أخرى كما أراد محمداً أن تكون، وكذلك يفرض المصليح نفسه على الزمن.

قال آبن سلام: أراك - يا مخيرق - تتكلم بكلام من استهوته رسالة محمداً، وما أبرئك، ومع ذلك فإني أنصفك بأنك لم تجاوز المنطق في دائرة أولها الفكر وأخرها الحس. ولقد شاءت لي الظروف أن أجمع ببعض من أتباعه، وهو وإن لم يكن له بجلاء منطقك، ودقة تحليلك، فقد غمرني روجيته ولعبت بي تياراتها، وما أحسب نفسي أقل أنجذاباً منك.

وأذكر أنني سمعت آية^(١) تدعو إلى الإيمان العقلي من قرآن محمداً، وما هي إلا أن تمددت في قلبي وعقلي جميعاً. فتمددت لها نفسي وأخذت طريقها إلى ما وراء القوى الواعية، ومضت تفعل فعلها، تارة في الفكر، وتارة في مذاهب الشعور، حتى انتهت بتوكيز فلسفتها علي وتكريزي عليها، وإذا بي أحس إحساساً وجدانياً بأنها فلسفة، ينبغي أن أعهد لها في أول ما أعهد من قضايا العقل، وإذا بي أحس إحساساً عقلياً بأنها كل المنطق، حتى لم يعد لي مغدل عن أن تكون مقدمة

(١٠) قال تعالى: «قُلْ هذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَيِّنَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي» (يوسف : ١٢ : ١٠٨).

الفكر.

والعجب - يا مخيريق - أن مُحَمَّدًا عَالَجَ قَضَايَا الدِّينِ والعقلِ والحياةِ والاجتماعِ، وأعطى حلولاً هي ما ظَلَّتِ الإنسانيَّةُ تائِهَةً عنها وعَبَثًا تَنْشُدُهَا. ولعلَّ أعظمَ ما يَسْتَوْفِقُنِي ويُغْرِنِي حُلُّهُ لِمُعْضَلَةِ الأَدْيَانِ، فهو لم يَنْقُضْهَا بَلْ صَحَّحَهَا مِنْ الطُّفِيلِيَّاتِ العَالِقَةِ عَلَيْهَا، فَإِنَّ فِي كُلِّ دِينٍ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى، وقد تَنَاوَلَهَا كُلُّ قَبِيلٍ بنوعِ عقليتهِ، وما ثَبَتَ فيها، فَلَوَّثَهَا بِلَوْنِهِ، وما زَالَ يُلْبِسُهَا، وَيُضَيِّفُ إِلَيْهَا، وَيَحْمِلُ عَلَيْهَا، حَتَّى آخَتَفَتْ قَضَايَا الْحَقِّ وراءَ أَسْتَارِ صَفِيْقَةٍ، وَعَدَتْ كَاللُّبَابِ تَحْجُبُهُ قُشُورٌ قَاسِيَةٌ. وَالَّذِي يَثْبُتُ فِي عَقْلِ الْجَمَاعَةِ مَظَاهِيرُ الْأَشْيَاءِ دُونَ حَقَائِقِهَا الْحَقِيقِيَّةِ، فَوَقَفَ إِيمَانُ الْجُمُوعِ عِنْدَ حَدِّ الْمَظَاهِيرِ، وَعَمِلَ التَّارِيخُ عَمَلَهُ فِي هَذَا الْإِيمَانِ فَتَحَجَّرَ عَلَيْهَا، بِرُغْمِ أَنَّ هَذِهِ الْمَظَاهِيرَ وَالْأَشْكَالَ لَيْسَتْ سِوَى آنِعْكَاسٍ مِنْ وَرَائِثَاتِ الْقَبِيلِ.

ولكنَّ مُحَمَّدًا اسْتَطَاعَ، بِإِعْجَابٍ، أَنْ يَكْشِفَ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى، وَأَنْ يُبَيِّنَ مَكَانَهَا فِي كُلِّ دِينٍ، رُغْمَ كُلِّ الْأَسْتَارِ الصَّفِيْقَةِ، فَأَعْلَنَ لِلنَّاسِ، عَلَى اخْتِلَافِهِمْ، وَخِدَّةِ الْأَدْيَانِ، أَنَّ قَضَايَا الْحَقِّ الْأُولَى وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ دِينٍ، وَهِيَ لَا تَتَغَيَّرُ إِلَّا إِذَا تَسَنَّى لِنَامُوسِ الطَّبِيعَةِ أَنْ يَتَغَيَّرَ، وَأَعْلَنَ أَنَّ مَا يَتَوَهَّمُهُ النَّاسُ لُبَاباً هُوَ قُشُورٌ فَقَطْ، وَبِضَرْبَةِ حَظِّمَهَا، وَأَعْطَى تَحْدِيدَهُ الدَّقِيقَ لِلدِّينِ الْجَدِيدِ. فَكَانَ عَمَلُهُ وَجْهَادُهُ فَقَطْ فِي تَجْرِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ مِمَّا رَانَ عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِهَا، أَوْ رَدَّ النَّاسِ إِلَى حَقَائِقِ دِيَانَاتِهِمْ الَّتِي أَفْسَدَهَا النُّضَالُ الطَّبِيقِيُّ وَالْقَوْمِيُّ، وَأَفْسَدَ كُلُّ مَجْتَمَعٍ مِنْ وَرَائِهَا، رُغْمَ أَنَّ الْأَدْيَانَ مَا جَاءَتْ إِلَّا لِمَحْوِ هَذَا النُّضَالِ.

وكما قُلْتُ - يا مخيريق - لَيْسَ مِنَ الْمُمَكِنِ لِلْمُصْلِحِ، إِذَا أَرَادَ الْبِنَاءَ الْمَكِينِ، أَنْ يَنْتَجِعَ إِلَى الْعَقْلِ الْمُلَوَّثِ الْمُتَحَرِّفِ، وَالْفِكْرِ الْغَارِقِ بِالْأَوْهَامِ، وَيُحْمَلُهُ رِسَالَتُهُ، بَلْ لَا بُدَّ مِنْ مُهَاجِمَةِ هَذَا الْعَقْلِ، وَهَذَا الْفِكْرِ، حَتَّى إِذَا تَطَهَّرَا آتَجَّهَ إِلَيْهِمَا مِنْ جَدِيدٍ وَذَهَبَ يَبْنِي، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ، ذَهَبَ يَخْلُقُ، وَكَذَلِكَ فَعَلَ مُحَمَّدٌ، وَكَانَ لَهُ مِيزَةٌ عَلَى

المُصلِحِينَ، وَيُتَبَغْيِي أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ مُحَمَّدًا لَمْ يَكُنْ مُغَامِرًا يَتَسَتَّرُ بِخُطَّةِ الإِصْلَاحِ، وَإِنَّمَا كَانَ مُضْلِحًا دَفَعَ الْمُغَامَرَةَ فِي طَرِيقِ الإِصْلَاحِ. وَبَيْنَهُمَا أَنَّ أَوَّلَهُمَا أَنَا نِيَّ بِلَحْمِهِ وَدَمِهِ، يُطْلِقُ الْعَاصِفَةَ كِعِمْلَاقٍ وَيَدْفَعُ الْجُمُوعَ إِلَى التَّوَاتُبِ فَوْقَ الْقِمَمِ، وَزَلَّةً فِي الْعَاصِفَةِ تَتْرُكُ الْجُمُوعَ فِي فُضَاءِ الْهَازِيَةِ طُيُورًا تَحُومُ فِي الْمُتَحَدِّرِ السَّرِيعِ السَّحِيقِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالتَّهْدِيمِ لِيَقِفَ، مِنْ بَعْدُ، عَلَى أَطْلَالِ الْأَشْلَاءِ مِسْحًا جَاحِظًا مُتَقَلِّصًا، وَثَانِيَهُمَا غَيْرِيَّ فِي شُعُورِهِ وَضَمِيرِهِ، يَضْبُطُ الْعَاصِفَةَ وَيَصْرِفُ مَخْزُونَهَا فِيمَا يَعُودُ عَلَى الْمَجْتَمَعِ بِالْإِنْشَاءِ وَتَوْفِيرِ الْقُوى وَالطَّاقَاتِ، وَدَائِمًا يَنْتَهِي بِالْإِنْيَاءِ لِيَقِفَ، وَاتِّبَاعُهُ مِنْ بَعْدُ، عَلَى الْقِمَمِ.

قَالَ مُخَيَّرِي: لِلَّهِ كَمْ تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي التُّفُوسِ، فَإِنَّمَا تَصْنَعُ مِنَ الضَّعْفِ قُوَّةً، وَقُوَّةً لَا حَدَّ لَهَا. أَلَا تَرَى أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ كَيْفَ غَدَوْا، بِفَضْلِ الْعَقِيدَةِ الْخَلَاقَةِ، قُوَّةً لَا تَنْصِلُ بِالضَّعْفِ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا ضَعْفًا لَا يَتَّصِلُ بِالْقُوَّةِ... وَهَذَا صَحِيحٌ، فَإِنَّ الْفِكْرَةَ تَصْنَعُ الْحَيَاةَ، وَالْحَيَاةُ تَصْنَعُ الْقُوَّةَ، فَلَا قُوَّةَ بَدُونِ فِكْرَةٍ تَقْذِفُ الطَّاقَةَ وَالْحَيَاةَ جَمِيعًا.

بَلَّغْنِي، وَأَنَا بِمَا بَلَّغْنِي فِي عَجَبٍ، إِحَالُكَ تَعْرِفُ فَتَى قَرِيشٍ، وَطَالَمَا شَاهَدْتُهُ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ، وَهُوَ مَنْ يُنْعَتُونَهُ بِحَامِي الْإِسْلَامِ، عَلِيٌّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ، بَلَّغْنِي أَنَّهُ كَانَ مِنْ أَشْتَبِيسَالِهِ، وَتَفَانِيهِ فِي نَصْرَةِ مَبَادِيءِ هَذَا الدِّينِ الْجَدِيدِ، مَا جَعَلَهُ، فِي بَذْرِ الْكُبْرَى، أُمَّةً مِنَ الْأَبْطَالِ كَأَنَّهَا تَنْطَلِقُ فِي كُلِّ مَجَالٍ إِذَا أَنْطَلَقَ، فَمِنْ كُلِّ وَجْهِ عَلِيٍّ، وَمِنْ كُلِّ صَوْبٍ عَلِيٌّ نَفْسُهُ، حَتَّى لَا جِدُّ عَلَى كُلِّ لِسَانٍ: إِنَّ فَتَى قُرَيْشٍ هَزَمَ الْجُمُوعَ مِنْ قُرَيْشٍ.

قَالَ ابْنُ سَلَامٍ: أَذْكُرُ أَنِّي أَعْرِفُهُ، وَأَذْكُرُ أَنَّ لَهُ سِيَمَاءَ نَاطِقَةً بِالصَّلَاةِ وَالْعَزَمِ الْقَصِيِّ، وَرُغَمَ حَدَائِثِهِ فَقَدْ قَذَفَ فِي رُوعِي مِنَ التَّجَلَّةِ، وَأَنْوَاعًا مِنَ الْأُسْرِ، حَتَّى لَا أَحْسِبُنِي بِتٍّ مَأْخُودًا عَنْ نَفْسِي سَاعَةً بِشَيْءٍ لَا أَفْهَمُ كُنْهَهُ، وَهُوَ مَا يُسَمُّونَهُ سِحْرَ

الشَّخصية.

وأذكرُ أنّ حديثه اليومَ على كلِّ لسانٍ، وهم يشفَعُونَهُ بإعجابٍ طائِفٍ متمدّدٍ: «أليسَ الَّذي فَعَلَ الأفاعيلَ بِقريشٍ»، هذه عبارَتُهُم الَّتِي لا تكادُ تَسْقُطُ من حديثٍ أَحَدٍ عَنْهُ، حتَّى غَدَتْ تقليديَّةً وطبيعيَّةً. قالَ هذا، وسَكَتَ مُطَرِّقاً، ويَدُهُ تُدَاعِبُ جَبْهَتَهُ كالَّذي يُريدُ أنْ يَتَذَكَّرَ شيئاً قَدَرَ أَنَّهُ خطيرٌ، وعلى فُجاءَةٍ نَفَرَ جَبْهَتُهُ نُفْرَةً شاعَ سُروُرها في مُقَلَّتَيْهِ وأَسارِيرِهِ.

قال: يا مُخيرِيقُ سأُخِيرُكَ خَبَرَ فَتَى قريشٍ، يومَ تَزُمَلُ في فراشِ مُحَمَّدٍ، ليلةَ الهَجْرَةِ، إِيهاماً عَنْهُ... قال مُخيرِيقُ: أَذْكَرُ أَتَى سَمِعْتُ شيئاً من ذلكَ... وَمَضَى أبْنُ سَلَامٍ في حديثِهِ: إِنَّهَا مُغامَرَةٌ يَظُنُّهَا البُسْطَاءُ دُونَ أَسْتَيْسَالِهِ في معركةٍ بَذَرٍ، لَكِنَّهَا عِنْدِي، من رُجْهَةٍ العقيدةِ، أَعْظَمُ شَأْناً وقد لا يَغْدِلُهَا مَوْقِفٌ. فَإِنَّ الاستِسْبالَ قَدْ تَوَلَّدَهُ حماسَةُ المَشْهَدِ، وَأَصْوَاطُ الجُمُوعِ المائِجَةِ، وَقَدْ تَوَلَّدَهُ خُيَلَاءُ الذَّاتِيَّةِ في مَوْقِفٍ لا مَفَرٍّ من الظُّهُورِ فِيهِ، وكثيراً ما بَدَّلَتْ هذه المِشَاهِدُ نَفْسِيَّةَ الجَبَانِ، كما لا تَدُلُّ على أَثَرِ العقيدةِ دائماً.

ولكنَّ تلكَ، هي مُغامَرَةُ العقيدةِ المُجَسَّمَةِ، فقد كانتَ تَغْرِيضاً لِلنَّفْسِ دُونَ تَذَرُّعٍ بِأسبابِ الدِّفاعِ، وبُكُلِّ هُدُوءٍ، فليسَ فيها آنْفِعالٌ عَنِيفٌ يُنْسِي المَرْءَ ذَاتَهُ، وَيَذْفَعُهُ إلى عَدَمِ المَبالَاةِ دَفْعاً قَسْرِيّاً، وهي مُغامرةٌ، إِنْ كانتَ تُعَبِّرُ عن شيءٍ فَإِنَّمَا تُعَبِّرُ عن نِسْيَانِ الذَّاتِ على كُلِّ حالٍ، بِفاعِلِيَّةِ العقيدةِ وَحَدِّهَا، الَّتِي طَعَتْ على كُلِّ المِشاعِرِ وَأَسْتَبَدَّتْ بِهَا. إِنَّ التَّضْجِيَّةَ رَهِيْبَةً، يا مُخيرِيقُ، دائماً، وَلَكِنَّهَا أَرْهَبُ ما تَكُونُ في المواقِفِ الهادِئَةِ الَّتِي لا تُثِيرُ الأعصابَ بِشُعُورٍ غيرِ عاديٍّ.

إِنَّ مُحَمَّدًا عَرَفَ كَيْفَ يَجْعَلُ النَفْسَ العربيَّةَ مُؤَمِّنَةً ذاتَ آفاقٍ في الإيمانِ، فَكانَتْ بِذلكَ قُوَّةً ذاتَ آفاقٍ في القُوَّةِ. خُصوصاً وإيمانُ مُحَمَّدٍ يَجْعَلُ المَرْءَ لا يَرى شيئاً في حدودِ الإيمانِ، وَيَرى الإيمانَ في حدودِ كُلِّ شيءٍ، كَتَلْكَ الفَراشَةُ الَّتِي

أَسْلَمَهَا الْمِصْبَاحُ إِلَيْهِ، فَهِيَ لَا تَحُولُ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ فِي ذَلِكَ أَنَّهَا تَحُولُ عَنِ الْحَيَاةِ. وَبِهَذَا صَغُرَتِ الدُّنْيَا وَالْحَيَاةُ، وَفِكْرُهُ مَتَاعُهُمَا، فِي قَلْبِ أَصْحَابِهِ، لِأَنَّ عَقْلَهُمْ لَمْ يَغْدُ يَنْتَبِعُ مِنْ حُدُودِ غَرَائِزِهِمْ بَلْ مِنْ حُدُودِ تَعَالِيهِمْ. وَالْاِعْتِقَادُ نَفْسُهُ غَرِيزَةٌ طَبِيعِيَّةٌ، وَبَيْنَ الْغَرَائِزِ، كَمَا بَيْنَ سَائِرِ الْأَشْيَاءِ، تَنَاحُزُ عَلَى الظُّهُورِ وَالْبُرُوزِ، وَأَكْثَرُ مَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِلْغَرَائِزِ الدُّنْيَا لِأَنَّهَا أَدْخَلُ، غَضَبِيًّا، فِي تَرْكِيبِ الْكَائِنِ الْحَيِّ، وَلَا تَتِمُّ الْعَلَبَةُ لِهَذِهِ الْغَرَائِزِ أَلْبَسَةً، إِلَّا وَتَشُدُّ إِلَيْهَا الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ، فَيَفْسُدُ الْعَقْلُ، وَيَنْحَطُّ الْقَلْبُ.

فَعَمَلُ الْمُصْلِحِ يَنْحَصِرُ فِي تَنْشِيطِ غَرِيزَةِ الْاِعْتِقَادِ، لِكَيْ تُسَيِّطَرَ بِرُوحِ الْإِيمَانِ الْجَدِيدِ، وَهِيَ تَشُدُّ الْعَقْلَ وَالْقَلْبَ إِلَيْهَا، فَيَصْلُحُ الْعَقْلُ وَيَسْمُو الْقَلْبُ، حَتَّى الْغَرَائِزُ الدُّنْيَا تُصْبِحُ دُنْيَا، بِمَعْنَى جَدِيدٍ. فَهِيَ لَا تَنْبَعِثُ فِي شَهْوَةِ الْجَسَدِ، بَلْ فِي شَهْوَةِ الرُّوحِ الْمُرَكَّزَةِ بِالْإِيمَانِ، وَإِنَّ شَهْوَةَ الرُّوحِ الشُّعُورُ بِذَاتِيَّتِهَا الْعُلْيَا فِي الْفِطْرَةِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَلَا يَزَالُ الْإِيمَانُ يَعْمَلُ عَمَلَهُ، حَتَّى يَجْعَلَ فِي الْغَرَائِزِ عَقْلًا، وَفِي الشَّهَوَاتِ إِرَادَةً وَأَخْلَاقًا. فَمُحَمَّدٌ صَحَّحَ نَفُوسًا، وَأَوْجَدَ مَادَّةً مُؤَمَّنَةً، تَنْطَلِقُ، كَمَا يَنْطَلِقُ الْقَدَرُ الْوَاقِعُ، إِلَى مَصِيرِهَا وَغَايَتِهَا، وَهِيَ بِهَذَا الشُّعُورِ مُجْتَمِعَةٌ كَمِثْلِهَا مُتَفَرِّقَةٌ، فَقَلْبُ الْجَمَاعَةِ شُعُورٌ مُتَجَاوِبٌ بَيْنَ قَلْبٍ وَقَلْبٍ.

وَيُعْجِبُنِي فِي فَتَى قُرَيْشٍ أَنَّهُ يَمْلِكُهُ إِيْمَانُهُ، حَتَّى فِي أَخْرَجِ مَا تَكُونُ رَهْبَةً النَّفُوسِ، وَقَلِيلٌ هُمْ الْأَفْرَادُ الَّذِينَ يَمْلِكُهُمُ الْإِيمَانُ، وَهَذِهِ مِيزَةُ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ، بَيْنَمَا الْآخَرُونَ يُحَاوِلُونَ أَنْ يَمْلِكُوا الْإِيمَانَ، وَفَاتَهُمْ أَنَّ الْإِيمَانَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ كُلُّ شَيْءٍ فِي النَّفْسِ، وَإِمَّا أَنْ لَا يَكُونَ شَيْئًا فِيهَا، وَالْفَرْقُ بَيْنَهُمَا كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يُصَرِّفُهُ الْإِيمَانُ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَصَرَّفُ بِهِ.

قَالَ مُخْبِرِيٌّ: لَشَدَّ مَا تَفْعَلُ الْعَقِيدَةُ فِي النَّفُوسِ، وَلِلَّهِ أَنْتَ يَا مُحَمَّدٌ كَمْ هِيَ أَخَاذَةٌ تَعَالِيكَ... قَالَ هَذَا، وَسَكَتَ يُفَكِّرُ فِي أَمْرِ يَبْدُو مُهِمًّا، وَلَبِثَ طَوِيلًا يُحَاوِلُ أَنْ يَجِدَ النُّقْطَةَ الَّتِي يَبْتَدِئُ مِنْهَا الْحَدِيثَ، فَأَطْرَدَ مُمِعِنًا، يَقُولُ:

يَسْرُنِي أَنَّنَا مُتَّفِقَانِ فِي الْفِكْرَةِ وَالْمَيْلِ، وَلَكِنْ مَا الَّذِي يَحُولُ بِالْيَهُودِ عَنْ مُحَمَّدٍ، عَلَى رُغْمِ مَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُ سَيَعْمُرُهُمْ لَا مَحَالَةَ؟ فَإِذَا طَاوَلُوهُ كَانَ لَهُمْ مِنْهُ يَوْمٌ كِيَوْمِ بَحْتَنْصَرَ... وَكَانَ مُجَرَّدُ ذِكْرِ بَحْتَنْصَرِ كَافِيًا لِيَبْعَثَ آلامِيهِ الْقَوْمِيَّةَ الدِّفِينَةَ، فَتَغَشَّتُهُ سَحَابَةٌ حُزْنٍ، وَلَكِنَّهُ وَاصَلَ حَدِيثَهُ:

أَعْرِفُ أَنَّ قَوْمَنَا شَرُّدُوا مَرَّاتٍ، وَأَضْطُّهِدُوا كَرَّاتٍ، وَمِنْ شُعُوبٍ مُخْتَلَفَةٍ، فَحَقَّدُوا عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ وَتَأَمَرُوا بِكُلِّ مُجْتَمَعٍ، وَبُثُّوا رُوحَ الْإِنْتِقَامِ فِي كُلِّ تَصَارُيفِهِمْ، مُتَّخِذِينَ كُلَّ شَعْبٍ هَدَفًا، غَيْرَ مُفَرِّقِينَ بَيْنَ قَبِيلٍ وَقَبِيلٍ، وَبِذَلِكَ أَخْطَأُوا فِي عَدَمِ تَحْدِيدِ التَّيَعَّةِ، الَّذِي أَكْسَبَ نَفُوسَهُمْ صِفَةَ الْغُلِّ السَّحِيقِ، وَأَفْقَدَهُمْ رَغْبَةَ التَّعَاوُنِ مَعَ الْآخَرِينَ، وَصِفَةَ التَّبَادُلِ الْخَالِصِ، حَتَّى مَعَ قَوْمٍ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ إِلَّا الْإِحْسَانُ إِلَيْهِمْ، كَهَوْلَاءِ الْعَرَبِ الَّذِينَ أَخْتَضَّنُونَا بَيْنَهُمْ، وَأَحْلَوْنَا مَحَلَّ أَنْفُسِهِمْ، وَأَخْتَضَّنُونَا بِأَنْوَاعٍ مِنَ الْعَطْفِ، فِي هَجْرَتِنَا الْأُولَى^(١١) وَالثَّانِيَةِ إِلَى جَزِيرَتِهِمْ.

قَالَ أَتَبْنِي سَلَامًا: إِنَّ مَا ذَكَرْتَهُ سَبَبٌ، وَلَكِنْ وَرَاءَهُ أَسْبَابٌ أَكْثَرُ فَاعِلِيَّةٌ فِيمَا أَعْتَقِدُ، حَتَّى لَقَدْ جَعَلْتُ رُوحِيَّةَ الْيَهُودِ، مِنْ سُوءِ أَثَرِهَا الْبَارِزِ فِي كُلِّ دَوْرٍ، مُغْضِلَةً أَجْتِمَاعِيَّةً، وَعَنَاصِرُ هَذِهِ الرُّوحِيَّةِ كَمَا أَحْسَنُ:

أ - الْمَادِّيَّةُ: الَّتِي آسَتْهُوَتْهُمْ آسَتْهُوَاءُ فُطَيْعَاءَ، وَتَحَلَّلَتْ مَعْنَوِيَّتُهُمْ إِلَى دَرَجَةٍ جَعَلَتْهُمْ لَا يَتَوَرَّعُونَ عَنِ اسْتِخْدَامِ أَسْمَى مِثَالِيَّاتِهِمْ وَمِثَالِيَّاتِ مَنْ يَحِلُّونَ بَيْنَهُمْ بِسَبِيلِ الْمَطَامِعِ، وَلَا يَعُوقُهُمْ وَيُنْأَى بِهِمْ عَنْهَا أَنَّهَا دَنِيَّةٌ أحياناً. فَكَانَ لِهَذَا أَثَرٌ فِي تَوَلِيدِ صِفَةِ الْجَشْعِ وَالسَّرَّهِ وَالْإِفْتِرَاصِ، وَحِينَ تَكُونُ الْمَادِّيَّةُ هِيَ مِثَالِيَّةَ الْأُمَّةِ فَقَدْ بَاتَتْ خَطَرًا، وَشَكَلَتْ مُغْضِلَةً دَائِمًا.

ب - طَبِيعَةُ التَّطَفُّلِ: حَقٌّ لِلْفَرْدِ أَنْ يَجْنِيَ ثَرْوَةً كَدْحِهِ، وَحَقٌّ لِلْجَمَاعَةِ أَنْ

(١١) راجع كتاب: تاريخ اليهود في جزيرة العرب، للدكتور ولفنسترون.

تَجْنِي ثَمَرَاتِ جُهِودِهَا، وَأَمَّا أَنْ يَجْنِيَ الْمَرْءُ ثَمَرَةَ جُهِدِ الْآخَرِينَ فَهَذَا عُذْوَانٌ مُنْكَرٌ.
والحياة قائمة على الجُهدِ، فَمَنْ لَا يَجْهَدُ لَا يَحْيَا. هذا مَنْطِقُ الطَّبِيعَةِ، وَخَفَّفَ
المُصْلِحُونَ مِنْ جِدَّتِهِ بِالتَّعَاوُنِ الَّذِي يَحْفَظُ تَوَازُنَ الطَّبَقَاتِ، عَلَى سُكُلٍ مَا تَرَى فِي
تَعْلِيمِ مُحَمَّدٍ الْجَدِيدِ، فِي نِظَامِ الزَّكَاةِ وَالصَّدَقَاتِ وَالْكَفَّارَاتِ. وَالْيَهُودِيُّ، مِنْ
طَبِيعَتِهِ أَنَّهُ لَا يَبْذُلُ جُهِدًا يُوَازِي الْفَائِدَةَ، بَلْ يَسْعَى إِلَى أَنْ يَسْتَحْوِذَ عَلَى أَكْثَرِ فَائِدَةٍ
بِأَقَلِّ مَجْهُودٍ. وَهَذَا لَا يَأْتِي إِلَّا عَنْ طَرِيقِ التَّطَفُّلِ عَلَى جُهِدِ الْآخَرِينَ وَاسْتِغْلَالِهِمْ.
فَقَوْلُكَ بَيْنَهُمْ طَبَقَاتُ الْمُرَايِينَ وَالْمُضَارِبِينَ وَمَا شَاكَلَهُمْ، وَهَؤُلَاءِ جَمِيعًا يُشْكِلُونَ،
فِي النَّظَرِ الاجْتِمَاعِيِّ، بَيِّنَةٌ طُفِيلِيَّةٌ شَدِيدَةُ الْخَطَرِ عَلَى سَلَامَةِ أَيِّ مُجْتَمَعٍ كَانَ.

فَالْيَهُودُ طُفِيلِيُونَ يَمْتَصُّونَ الْمُجْتَمَعَ بِشَتَّى الطَّرِيقِ وَالْوَسَائِلِ، كَالِهَوَامِ الَّتِي تَطْلُبُ
حَيَاتَهَا عَلَى جِسْمِ حَيٍّ، وَلَذَلِكَ لَهُمْ هَذَا الطَّرِيقُ الْهَيِّنُ فَأَلْفُوهُ وَافْتَتُوا فِي أَشْكَالِهِ
مُسْتَفِيدِينَ مِنَ الْوَسَائِلِ الْخَاصَةِ بِكُلِّ عَصْرٍ.

ج - الْقَوَضِيَّةُ: عَرَفَ الْيَهُودُ أَنَّ وَسَائِلَهُمْ لِلْاِمْتِصَاصِ لَا بُدَّ أَنْ تَنْكَشِفَ مَا دَامَ
الْمُجْتَمَعُ فِي حَالَةٍ مِنَ الْهُدُوءِ، فَأَخَذُوا أَنْفُسَهُمْ بِإِيجَادِ أَسْبَابِ الْاضْطِرَابِ
وَالْقَوَضَى، تَارَةً بِاخْتِرَاعِ مَذَاهِبٍ دِينِيَّةٍ وَمَحَافِلٍ سِرِّيَّةٍ، وَأَوْنَةً يَبْتَثُّ مَبَادِيءَ اجْتِمَاعِيَّةٍ
حَدِيثَةٍ، وَأُخْرَى بِتَرْيِينِ الْحُرُوبِ. وَتَبَتَّتْ هَذِهِ الْقَوَضِيَّةُ فِيهِمْ طَبِيعَةً حَتَّى غَدَوْا مَادَّةَ
الْقَوَضَى وَالتَّوَارِثِ فِي كُلِّ مُجْتَمَعٍ.

مِنْ هَذِهِ الْعَنَاصِرِ تَأَلَّفَتِ الزَّوْجِيَّةُ الْيَهُودِيَّةُ.

وَالْيَهُودِيُّ قَدْ يَصْلُحُ إِذَا آرَتَدَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَفَارَقَ صِفَةَ التَّجَوُّبِ الَّتِي تَجْعَلُهُ
لَا يُخْلِصُ لِأُمَّةٍ مَهْمَا عَاشَ بَيْنَهَا، وَاسْتَرَدَّ مِثَالِيَّتَهُ الصَّائِعَةَ. أَلَسَتْ تِلْكَ تِلْكَ مَعِيَ أَنْ
بَنِي قُرَيْظَةَ الْمُرَارِعِينَ أَكْثَرُ مِثْلًا لِلتَّعَاوُنِ مَعَ مُحَمَّدٍ وَدَوْلَتِهِ الْجَدِيدَةِ مِنْ بَنِي قَيْثَقِ
الْمُرَايِينَ؟

قال مُخَيَّرِي: بلى نَعَمْ ما تُلاحِظُ... وَمَضَى آئِنُ سَلامٍ في حَدِيثِهِ: وَلَسْتُ
أَتَرَدُّ أَلْبَتَّةَ في أَنَّ هَذِهِ الرُّوحِيَّةَ البَغِيضَةَ هِيَ الَّتِي تَحُولُ بَيْنَ الْيَهُودِ وَمُحَمَّدٍ الَّذِي
حَارَبَ هَذَا الْخَلِيطَ الْمُنْكَرَ في رُوحِيَّتِهِمْ.

قال مُخَيَّرِي: أَلَا تُجِيبُنِي إلى أَمْرٍ قَدْ يُحَقِّقُ فِكْرَةَ إِنْقاذِ الشَّعْبِ الْيَهُودِيِّ النَّائِيهِ،
وَأَنْتِشَالِهِ مِنْ أَوْحَالِ المادِّيَّةِ الصَّارِمَةِ الَّتِي لا تَلْبِثُ أَنْ تَقْضِي عَلَيْهِ وَتُحَطِّمَهُ؟ فَأَنْتِ
خَبِيرُ الْيَهُودِ وَلَكَ مَحَلُّكَ وَمَقَامُكَ، وَلِي مَنْزِلِي وَمَكَانِي، فَتَنْضَمِّ وَأَنْضَمِّ إلى جِزْبِ
مُحَمَّدٍ، فَتَضْعِضْ مِنْ قُوَّةِ مَوْقِفِهِمُ السَّلْبِيِّ تِجَاهَ الحَرَكََةِ التَّحْرِيرِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَلا بُدَّ أَنْ
نَثْرَكَ بَيْنَهُمْ أَثْراً يَكْفُلُ لَنَا عَدَداً، إِنْ لَمْ يَكُنْ أَكْبَرَ عَدَدٍ، خُصُوصاً وَتَفْسِيَّةُ الجَمَاعَةِ
سَرِيعَةُ التَّرَدُّدِ سَرِيعَةُ الاسْتِشْلَامِ.

قال آئِنُ سَلامٍ: هَذَا ما فَكَّرْتُ فِيهِ، وَعَقَدْتُ العَزَمَ عَلَيْهِ، وَكَأَنَّ القَدَرَ ساقَكَ
لِتَشْجِعَنِي...

وعلى ذَلِكَ أَفْتَرَقَا... فَمَضَى مُخَيَّرِي في الطَّرِيقِ المؤدِّي إلى المَسْجِدِ، مَوْكِرِ
الدَّعْوَةِ والدَّوْلَةِ... وَتَمَهَّلَ آئِنُ سَلامٍ حَتَّى يَجْعَلَ لِدُخُولِهِ صَدًى أَوْسَعَ أَنْتِشاراً وَأَشَدَّ
وَقْعاً. وَلَكِنَّهُ ظَلَّ شاخِصاً في إِكْبارِ لَتَضْمِيمِ مُخَيَّرِي الَّذِي هُوَ دَلِيلُ النَّفْسِ الكَبِيرَةِ،
وَفِي إعْجابٍ بِمَنْطِقِهِ الدَّقِيقِ الَّذِي هُوَ دَلِيلُ الفِكرِ التَّابِعِ...

*

الإِسْلامُ عَقِيدَةٌ وَعَمَلٌ وَحَيَاةٌ وَنِظامٌ...
وله في الأَفْرادِ والجَماعَاتِ تَفاعُلَاتٌ على أَنْحاءٍ أَرْبَعَةٍ:
تَتَفاعَلُ العَقِيدَةُ فِيهِ مَعَ الأَوْهامِ العالِقَةِ بالفِكرِ، فَيَعْدُو فِكْراً جَدِيداً بِمَنْطِقِ
جَدِيدٍ...

وَيَتَفاعَلُ العَمَلُ فِيهِ مَعَ الجُهدِ المُتَدَدِ، فَيَعْدُو جُهداً مُتَبَجِّهاً...

وَتَتَفَاعَلُ الْحَيَاةُ فِيهِ مَعَ الْحَيَاةِ الْمُغَلَّلَةِ الْكَاسِفَةِ، فَتَغْدُو طَلَقَةً شَامِخَةً...
وَيَتَفَاعَلُ النُّظَامُ فِيهِ مَعَ التَّرَائِبِ الْمَحْمُومِ، فَيَغْدُو إِنْسَانِيًّا صَحِيحاً...
وَالْإِسْلَامُ، بَعْدَ ذَلِكَ، فِكْرَةٌ وَإِعْدَادُ،
وَبَيْنَهُمَا تَتَوَلَّدُ، عَلَى الدَّوَامِ، الْأُمَّةُ وَالدَّوْلَةُ وَالْمَجْتَمَعُ...

* * *

يوم القِران

مَضَى، بَيْنَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ وَهَذَا اللَّيْلِ الَّذِي آسْتَقِظَ فِيهِ النَّبِيُّ عَلَى ذِكْرِ نَاعِمَةٍ كَرَجَعَ الْحَنِينَ، وَمُنْعَشَةٍ كَلَمَسَةِ الْحُبِّ، وَشَائِقَةٍ كَوَفِّعِ الْأَمَلِ، أَيَّامٌ إِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَسَابِيعِ^(١) فَذَاكَ، وَإِنْ شِئْتَ تَحْسُبُهَا بِأَشْهُرٍ فَقَدْ تُصِيبُ.

إِنْجَرَدَ النَّبِيُّ مِنَ اللَّيْلِ، وَيَدُهُ تَمْسُحُ التَّوَمَ عَنْ جُفُونِهِ الَّتِي أَخَذَهَا رُقَادٌ هَنِئٌ رَافَةٌ بِأَخْلَامِ الْعَدِ، وَكَانَتْ نَفْسُهُ تَجِيشُ بِذِكْرِ مُحَبَّبَةٍ إِلَيْهِ، قَرِينَةٍ مِنْهُ، حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَرْجِعُ إِلَى أَمْسِ النَّهَارِ الَّذِي لَمْ يَفْصِلْ عَنْهُ يَوْمٌ وَعَدٌ.

وَهِيَ ذِكْرَى مَا كَانَتْ تَمُرُّ فِي خَاطِرِهِ إِلَّا وَتَجِيشُ بِهَا نَفْسُهُ، وَيَشْمَلُهَا أَطْمِئْنَانٌ وَرِضًا، عَلَى أَنَّهَا لَمْ تَكُنْ تَغْبِرُ مَجَازَهَا فِي خَيَالِهِ إِلَّا وَتَتْرُكُ عَلَى مُقْلَتَيْهِ دَمْعَةً مُتَبَخَّرَةً، وَأُخْرَى تَذُوبُ فِي خَفَقَةِ رَقِيقَةٍ، وَزَفْرَةٍ غَيْرِ طَوِيلَةٍ. ذِكْرَى يُحَرِّكُهَا عَنْده طَئِيفُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي كَانَ يَتَرَاءَى لَهُ، وَيُلْمُ بِهِ أَحْيَانًا، وَعَدَا، بَعْدَ يَوْمِ الْمَدِينَةِ، كَثِيرًا مَا يُرَاوِحُهُ. وَكَانَ الطَّيْفُ يَتَدَوَّى، بَعْدَ هَذَا الْيَوْمِ، مُزْدَهِيًا تَلْقَاهُ مِنْ نَوَاحِيهِ نَشَوَاتٍ، وَمُتَلَفَعًا بِإِشْرَاقَةٍ تَشِيغُ عَلَيْهِ مِنْ أَقْطَارِهِ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ زَهْوِ الْمَكَافِحِ الْمَيِّتِ بِمَجْدِ الْمَكَافِحِ الْحَيِّ.

كَانَتْ تَمُرُّ عَلَيْهِ، فِي طَئِيفِ أَبِي طَالِبٍ، صُورٌ مُتَحَرِّكَةٌ سَرِيعَةٌ، تَتَّصِلُ بِغَارِ

(١) سَكَنَتِ الرُّوَايَاتُ عَنْ تَقْدِيرِ الْمُدَّةِ بَيْنَ وَقْفَةِ بَذْرِ وَأَقْبِرَانِ عَلِيٍّ بِغَاطِمَةِ.

حراء، ومكة، ودار الإغداد والدعوة (بيت الأرقم) فيحس بالخنين العميق.
وتمر به صور الأوثان المتصدّة التي تحدّاه في سُخْرِيّة، وهاجمها في تحطيم،
فيحرق الأرم.

وتمر به صور ما لاقى من عنت إجماعي، وهو ماضٍ في كفاحه لا يخفّل
ولا يتننى ولا يتردّد، معتقداً الظفر رُغم الجموع، والنجاح رُغم تأشبّ الباطل
وسوزته. وكذلك المصلح الحقّ ينقطع الفكر بينه وبين العقبات، ليقول كلمته
ويستمع صداها، ودائماً يكون مُزَلزلاً مُوعداً.

ويتدو أبو طالب، من ورائه، يدفع عنه، ويشدّ أزره، ويحمي حماه، فيشمّله
رضاً بأنه أذى رسالته وشهد نجاحها في الخلق والإنشاء.

وتمر به خديجة في هالة الحبّ الزوجي الأقدس، وفي صورة من مقام المرأة
وأثرها في حركات البعث والانقلاب، فيغروه حزن صامت، وتقدير خفي، وإكبار
يظهر أثرهما في موكب المرأة من التشريع الخالد... وتزوي تلك الصور وتثبت هذه
الحقيقة:

نجاح الحركات الخلافة بدعائم ثلاث: رجل المبادئ الذي يعمل بقواه
المعنوية والفكرية مُجمعة، والمرأة التي تعمل بروحيتها المشعة وعواطفها الواعية،
ورجل الدفاع الذي يعمل بكلّ وسائله بإخلاص...

وتثقل به الذكرى ولا تنقطع، إلى الهجرة، فيمر به عليّ وتضحيه الرهبة
في التزمّل عنه، فيزنون في دهشة كبيرة.

ويمر به غار أبي ثور، وصاحبه الباسل أبو بكر، والطريق المروّع، وهما يتهبان
الأرض نهباً، فيشعُر بأسى، ويتكشّف على خاطر أن يغدو صانغ الحجد، طريد المهّد.
وتمر به يثرب وجهوده في تثبيت العقيدة واستثمارها في بناء قواعد الدولة

الجديدة، فيشغُر في آتيسامة عريضة هادئة.

وتمرُّ به سلسلة المعارك التي كان أهمُّها بذُر، ويرى الجمعَيْن وقد تصافا
للقتال، ويرى أبطاله على درجائهم، ويرى عليّاً، صاعقته المدخرة، تنقض في كل
مجال، ويشهد النهاية الظافرة، فيَهْزُهُ في مظهره الوقور سرور بعيد الغور... وتزوي
تلك الصور أيضاً، وتثبت هذه الحقيقة:

إنّ أبا طالب كان أسد محمّد، ورسائله في دور التأسيس، ولم ينقض يده
من الحياة إلّا بعد أن قدّم، في فتاه عليّ، أسد محمّد ورسائله في دور التشييد
والإغلاء...

قام النبي، وقد عزم على أمر أَرْضى به ضميره وحبه معاً، وخرج وهو يشغُر
أنّه أدّى حقّاً. ومَرَّت به فاطمة، وهي تحطّر لبعض شأنها، فقبلها قبلة اجتمع فيها
شعور جديد أحسّت مغناه غامضاً مُبهمًا، ولكنه استتبّه فيها شيئاً لم تدركه كنهه إلّا
أنّه مُبهج على أيّ حال.

لم يفصل النبي عن حُجراته بعيداً حين أقبلت ميمونة أخت بنت عميس
على فاطمة تزورها، فأبست إليها كما لو كانت تنتظر لقاءها بلهفة وصبر نافذ...
والمرأة تنكشف إلى المرأة بحقيقتها العارية، وتظهر المرأة إلى المرأة بكلّ ذاتيتها،
وليس ثغطي الرجل إلّا نصف مغناها، ويبقى النصف الآخر مجهولاً غامضاً
ويذهب في غموضه أبداً. فنحن نفهم المرأة نصف فهم لأنّها لا تنكشف لنا إلّا
نصف أنكشاف، ولا يُخرّجها من صدقتها للعراء إلّا الحب، والمرأة، إذا تفتحت
أنوثتها ونصبت، حثت حنيناً مُبهمًا، فإنّها تجد نصف مغناها في الرجل، والنصف
الآخر في الولد، وهي تريد أن تحلّ لغزها فيأخذها هذا الحنين.

أقبلت ميمونة إقبال من فهمت شيئاً وتريد المزيد، وقالت لها: مررت بالنبي،

وهو في بهجة ضاحكة زادت شعاعاً على ما كنا نعهده بعد يوم المدينة، وإن كانت لا تفارقه، حتى لقد خيل إلي أنه عزم على أمر فشاع سروره على مُحَيَّاه البهي. ولا يتعد بي ظني أنك وقفت عليه، فقد أعلم أنه يشترخ فيك روح النبوة، وما هو بغير، فإنك ولدت له بعد مبعثه، وقد استحالت النبوة في معناه، وغدت له ذاتية، فأنت ذكرى من ذكريات الوحي الأولى.

استوت فاطمة، وقد تألقت في عينيها إشراقة من خلاوة هذه الملاحظة، فقد كانت تغزو ما يلهاها به النبي من آخفاء واختفاء إلى محض الحنان الأبوي، وألقت في آيسامة مُفترية: إذا فأنا شيء منه كالوحي أو كالنبوة، وطيف سماوي في خيال أبي عندك يا ميمونة.

قالت ميمونة: وأنا وإيم الله، ما جلست إليك إلا شعرت بروحانية هذا الطيف المتألق وجماله، وشملتني سكينته لا أحدها إلا بما تنزك في نفسي من أطمئنان لأذ رغيب. ولا تحسبني، من هذا الشعور، كما قيل: «تخيل ثم خال» بل هو واقع نفسي كالرأي على الظلم، أو كالأمل اللذي.

قالت فاطمة: يسرني أنك تحببني هذا الحب، ولكن ما وجه الأمر الذي عزم عليه أبي، على ما انتهى إليه حدسك؟ فقد طاف بنفسي شيء كالذي طاف بنفسك، وأنه عراني إحساس غامض حين قبلني أبي في هذا الصباح قبله جديدة المغنى، وبث في قلبي، إلى جانب الحنان الذي عودني، شعور من يخشى فراقي، وكان في بهجته المشرقة نفسها التي لم تزل حين مررت به.

وكانت حجرات النبي تُشرف على المسجد قرأتا سباحاً لم تتبيناه جيداً، يدخل مشرعاً ويخرج سريعاً، فأشربت ميمونة تنظر، وأطلت من قريب، وعلمت أنه أبو بكر عرض عليه شيئاً فلم يتبسط إليه. ولم يغادر بعيداً ويتوارى حتى جاء عمر فساره بشيء لم تتبينه ميمونة أيضاً، فلم يتبسط إليه، وظهرت عليه حركة

إِعْرَاضٍ غَيْرِ خَافِيَةٍ. وَمَا جَاوَزَ الْمَسْجِدَ حَتَّى أَقْبَلَ عَلَيَّ فَتَلَقَّاهُ بِتَهَجُّتِهِ الَّتِي لَحَظْتُهَا عَلَيْهِ سَاعَةً أَبْصَرْتُهُ أَوَّلَ التَّهَارِ، فَسَارَهُ طَوِيلًا وَالتَّبِيُّ يَنْبَسِطُ إِلَيْهِ وَيَحْتَفِلُ بِهِ، فَقَامَ وَعَلَى تَغْرِهِ آتِسَامَةٌ عَرِيضَةٌ لَمْ يَجْتَهِدْ فِي إِخْفَائِهَا، وَأَمَّا تَرْكُهَا تَنْطَلِقُ إِلَى مُنْتَهَاهَا.

فَانْقَلَبْتُ إِلَى فَاطِمَةَ تَقُصُّ عَلَيْهَا مَا رَأَتْ، وَمَرَّ بِخَاطِرِهَا، وَقَدْ ضَمَّتْ قَدَمَيْهَا لِلْجُلُوسِ، شَيْءٌ أَطْمَأْنَنْتُ إِلَيْهِ فِي تَفْسِيرِ مَا شَهِدْتُ وَعَمَمْتُ: لَعَلَّ... لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ.

وَعَرَضَ لَهَا مَا ثَبَّتَ هَذَا الْخَاطِرَ عَلَيْهَا، فَقَالَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ نَفْسِهَا: لَذَلِكَ... لَذَلِكَ لَمْ يُكَاشِفْهَا بِالْأَمْرِ الَّذِي عَزَمَ عَلَيْهِ.

وَرَأَتْ مَيِّمُونَةً أَنَّهَا أُخْرِجَتْ حِينَمَا قَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ وَقَفْتَ مِنَ الْأَمْرِ عَلَى جِلْيَتَيْهِ أَوْ عَلَى مَا يَتَّصِلُ بِهِ. فَأَدَارَتْ الْحَدِيثَ بِلَبَاقَةٍ إِلَى وَجْهِ آخَرَ أَلْبَسَتْهُ شَكْلَ الْمُفَاجَأَةِ، لِتَكْسِبَ أَهْتِمَامَهَا بِمَا تُرِيدُ أَنْ تَصْرِفَهَا إِلَيْهِ.

فَقَالَتْ: نَسِيتُ شَيْئًا كُنْتُ أُرِيدُ أَنْ أُخْبِرَكَ بِهِ وَقَدْ ذَكَرْتُهُ الْآنَ. فَبَدَأَ الْاهْتِمَامُ عَلَى وَجْهِ فَاطِمَةَ، وَأَصْعَقَتْ فِي كَثِيرٍ مِنَ التَّلَهُّفِ وَالشُّوقِ إِلَى هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ... فَوَاصَلَتْ تَقُولُ:

سَمِعْتُ النَّاسَ فِي طَرِيقِي هَذَا الصَّبَاحَ يَقُولُونَ: إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ حَبْرَ الْيَهُودِ أَعْلَنَ إِسْلَامَهُ وَكَاشَفَ بِهِ. وَكَانَ نَبَأٌ شَدِيدَ الْوَقْعِ عَلَى الْيَهُودِ حَتَّى لَقَدْ بَاتُوا يُخَاطَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِكَلِمَاتٍ مُخْتَلِطَةٍ، آمْتِحَانًا لِحَوَاسِهِمُ الَّتِي بَدَّوْا يَشْكُونَ فِي سَلَامَتِهَا، فَإِنَّ آتَنَ سَلَامٍ رَمَزَ دِينِي مِنْ رُمُوزِ الْيَهُودِ، وَعَجِيبٌ أَنْ يَمِيلَ إِلَى دِينِ أَيْلِكَ. وَتَوَقَّعَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الصَّدَى الَّذِي أَحْدَثَهُ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي الْإِضْعَافِ مِنْ سَلْبِيَّةِ مَوْفِقِيهِمْ إِزَاءَ الدَّعْوَةِ الْجَدِيدَةِ، كَمَا تَدَارَكَ الْيَهُودُ خَوْفٌ عَمِيقٌ مِنْ أَنْ يَنْفَضَّحَ لِأَيْلِكَ سِرَّ الزَّوْجِيَّةِ الَّتِي يَجْتَهِدُونَ فِي جَعْلِهَا لُغْزًا. وَلَكِنْ بَرُّعٌ مَا أَحْدَثَهُ آغْتِنَافُهُ

الإسلام من صدئ عكسي غنيف، ووقع مُزَلِّل، لن يُؤثّر في سُلْبِيَّة اليهود إلا أثراً ضئيلاً، علَّله آبنُ سلام بما في طبيعتهم من «البُهت».

كما أن القومية اليهودية وحدها قامت على الدين الموروث، والكَنيس الرُّمزي في هذا الشَّكل حَسْب، وبعبارة أصحَّ أن القومية اليهودية كَنيس فقط، ولا شيء وراء هذا التقليد الديني. فهم لا يَتَمَسَّكون بدينهم، رُغم الكوارث، بحُكم صِحَّتِهِ، بل بحُكم أنه قاعدة قومية تكفل وُحْدَتَهُم، فاليهودي لا يَرُفُضُ مَبْدَأاً لأنه فاسدٌ أو ليس بصحيح، بل لأنه لا يَتَّفِقُ ومثله القومي الذي يَجِبُ أن يَقْبَلَهُ بدون مناقشة. وهو قد يَتَقَبَّلُ عَدَمَ صَلاحيَّته كَطَبِّ للزوجية البشرية، ولكنه يَقْبَلُهُ على أي حال، لأنه الضمانة الأكيدة لسلامة الوُحْدَةِ اليهودية. فاليهودي لا يُعْمَلُ عَقْلُهُ في مُثْلِهِ، بل لا يَجِبُ أن يُعْمَلَ عَقْلُهُ، ما دامت هذه المثل تُحْفَظُ عليه وُحْدَتُهُ العامة التي تَتَّصِلُ ببقائِهِ، فلو فُرِضَ واتَّسَعَ اليهود كمجموع بشري يعيش أشتاتاً على الأمم لاتَّباع أي المبادئ التي تروق لهم لذابوا وُغَمِرَتْهُمُ اللُّجَّةُ. فمُعْتَقَدُهُمُ الديني الموروث حَفِظَ وُحْدَتَهُمُ وبقائهم كأمة أو كقبيل من البشر يمتازُ بخصائصِهِ، وحَفِظَ اتِّصالُ تاريخِهِمُ، وبذلك كان لهم غُضْرُأُولِيّاً كالأرض بالنسبة إلى غيرهم من ذوي القوميات الوُطَيْدَةِ في الزَّمن.

قالت ميمونة: بهذا يُعَلَّلُ آبنُ سلام سُلْبِيَّةَ اليهود الصَّليَّة، وليس إزاء الإسلام خاصة، بل إزاء كُلِّ المبادئ وكلِّ الأديان، خذراً من تَفْشِيحِ وُحْدَتِهِمُ وَتَبْعُثِهِمُ في الأمم... قد يرى يهوديُّ يَرُوجُّ لِمَبْدَأٍ وآخر يَرُوجُّ لِمَبْدَأٍ ثانٍ، ولكنَّهُما لم يُؤْمِنَا أَلْبَسَةً بما يُرُوجَّانِ له، وإنما يَفْعَلانِ ذلك بما في طبيعتهم من غُضْرِ الفُوضُويَّة ومَحَبَّةِ إِشَاعَتِهَا في كُلِّ مُجْتَمَعٍ، لِيَتَسَنَّى لَهُمُ الْعَمَلُ والتَّجَاح.

وبينا هي في حديثها دَخَلَ التَّيِّ فَهَبَتْ إِلَيْهِ فَاطِمَةُ، وَتَبِعَتْهَا مِيمُونَةُ، وَوَجَدَتْ إِذْ ذَاكَ فُوصَةً مَكْتَتَهَا من أذُنِهَا، فَأَنْطَلَقَتْ قُدْماً وراءَ خَاطِرِ سَنَحِ لَهَا عِنْدَ

الخروج، بأن أنسا، خادم النبي الذي لا يكاد يفارقه، عنده من خبر المسجد هذا الصباح شيء كثير. فقصدت إليه، وكانت أمه إحدى صوحيباتها، وما ظهرت في الباب حتى استقبلتها أم أنس بالخبر كبشرى فذة، وكان فيما روت لها عن ابنها: «أن أبا بكر أقبل إلى النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام، وأني... وأني...»

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه... فرجع أبو بكر إلى عمر، وهو يقول: هلك.

قال عمر: وما ذاك؟

قال: خطبت فاطمة إلى النبي فأعرض عني.

قال: مكانك حتى آتية فأطلب مثل الذي طلبت.

فأتى عمر النبي فقعد بين يديه، فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني... وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تزوجني فاطمة، فسكت عنه...

فرجع إلى أبي بكر، فقال: إنه ينتظر أمر الله بها... فم بنا إلى علي نستحيه أن يطلب مثل الذي طلبنا.

فأتياه وهو يعلج فسيلاً له، فقالا: إنا جئناك من عند ابن عمك بخطبة... فقام يجر رداءه حتى أتى النبي فقعد بين يديه.

فقال: يا رسول الله قد علمت مناصحتي وقدمي في الإسلام وأني...

وأني...

قال: وما ذاك؟

قال: تُزَوِّجُنِي فَاطِمَةَ... فَأَشْرَقَ وَجْهُ النَّبِيِّ، وقال: فما عندك؟

قال: فَرَسِي وَبَرَّتِي.

قال: أَمَا فَرَسُكَ فَلَا بُدَّ لَكَ مِنْهَا، وَأَمَا بِرَّتُكَ فَيُعْطَا.

فغادرَ وباعها بأَرْبَعِمِائَةٍ وَثَمَانِينَ، وجاءَ بها حَتَّى وَضَعَهَا فِي حِجْرِ النَّبِيِّ، فَقَبَضَ مِنْهَا قَبْضَةً.

فقال: أَيُّ يَلَالٍ، آتَيْنَا بِهَا طَيْبًا^(٢).

شَاعَ الْخَبْرُ فِي الْمَدِينَةِ سَرِيعاً كَمَا يَشِيْعُ الْأَرِيحُ الْعَائِقُ فِي كُلِّ مَكَانٍ مَعَ النَّسَمِ
التَّيْدِي، فَكَانَتْ مَيْمُونَةُ لَا تَمُتُ بِمَحَلَّةٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَتَرَى الْمَرْأَةَ تَمِيلُ إِلَى الْمَرْأَةِ،
وتقولُ لَهَا فِي بَشِيرٍ ظَاهِرٍ:

أَمَا بَلَّغَكِ النَّبَأُ؟ عَلَيَّ خَطْبُ فَاطِمَةَ، وَبَارَكَ النَّبِيُّ الْعَقْدَ، وَإِنَّهُ لَيَنْعَمُ الْحَدَثُ.
لَيْسَ لِهَذِهِ السَّيِّدَةِ الْمُصْطَفَاةِ إِلَّا هَذَا السَّيِّدُ الْمُصْطَفَى. وَهِيَ رَبِيبَةُ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ،
وَهُوَ رَبِيبُ الْوَحْيِ وَبَطْلُ الرِّسَالَةِ.

وَفِي آسْتِدَارَتِهَا صَوَّبَ مَنْزِلَهَا سَمِعَتْ رَجُلًا يَسْمُرُ إِلَى آخَرٍ فِي نَاحِيَةٍ مِنْ
الْحَيِّ وَيَقُولُ:

إِنَّ النَّبِيَّ لَمْ يُزَوِّجْ عَلِيًّا، وَإِنَّمَا كَرَّمَ الْبُطُولَةَ الْخَالِدَةَ الْمُظَفَّرَةَ فِي شَخْصِ الْبَطْلِ
الْخَالِدِ الْمُظَفَّرِ، وَإِنَّ مِنْ حَقِّ الْبُطُولَةِ تَكْرِيمَهَا، وَمَا فَاتَ النَّبِيَّ أَنْ يُكْرِمَ الْبُطُولَةَ بِأَعَزِّ مَا
عِنْدَهُ وَأَقْرَبِ مَا هُوَ إِلَى قَلْبِهِ، فَإِنَّ فَاطِمَةَ قَلْبُ النَّبِيِّ مُصَوَّرًا فِي إِنْسَانٍ مَلَائِكِيٍّ أَوْ
مَلَائِكِ إِنْسَانِيٍّ. وَلَيْسَ فِي هَذَا مَعْنَاهُ بَلْ مَعْنَى التَّكْرِيمِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا، فِي حَقِيقَتِهِ،

(٢) راجع كتاب: الرياض النَّصْرَةِ فِي مَنَاقِبِ الْعَشْرَةِ الْمُحِبِّ الطَّيْرِي، ج ٢، ص ١٨٠ إلى ١٨٤.

رِسَالَةٌ وَدَعْوَةٌ وَهُوَ الْمُبْتَدَأُ، وَإِنَّ عَلَيَّ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ وَاجِبَةٌ وَهُوَ الْحَبَرُ، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ فَاطِمَةَ رَابِطَةُ الْإِسْنَادِ.

وَمَا فَاتَ مَيِّمُونَةٌ أَنْ تَسْمَعَ مَا رَدَّ بِهِ الْآخَرُ، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، كَمَا تَقُولُ: وَأَيْضاً لَقَدْ كَرَّمَ النَّبِيُّ بِهَذَا الْقِرَانِ بَطُولَةَ أُخْرَى هَائِكَةً فِي أَبْدِيَّتِهَا الْمُشْرِفَةِ الْوَاعِيَةِ، إِنَّهُ كَرَّمَ أَبَا طَالِبٍ التَّصِيرَ الْبَرَّ وَالْمُجَاهِدَ الْأَوَّلَ.

قَالَ الْأَنْصَارِيُّ: فَهَذَا الْقِرَانُ إِذَا تَكْرِيمٌ مُزْدَوِجٌ ضَاعَفَ مَعْنَاهُ، وَأُخِلِدَ بِهَذَا الْيَوْمِ تَكْرِيمَ الْبَطُولَاتِ، إِنَّهُ لَيَسْتَحْفِلُنِي بِمَعْنَاهُ الْكَبِيرِ... رَنْتَ مَيِّمُونَةٌ فِي الظَّلَامِ وَأَخَذَتْ بَصَرَهَا كَمَنْ رَأَى شَبَحاً، فَإِذَا شَخْصٌ يُقْبَلُ عَلَيْهِمَا، وَإِذْ تَبَيَّنَا هَتَفًا جَمِيعاً: أَهْلًا بِكَ سَلْمَانُ.

وَكَانَ سَمِعَ بَعْضَ الْحَدِيثِ، وَوَقَفَ مِنْذُ حِينَ عَلَى الْحَبَرِ، فَقَالَ:

إِنَّهُ جَدِيرٌ أَنْ يَسْتَحْفَلَكَ يَا هَذَا، إِنَّهُ تَكْرِيمٌ لِأَكْبَرٍ مِمَّا كُنَّا نَصْنَعُ، نَحْنُ الْفُرْسُ، فِي جَاهِلِيَّتِنَا، مِنْ إِقَامَةِ تِمْنَالٍ جَامِدٍ تَخْلِيداً لِلْبَطْلِ. فَإِنَّ مُحَمَّدًا مَنَحَ تِمْنَالاً حَيًّا أَسْمَى، تَخْلِيداً لِلْبَطُولَةِ الْحَقِّ، فَكُلُّ مَا فِي عَمَلِ الْفُرْسِ وَغَيْرِهِمْ أَنَّهُ تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الْحَجَرِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْفَنَاءَ فِي طَبِيعَتِهِ. وَهَذَا تَخْلِيدٌ بِمِقْدَارِ مَا فِي الرُّوحِ مِنَ الْقُوَّةِ عَلَى الْبَقَاءِ، وَلَكِنَّ الْأَبْدِيَّةَ فِي طَبِيعَتِهَا... وَأَغْرَقَ ثَلَاثُهُمْ فِي تَأْمُلٍ صَامِتٍ طَالَ عَلَيْهِمْ، وَجَعَلَ مَيِّمُونَةٌ لَا تَنْتَظِرُ وَتَلْجُ الْمَنْزِلَ.

أَخَذَهَا اللَّيْلُ بَنُومٍ هَادِيٍّ تَحَلَّلَتْهُ أَحْلَامٌ بِهِجَةً آسْتَقِظْتُ مِنْهُ عَلَى لَذَّتِهَا، فَحَفَّتْ إِلَى حُجَرَاتِ النَّبِيِّ بِقَدَمِ شَاعِرَةٍ تَحَتَّ قَصْدٌ غَيْرِ شَاعِرٍ، وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَنْحَنِّيْهَا أَيْضاً وَتَنْتَظِرُ مِنْهَا شَيْئاً. فَإِنَّ أَبَاهَا اللَّيْلَةَ أَخَذَ بِهَا فِي أَحَادِيثَ سَتَى كَمَا تَشَاءُ الْأُبُوَّةُ، وَلَكِنَّهَا لَمْ تُفْصِحْ لَهَا عَنْ شَيْءٍ يَضَعُ حَدًّا لَتَسْأُلُهَا، يَدَّ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ، وَمَنْ لَهَا غَيْرُ مَيِّمُونَةٍ؟

بَدَرَتْهَا فَاطِمَةُ: لَعَلَّكَ أَتَيْتَنِي الْيَوْمَ بِخَبَرِ إِسْلَامِ كَعْبِ الْأَشْرَافِ وَفُلَانِ
وَفُلَانٍ؟ فَأَبْتَسَمَتْ مَيْمُونَةُ، وَأَذْرَكَتْ أَنَّهَا تُرِيدُ أَنْ تَعْلَمَ عِلْمَ مَا كَانَ بِالْأُمْسِ.

فَقَالَتْ: كَأَنَّهُ لَا يَهْمُكَ كَثِيرًا إِسْلَامُ هَؤُلَاءِ...

قَالَتْ: بَلَى، يَهْمُنِي وَلَكِنِّي لَحَظْتُ بِالْأُمْسِ أَنَّكَ جِذْتُ عَنْ حَدِيثِ
بِحَدِيثِ.

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: كَانَ الْأَمْرُ يَتَعَلَّقُ بِأَنْ عَمَّكَ عَلِيٌّ... وَأَفَاضَتْ فِي إِطْرَائِهِ مِثْلَ
مُعْجَبَةٍ أَتَّصَلَ بِهَا إِعْجَابٌ وَحُبٌّ.

قَالَتْ فَاطِمَةُ، وَقَدْ شَعَرَتْ أَنَّهَا تَحِيدُ أَيْضًا: وَمَا أَنَا مِنْ هَذَا الْآنَ؟

قَالَتْ مَيْمُونَةُ: أَوَلَسْتَ تُحِبُّنِي وَتُعْجِبِينَ بِهِ؟ وَلَيْسَ مِنْ أَحَدٍ، الْيَوْمَ، إِلَّا وَهُوَ
يُحِبُّهُ وَيُعْجِبُ بِهِ، ثُمَّ لَا يَمَلُّ الْحَدِيثَ عَنْهُ؟

قَالَتْ فَاطِمَةُ: بَلَى، إِنِّي لِأُحِبُّهُ بِحُبِّ أَبِي لَهُ وَأُعْجِبُ... فَقَاطَعَتْهَا مَيْمُونَةُ:
وَأَنْكَ سَوْفَ تُحِبُّنِي بِحُبِّ قَلْبِكَ وَحُبِّ أَبْنَائِكَ أَيْضًا.

جَمَدَتْ فَاطِمَةُ سَاعَةً، وَصَبَّغَهَا لَوْنٌ قَدْ يَكُونُ أَزْهَرَ، وَقَدْ يَكُونُ نَاطِقًا، ثُمَّ
قَالَتْ بَعْدَ لَأَيٍّ: حَسْبُكَ، لَقَدْ فَهِمْتُ الْآنَ، فَهِمْتُ كُلَّ شَيْءٍ. إِنَّهُ يُحِبُّهُ، وَيُحِبُّهُ إِلَى
حَدِّ كَبِيرٍ وَلَكِنْ... وَضَعَطَتْ عَلَى كَلَامِهَا وَأَخَذَتْهَا إِطْرَافَةُ مُفَكَّرَةٍ لَمْ تُحَاوِلْهَا مَيْمُونَةُ
صَرَفًا عَنْهَا، وَرَأَتْ حَسَنًا أَنْ تَنْصَرِفَ وَتَتْرُكَهَا إِلَى خَوَاطِرِهَا وَأَفْكَارِهَا.

بَعْدَ أَيَّامٍ مِنْ جَوَارِيهَا أَذْنَاهَا التَّبَيُّ إِلَيْهِ، وَأَغْلَمَهَا فِي أَحَادِيثِ بَيْنِ الْحَنَانِ
وَالْإِشْفَاقِ، فَمَرَّتْ فَاطِمَةُ فِي سُبَابِ وَاجِمٍ، وَكَانَ طَوِيلًا غَالِبَتْ فِيهِ عَوَاطِفُهَا مُغَالِبَةً
شَاقَّةً، وَقَالَتْ فِي جُهِدٍ مِنْ مَشَاعِيرِهَا:

«يَا رَسُولَ اللَّهِ! زَوَّجْتَنِي بَرَجُلٍ فَقِيرٍ لَا شَيْءَ لَهُ.

فَقَالَ النَّبِيُّ: أَمَّا تَرَوِّصِينَ يَا فَاطِمَةُ أَنَّ اللَّهَ اخْتَارَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ رَجُلَيْنِ، جَعَلَ أَحَدَهُمَا أَبَاكَ، وَالْآخَرَ بَعْلَكَ»^(٣).

وَكَانَ لِلْكَائِمَةِ النَّبِيِّ فِي أُذُنِ فَاطِمَةَ مَعْنَى كَمَا تَحْمِلُ الْأَلْفَاظُ، وَفِي قَلْبِهَا مَعْنَى آخَرُ هَذِهِ الْأَفَاظَةُ: إِنَّ الْغِنَى لَيْسَ شَيْئاً فِي الْمَالِ، وَهُوَ أَصْطِلَاحٌ زَائِفٌ اخْتَرَعَهُ مَكْرُ الشَّهَوَاتِ فِي عَقْلِ الْمَدَنِيَّةِ الْمَذْخُولِ، وَإِنَّمَا الْغِنَى شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى الْإِنْسَانِي الَّذِي هُوَ نَامُوسٌ خَالِدٌ يَدُورُ عَلَيْهِ التَّفَاضُلُ فِي ظِلِّ الْوُجُودِ. فَالزُّهْرَةُ تَكُونُ أَبْهَى وَأَحَبَّ وَأَعْنَى بِمَا فِيهَا مِنَ الْمَعْنَى الزُّهْرِيِّ، الَّذِي هُوَ الْجَمَالُ وَالْعَبِيرُ، وَلَيْسَ بِمَا يَتَلَقَّى عَلَيْهَا وَهُوَ خَارِجٌ عَنْ مَعْنَاهَا. وَالضُّوْءُ يَكُونُ أَعْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الضُّوْثِيِّ كَذَلِكَ، وَالْأَسَدُ يَكُونُ أَعْنَى بِمَا فِيهِ مِنَ الْمَعْنَى الْأَسَدِيِّ، وَهَكَذَا كُلُّ شَيْءٍ غِنَاهُ عَلَى مِقْدَارِ مَا فِيهِ مِنْ مَعْنَاهُ... فَالْغِنَى ذَاتِيَّةٌ مُطْلَقَةٌ ثَابِتَةٌ، وَالْمَالُ نِسْبِيَّةٌ مُضْمَحَلَّةٌ، وَلَا تَكُونُ شَيْئاً إِذَا لَمْ تَكُنِ الشَّهَوَاتُ كُلُّ شَيْءٍ، وَلَا تَجِدُ قِيَمَتَهَا إِلَّا فِي مَدَى مَسَافٍ الْغَرَائِزِ وَمَسَاقِطِهَا.

وَالْمَرْأَةُ تَسْتَكْمِلُ مَعْنَاهَا بِإِنْسَانِيَّةِ الرَّجُلِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهِ وَمَا يَزِينُ هَذِهِ الْبَهِيمِيَّةَ وَيُكْمِلُهَا، كَمَا يَسْتَكْمِلُ الرَّجُلُ مَعْنَاهُ بِإِنْسَانِيَّةِ الْمَرْأَةِ دُونَ بَهِيمِيَّتِهَا وَمَا يُكْمِلُهَا. وَالْمَالُ مُكْمِلٌ لِلْبَهِيمِيَّةِ الطَّائِشَةِ، وَلَيْسَ شَيْئاً وَرَاءَهَا أَوْ بَعِيداً عَنْهَا. وَلَنْ تَشْعُرَ الْمَرْأَةُ بِذَاتِيَّتِهَا، وَتَعْتَدَّ بِكِبَرِيَاءِ مَعْنَاهَا، إِذَا كَانَ الْمَالُ شَارِياً وَالرَّجُولَةُ، مِنْ وَرَائِهِ، كَسِيفَةً خَائِبَةً وَبَازِرَةً مُتَوَارِيَةً، وَإِنَّمَا يَأْخُذُهَا إِحْسَاسٌ غَمِيقٌ بِأَنَّهُ لَمْ يَضْمُمْ بِهِ مَعْنَى إِلَى مَعْنَى بَلْ حَيَوَانِيَّةٌ مَبْدُولَةٌ وَجَدَتْ ضَعْفَهَا إِلَى حَيَوَانِيَّةٍ بَازِلَةٍ وَجَدَتْ قُوَّتَهَا، فَتَذْهَبُ تِلْكَ ذَاوِيَّةٌ وَيَأْخُذُهَا تَلَاشٍ سَرِيعٌ، وَتَذْهَبُ هَذِهِ مُتَتَفِّحَةً وَيَأْخُذُهَا جَبَرُوتٌ سَرِيعٌ، وَيُنْتَهِي الْمَالُ وَقَدْ عَمِلَ بِأَنَّهُ أَلْصَقَ عَبْدًا يَرْبُ، وَلَمْ يَضْمُمْ إِنْسَانِيَّةً إِلَى إِنْسَانِيَّةٍ تَجِدَانِ وَخَدَتَهُمَا، بَلْ تَبَازُّنٌ عَلَى مِثْلِ الطَّيْرِ فِي مِخْلَبِ الطَّيْرِ تَكُونُ الدَّعَابَةُ مِنْهُ نَهْسَةً يُشْعِرُهُ فِيهَا بَهْوَانِيَّةً، وَإِنَّهُ فِي مَكَانِ النَّهَايَةِ مِنْ قِمَمِهِ؛ وَتَكُونُ نِهَايَةُ زَوَاجِ الْمَالِ آسِزَوْقَافاً أَوْ

(٣) راجع كتاب: الرياض النضرة في مناقب العشرة للمُحِبِّ الطَّبْرِي، ج ٢، ص ١٨٢.

أفتراساً في شعور القلب، وتكون في شعور المجتمع اختلالاً في توازن الأسرة يُصيبها بالفساد، ويتجاوز بآثره إلى توازن الجماعة فتختل وتضطرب. وفي كلمتي: زواج وقران رائحة هذا المعنى، بيد أن الأولى قصيد فيها إلى الروح وأحاسيسها، والثانية قصيد فيها إلى الواقع الاجتماعي وأرتساماته. فزواج المال ليس فيه مغناه، وإنما فيه معنى العقد الذي هو آختيال بقانون.

والأنثى إذا لم تُز فضاء الرجل النفسي فما تريد عن أنها جسد فقط. والرجل إذا لم يُز فضاء المرأة النفسية فما يريد عن أنه جسد فقط، والزواج في جس الروح فضيلة تكمل فضيلة، ونور يمد نور.

وكان معنى اختيار علي إلى جنب النبي جمع كل الإنسانية فيه، وجاء معه علامة على أن الإنسانية بكل ما ثبت فيها، لن تتحرف عن النبوة الجديدة بكل ما ثبت فيها. فكانت فاطمة منهما بين مصدر إشراق الثور ومجلى انعكاسه، وموجات الشعاع تمر متألقة في جو نفسها المتسامية أبداً.

ومر في نجوى قلبها: إن أبي يقول في تعبير آخر، ظهرت حقيقة الخلق في عالم الإبداع الإلهي بمظهرين: مظهر النبي الكامل، ومظهر الإنسان الكامل، وحبیب إلى نفسي أن يكون حظي هذا الإنسان.

«وأمر النبي أن يُجهزوا فاطمة فحمل لها سريراً مشروطاً بالشرط، وقال لعلي: إذا أتتك فلا تحدث شيئاً حتى آتيك... فجاءت مع أم أيمن حتى قعدت في جانب البيت وعلي في جانب، وجاء رسول الله، فقال:

- ههنا أخي؟

قالت أم أيمن: أخوك وقد زوجته أبنتك!

قال: نعم...

وَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ الْبَيْتَ، فَدَعَا بِمَاءٍ، فَقَالَ فِيهِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَقُولَ، وَدَعَا فَاطِمَةَ فَجَاءَتْ خَرَقَةً مِنَ الْحَيَاءِ تَغْتُرُ فِي مِرْطِهَا، فَتَضَخَّ عَلَيْهَا وَقَالَ لَهَا:
- إِنِّي لَمْ آلْ أَنْ أُتِّكَحِكَ أَحَبُّ أَهْلِي إِلَيَّ، اللَّهُمَّ إِنِّي أُعِيدُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ...

وَرَأَى رَسُولُ اللَّهِ سَوَاداً وَرَاءَ الْبَابِ، فَقَالَ:

- مَنْ هَذَا؟

قَالَتْ: مَيْمُونَةُ.

قَالَ: مَيْمُونَةُ أُنَحْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: أَمَعَ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ جِئْتِ كَرَامَةً؟

قَالَتْ: إِي وَائِمُ اللَّهِ... فَدَعَا لِي دُعَاءً أَنَّهُ لَا وَثِقُ عَمَلِي، ثُمَّ خَرَجَ فَمَا زَالَ يَدْعُو لَهَا حَتَّى ضَمَّهُ مَنْرَلَهُ^(٤).

*

يَظَلُّ الزَّمَانُ حَقِيقَةً مَوْهُومَةً، لَوْلَا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَالِدَةِ الَّتِي تُؤَرِّخُهُ...

وَتَكُونُ هَذِهِ الْأَعْمَالُ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، لِأَنَّ حَقِيقَتَهُ بَعْضُ هَيَاتِهَا...

فِيَوْمِ عَلِيٍّ وَفَاطِمَةَ أَكْبَرُ مِنَ الزَّمَنِ، وَأَخْلَدُ مِنَ التَّارِيخِ!...

أَثْبَتَتِ النَّبُوَّةُ مَغْنَاهَا الْخَالِدَ فِي رُوحِيَّةِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

وَأَثْبَتَتِ النَّبُوَّةُ ذَاتِيَّتَهَا الْخَالِدَةَ فِي دَمِ الْإِنْسَانِ عَلَى وَجْهِ...

(٤) راجع كتاب: الرياض التضرعة، في مناقب العشرة للمحب الطبري، ج ٢، ص ١٨١ و ١٨٢.

فيومُ عليّ وفاطمة، بداءةُ حياةِ النبوةِ الخالدةِ في الدماءِ!...

*

كانتِ النبوةُ ستظلُّ ذكرى فقط...

ولكن شاءَ الله أن تكونَ حياةً أيضاً...

فيومُ عليّ وفاطمة، إنقضاءُ حياةِ النبوةِ على الدهور!...

*

تَضَعُ الحَقِيقَةُ الكُبْرَى خِصَائِصَ مَعْنَاهَا فِي النَّوَاةِ، لِأَنَّهَا تُرِيدُ الْبَقَاءَ...

وَالنَّوَاةُ لَا تَخْتَلِفُ فِي خِصَائِصِهَا إِلَّا إِذَا كَانَ لِنَامُوسِ الْوِرَاثَةِ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَخْتَلِفَ...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ بُرُوزِ النَّوَاةِ عَنْ مِثْلِ خِصَائِصِهَا فِي شَكْلِ آخَرٍ!...

*

تَذْهَبُ النَّوَاةُ الَّتِي هِيَ مَخْزُونُ الْخِصَائِصِ، تُنِيمُ دَوْرَتَهَا وَتُعْطِي أَسْيَاءَهَا...

وَالنَّبُوَّةُ فِكْرَةُ السَّمَاءِ الْمُصْلِحَةِ فِي مُحِيطِ الْبَشَرِ...

فيومُ عليّ وفاطمة، طَبْعُ لِعَقْلِيَّةِ النَّبُوَّةِ فِي عَقْلِ النَّاسِ!...

*

إِجْتَمَعَتْ فِي عَلِيِّ قَابِلِيَّاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

وَأَجْتَمَعَتْ فِي فَاطِمَةَ إِشْرَاقَاتٌ لَا حَدَّ لَهَا...

فيومُ عليّ وفاطمة، يَوْمُ نَظَرِ النَّبُوَّةِ إِلَى نَفْسِهَا فِي الْمِرْآةِ!...

* * *

يوم الإيمان الشامخ(*)

جَمَدَتْ في مآقي النَّاسِ دَمْعَةٌ حَزَى لَمْ يَكُنِ الحُزْنَ كُلَّ مَغْنَاهَا، كَمَا لَمْ
تَحُلْ مِنْ بَعْضِ مَغْنَاهُ، فَقَدْ آتَصَلَتْ بِكُلِّ قَلْبٍ أَسْبَابَ حُزْنٍ مَرِيرٍ، حِينَ اسْتَفَاقَ
النَّاسُ بَعْدَ أُحُدٍ^(١) عَلَى مَشْهَدِ البَطُولَةِ الكَلِيمَةِ الجَرِيحَةِ.

وَجَرَّاحِ البَطُولَةِ لَا تَقْدِفُ فِي النُّفُوسِ ضَعْفَ الأَلَمِ بَلْ كِبَرِيَاءَهُ، وَلَا تُلْفُهَا
بِذَلَّةِ التَّجَرُّبَةِ وَلَكِنْ بَتَّجِدِيدِهَا فِي عَزِيمَةِ تَضَاعَفَتْ حَقِيقَتُهَا، وَتَمَدَّدَتْ فِي كُلِّ أَشْيَاءِ
الحَيِّسِ. فَإِنَّ الأَلَمَ، مَعَ الإِيمَانِ، ظُهُورٌ لِدَاتِيَةِ الوجودِ بِقُوَّتِهَا، كَمَا يَكُونُ الأَلَمُ، مَعَ
الجُحُودِ، ظُهُوراً لِدَاتِيَةِ العَدَمِ بِتَلَاشِيهَا.

وإِنَّ الأَلَمَ فِي غَايَتِهِ تَحَدٍّ، وَتَحَدِّي القُوَّةِ مُبَالَغَةُ القُوَّةِ فِي إظهارِ طَبِيعَتِهَا
وَمَغْنَاهَا، وَتَحَدِّي الضَّعْفِ مُبَالَغَةُ الضَّعْفِ فِي إظهارِ طَبِيعَتِهِ وَمَغْنَاهُ.
وَتَرَاوُ القُوَّةُ إِذَا أُصِيبَتْ زَيْيَرُ القُنْبُلَةِ إِذَا آنْفَجَرَتْ، وَهِيَ تُعَبِّرُ عَنْ أَنَّ فِي بَعْضِ

(٥) أُلْقِيَ هَذَا القَضْلُ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ سَنَةِ ١٩٤٢ فِي قَاعَةِ الوَسْطِ هَوَلِ مُنَاسَبَةِ حَفْلِ المَوْلِدِ النَّبَوِيِّ، وَكَانَ مُقْصُوراً
عَلَيَّ وَعَلَى الذَّكُورِ عُمَرِ الدَّسُوقِيِّ الَّذِي أُلْقَى قَصِيدَةً، وَكَانَ عَرِيفَ الحَفْلِ الذَّكُورِ جَمِيلِ عَرْدَاتِي أُسْتَاذِ
الطَّبِّ فِي الجَامِعَةِ الأَمِيرِكِيَّةِ.

(١) جَبَلٌ فِي الحِجَازِ قُرْبَ المَدِينَةِ، كَانَتْ فِيهِ مَغْرَكَةٌ شَهِيرَةٌ بَيْنَ النَّبِيِّ وَأَتْبَاعِهِ، وَبَيْنَ المُشْرِكِينَ وَشُعْبَتِهَا
المُشْرِكُونَ كَمَغْرَكَةِ نَارِيَّةٍ يَمُتَّعُكَ بِذُرِّ الكُبْرَى، وَوَقَعَتْ الوَاقِعَةُ فِي صُغُوفِ أَتْبَاعِ النَّبِيِّ لِأَنَّهُمْ تَرَكُوا المَوَاقِعَ
الْمُتَرَاتِبَةَ الَّتِي عَيْنُهَا لَهُمُ النَّبِيُّ قَبْلَ نِهَايَةِ المَغْرَكَةِ، حِينَ ظَهَرَتْ تَبَاشِيرُ الطُّغْرَى أَوَّلًا فِي جَانِبِهِمْ، كَمَا هُوَ
مَنْزُورٌ فِي كُتُبِ السِّيَرِ وَالتَّارِيخِ.

الكسر ما هو انطلاقاً لأعمق القوّات الكامنة. وتؤعد إزعاد الأسد إذا خائنه الموقف، وهو يعبر عن أنه الأسد بطبيعته المخزونة التي شاء الموقف أن يُطلقها به. وتلك القوّات وهذه الطبيعة لا تنطلقان إلا بكسر أو جرح، وهما تحسان به إحساس المادة الملتهية بالتآر، لا تميل بها إلى ضمور العدم بل إلى كبرياء الوجود، ثم لا تدفعها إلى استسلام كسيف، وضموت طامس، بل إلى اعتداد رهيب وزد مصم، ويكون الكسر، أو الجرح، قد أضاف إلى معناها معنى جديداً، أو سمح لكل طبائعها بالظهور.

وكذلك يكون شعور القوي بالألم إغراء لقوته على أن تنطلق وتنقض ظامته، كما يكون شعور الضعيف بالألم إغراء لضعفه على أن يترز ويبدو في انعس أشكال العبوديات الدلية^(٢) مهانة وخوراً.

والإيمان قوة تصنع البطولات المشتهية. ويوم أحد يوم أصيبت البطولة فيه، فكان آتداء إحساسها بالألم آتداء شموخها الذاهب في السماء والمتحدب مع الآفاق... والدماء الصبية لا تلهم الأبطال روعة الدم الراهبة بل رجفة الدم النابضة، ولا تمر بهم إلا وقد استحالوا قوى موعدة منقضة في مسافات أشواطها، لا يحول دونها إلا ما قدير له أن لا يكون.

والألم للإيمان كالحركة للحياة، فمريان الحرارة فيهما، وكما تذهب الحياة بدون الحركة في ضمور، يحور الإيمان بدون الألم في تلاش، وتأخذ همود سحيق. والإيمان قوة، ولكن سرعان ما تتقلل حرارته في أعماق النفس، إذا لم يركزها الألم ويقرنها من عمليّة الحياة.

وإن حركات التاريخ، برميته، تقع بين جواذب الألم ودوافعه، بل تحطى

(٢) العبوديات الدلية هي عبودية الإنسان للإنسان على أشكالها. وأما العبودية لله التي جاءت بها الأديان فإنها تحرير للنفس الإنسان من شتى العبوديات، وإشعارها بكبرياء الذات.

الشَّوْءُ لِلْكُلِّ الاجْتِمَاعِيِّ تَنْتَظِمُ بَيْنَ هَذَا الدَّفْعِ وَهَذَا الْجَذْبِ، وَكَانَتْ أَكْبَرُ الْحَرَكَاتِ لَا تَرِيدُ، فِي جَوْهَرِهَا، عَنْ أَنَّهَا إِيمَانٌ بِفِكْرَةٍ وَأَلَمٌ فِي الْإِيمَانِ، وَأَبْدَأُ لَا يَشْتَدُّ الْإِيمَانُ وَيَخْطُو صُعْدًا إِلَّا إِذَا قَدَحَ الْأَلَمُ زِنَادَهُ، وَطَايَرَ بِالْشَّرِّ. وَفِي مُحِيطِ الْمَادَّةِ، فِي مُحِيطِ الرُّوحِ، نَفْسُ التَّامُوسِ، فَإِنَّ الْجِسْمَ الْمَادِّيَّ الضَّعِيفَ يَلِينُ عَلَى الْأَلَمِ، بَيْنَمَا الْجِسْمُ الْقَوِيُّ يَشْتَدُّ وَيَهْيِجُ حَتَّى يَمَلَأَ الْفَضَاءَ، مُشِيرًا إِلَى قُوَّتِهِ وَأَنَّهُ لَمْ يَهْنُ.

فَإِذَا كَانَ فِي يَوْمٍ بَدَرٍ بَعْضُ الظَّفَرِ، فِي يَوْمٍ أُحْدِ كُلُّ الظَّفَرِ لَأَنَّ الْإِيمَانَ أَحْسَنَ بِقُوَّتِهِ، وَأَنَّهُ شَيْءٌ، وَبَدَأُ يَخْطُو فِي ذَاتِيَّةٍ وَأَعْتِدَادٍ.

إِنْدَقَعَ النَّاسُ إِلَى النَّاسِ «يُهْنِيءُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا» بِأَنَّهُمْ، وَإِنْ خَسِرُوا الْمَعْرَكَةَ، فَقَدْ رَبَحُوا الْإِيمَانَ بِالْمُبَادَىءِ، وَرَبَحُوا الْعَقِيدَةَ الَّتِي ظَهَرَتْ سَلَامَتُهَا، وَأَنَّهَا رِبَاطٌ تَسْتَلِي لَهُ أَنْ يَجْمَعَ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ وَيَمَزْجَ نَفْسًا بِنَفْسٍ، وَأَنَّهُ لَنْ يَتَفَلَّلَ عَلَى الضَّغْطِ، مَهْمَا كَانَ عُقُوبَتُهُ، وَمَهْمَا جَاءَ مِنْهُ.

ظَهَرَ أَنََّّهُمْ لَا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ شَهَوَاتِ الْأَرْضِ بِمَا أَكْتَظَّتْ بِهِ مِنْ أَهْوَاءٍ، وَآخْتَفَلَتْ بِهِ مِنْ مَطَامِعٍ، وَأَمَّا تَجْمَعُهُمْ جَامِعَةٌ مِنْ رَغَبَاتِ السَّمَاءِ، وَرَغْبَةُ السَّمَاءِ فِي تَطْهِيرِ مَا عَلَى الْأَرْضِ مِنْ شَهَوَاتٍ وَأَرْجَاسٍ تَمُورُ مَوْرَانًا، وَتَسُوقُ الْجُمُوعَ الْإِنْسَانِيَّةَ بَعْنِفٍ وَقَشِرٍ إِلَى حَيْثُ لَا تَكُونُ إِنْسَانِيَّتُهَا، وَتُخَسِّرُ مَعْنَاهَا... وَكَانَتْ مَعْرَكَةُ أُحْدِ تَجْرِبَةً سَعِيدَةً لِأَخْتِيَارِ بِنَايَةِ مُحْكَمِ الْجَدِيدَةِ فِي أَعْمَاقِ النُّفُوسِ، فَقَدْ ثَبَّتَتْ عَلَى الْعَاصِفَةِ الَّتِي تَمَزَّقَتْ رِيَاخُهَا عَلَى صَخَرَاتِ الْإِيمَانِ الشَّامِخِ.

مَا الشَّهَوَاتُ النَّهْمَةُ؟

مَا اللَّذَائِذُ الدُّنْيَا؟

مَا الْبَلَهْنِيَّةُ وَالشَّرَفُ؟

إنَّهَا لَا شَيْءَ فِي مَذْهَبِ رَغْبَاتِهِمُ الْكَبِيرَةِ، إِنَّهَا لَا تَمُتُ بِأَفْعِدَّتِهِمُ الَّتِي بَلُورَهَا السُّمُومُ بِمَغْنَاهُ الْقُدْسِيِّ، وَحَاطَهَا حَتَّى لَا تَهْوِي مُسِيقَةً، وَتَزَوِّجَ بِالْأَوْحَالِ، إِنَّهَا أَوْحَالٌ مِنْ سَفْسَافِ الْأَرْضِ، فَهَمُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهَا بِتَقَرُّزٍ وَاسْتِغْلَاءٍ.

هَمُ فِكْرَةٌ مِنَ التَّطْهِيرِ، وَفِكْرَةٌ مِنَ الْإِصْلَاحِ وَالْعُمُرَانِ، وَصَيَّرَهُمُ الْجِهَادُ فِكْرَةً مِنَ التَّنْظِيمِ، فَكَانُوا مُعَلِّمِينَ أَطْلَقَهُمُ الْإِيمَانُ الْجَدِيدُ لِيَحْلُوا فِي عَقْلِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْمُومِ، كَمَا يَحُلُّ الْإِكْسِيرُ الَّذِي يَحْمِلُ فِي مَعْنَى الدَّوَاءِ أَبَدِيَّةَ النَّشَاطِ، وَخُلُودَ الْحَرَارَةِ وَالْحَرَكَةِ وَالْحَيَاةِ.

لَمْ يَكُنْ فَسَادُ الْمُجْتَمَعِ بِمَعْنَى ذَاتِهِ، وَإِنَّمَا كَانَ بِفِكْرَةِ أَهْوَائِهِ الَّتِي نَفَذَتْ إِلَى مَحَلِّ الضَّمَائِرِ وَتَمَدَّدَتْ، فَوَقَفَ الْفَرْدُ لِلْفَرْدِ، وَالْجَمَاعَةُ لِلْجَمَاعَةِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَقَدْ تَمَلَّؤُوا بِضَرَاوَةِ وَخَشْيَةِ كَالِحَةٍ، وَذَهَبَ كُلُّ شَيْءٍ يُكَافِئُ التِّيَّارَ، وَالْمُجْتَمَعُ يَطْفُو وَيَرْسُبُ فِي فَوْضَى اللَّجَّةِ الْعَاتِيَةِ النَّكْرَاءِ.

لَوْ تَأَتَّى لِأَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ الظَّفَرُ دَائِمًا لَتَحَوَّلَ الْإِيمَانُ، بِدُونِ شُعُورٍ، إِلَى فِكْرَةٍ مَادِّيَّةٍ مِنَ الْغَنَائِمِ وَالْأَسْلَابِ، وَتَبَخَّرَ عَلَيْهِمْ مَغْنَاهُ، وَلَكِنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكُونَ جِهَادُهُمْ جِهَادَ إِيمَانٍ فَقَطْ، فَكَانَ فِي ظَفَرِهِمْ وَإِخْفَاقِهِمْ ظَفَرٌ لِفِكْرَةِ الْإِصْلَاحِ الَّتِي يَحْمِلُونَهَا، ذَاكَ فِي التَّفَوُّقِ وَحَيِّزُهُ الْوَاقِعُ، وَهَذَا فِي التَّرْكِيزِ وَحَيِّزُهُ النَّفْسُ.

وَقَدْ أَظْهَرُوا أَنَّهِمْ مُؤْمِنُونَ فَقَطْ، اسْتَهْوَتْهُمْ الْفِكْرَةُ وَأَخَذَتْ عَلَيْهِمْ أَحَاسِيْسُهُمْ، وَتَفَجَّرَتْ فِي خَلَايَا نُفُوسِهِمْ بِنَابِيعٍ، فَهَمُ لَا يَنْدَفِعُونَ بِدَافِعٍ مِنْ شَهْوَةِ النَّاسِ فِي لَذَّةِ الْحَيَاةِ، بَلْ بِدَافِعٍ مِنْ تَطَلُّعِ الْعَقْلِ وَشُعُورِ الْقَلْبِ فِي لَذَّةِ الْإِيمَانِ. وَقَدْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يُلَقِّنَهُمْ دَرْسًا بِالْعَا فِي أَنَّ الْإِيمَانَ لَا تَظْهَرُ حَقِيقَتُهُ إِلَّا فِي الْأَلَمِ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ فِي مَظْهَرِ الْعَضَارَةِ الرَّخِيَّةِ إِيْمَانٌ بَلِيدٌ مُنْحَلٌّ، أَوْ لَيْسَ شَيْئًا خَالِدًا فِي شُعُورِ النَّفْسِ.

«أَذُنْ مُؤَذِّنُ رَسُولِ اللَّهِ، غَدَاةٌ مُنْصَرِفُهُ مِنْ أُحُدٍ، بِالْخُرُوجِ فِي طَلَبِ الْعَدُوِّ،
وَأَنْ لَا يَخْرُجَ إِلَّا مِنْ حَضَرٍ مَعْرُكَةِ الْأَمْسِ، وَأَتْبَاعُهُ مُتَخَنُونَ بِالْجِرَاحِ.

قَالَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ لِأَخِيهِ: أَتَفَوْتُنَا عَزْوَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ؟...
وَوَاللَّهِ مَا لَنَا دَابَّةٌ نَرْكَبُهَا، وَمَا مِنَّا إِلَّا جَرِيحٌ ثَقِيلٌ. فَخَرَجْنَا وَكُنْتُ أَيْسَرَ لَجُوحاً مِنْهُ،
فَكَانَ إِذَا غُلِبَ حَمَلَتْهُ عُقْبَةٌ وَمَشَى عُقْبَةً، حَتَّى آتَيْنَا إِلَى مَا آتَنَاهُ إِلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ.
وَكَانَ النَّبِيُّ قَدْ آتَنَاهُ إِلَى حَمْرَاءِ الْأَسَدِ، وَهِيَ مِنَ الْمَدِينَةِ عَلَى ثَمَانِيَةِ أَمْيَالٍ، وَأَقَامَ
بِهَا الْإِثْنَيْنِ، وَالثَّلَاثَاءَ وَالْأَرْبَعَاءَ»^(٣).

كَانَ رَجْعُ الْأَلَمِ فِي الْإِيمَانِ هَبَّةً لَا تَعْرِفُ الْوَنَى، وَلَا تَتَّصِلُ بِالْفُتُورِ
وَالِاسْتِخْدَاءِ، إِنَّهَا أَنْطَلَقَتْ أَشَدَّ مَضَاءً وَأَكْثَرَ أَنْدِفَاعاً، فَقَدْ أَحْسَسَتْ الْقُوَّةُ
بِاعْتِدَادِيَّيْهَا، وَغَمَرَتْهَا مَوْجَةُ الْكِبَرِيَاءِ لِأَنَّهُمْ تَحَدَّوْهَا وَاسْتَنَارَوْهَا، وَالْقُوَّةُ، إِذَا
أَسْتَشِيرَتْ، تَنْشِيرُ طَاقَاتٍ فِي أُخْرَى أَكْبَرَ مِنْهَا، حَتَّى تَشُدَّ الْأَفَاقَ وَتَمَلَأَ أَفْطَارَ
الْفَضَاءِ، كَمَا دَاةُ الْفَحْمِ فِيهَا مَخْرُورٌ مِنَ الْقُوَّةِ، تَعْلُقُ بِهَا شَرَارَةً وَتَتَّصِلُ حَتَّى تُؤَجِّجَ
بِالشَّرَرِ.

قَالَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْجَدِيدَةُ، بَعْدَ التَّحَدِّيِّ وَاتِّظَارِ الرَّجْعِ، (أَنَا) وَهِيَ شَامِخَةٌ
بِمَغْنَاهَا، وَوَلَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعَتِيقَةُ الْمُتَهَرِّثَةَ مُتَسَاوِطَةً مُتَوَارِدَةً إِلَى أَوْكَارِهَا، وَهِيَ
شَامِخَةٌ بِخَيَالِ الْمَعْنَى الضَّائِعِ وَالْمُصَادَفَةِ الْعَارِضَةِ، كَالَّذِي تَغْفُرُ بِهِ قَدَمُهُ فَيَهْوِي إِلَى
خَفِيرٍ فِيهِ كَنْزٌ، فَإِنَّهُ يُحْسِنُ بِالْإِتْيَاحِ إِلَى مَا صَادَفَ مِنَ الثَّرْوَةِ، وَلَكِنَّهُ لَا يُحْسِنُ أَبَدًا
بِفَخْرِ الثَّرْوَةِ، لِأَنَّهُ لَا تَتَّصِلُ بِذَاتِهِ اتِّصَالُ الْإِبْجَادِ، وَإِنَّمَا تَتَّصِلُ بِأَطْمَاعِهِ اتِّصَالُ
الرَّغْبَةِ بِمَا يُبِيرُهَا وَيُخَرِّكُهَا.

وَكَانَ الْفَرْقُ بَيْنَ الشَّاعِرِ بِمَغْنَاهُ، وَالْغَائِضِ فِيهِ مَغْنَاهُ، كَالْفَرْقِ بَيْنَ مَنْ يَشْقُطُ

(٣) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٩٠.

في حفير فينسى الألم، ويشتد في إحساس أنه لم يزل حياً وسيعيد التجربة، أو يطمئن في إحساس أنه حي بحياة المبدأ الذي قضى دونه... وبين من يشق في حفير فينسى الحياة والقوة، ويهون في إحساس جراحاته وكسوره، أو يئأس في إحساس أنه مضغعة بين فكّي العدم الصامت. فأولهما يطرد ضعفاً بقوة، وثانيهما يضيف ضعفاً إلى ضعف... ومرّ على مسرح أحد صورة هذين الرجلين:

«أرسل النبي من يبحث عن سعد بن الربيع، أفي الأحياء هو، أم في الأموات؟... فنظر فوجده جريحاً وبه رمق في القتل.

فقال له: إن رسول الله أمرني أن أنظر أفي الأحياء أنت أم في الأموات. قال: أنا في الأموات. فأبلغ رسول الله عني السلام، وقُلْ له إن سعد بن الربيع يقول لك: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته. وأبلغ قومك عني السلام، وقُلْ لهم: إن سعداً يقول: ألا إنه لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى نبيكم وفيكم عين تطوف»^(٤).

كلمات كلها يقين وأطمئنان ورضاً بهذا المصير، وهذه النهاية التي يحس أنها كبيرة خالدة.

«قاتل قُزَمان قتالاً شديداً فقتل، وحده، ثمانية أو سبعة من المشركين، وكان ذا بأس فأثبتته الجراحة. فأختم إلى دار بني ظفر، فجعل رجالاً من المسلمين يقولون له:

والله لقد أبليت اليوم يا قُزَمان فأبشرو.

قال: بماذا أبشرو، فوالله إن قاتلت إلا عن أحساب قومي... فلما اشتدت عليه جراحته أخذ سهماً من كِنَانِيهِ فقتل به نفسه»^(٥).

(٤) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٦.

(٥) راجع: سيرة ابن هشام، ج ٢، ص ٨٢.

وسَدَلَ التاريخُ من دونِهما سِتارَهُ وأَعْلَنَ هذهَ الحَقِيقَةَ: قَضَى أَوَّلُهُما دونَ
فِكْرَةِ العَقِيدَةِ فَكانَ بَطْلاً وتَلَفَّعَ بالخُلُودِ؛ وقَضَى ثانيهما دونَ فِكْرَةِ الأَحْقادِ ونَزْغَاتِ
الأَغْصابِ فَانْحَلَّ بِانْجِلالِها، وتَلَفَّعَ بالْعَدَمِ.

وَقَفَ النَّبِيُّ وأَصْحابُهُ في حَمراءِ الأَسَدِ وَقَفَّةَ الأَسَدِ في وَثْبَتِهِ الحَمراءِ،
وتَحَدَّى طَوِيلاً، وَرَجَّعَ الفَضاءَ دَوِيَّةَ الرِّهيبِ، وَصَمَّتْ كُلُّ شَيْءٍ، وبَقِيَ الصُّدى
يُعْلِلُ غَلَبَةَ الإنسانِ الجَدِيدِ.

لَقَّتِ المَدِينَةُ أَيْتامَ لَمْ يَكُنْ فيها من سَوادِ الأَسَى أَثَرٌ كَبِيرٌ، وهي إلى أَنها أَيْتامُ
تَأْيِينَ أَقْرَبُ مِنْها إلى أَنها أَيْتامُ أَحْزَانٍ ودُمُوعٍ، على أَنَّ مِنَ الحُزْنِ ما هُوَ بِهِيْجٌ وَلَيْدُ
شُعُورٍ بالإعْجابِ، وَمِنَ الدَّمْعِ ما هُوَ ضاحِكٌ وَلَيْدُ شُعُورٍ بالأَمَلِ.

حِينَ شاعَ الإيمَانُ، بِمَغْناه الهِيامِيُّ في النَّاسِ، شاعَتِ البَطُولَةُ بِمَغْناها الرَّائِعِ في
الرِّجالِ والنِّساءِ جَمِيعاً، وأَعْطَوْا صُوراً خالِدةً تُضَافُ إلى أَشْياءِ التاريخِ الكَبيرةِ.
فكانَ لَنا مِنْ يَومِ أُحُدٍ، أَبطالٌ في شَخْصِ الشُّهَداءِ كَحَمْزَةَ، وأَبْطالٌ في شَخْصِ
الأَحْياءِ كَعَلِيٍّ، وأَبْطالٌ في شَخْصِ النِّساءِ كَنُسَيْبَةَ المَازِنِيَّةِ^(٦)، حَتَّى الطِّفْلَةُ^(٧) لَمْ
يَقْتُها نَصيبٌ مِنَ البَطُولَةِ...

في ظِلالِ التَّخيلِ الَّتِي بَدَتْ واجِمَةً في إِطْرافِةِ الحالِمِ، كانَ الشَّاعِرُ يَسْتَوْحِي
وَيَسْتَلْهِمُ، وَجَرَتْ على خَدَّيْ حَسَنانِ بَيْنَ ثابِتِ عِبْرَتِ الإعْجابِ الَّذي آتَّصَلَ

(٦) كانَ مِنْ قِصَّتِها أَنها خَرَجَتْ، في يَومِ أُحُدٍ، ومَعها بَقاءُ تَشَقِّي مَنهُ الجَرحى والرَّيْحُ لِلْمُسْلِمِينَ، فَلَمَّا
هَبَّتْ عَلَیْها أَنحازَتْ إلى الشَّيْبِ، وباشَرَتِ القِتالَ عَنْهُ تَذَبُّباً بِالشَّيْفِ وَتَرْمِي عَنِ القَوْسِ، حَتَّى خَصَلَتِ الجِراخَةُ
لَها، وفيها قالَ الشَّيْبُ: «ما أَتَفَّقْتُ مِمْناً ولا شِمالاً يَومَ أُحُدٍ إِلاَّ وَرَأَيْتُها تُقاتِلُ دوني، راجع: السيرة الحلبية،
ج ٢، ص ٢٣٠.

(٧) قِيلَ سَمُرَةٌ بِنْتُ جُنْدُبٍ لَمَّا رَدَّه النَّبِيُّ يَومَ أُحُدٍ لِصِغَرِ سِنِّه، وأَجازَ رافعُ بْنُ خَدِيجٍ، قالَ لِرَؤُوسِ أَهْلِهِ: أَجازَ
الشَّيْبُ رافعاً وأنا أَصرَعُهُ، فقالَ الشَّيْبُ: تَصارَعَا فَصرَعَهُ، فَأَجازَهُ وَضَمَّهُ إلى الجَيْشِ. راجع: السيرة الحلبية، ج ٢،
ص ٢٢٠.

بعاطفة مُلتاعةٍ محزونةٍ، وكانت نفسه مُكنَّظةً بمشاعرٍ شتى، آكتِظاظَ اليومِ الغابرِ
بالروائعِ الخالدةِ، ومَرَّتْ به نَسَمَاتُ أَجَاشَتْ عَلَيْهِ شَاعِرِيَّتُهُ، فَأَطْلَقَهَا عَلَى هَيْبَتِهَا فِي
كُلِّ مَجَالٍ.

لَقَدْ كَانَ هَذَا الْيَوْمُ مَادَّةَ الْمَلْحَمَةِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَفْقُودَةِ، لَوْ تَأَتَّى لِشَاعِرِ خَالِدٍ أَنْ
يَسْتَلْهِمَهُ، وَيُبْرِزَ مَا قَدْ طَفَا عَلَى سَطْحِهِ مِنْ رَوَائِعٍ، يَتَّقُلُهَا نَقْلًا أَمِينًا لَا تَقِيلُ عَنْ رَوْعَةٍ
وَاقِعِهَا. فَإِنَّ مَلْحَمَةَ تَكُونُ مَادَّتُهَا هَذَا الْيَوْمُ تَظَلُّ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَدَاةٌ بَغْتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ
مِنْ أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْمُسْلِمِينَ، وَتَتَجَدَّدُ كُلَّمَا جَدَّدَ الْعَرَبُ وَالْمُسْلِمُونَ حَرَكَاتِ الْإِنْبِعَاطِ
وَعَزَمَةِ الثُّهُوسِ، وَكَانَ أَهْرَزَ مَا تَرَكْتَ مَعْرَكَةً أُحْدٍ هَذِهِ الْحَقَائِقُ:

إِنَّ نَجَاحَ الْأَعْصَابِ فِي الْكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ نَجَاحِ الْإِيمَانِ مِنَ السَّيْطَرَةِ، وَإِنَّ
قِيَمَةَ الْكِفَاحِ عَلَى مِقْدَارِ قِيَمَةِ الْفِكْرَةِ الَّتِي يَحْتَدِي مِنْ أَجْلِ تَوْكِيزِهَا، وَإِنَّ الْكِفَاحَ
الظَّافِرَ لَا يَكُونُ إِلَّا حَيْثُ تَكُونُ الْعَقِيدَةُ الصَّلْبِيَّةُ، وَإِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فَلَا يَزِيدُ
الْكِفَاحُ عَنْ أَنَّهُ فَوْزَةٌ مُتَرَاجِعَةٌ، وَحَرَكَةٌ مُحْتَضِرَةٌ، وَلَا يَزِيدُ هَذَا الْبُعْثُ عَنْ أَنَّهُ بَعْثُ
فِيهِ بُرُودَةُ الْمَوْتِ وَمَغْزَى الْأَنْجِلَالِ.

وَطَلَعَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي لَذَّةِ إِنْشَائِهِ وَإِنْشَادِهِ، الْحَجَّاجُ بْنُ عَلَاطِ السَّلْمِيِّ، وَكَانَ
شَاعِرًا مَفْتُونًا شَاعِرِيَّةً بِبُطُولَةِ عَلِيِّ يَوْمَ أُحُدٍ، فَرَاخَ يَفْتَنُ بِالْوَانِيَا وَيَتَغَنَّى بِأَيَاتِهَا.
فَأَوْسَعَ لَهُ حَسَنًا فِي مَجْلِسِهِ، وَقَالَ:

كُنْتُ أَشْتَهِي لِقَاءَكَ مُنْذُ الْيَوْمِ، وَأَحْسَبُ مَا يُقَالُ، مِنْ أَنَّ فِي قُلُوبِ الْأَخْلَاءِ
آذَانًا تَتَّصِلُ بِكُلِّ مَا فِي النَّفْسِ مِنْ رَغَبَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَتُحِسُّ بِهَا لَحْنَهَا، حَقِيقِيًّا
جِدًّا.

فَقَالَ السَّلْمِيُّ فِي دُعَابَةِ مُفْتَرَّةٍ: وَلَا سِيَّما إِذَا كَانَ الْأَمْرُ بَيْنَ شَاعِرَيْنِ
شَيْطَانَاهُمَا الْمَعْيَانِ.

فَلَمْ يَبْدُ عَلَى حَسَنٍ مَا كَانَ يَنْتَظِرُ مِنْ أَثَرِ الدُّعَابَةِ الْعَارِضَةِ، وَإِنَّمَا أَخَذَهُ إِطْرَاقُ

خاشع، حتى لقد أحسَّ السِّلْمِيُّ أَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ الْمَجْلِسَ وَالْحَدِيثَ.

فَقَالَ لَهُ: مَا بَكَ؟ أَرَأَيْكَ كَالْمَأْخُوذِ عَنْ نَفْسِهِ!

قَالَ حَسَّانُ: تَعَاظَمَنِي يَوْمُ أَحَدِ بَنَاهَاوِيلِهِ، حَتَّى لَقَدْ ضَاقَتْ شَاعِرِيَّتِي بِتَغْضُ مَا جَمَعَ، وَأَحْسَبُ أَنَّ الْقَوْلَ فِيهِ إلهَامٌ مِنَ الْإلهَامِ، وَلَيْسَ شِعْراً مِنَ الشُّعْرِ. أَمَا بَلَغَكَ نَبَأُ مُحْخِرِيقٍ؟

قَالَ السِّلْمِيُّ: أَنْبَأُ إِسْلَامِيهِ الَّذِي فَاجَأَ بِهِ مُنْذُ حِينٍ غَيْرِ بَعِيدٍ؟
قَالَ حَسَّانُ: كَلَّا، وَلَكِنْ نَبَأُ اسْتِشْهَادِهِ الرَّائِعِ الَّذِي جَعَلَ نَفْسِي، وَكُلَّ نَفْسٍ، تَذْهَبُ فِي الدَّهْشَةِ كُلِّ مَذْهَبٍ.
قَالَ السِّلْمِيُّ: مَاذَا تَقُولُ؟!

قَالَ حَسَّانُ: نَعَمْ! إِنَّهُ اسْتَبْسَلَ دُونَ الْعَقِيدَةِ الَّتِي عَمِدَهَا جَدِيدَةٌ فِي قَلْبِهِ، اسْتِشْهَادَ مَنْ يُرِيدُ الْمَوْتَ أَوْ الْحَيَاةَ فِي دُنْيَا الْفِكْرِ الْجَدِيدِ.

قَالَ السِّلْمِيُّ: عَجِيبٌ أَنْتَ يَا مُحَمَّدُ. وَعَجِيبٌ إِيمَانُكَ الَّذِي يَقْتُلِعُ رَسِيسَ النَّفْسِ، بَلِ النَّفْسِ، مِنْ أَقْطَارِهَا وَنَوَاحِيهَا حَتَّى لَا يُحِسَّ الْمَرْءُ بِشَيْءٍ وَرَاءَ مَعْنَاهُ. وَنَهَضَ الرَّجُلَانِ فِي اسْتِغْرَاقِ الشَّاعِرِ حَتَّى أَفْضَا إِلَى الْحَيِّ، وَمَا آتَتْهَا إِلَّا عَلَى حَدِيثِ النَّاسِ «إِنَّ النَّبِيَّ لَمَّا آتَاهُ إِلَى أَهْلِهِ نَازِلَ سَيْفَةً أَبْنَتْهُ، فَقَالَ: آغْسِلِي عَنْ هَذَا دَمَهُ يَا بُنَيَّةُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَنِي الْيَوْمَ... وَنَاوَلَهَا عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ سَيْفَهُ، فَقَالَ: وَهَذَا أَيْضاً فَآغْسِلِي عَنْهُ دَمَهُ فَوَاللَّهِ لَقَدْ صَدَقَ الْيَوْمَ رَسُولُ اللَّهِ... فَقَالَ النَّبِيُّ: وَصَدَقَ الْيَوْمَ الْقِتَالُ سَهْلُ بْنُ حَنْظَلٍ وَأَبُو دُجَانَةَ».

كَانَتْ فَاطِمَةُ تَمُرُّ بِهَا هَذِهِ الْأَحْدَاثُ وَهِيَ بِمَرَأَى وَمَسْمَعٍ، وَفِي أَحْشَائِهَا^(٨)

(٨) لَا يُطْرَقُ أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ يَدْخُلُ فِي حَدِّ الْخَيَالِ الشُّعْرِيِّ، بَلْ هُوَ حَقِيقَةٌ نَفْسِيَّةٌ تَبَيَّنَتْ عَلَى الْبَحْثِ الْجَدِيدِ، فَقَدْ قَوَّى الْعُلَمَاءُ وَرَاةَ الْحَيِّينَ لِكُلِّ مَا يُخْتَلَفُ وَيَتَرَاوَحُ عَلَى الْأَمِّ فِي ذَرْرِ الْحَفَلِ مِنْ تَأَثُّرَاتٍ وَمَشَاعِيزٍ وَإِحْسَاسَاتٍ.

رُوحٌ جَدِيدَةٌ تَتَأَلَّفُ أَمْشَاجُهَا، فَكَانَ فِي مُجْمَلَةِ عَنَاصِرِهَا، بَلْ أَكْبَرَ عَنَاصِرِهَا، عُضْرُ
التَّضَحُّيَةِ الدَّامِيَةِ لِلْفِكْرَةِ وَالْعَقِيدَةِ.

وَقَفْتُ فَاطِمَةُ تُزِيلُ أَثَرَ الدِّمَاءِ وَقَدْ صَمَّتْ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، أَيْ^(٩) قُوَّةً إِلَى
قُوَّةٍ، فَإِنَّ السَّيْفَ رَمْزُ الْعَزْمِ عَلَى الْعَمَلِ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ سَيْفَ الْعَقِيدَةِ مُصَلَّتٌ فِي
مَدَى سَيْفِ الْمَبَادِيءِ، وَأَتَهُمَا مَعًا يَنْجَحَانِ جَمِيعًا. فَأَخَذَهُمَا سَيْفُ الْمَبَادِيءِ، وَفَعَلَهُ
فِي الْفِكْرِ، وَثَانِيَهُمَا سَيْفُ الْعَقِيدَةِ، وَفَعَلَهُ فِي الْمُجْتَمَعِ، وَبِهِمَا تَتَكَوَّنُ الرُّوحِيَّةُ الْعَامَّةُ
الظَّافِرَةُ، فَكُلُّ مِنْهُمَا يَكُونُ فِي حَاجَةِ الْآخَرِ، وَهُمَا جَمِيعًا فِي حَاجَةِ الْأُمَّةِ إِذَا أُريدَ
خَلْقُهَا أَوْ نَعْثُهَا مِنْ جَدِيدٍ. فَالْتَّبِئِي حِينَمَا خَلَقَ الْأُمَّةَ جَرَى عَلَى هَذَا الطَّرِيقِ، وَنَحْنُ،
حِينَمَا نُريدُ تَجْدِيدَ الْأُمَّةِ، نَجْرِي عَلَى نَفْسِ الطَّرِيقِ.

صَمَّتْ فَاطِمَةُ سَيْفًا إِلَى سَيْفٍ، وَكَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ حَرَكَاتِ الْخَلْقِ لَا تَنْجَحُ إِلَّا
بِقُوَّةِ الْفِكْرَةِ وَقُوَّةِ التَّضَحُّيَةِ لَهَا. وَكَانَ مَعْنَى إِضْلَالِ التَّبِئِي سَيْفُهُ أَنَّ صَاحِبَ الْفِكْرَةِ
يُنْبَغِي أَنْ يَكُونَ أَشَدَّ الْمُؤْمِنِينَ بِهَا، وَالْمُكَافِحِينَ مِنْ أَجْلِهَا، وَلَوْ عَلَى أَمْرٍ صُورَةٍ.

فَنَحْنُ نُجِلُّ مُحَمَّدًا لِرِسَالَتِهِ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، وَنُجِلُّ مُحَمَّدًا لِكِفَاحِهِ وَأَسْتِنْسَالِهِ
وَأَلَامِهِ فِي سَبِيلِهَا، إِجْلَالًا غَيْرَ مَخْدُودٍ، فَإِنَّ الَّذِي يُعْطِي فِكْرَةً وَلَا يُوقِفُ كُلَّ أَشْيَاءٍ
حِسِّهِ وَنَفْسِهِ عَلَيْهَا، جِهَادًا وَتَضَحُّيَّةً، يُبْلِلُ فِكْرَ الْجَمَاعَةِ ثُمَّ لَا يُقْبِذُ الْمُجْتَمَعَ، بَلْ
يَزِيدُ فِي مَعْنَى دَائِهِ، فَإِنَّ فِكْرَةَ الْإِصْلَاحِ لَا تَكُونُ شَيْئًا نَبِيلًا إِذَا لَمْ يَجْعَلْهَا الْكِفَاحُ
كُلَّ شَيْءٍ.

إِنَّ الْفِكْرَةَ قَدْ تُشِيرُ إِلَى آمْتِيَّازٍ مُلْهَمِهَا، وَلَكِنَّهَا لَا تُشِيرُ إِلَى خُلُودِهِ إِلَّا إِذَا
تَحَمَّلَ آلَامُهَا. وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ آلَامَ مُحَمَّدٍ الْخَالِدِ حِينَ أَدَّى رِسَالَتَهُ، وَحَمَلَ ثِقْلَ الْكِفَاحِ

(٩) إِنَّ السَّيْفَ فِي كَلَامِنَا زَمْرِي بَحْثٌ، يُشِيرُ إِلَى الْقُوَّةِ، فَسَيْفُ التَّبِئِي رَمْزُ لِقُوَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَسَيْفُ عَلِيٍّ رَمْزُ
لِقُوَّةِ الْعَقِيدَةِ. وَلَا يَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ كَلَامَنَا يَدُورُ عَلَى السَّيْفِ، الْآلَةِ الْخَدُّوَةِ، بَلْ نَعْنِي الْقُوَّةَ الْأَدْبِيَّةَ. هَذَا الشَّبِيهُ لِكَيْ
لَا يَتَوَهَّمُ السُّطَاءُ أَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَتْ قَاعِدَتُهُ السَّيْفُ، وَأَنَّا نُهَيِّبُ بِالتَّاسِ إِلَى نَهْضَةِ السَّيْفِ قَاعِدَتُهَا.

والجهاد «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ، وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ، الَّذِي أَتَقَضَّ ظَهْرَكَ»...
والوِزْرُ في الآية بمعنى الثَّقْل، وهو ثَقْلُ آلامِ الكِفَاحِ بِسَبِيلِ الرِّسَالَةِ الجَدِيدَةِ.
وكانَ وَضْعُ الثَّقْلِ عَنْهُ إِعْلَانًا بِأَنَّ إِنْسَانِيَّةَ مُحَمَّدٍ أَخَذَتْ طَرِيقَ نَجَاحِهَا،
وَقَامَتْ عَلَى قَاعِدَتَيْهَا، وَنَفَتْ مَرَارَةُ الدَّوَاءِ أَلَمَ الدَّاءِ الْمُضْمِتِ الجَهِيدِ...
بعدَ حينٍ، تَرَأَى أُحُدٌ لِلنَّبِيِّ من بَعِيدٍ، فَأَثَارَ فِيهِ ذِكْرِيَاتٍ عَذْبَةٌ بِأَشْيَائِهَا
الكَبِيرَةِ، وَأَطْيَافُهَا اللَّامِعَةِ الرَّائِعَةِ...

وكانت هذه الذِّكْرِيَاتُ قَدْ اسْتَحَالَتْ إِلَى حَنِينٍ فَحْبٍ، جَعَلَهُ رَمْزاً مِنْ
رُمُوزِ الانْبِعَاطِ وَالانْقِلَابِ وَالتَّجْدِيدِ فِي ضَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّاعِرِينَ...
فَقَالَ النَّبِيُّ يُكْرِمُهُ «إِنَّ أُحُدًا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ»، يُحِبُّنَا لِأَنَّهُ رَضِيَ عَنِ
اسْتِيسَالِنَا وَتَبَاتِنَا، وَنُحِبُّهُ لِأَنَّهُ رَمَزُ هَذَا الاسْتِيسَالِ وَهَذَا الثَّبَاتِ...
وَكأنَّ النَّبِيَّ «دَسَّنَ» بهذا المَقَالِ فِي أُحُدٍ تِمْنَالَ الإِيمَانِ الشَّامِخِ...

*

كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ يَوْمَ الشُّهَدَاءِ...
وَالشَّهِيدُ، فِي سَبِيلِ أُمَّةٍ، ذِكْرَى حَيَّةٌ فِي ضَمِيرِهَا، وَمَادَّةٌ هَامَّةٌ فِي كِبْرِيَاءِ
مَجْدِهَا...
فِيَوْمِ أُحُدٍ يَوْمُ الذِّكْرِيَاتِ الْحَيَّةِ الْخَالِدَةِ، وَلِذَلِكَ أَحَبَّهُ النَّبِيُّ، وَنَحْنُ نُحِبُّهُ وَلَا
نَنْسَى عِظَتَهُ النَّاطِقَةَ فِي الضَّمِيرِ!...
اسْتَحَالَ يَوْمُ أُحُدٍ إِلَى ذِكْرَى مِنَ الرِّوَايَعِ...
وَاسْتَحَالَتِ الذِّكْرَى إِلَى حُبٍّ وَهَيَامٍ بِالْأَمْجَادِ، مَا دَامَ عَلَى الْأَرْضِ عَرَبٌ أَوْ
مُسْلِمُونَ...

وَأُبْرِزَ الْغَيْبُ، بَعْدَ ذَلِكَ، رَوْحاً جَدِيدَةً، جَمَعَتْ طَائِفَةً هَذِهِ الْمَعَانِي وَسَمَّاهَا
النَّبِيُّ حُسَيْنًا...

وَدَارَ الزَّمَنُ دَوْرَةً قَصِيرَةً، وَثَارَ الْحُسَيْنُ وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي فِي صَوْتِهِ
الْمُرْسَل...

وَأَنْطَلَقَ النَّاسُ يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ:
تَحَوَّلَ الْيَوْمَ أَحَدٌ مَرَّةً أُخْرَى، وَثَارَ بُرْكَانُ الْإِضْطِلَاحِ يُزَلْزَلُ بِالْحِمَمِ!...

* * *

يوم الميلاد

تَنَادَتْ نِسَاءُ الْحَيِّ أَنَّ فَاطِمَةَ جَاءَهَا الْخَاضُ، وَكُنَّ يُلِمْنَ بِدَارِهَا كَوُكَبَاتٍ
كَوُكَبَاتٍ، وَيَنْتَظِمْنَ هُنَا وَهُنَاكَ كَمَا شَاءَ الْمَجْلِسُ لَهُنَّ. وَمَرَّتْ لَحَظَاتٌ أَخَذَتْ
عَلَيْهِنَّ كُلَّ مَا كَانَ يَدُو مِنْ حَرَكَاتٍ شَاءَهَا الظُّوفُ وَالْبِشْرُ، وَسَمَلَهُنَّ صُمُوتٌ
خَاشِعٌ فِيهِ بَادِيَةُ الْحَذَرِ، حَتَّى لِيَحْتَلِ لِلتَّائِيْرِ أَنَّهُنَّ دُمَيَّ مُجْتَنِحَةٌ تَطْمَحُ إِلَى شَيْءٍ فِي
غَيْرِ مَرَأَى الْعَيْنِ.

وَكَانَتْ مَيِّمُونَةُ أُخْتُ بِنْتِ عُمَيْسٍ وَخَذَهَا تُرَى غَادِيَّةً رَائِحَةً، وَمَرَّ خَاطِرُ
أَنَّكَرَتْ مَعَهُ مَوْضِعَهَا. فَقَدْ تَرَأَى لَهَا أَنَّهَا فِي مَعْبِدٍ آكُتْظُ بِالْمُجْتَنَحَاتِ الَّتِي تُطِلُّ فِي
صُورِهَا مَلَائِكٌ فِي فَرْخَةٍ خَاشِعَةٍ.

وَسَبَّحَتْ مَعَ خَاطِرِهَا وَرَاحَتْ فِي مَقْعَدِ الْأَحْلَامِ، حَتَّى لَقَدْ آتَفَصَلَتْ فَوْقَ
حُدُودِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ، فَكَانَ لَهَا عَالَمُهَا الْجَدِيدُ الَّذِي يُغَادِيهَا بُرُؤَى يَقْظَى عَلَى
خُيُوطِ التُّورِ.

حَسِبَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَاقِعًا، وَحَسِبَتْ أَنَّهَا تَغْدُو وَتَرُوحُ فِي عَالَمٍ مَا تَرَى. إِنَّهَا
أَحَسَّتْ بِلَذَازَاتِهِ طَافِحَةً حَتَّى لَقَدْ غَمَرَتْهَا.

لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ هَذَا حُلْمًا، إِنَّهُ لِأَكْبَرُ مِنَ الْحُلْمِ فِي مَذْهَبِ الْحَيِّ
الْبَادِي... هَكَذَا تَنَاجَتْ فِي حَدِيثِ نَفْسِهَا حِينَمَا أَنْبَهَتْهَا زَعْرَدَاتُ النِّسَاءِ الَّتِي

بَدَأَتْ هَمَسَاتٍ حُلُوءَ نَاعِمَةٍ:

فَقَدْ أَسْلَمَتْ فَاطِمَةُ وَلَيْدَهَا...

ولكن أين ما كُنْتُ أرى؟ أين هو أو أين أنا؟! لَسْتُ، لَسْتُ أَذْري. أَحْسَبُنِي
في مَعْرِضِ العَجَائِبِ. أَحْسَبُنِي في غُزَسِ الْأَمْلاكِ. حَقًّا إِنَّ لِلْإِنْسَانِ عَوَالِمَ شَتَى،
وهو يَعِيشُ في أَقْلَها تَطَرُّيَّةً، أو يَجْعَلُها واقِعَ الزَّمانِ والمكانِ أَقْلَ تَطَرُّيَّةً وَبَهْجَاتٍ.
هُنَاكَ في غَيْرِ واقِعِ الزَّمانِ والمكانِ يُحِسُّ الْإِنْسَانُ بِالأَشْيَاءِ مُكَبَّرَةً، وَيَتَّصِلُ بِكُلِّيَّاتٍ
مَعَانِيها لِأَنَّهُ يُحِسُّ بِكُلِّ نَفْسِهِ، وَأَمَّا هُنَا فَإِنَّهُ يُحِسُّ بِبَعْضِ نَفْسِهِ عَلَى مِقْدَارٍ مَا يَسْغُ
الواقِعُ الجَامِدُ، وَيَبْقَى كُلُّ النَّفْسِ ظَامِئًا.

لَمْ يَكُنْ مَا رَأَيْتُ حُلُمًا؟؟ إِنَّهُ خَالَطَنِي حَتَّى لَأَلْمُسُهُ. نَعَمْ. نَعَمْ. لَقَدْ أَدْرَكْتُ
الآنَ، وَالآنَ فَقَطْ، سِرَّ الثُّبُوتِ، وَسِرَّ الْقَدَاسَاتِ، وَسِرَّ الْإِلْهَامِ وَالْهَيْامِ فِي الْفِكْرِ
وَالْفَرْقِ والأَشْيَاءِ... وَإِنْ يَكُنْ حُلُمًا فَلْيَتَنِي أَظْلُ حَالِمَةٍ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ أَنْ يَكُونَ فِي
كُلِّ يَوْمٍ مِثْلُ وَلِيدِ فَاطِمَةَ، أَرَى عَلَى وَجْهِهِ أَوْ أَحْلُمُ... هَكَذَا كَانَتْ تَقُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ
نَفْسِهَا قَبْلَ أَنْ أَنْطَلَقَتْ وَغَابَتْ فِي الْجُمُوعِ الْمَائِجَةِ الْفَرِخَةِ، وَضَاعَ وَقَعُ خُطَاها فِي
الرَّزْنِ الصَّاحِكِ...

كَانَ جَمِيلًا كَحَقْفَةِ الصُّوَرِ، وَبَهِيًا كَقَطْرَةِ النَّدى وَقَدْ تَحَاصَّنَتْهَا أَكْمامُ الرَّهْرِ،
حَتَّى لَكَأَنَّها فِي جَوْءِ أَخْلَامِ ذَابَتْ فِيهِ النَّشَوَاتُ، وَاسْتَحَالَتْ إِلَى أَرِيحٍ تُهْدِدهُ أَيْدِي
النَّسِيمِ، وَكَانَ لِأَلَاءِ كَرْزَنْبَقَةِ الْغُورِ وَقَدْ مَصَّتْ إِشْرَاقَةَ الْغُرُوبِ الَّتِي خَلَفَتْ فِيها
السُّسُسُ ذِكْرَها السَّعِيدَةَ إِلَى اللَّيْلِ، وَكَانَ مِلءَ الْعَيْنِ وَالْهَوَى، حَتَّى لَقَدْ قُلْنَ: إِنَّ
الْجَمَالَ أَخْصِرَ بِهِ، أَوْ إِنَّ سَنَا الْوُجُودِ الْمُفْرَقَ جُمِعَ عَلَيْهِ، وَكَانَتْ تَحُوطُهُ، إِلَى ذَلِكَ،
هَالَةً مُشِيعَةً، فِيها جَلالُ الثُّبُوتِ وَجَمالُ الطُّهْرِ الْبَرِيِّ، وَكَانَ عَابِقًا كَأَنَّ السَّمَاءَ
أَطْلَقَتْ عَلَى الْأَرْضِ بِالْأَرِيحِ.

خَرَجَ الحُضُورُ عَنْ صُموثِيهِم، وَغَمَزَتِ الأَثِيرُ مُوجَةً بِشَرِّ ظَاهِرَةٍ خَفَقَتْ لَهَا
خَفَقَاتٍ كَانَتْ مُؤَذِّنَةً بِالوَلِيدِ السَّعِيدِ...

بَرَزَ النَّبِيُّ (ص) وَسَطَ الجُمُوعِ كَمَا تَبَرُّزُ المَنَارَةُ وَسَطَ الصُّبَابِ، هَادِيَةً
بُشَاعَتِهَا المُسْتَطِيلَةَ فِي آتِنَاقٍ وَتَدْفُيقٍ، وَأَخَذَ وَلِيدَهُ السَّنِّي يَدَيْهِ كَانَتْ حَرَكَاتٍ
أَنَامِلِيهِمَا تُعَيِّرُ عَنْ فَوَاطِ الشُّرُورِ، وَحَنَّا عَلَيْهِ حُنُوَ المَوْضِعِ يَهْمِسُ فِي أُذُنِهِ كَلِمَةً
الإِسْلَامِ الشَّامِخَةَ «اللَّهُ أَكْبَرُ! اللَّهُ أَكْبَرُ!».

وَعَامَ عَلَى مَيْمُونَةٍ، فَقَدْ كَانَتْ اليَوْمَ فِي حَسَابِيَّةٍ جِدُّ نَافِذَةٍ. وَسَعَرَتْ جِيَالَ
هَذَا المُشْهَدِ أَنَّ الأَحْيَاءَ بَنَزَعَاتِهِمْ هُمْ صَبَابُ الحَيَاةِ، وَكَثِيرًا مَا يَكُونُ مُطْبِقًا دَاكِئًا،
حَتَّى لَتَبْدُو الحَيَاةَ نَفْسَهَا كُرَّةً مِنَ الصُّبَابِ، تَدُورُ فِي مِثْلِ حَرَكَةِ الإِعْصَارِ هَادِرَةً بِمَا
فِيهَا مِنَ الأَهْوَاءِ. وَلَكِنَّ الشَّمْسَ تَطْلُعُ مِنْ وَرَائِهَا فَتُبْخِرُ مَا آسَتَوَى فِيهَا وَتَرَكَبَ
عَلَيْهَا وَعَلِقَ بِأَنْحَائِهَا، وَتَمُدُّهَا بِمَعْنَى الضِّيَاءِ فَتَعْدُو مُرْدَهِيَةً مُتَأَلِّقَةً، وَيُخْشَعُ الإِنْسَانُ
عِنْدَهَا فِي مِخْرَابِ اللَّهِ الأَزَلِيِّ. إِنَّهُ خَرَجَ مِنَ التِّيهِ، وَنَفَضَ غُبَارَ البِيدَاءِ، وَاسْتَعْلَى
عَلَى السَّرَابِ.

أَف... لِلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّ الحَيَاةَ صَبَابٌ مُتَشَتِّرٌ فِي آفَاقِ هَذَا الوجودِ، والإِنْسَانُ
يَطْفُو وَيَوْسُبُ مُغَمَّضَ العَيْنَيْنِ... إِنَّ وُجُودَهُمْ لَمْ تُشْرِقْ عَلَيْهِ هَذِهِ الشَّمْسُ الَّتِي
تَعْمُرُنَا بِبُشَاعَتِهَا، إِنَّ صُورَةَ الحَيَاةِ فِي خَيَالِ الأَعْمَى مَلَأَى بِالظُّلَامِ، وَفِي خَيَالِ
الأَعْمَى مَلِيقَةً بِالرَّمَادِ أَوْ الصُّبَابِ، وَلَكِنْ هَلِ الحَيَاةُ كَمَا تَنعَكِسُ فِي مَرَاتِيهِمْ
الْمُتَحَجِّبَةِ؟ إِنَّ شَمْسَ التَّبَوُّةِ، وَفِيهَا المَعْنَى الأَتَمَّ المُشْرِقَ لِلإِنْسَانِيَّةِ وَالحَيَاةِ، لَمْ تَسْطِعْ
فِي سَمَاوَةِ فَضَائِلِهِمْ.

هَنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، أَجِدُ حَقِيقَةَ الحَيَاةِ العَارِيَةِ تَحْتَ يَنْبُوعِ التَّبَوُّةِ وَبُشَاعَتِهَا
الْخَالِدَةِ... هُنَا، وَفِي هَذَا المَكَانِ، حَيْثُ يُبَارِكُ النَّبِيُّ إِنْسَانِيَّةً جَدِيدَةً وَيَتَفَرَّغُ مِنْهُ رَافِدٌ
تَمَيُّزٌ وَتَمَدُّ قَوَارِ فِي صُلْبِ الإِنْسَانِيَّةِ الْحَيَّةِ، فِي دِمَائِهَا المُنْصَبَّةِ إِلَى بُحَيْرَةِ المُسْتَقْبَلِ

البعيد القرار، يجد الظماء ما يُبرّد حرارة عقولهم وقلوبهم، يجدون التنبوع الذي
حجبهم عنه سراب الفكر المدخول...

قال قائل في الظلام - والناس يخرج أحدهم في إثر الآخر - إيه أبا رافع...
وربت على كفيفه: أرايت أعجب من اليوم، النبي يسير في أذن الوليد وكأنه يقول
شيئاً...

قال أبو رافع: نعم. إنه «أذن في أذنيه كما يؤذن للصلاة».
قال الرجل: ولكن أترى أن له نفساً مدركة تعي ما يقال لها وما تُخاطب

به؟

قال أبو رافع: نعم. وماذا تظن أنت؟ لعلك أنصرفت بطنك إلى أن نفس
الوليد خلا من القوى، إن كان ذاك فبعد ما تظن. إنها واعية كاتم ما تكون نفس
من الوعي، ولكنها غائمة بما في التركيب العضوي من الوهن وضعف الحساسية.
والنبي توجه إلى هذا الوعي وهو في أكمامه ليضع فيه شيئاً خالداً، ليضع فيه
كلمة الله، فلا يحول عنها ولا يزول مهما اضطربت عليه بواعث الشباب،
واضطربت فيه نزواته، لأنها سوف تأسره بحنين الرجوع البعيد.

إنه وضع، في آخر مرحلة التخلي وأول مرحلة التفتح والازدهار، عبث المثل
الإلهية، عبث الحقيقة المطلقة، الذي ينفخ ولا ينقطع، الذي يفيض ولا يغيض... تمر
به الأهوية الهادئة آهائه فلا تغيير فيه وإنما يعبر فيها، بما يحملها من أريج الفواح،
فتعدو وقد فقدت ما تُنذر به بما تُبشر، إنها حملت روح الزهرة في الحقل...

إن النبي، لنا اليوم، زهرة الحقل، وهو يمد يده في أحشاء الزمن بزهرة حقل
المستقبل، فعسى أن يتركها الإنسان تضمخ فضاء الغور في عين الشروق والغروب،
ولا تلتفت عليها أفعى الشهوات فتقضمها، إني لحدّر، إني... تلغتم، ووضع يده

على قلبه مخافة السقوط، وأغمض عينيّه في خيال رهيب.

وكان أبو رافع مولىً للنبي، فلم يُطق ما مرّ بخياله، وتحمّل على صاحبه مدةً ظلّ فيها صامتاً صموت الليل الذي تزيد في رهبيته أصوات متقطعة للذئاب.

وسمّل الرجل تيار أبي رافع فاستغرق في وجوم، وسارا يقطعان الليل في خطوات تعبّ عن أنها ذاهلة لا تقصّد إلى شيء ولا تتصلّ بما تنتهي إليه. وما استفاقا إلّا على صوت الإنسان في العليّس يُنادي بكلمة الله الأرواح الشاردة الهائمة. واختلط الصوت بشكون الليل فعبر عن أنه قال كلمته، واشتعال صدق فيه شروء الشكون.

خفّ الناس من كلّ مكان، وفي أعينهم بقايا الحلم السادر، متوافدين مع النداء إلى حيث يمتزجون بالجهول، إلى حيث يُصحّحون ضمائرهم في عمل الحياة، إلى حيث يُجدّدون عقودهم مع الله على الخير والحب والمثل، بجعلها مبدأ عمل وواقع حياة... مدّ الرجل خطاه وهبّ يطلب ما يطلب سائر الناس.

قال أبو رافع: على رسلك يا هذا، إننا لم نزل في صلاة منذ خطونا!

قال الرجل: والآن نصلي صلاةً بصلاة^(١).

(١) لا ريب في أنّ الصلاة عقد (كوترام)، بين الله والإنسان. وإذا تأملنا الفاتحة نجد فيها شروط عقد متبادلي. وعلى ضوء هذه الملاحظة يتكثف لنا سرّ تكرار الصلاة اليومية، على الشكلي المعروف في الإسلام، وجعلها ليلية ونهارية. وهذا السرّ هو تجديد العقد وتوكيده، حتى لا تضعف فعاليته، وحتى لا تمرّ بالمزّة ساعات فتور وأسترخاء يجعل فيها بأحكام العقد، فيظلّ بذلك دائماً طرّفاً في عقد جديد. وكما هو معروف على البحث أنّ الصمير والوجدان والعقائد تتولّد من التكرار والتلقين، والصلاة صيغة تلقين وعملية تكرار معاً. هذا فهمنا للصلاة في الإسلام من ناحية عملية. وأما هي من ناحية فلسفية فإنها أضغ طريقة وأسلوب، وأضغ شكلي وصيغة لما يُسميه ساندerson، أحد علماء النفس التطبيقي، مقبّد الرؤيا، هذا المقبّد الذي يتأمل فيه المؤمن منفرداً، ويخشع مستغرقاً متفكراً، وهو يرى أنّه لا صلاح للفرد، والثالي للجماعة، إلّا بمقبّد الرؤيا، أو ساعة التأمل اليومية، وقد ضمنتها الإسلام على شكل مذهبي من التكرار في صحب النهار وفي هدير الليل، وكان الإسلام بصلاة النهار ينشر الإنسان أنيزاعاً ليغرقه في التأمل والإشراق ولو بلخطاب.

قَالَ أَبُو رَافِعٍ: نَعَمْ. وَلَكِنْ رُوِيَكَ، فَإِنَّ النَّبِيَّ رَأَى جَمَاعَةً تَتَرَاكُضُ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقَالَ: «لِيَأْتِ أَحَدُكُمْ الصَّلَاةَ هَوْنًا». وَهُوَ يُشِيرُ بِهَذَا إِلَى أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَكُونُ وَاِعِيَّةً إِلَّا إِذَا تَلَبَّسَتْ فِكْرَ فَاعِلِهَا وَنَفْسِهِ، فَهِيَ لَيْسَتْ عَمَلًا خَالِصًا بَلْ فِكْرًا فِي الْعَمَلِ، وَبِذَلِكَ يَكُونُ لَهَا عَمَلٌ فِي الْفِكْرِ، وَالْإِعْجَالُ يُضِيعُ عَلَى الْفِكْرِ أَطْرَادَهُ وَانْسِجَامَهُ. وَالنَّبِيُّ يُرِيدُنَا أَنْ نَبْدَأَهَا صَلَاةَ بِالْفِكْرِ، صَلَاةَ بِالرُّوحِ، وَإِلَّا فَهِيَ صَلَاةٌ شَارِدَةٌ غَيْرُ وَاِعِيَّةٍ، لِرُوحٍ أَكْثَرَ إِمْعَانًا فِي الشُّرُودِ.

قَالَ الرَّجُلُ: إِنَّ حَدِيثَكَ مَلَكَ عَلَيَّ نَفْسِي مُنْذُ اللَّيْلِ، وَلَقَدْ مَارَجَحْتَنِي حَسْرَةً حِينَ قَطَعَ الْوُجُومُ عَلَيْكَ الْحَدِيثَ.

قَالَ أَبُو رَافِعٍ: لَعَلَّ صِلَةَ الْحَدِيثِ، الَّذِي أَنْقَطَعَ بَيْنَنَا، تَجُرُّ الشُّجُونَ إِلَى اسْتِذْرَاكِهَا يَوْمًا مِنَ الْيَوْمِ.

قَالَ الرَّجُلُ: وَلَكِنِّي أَجِدُ فِي نَفْسِي أَسْرَ الْحَدِيثِ وَمَدَّ الدَّاعِيَةِ إِلَيْهِ، وَلَعَلَّ نَفْسِي لَا تَجْتَمِعُ كَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيَّ اللَّيْلَةُ مِنْ أَقْطَارِهَا. وَأَجِدُنِي أَشَدَّ مَا أَكُونُ أَنْصِرَافًا إِلَى مَغْزَى الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ، وَمَغْزَى الْأَذَانِ الدَّاهِبِ كُلِّ يَوْمٍ، مَرَاتٍ فَوْقَ ضَجِيجِ الْحَيَاةِ وَصَحْبِهَا، الْأَذَانِ الْقَارِعِ فِي دُنْيَا الْأَبَاطِيلِ.

قَالَ أَبُو رَافِعٍ: إِنِّي لَمْ أَزَلْ أَحْشَعُ تَحْتَ ذِكْرِ الرِّثَابِ الْهَامِسَةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا النَّبِيُّ فِي أُذُنِ وَلِيدِهِ، لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ أَوَّلَ شَيْءٍ يَتَمَدَّدُ فِي فَضَاءِ تِلْكَ الرُّوحِ، وَأَوَّلَ شَيْءٍ تَتَمَوَّجُ بِهِ وَتَشْتَمِلُ عَلَيْهِ. وَبِذَلِكَ يَبْقَى فَضَاؤُهَا خَلِيًا مِنَ الصَّبَابِ، فَلَا تَمُرُّ بِهِ حُلُكَةً قَاتِمَةً، وَلَا تَجْتُمُّ فِيهِ ظَلَامِيَّةٌ أَوْ دُجْنَةٌ، فَيَتَكَوَّرُ فَضَاءُ الرُّوحِ تَكَوُّرَ الْفَلَكَ عَلَى الشَّمْسِ.

وَالْأَذَانُ الَّذِي يُقْصَدُ بِهِ إِلَى الرُّوحِ لَا تَكُونُ فِيهِ أَلْفَاظُ الْأَذَانِ بَلْ رُوحَانِيَّتُهُ، لِأَنَّهَا تَسْمُو، بِمَحَلِّهَا وَمُسْتَوَاهَا، عَنِ الْأَلْفَاظِ وَمَذَاهِبِهَا فِي التَّعْبِيرِ، هَذِهِ الْأَلْفَاظِ الَّتِي

تُولَفُ كائناً ألياً لا حِسَ فيه، وآسَتَانِي بِهِ الْإِنْسَانُ إِلَى إِكْمَالِ آيَةِ الْحَيَاةِ وَخَرَكَاتِهَا الرِّيْبِيَّةِ. وَلِذَا ظَلَّ كَائِنُنَا الدَّاخِلِيُّ الْمَجْهُولُ أَكْثَرَ أَنْفِعَالاً بِالْمَعَانِي الْمُطْلَقَةِ عَنِ الْأَدَاءِ، كَالْأَلْحَانِ الَّتِي هِيَ فِي حَقِيقَتِهَا مَعَانٍ لَمْ تَسْتَحْجِزْ، فَتَنْجِهُ إِلَى إِحْسَاسِ الرُّوحِ قُدْماً فَتَسْمُوجُ بِهَا سَرِيعاً، بَيْنَمَا الْأَدَاءُ الْآلِي (الْأَلْفَاظُ) يَمُرُّ فِي الْفِكْرِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنْ مَعَايِرَ، حَتَّى يَنْجَرِدَ^(٢) وَيَسْتَحِيلَ مَعْنَى مُطْلَقاً فِي إِحْسَاسِ الرُّوحِ.

فَهَذِهِ الرُّوحُ الْجَدِيدَةُ، الَّتِي لَمْ تَحُلْهَا آيَةُ الْحَيَاةِ الْمُخْتَرَعَةُ بَعْدَ بَأْشَائِهَا، وَالَّتِي لَا تَرَالُ غَضَّةً، لَمْ تَتَحَجَّزْ أَطْرَافُهَا، تَمَوَّجَتْ أَوَّلَ مَا تَمَوَّجَتْ، وَأَتَسَّعَتْ أَوَّلَ مَا أَتَسَّعَتْ، لِكَلِمَةِ اللَّهِ الْخَالِدَةِ. فَمَعَهَا مَرَّ بِهَا مِنَ الْعَوَاصِفِ الْمُتَنَارِحَةِ لَنْ تَنْطَلِقَ مَعَ الْهَوَى. إِنَّهَا بِجَاذِبِيَّةِ الْكَلِمَةِ الْأُولَى، وَهِيَ، إِذَا زَمَتْ بِالزَّيْدِ، فَلَنْ يَكُونَ إِلَّا خَبَابَ الْمُثُلِ الْمُتَرَكَبِ، فَإِنْسَانِيَّةُ هَذَا الْوَلِيدِ السَّعِيدِ جَاءَتْ كَمَا شَاءَتْ التَّبَوُّةُ.

إِنِّي لَا تَمُرُّ بِي ذِكْرِي الْأَذَانِ فِي أُذُنِ الْوَلِيدِ إِلَّا وَأَخْشَعُ مَعَهَا، إِنَّهَا تَفْعَلُ بِي فِعْلاً غَنِيّاً وَعَمِيقاً، وَلَا أَدْرِي كَيْفَ أَطْوَعُ أَلْفَاظَ اللَّغَةِ لَتُعَبِّرَ عَنْهَا...

فَصَلْتُ مِنْذُ بَعِيدٍ وَأَنَا دَهْشُ بِالْأَذَانِ الَّذِي يَغْلُو لِي مُذْكَراً الْحَيَاةِ بِقَاعِدَتِهَا، وَالْإِنْسَانِيَّةَ بِأَنْبِلِ مُثُلِهَا الْخَوَالِدِ، وَيُضْغِي الْوُجُودَ إِلَى كَلِمَةِ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ كَأَنَّهُ يَشْهَدُ.

وَعَلَا صَجِيحُ النَّاسِ بِالتَّكْبِيرِ، وَكَانَا قَدْ بَلَّغَا بَابَ الْمَسْجِدِ فَانْتَظَمَا فِي صُفُوفِ الْمُصَلِّينَ، وَعَادَ الْكَوْنُ إِلَى صُمُوتِهِ يُضْغِي إِلَى صَوْتِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ فِي أُذُنِ الْفَجْرِ يَقْرَأُ:

(٢) تَوَجَّدَ أَلْفَاظُ فِي اللَّغَةِ لَمْ تَسْتَحْجِزْ بِمَا أَعْدَدَ عَلَيْهَا الشُّعُورُ، حَتَّى تَنْتَهِي بِمَا وَرَاءَ الْغَوَى الْوَاقِعِيَّةِ، وَتَمُرُّ بِهَا رَأْساً بِدُونِ أَنْ تَمُرَّ فِي الْفِكْرِ، كَالْأَلْفَاظِ الْقَوِيَّةِ وَالْحُبِّ. وَهُنَاكَ أَلْفَاظُ تَنْتَهِي بِمَوَظِنِ الْحَيَاةِ وَتَوُزُّ مُنْخَطِطَةَ الْفِكْرِ أَيْضاً، أَوْ تَمُرُّ بِهِ مَرّاً سَرِيعاً، وَهِيَ أَلْفَاظُ الْغَرَائِزِ وَمَا إِلَيْهَا، وَتَسْمِيهَا لَفَةً خَيْرِيَّةً. وَمَا بَقِيَ مِنْ أَلْفَاظِ اللَّغَةِ الْأُخْرَى فَهِيَ أَلْفَاظُ فِكْرٍ، لِأَنَّهَا تَوُزُّ عَنْ طَرِيقِهِ، وَتَسْمِيهَا لَفَةً آيَةٍ مُسْتَحْجِزَةٍ.

«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ. رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ».

*

فِي حَقْلِ الْبَشْرِيةِ الشَّائِكِ، غَرَسَ النَّبِيُّ نَوَاةً...
عَمِلَتْ فِيهَا النَّوَامِيسُ، فَبَرَزَتْ زَهْرَةٌ لَمْ تَتَفَتَّقْ عَنْهَا الْأَكْمَامُ...
وَمَسَحَهَا النَّبِيُّ بِيَدَيْهِ كِلْتَايَهُمَا، فَتَوَرَّتْ بَيْنَ أَصَابِعِهِ...
وَمَاسَتْ فَوَاحَةً تَمْلَأُ الْحَقْلَ بِالْعَبِيرِ، حَتَّى لَيْخَيْلُ أَنَّ الْحَقْلَ زَهْرٌ كُلُّهُ!...

*

فَصَدَتْ إِلَيْهَا، مِنْ بَعِيدٍ، أَفْعَى فَاحِمةٌ لَمَاعَةٌ الْأَدِيمِ...
وَكَانَتْ تَفُحُّ فَحِيحاً لَاهِباً، وَيُؤُجُّ مِنْ فِيهَا الْحِمَمُ...
وَالْتَفَتَتْ عِنْدَ أَصْلِ الزَّهْرَةِ، وَتَكَوَّرَتْ كَعُقْدِ الْقَضَاءِ...
وَفِي هَذِهِ اللَّيْلِ، حِينَ كَانَ الْكَوْنُ فِي سُبَاتٍ قَضَمَتْهَا...
وَعَادَتْ وَقَدْ عَادَ الْحَقْلُ شَوْكاً مُلْهِباً، وَعَدَتْ زَهْرَةُ الْحَقْلِ ذِكْرَى رَمَزٍ
سَعِيدٍ!...

زَهْرَةٌ كَانَتْ مِنْ صُنْعِ النَّبُوَّةِ فِي آفْتِنَانِهَا وَسُمُوهَا...
وَالنَّبُوَّةُ شُعْلَةٌ فِي الْحَيَاةِ، وَشَفَقٌ فِي الْفِكْرِ لَا يَتَنَاهَى مَدَاهُ...
وَزَهْرَةُ الْحَقْلِ نَثْرَهَا بَاطِلُ الْإِنْسَانِ، وَلَكِنَّهَا آجَتَمَعَتْ فِي الذِّكْرِى الْخَالِدَةِ...
فَقَدْ غَرَسَتْهَا نُبُوَّةٌ صَنَاعٍ، وَالنَّبُوَّةُ لَا تَحُورُ!...

*

زَهْرَةٌ وَضَعَتْ فِيهَا اللَّانْهَائِيَّةُ أَشْرَارَهَا...
فَلَيْسَتْ رُغْمَ بَاطِلِ الْإِنْسَانِ وَلَنْ تُدْرِكَهَا نِهَايَةٌ...
وَحَارَ الْبَاطِلُ إِلَى رَمَادٍ فِي زَوْبَعَةِ الرِّيحِ!...

*

تَحَوَّلَ الْبَاطِلُ، فَكَانَ ظِلَالُ الْحَيَاةِ...
وَتَحَوَّلَ الْحَقُّ، فَكَانَ شَمْسُ الْحَيَاةِ...
وَأَخِيرًا، وَبَعْدَ حِينٍ، ضَاعَ الظُّلُّ فِي الشَّمْسِ!

* * *

مشاهد

مضى، بينَ يَوْمِ المِلاَدِ وهذا اليَوْمِ الَّذِي تَقاطَرَتْ فِيهِ زَرافاتُ النَّاسِ من كُلِّ
مَكَانٍ، أُسْبُوحٌ مُتَأَلِّقٌ وَضِيءٌ كَأَنَّمَا تَنفَّسَتْ فِي جَوْهِ السَّعَادَةِ، وَطَفَرَتْ مِنْ أَعْمَاقِ
الحُلُمِ لَتَمُوجٍ فِي واقِعِيَّةِ الجُمُوعِ ودُنْيا الحَيَاةِ.

كَانَ البَصَرُ يَذْهَبُ مَذاهِبُهُ ثُمَّ لَا يَقَعُ إِلَّا على أَوْزاعِ مُجْتَمِعِينَ وَمُتَفَرِّقِينَ،
فَقَدْ حَفَلَ النَّبِيُّ بِسَابِعِ أَيامٍ وَلِيَدِهِ وَعَقٌّ عَنَّهُ.

إِفْتِدَاءُهُ بِكَبْشٍ ذَهَبَ خَيْرُهُ فِي أَشَابَةِ الْفُقَرَاءِ، وَكَانَ مَعْرَاهُ أَنَّ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمِثَالِيَّةَ
السَّمَاوِيَّةَ، أَوَّلُ مَا تَقُومُ عَلَيْهِ هُوَ إِهْرَاقُ التَّرَوَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ وَنَزْعَاتِ ضَرَاوَتِهَا، مُجْتَمِعَةً
فِي حَيَوَانٍ يُهْرَاقُ. فَإِذَا كَانَ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْغِذَاءِ مَعْنَى الْجَسَدِ وَتَوْكِيدُ
أَنَّهُ حَيَوَانٌ قَرِمْ، فَإِنَّ فِي نَحْرِ الْحَيَوَانِ مِنْ أَجْلِ الْفِدَاءِ مَعْنَى الرُّوحِ الْمُتَسَامِيَّةِ إِلَى
الْعَلَاءِ، وَكَانَ وَحْيٌ وَإِشَارَةٌ لَشَيْءٍ آخَرَ مُتَرْتِّبٍ تَرْتَّبُ النَّتَائِجُ عَلَى الْمُقَدَّمَاتِ: الْحَيَوَانُ
يُقْدَى بِهِ الْإِنْسَانُ الشَّاعِرُ بِمَعْنَاهُ، لِيَتَعَلَّمَ هَذَا الْإِنْسَانُ كَيْفَ يَقْدِي فِكْرَةَ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَكَيْفَ يُصَحِّحِي بِسَبِيلِ مِثَالِيَّاتِهَا.. وَلِذَا لَمْ يَجِدِ^(١) الْمُكَافِحُونَ الْمُشْتَبِهِلُونَ، إِلَى

(١) كَانَ مِنْ عَادَةِ الْجُنُودِ فِي الْقَدِيمِ نَحْرُ حَيَوَانٍ تَحْتَ الْعَلَمِ، وَعَلَى مَرَأَى مِنَ الْجُلُودِ، وَيَقِيبُ هَذِهِ الْعَادَةُ حَتَّى
زَمَنِ مُحَمَّدٍ عَلِيٍّ بِأَشَا خِزْيَوِيٍّ بِصُر.

زَمَن قَرِيبٍ، رَمَزاً لَصِدْقِ الْكِفَاحِ الدَّامِي وَلِلآرْتِكَاضِ إِلَى الْمَوْتِ سِوَى إِهْرَاقِ حَيَوَانٍ
بَيْنَ يَدَيِ الصُّرَاعِ، مُشِيرِينَ إِلَى الْمَصِيرِ وَلَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ.

وَطَبِيعَتُهُ مَجْمُوعُ الْفُقَرَاءِ لِيَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّ تَضَخُّجَةَ الْإِنْسَانِ جَانِبَ الْحَيَوَانِيَّةِ فِيهِ،
كَيْ تَمَلَأَ الْفَرَاغَ فِي هَذَا الْجَانِبِ بِجَمَاعَاتِ الْمُجْتَمَعِ الْمَحْرُومَةِ، فَيَجِدَ فِي شُعُورِهِمْ
شُعُورَهُ، وَفِي آلَمِهِمْ أَلَمَهُ، وَفِي سَعَادَتِهِمْ سَعَادَتَهُ. فَقَدْ مَرَّجَهُمْ بِنَفْسِهِ وَخَلَطَهُمْ
بِهَوَاهُ، وَقَامَتْ طَبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةِ فِيهِ عَلَى ثَنَائِيَّةٍ مِنَ الْفَرْدِيَّةِ الْمُهَذَّبَةِ وَالْغَيْرِيَّةِ التَّبِيلَةِ،
يَجِدُ فِي طَبِيعَتِهِ سِرَّ الْجَمَاعَةِ، وَفِي الْجَمَاعَةِ سِرَّهُ، وَبِهَذَا يَتِمُّ التَّوَاصُلُ الْإِنْسَانِي
الصَّحِيحُ الَّذِي لَمْ يَزَلْ خَيَالِيًّا، وَكَانَ فِي وَلِيدِ النَّبِيِّ وَاقِعًا.

طَبِيعَةُ سَمَتْ عَنِ الْأُنَانِيَّاتِ، فَإِنَّ النَّبِيَّ آسَظَاعٌ، فِي مُجْتَمَعِهِ، أَنْ يُذَيَّبَ «أَنَا»
فِي «نَحْنٍ»، وَحَارَبَ طَوَالَ جِهَادِهِ الَّذِينَ أَذَابُوا بِأَحَابِيلِهِمْ «نَحْنُ» فِي «أَنَا»، فَكَانَ
لِكُلِّ أَمْرٍ فِي مُجْتَمَعٍ مُحَمَّدٍ أَنْ يَقُولَ «نَحْنُ» وَلَيْسَ فِيهَا كَثِيرَاءُ الْفَرْدِيَّةِ وَعُتُوها،
وَأَمَّا فِيهَا ثُبُلُ الْغَيْرِيَّةِ وَوَحْدَتُهَا، وَأَشْتَرَاكِتُهَا وَتَعَاوُنُهَا.

وَقَدْ تَرَكْتُ ذِكْرِي هَذَا الْفِدَاءِ فِي طَبِيعَتِهِ، بَعْدَ أَنْ آسَتَوَى رَجُلًا، رَمَزَهَا
الْإِنْسَانِيَّ وَمَعْنَاهَا التَّبِيلَ. فَلَمْ يُبَالِ تَحَتَّ ذِكْرَاهُ أَنْ يُحَقِّقَ فِي ذَاتِهِ مَعْرَاهُ، وَأَنْ يُقَدِّمَ،
فِي نَفْسِهِ، فِدَاءَ الْفِكْرَةِ الَّتِي إِذَا تَجَرَّدَ الْإِنْسَانُ مِنْهَا عَادَ مَخْلُوقًا بَغِيضًا، يَنْحَطُّ عَنْ أَنْ
يَكُونَ فِدَاءَ الْحَيَوَانِ ذِي الطَّبِيعَةِ السَّاذِجَةِ، وَفِيهَا إِيثَارٌ دُونَ قَصْدٍ، وَفِيهَا قَنَاعَةٌ دُونَ
شُعُورٍ، وَفِيهَا رَغْبَاتٌ^(٢) قَاصِرَةٌ.

(٢) نَعْنِي بِالرَّغَبَاتِ الْقَاصِرَةِ أَنَّ الْحَيَوَانَ يَتَفَعَّلُ بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ كَالْجُوعِ، فَإِذَا سَقَطَ عَلَى طَعَامٍ تَنَاوَلَ مِنْهُ
حَاجَتَهُ، وَعَفَى عَنِ الْبَاقِي، بَيْنَمَا الْإِنْسَانُ يَتَنَاوَلُ حَاجَتَهُ، ثُمَّ تَتَحَوَّلُ فِيهِ رَغْبَةُ النَّهْمِ حَرَكَتَهَا فَتَحِيلُهُ عَلَى
أَذْخَارٍ مَا فَضَّلَ عَنْهُ دُونَ الْآخَرِينَ. فَلَدَى الْحَيَوَانِ إِيثَارٌ دُونَ شُعُورٍ، وَبِالْجُمْلَةِ تَكُونُ رَغْبَاتُهُ قَاصِرَةً، بَيْنَمَا
رَغْبَاتُ الْإِنْسَانِ سَرِيحَةٌ مُسْتَحْوِذَةٌ. وَالتَّشَاخُزُ لَدَى الْحَيَوَانِ عَلَى الْمُقَوِّمَاتِ الْحَيَوَانِيَّةِ لَا يَكُونُ إِلَّا حِينَ الشُّعُورِ
بِبَاعِثِ الْغَرِيزَةِ وَالْحَاجَةِ، وَلَكِنَّ التَّشَاخُزَ لَدَى الْإِنْسَانِ عَلَيْهَا قَائِمٌ عَلَى أَذْخَارِهَا سَرِيحًا وَاحْتِيَاظًا، فَكَانَ الْحَيَوَانُ
بِالطَّبِيعَةِ أَفْضَلَ مِنَ الْإِنْسَانِ.

أَشْرَفَ النَّبِيُّ فِي هَنَاءِ الْجُمُوعِ وَبَهَاءِ الْحَقْلِ، قَالَ:

«أَرُونِي آتِنِي مَا سَمَّيْتُمُوهُ؟

قَالَ عَلِيٌّ: سَمَّيْتُهُ حَرْبًا.

فَقَالَ: بَلْ هُوَ حُسَيْنٌ!».

تَهَامَسَ النَّاسُ بَغْضُفِهِمْ إِلَى بَغْضٍ: سَمَّاهُ النَّبِيُّ حُسَيْنًا، وَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَائِهِ وَنَفْسِهِ.

قَالَ عِمْرَانُ بْنُ سُلَيْمَانَ: هُوَ كَذَلِكَ حُسَيْنٌ، وَلَكِنْ فِيهِ مَعْنَى التَّكْبِيرِ.

فَقَالَ قَائِلٌ لَهُ: لَكَأَنَّ النَّبِيَّ كَرِهَ اسْمَ حَرْبٍ.

قَالَ عِمْرَانُ: نَعَمْ. إِنَّ الْحَرْبَ شَدُودٌ فِي طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِ يُصِيبُهَا بِالْإِتِكَاسِ، وَالنَّبِيُّ نَصِيرُ الْإِنْسَانِيَّةِ، يَكْرَهُ مَا هُوَ مِنَ الْحَرْبِ وَلَوْ بِمَنْزِلَةِ الْأَسْمِ، لِأَنَّهُ جَاءَ لِيُقِيمَ الْإِنْسَانَ عَلَى قَاعِدَةِ الْإِحْسَانِ.

قَالَ الرَّجُلُ: فَفِيمَ حَرْبُنَا إِذَا؟

قَالَ عِمْرَانُ: إِنَّ الْحَرْبَ هُوَ الْعُدْوَانُ طَمَعًا وَعُتُوًّا وَأَضْطِهَادًا، وَهُوَ رُجُوعٌ إِلَى الْحَيَوَانِيَّةِ الصَّارِيَّةِ الَّتِي تَسْتَضِيْقُ، عَلَى رَحَابَةِ الْوُجُودِ، بِغَيْرِ ذَاتِهَا فَتَسْتَجِيبُ إِلَى الْعُدْوَانِ وَتُنَازِعُ الْأَمِينِ عَلَى بَقَائِهِمْ. وَأَمَّا نَحْنُ فَلِأَنَّا نُكَافِخُ هَذَا الْعُدْوَانَ لِنُخَلِّصَ الْإِنْسَانِيَّةَ مِنْ أَذْرَانِ الصَّرَاوَةِ الْبَاغِيَّةِ، فَلَسْنَا نُحَارِبُ مُنَازَعَةً عَلَى الْبَقَاءِ بَلْ تَعْمِيمًا لِحُرِّيَّةِ الْبَقَاءِ، وَهَذَا لَيْسَ حَرْبًا بَلْ نِضَالٌ ضِدَّ الْحَرْبِ، وَإِنَّ النِّضَالَ مِنْ أَجْلِ حُقُوقِ الْإِنْسَانِ وَدُونِهَا إِحْسَانٌ.

فَالنَّبِيُّ جَاءَ بِالْإِحْسَانِ مَبْدَأً عَلَى شَتَّى وُجُوهِهِ وَمِنْ أَقْطَارِهِ، لِيُطْفِئَ نَارَ الْحَرْبِ فِي السَّلْمِ الظَّالِمِ وَفِي الصَّرَاحِ الْعَاتِي، وَلِيَرُدَّ ذُنَابَ الْبَشَرِ إِلَى الذُّنَابِ يَتَمَزَّقُ

أَقْبَعَتْهُمْ فَيَسْلَمَ الْإِنْسَانُ.

وبهذا كَانَ النَّبِيُّ أَوَّلَ مَنْ حَارَبَ الْحَرْبَ، وَأَلْغَى مَشْرُوعِيَّتَهَا، وَأَعْلَنَ حُرْمَةَ
الْإِنْسَانِ أَيَّاماً كَانَ، وَرَوَى التَّارِيخُ نُجْلَ الْجِيَهَادِ. وَكَانَ فِي تَسْمِيَّتِهِ الْوَلِيدَ حُسَيْنًا، بَعْدَ
تَسْمِيَّتِهِ حَرْبًا، إِغْلَانًا بِأَنَّ طَبِيعَةَ الْحَرْبِ لَنْ تَتَحَرَّكَ عَلَيْهِ إِلَّا إِحْسَانًا، وَفِي سَبِيلِهِ.
وَفِي تَهَامِسِ النَّاسِ، أَنَّ الْوَلِيدَ أَنََّّهُ أَلَمَ زَاهِقَةً، كَانَتْ إِذَا نَا بِيَخْتَانِهِ. وَكَانَ
مَغْرَى الْحَيَاتِنِ، فِي إِشْرَاقِ الرُّوحِ، أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الْغَرَائِزِ زَائِدَةً تَذْهَبُ فِي شُدُودِهَا
وَأَلْيَوتِهَا حَدًّا تَضَعُهَا فِي مَسَافٍ الْمَسَاقِطِ وَمَآتِيهَا. فَلَا بُدَّ مِنْ تَشْدِيدِ الْغَرَائِزِ لَشُمُورِ
الرُّوحِ وَكَمَالِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَقْلِيمِ الْغَرَائِزِ لِدَرْكِ الْمِثَالِيَّةِ وَنَبَالَتِهَا الَّتِي، بِهَا جَمِيعًا،
يَمْلِكُ الْبَشَرِيُّ إِنْسَانِيَّةً صَحِيحَةً تَضَعُهُ فَوْقَ الْوَاقِعِ وَدُونَ الْأَحْلَامِ...

*

بَعْدَ حِينٍ، كَثِيرًا مَا كَانَ يُرَى هَذَا الْوَلِيدُ السَّعِيدُ يَمُوجُ فِي حِجْرِ جَدِّهِ
الْعَظِيمِ...

وَهُوَ يَزُمِي بَعِثَيْنِ سَادِرَتَيْنِ، أَوْحَتْ عَلَيْهِمَا الْجُفُونَ كِلَلَهَا فَلَا تَزْحَرْحُ إِلَّا
بِفُتُورٍ...

صَجْعَةٌ فِي جَوْ الْأَحْلَامِ، كَانَ يَرْتَضِعُ فِيهَا الْوَلِيدُ «إِبْهَامَ جَدِّهِ» الْبَطْلِ
النَّبِيِّ...

وَلَمْ يَكُنْ فِي هَذَا الرِّضَاعِ مَعْنَى التَّذْيِ بَلْ مَعْنَى الْقَلْبِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ كَانَ لَهُ
مِنَ النَّبُوَّةِ طِبَاعُهَا، وَمِنَ الْبَطُولَةِ تَضَحِيَّاتُهَا...

*

صَجْعَةٌ كَأَنَّهَا صَجْعَةُ الْمَلَائِكَةِ فِي هَالَةِ الثُّورِ، أَوْ صَجْعَةُ النَّجْمِ فِي الْأَفْقِ

المسحور!....

أَغْفَى فِيهَا إِغْفَاءَةً الْحَيْشِفِ عَلَى تَذِي الْأُمُومَةِ الْحَانِيَةِ...
وَأَرْتَسَمَتْ ظِلَالُ هَذَا الْمَشْهَدِ عَلَى لَوْحٍ، كَانَ صُورَةً لِبُطُولَةٍ تُغْذِيهَا نُبُوَّةٌ!...
إِيْهِامٌ كَانَ صِلَةً مَعْنَى بِمَعْنَى، وَشَرِيطاً تَشْرِي عَلَيْهِ رُوحٌ إِلَى رُوحٍ...
فَلَمَّا آسَتْوَتْ نَفْسُ الْوَلِيدِ تَأَلَّقَتْ، وَكَانَتْ بُطُولَةً مُضِيَّةً مِنْ وَرَائِهَا نُبُوَّةٌ
تَمُدُّهَا بِالضِّيَاءِ...

*

هُنَاكَ فِي وَادِي الْعَقِيقِ^(٣) كَانَتْ جُمُوعُ السَّمَارِ تَنْتَظِمُ خَلَقَاتٍ خَلَقَاتٍ كَمَا
شَاءَ الْهَوَى فِي عَفْوٍ وَدُونَ تَكَلُّفٍ، وَكَانَ هَذَا النَّوْعُ مِنَ السَّمَرِ مُحِبِّباً إِلَى أَهْلِ
الْمَدِينَةِ، بِمَا فِي طَبِيعَتِهِمْ مِنْ رُوحٍ مَرِحَةٍ، لَا خَرَجَ فِيهَا وَلَا تَغْفِيدَ. وَلَمْ يَكُنْ مَرَحُهُمْ
أَثَرُ رُوحٍ مَكْدُودَةٍ غَرَاهَا تَطَيُّرٌ وَتَشَاوُزٌ بِالْحَيَاةِ وَأَسْبَابِهَا، فَهِيَ تَقِرُّ إِلَى الْخَلَاءِ، إِلَى
الْفَضَاءِ الرَّحْبِ، وَهِيَ تَضْطَنِعُ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْمَرَجِ لِتَنْسَى هُمُومَهَا الْمُشْتَعِلَةَ وَضَنَاهَا
اللُّغُوبَ، وَهِيَ تَنْضُو أَثْوَابَهَا الثَّقِيلَةَ وَأَغْلَالَهَا الْآبِيسَةَ الْعَانِيَةَ لِتَنْسَى ذَاتِيَّتَهَا، بِمَا فِيهَا
مِنْ غُنْصَرِي الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ الْمُرْهِقَيْنِ، لِتَغْبِثَ، لِتَلْهُوْ هَارِبَةً مَذْعُورَةً... تِلْكَ طَبِيعَةُ
رُوحٍ مُعَقَّدَةٍ حَجَّرَهَا الْجِدُّ الْحَشِينُ، فَهِيَ لَا تَفْتَأُ شَاعِرَةً بِالْخُشُونَةِ فَيَشِيعُ فِيهَا التَّجَهُمُ
وَالْتَّقْطِيبُ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الطَّبِيعَةُ تَتَّصِلُ بِطَبِيعَةِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ فِي قَلِيلٍ أَوْ كَثِيرٍ، مِنْ قُرْبٍ أَوْ
مِنْ بُعْدٍ، وَإِنَّمَا بُنِيَتْ طَبِيعَتُهُمْ، أَوَّلَ مَا بُنِيَتْ، عَلَى مَرَجٍ كَادَ يَكُونُ مُجُوناً دُونَ قَيْدٍ،

(٣) إِنَّ الْعَرَبَ يَقُولُ لِكُلِّ تَسِيلٍ يَشُقُّ الْأَرْضَ وَيُوسِطُهَا عَقِيقاً. وَفِي بِلَادِ الْعَرَبِ أَرْتَعَةُ أَعْقَةٍ، وَمِنْهَا الْعَقِيقُ
الَّذِي هُوَ بِنَاجِيَةِ الْمَدِينَةِ فِيهِ غَيُونٌ وَنَخِيلٌ وَقُصُورٌ وَدُرُزٌ وَمَنَازِلُ. رَاجِعْ: مَعْجَمُ الْبُلْدَانِ، لِبَاقُوتَ، ج ٦،
ص ١٩٨.

وعلى يُشير كاذ يكون أنطلافاً من كل قيد، فشاعت فيهم سماحة مُشرقة،
وأنطبت على أفواههم بسمات مُشعة تُمدّها نعمة في الطبع تأتي إلا أن تظهر في
دعابة مُطلقة عارضة، وهي إن جدت تكون مُتكلفة في الجِدِّ، كما تكون تلك
الطبيعة مُتكلفة في المرح.

وأى شيء هذه الحياة إذا كانت لا تتمنحنا قلباً سعيداً لم تتحجّر فيه السعادة،
والجِدُّ لا يصل المرء بالسعادة، لأنها أنطلاق، وهو جمود يُحجّرها كما يُحجّر كل
شيء ويتصل به، فيضيغ فيه حيويته ويغزله من روجه... هكذا كان يتحدّث، في
مجمع وادي العقبي، نُعيمان^(٤)، طرفة أهل المدينة، الذي لولا ما دخله من عنصر
المادة الحية لكان روح النادرة المُبدعة.

ليلة كانت من هبات القمر، وهو يذنو فيها كثيراً، ويشع كثيراً حتى ليخيل
أنه يتحدّى الشمس في بهاء وطراوة يُشعران بالجمال. ودعاها العرب «أضحانة»،
كانما جميع فيها الضحى أو جمعت فيه، والضحى إغراء باليقظة، بيد أن ضحى
الشمس إغراء بحياة التكاليف والذكرى واليقظة على الجسد والواقع القوط،
وضحى القمر إغراء بحياة وراء الحياة، كلها حرّية وأنطلاق، وكلها نسيان وولادة
من جديد في اللحظات.

إن الذكرى، وفيها عنصُر الثبات والجمود، تجعل الحياة ضربة لازب في
مرارتها وسامتها وملالها، والنسيان سئل من التجديد والصيرورة، يجعل الحي في
كل الآيات مولوداً جديداً يتقلب في أسباب الطفولة الناعمة الهائقة. فمدار الشمس
دنيا من العمل والوعي الجهيد، ومدار القمر دنيا من النشوة واللاوعي الحالم... كذا

(٤) هو نُعيمان بن عمرو بن رفاعه من بني النجار. تُوفي في زمن معاوية. كانت تغلب عليه روح الفكاهة
والنادرة، وكان يُدعى النبي. ذكره الزبير بن بكار في كتاب: الفكاهة والزواج، وذكره ابن الخوري في
كتاب: الطراف والمتماجين، وترجم له بتوشع ابن خبجر الفسقلاني في كتاب: الإصابة، ح ٦، ص ٢٥٠

قال نُعَيْمَانُ وهو يَتَدَفَّقُ في تَنَدُّرِهِ، وكانَ يُسَمِّي لِيَالِي القَمَرِ ضُحَى الأَخْلَامِ، لأنَّها صَحَوَاتٌ في أَعْمَقِ سُكْرِ، وَلَحَظَاتٌ شِعْرِيَّةٌ تَفِرُّ من عَتَبَاتِ الأَبَدِيَّةِ الَّتِي أَذْنَانَا القَمَرُ المَسْحُورُ من آفَاقِهَا المِطْلَّةِ القَرِيبَةِ.

قالَ رَجُلٌ من الحُضُورِ: لَوْ شاءَ نُعَيْمَانُ حَدَّثَنَا حَدِيثَ هَدَايَا^(٥) الَّتِي سَتَبَقِي رَمَزَ خُلُودِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَطْفِيلًا في الكَرَمِ يُشْبِهُ، في المَعْنَى، التَّطْفِيلَ في التَّهَمِ وَلَيْسَتْ تَفْضُلُهُ، وَعَلَى أَيِّ حَالٍ فَإِنَّهَا سَخَاءٌ مُضْجِكٌ، وهو مَعَهَا ضُحْكُهُ الأَشْخِيَاءِ. فَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُهورِ رَنَّةٌ مُقَهِّقَةٌ، أَنْطَلَقَتْ وَتَرَامَتْ أَبْعَدَ ما تَتْرَامِي الأَصْدَاءُ في مَطَارِحِ الخُلَطَاءِ.

قالَ نُعَيْمَانُ: أَمَا أَنْتَ فَضُحْكَةُ البِخْلَاءِ، وَمَعْنَاهُ أَنْكَ أَكْثَرُ من بَخِيلٍ. وَأَنَا يَسُرُّنِي أَنْ أَكُونَ، كَمَا تَقُولُ، أَكْثَرُ من كَرِيمٍ، وَإِنِّي لَا أَرَاكَ في طَبِيعَتِكَ إِلَّا كَمِثْلِ زَهْرَةِ الحَنْظَلِ. فَآزَتْفَعَتِ الأَصْوَاتُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ: وما مِثْلُ الزَّهْرَةِ الَّذِي ذَكَرَتْ؟

قالَ نُعَيْمَانُ: زَعَمُوا أَنَّ فَرَاشَةَ مَلَوْنَةَ تُخَالُ كَأَنَّهَا زَهْرَةٌ حَيَّةٌ طَائِرَةٌ، مَسَّهَا نَصَبُ التَّزْنِيقِ وَلَعَبُ الطَّنِينِ الَّذِي هو نَشِيدُ أَمَانِي الفَرَّاشِ، وَهِيَ قاصِدَةٌ إلى الحُقُولِ. فَحَطَّتْ مُعْتَبِطَةً عَلَى زَهْرَةِ حَنْظَلٍ كَانَتْ تَمِيسُ بَيْنَ أَيْدِي الرِّيحِ في عَضَارَةٍ وَتَمْلُؤُ حَتَّى لَتَحَسِبَ أَنَّهَا تَفِيضُ عُصَارَةً وَمَائِيَّةً، فَدَارَتْ عَلَيْهَا الفَرَاشَةُ دَوْرَابٌ يَأْسِسُهُ كُظَامِيٌّ سَقَطَ عَلَى آلِ حَفِيٍّ، فَمَدَّتْ جَنَاحَيْهَا وَخَفَّتْ تَطِيرُ.

قَالَتِ الزَّهْرَةُ: إِذَا عُذِبَ بَعْدَ حِينٍ فَسَأَسْقِيكَ مِنْ مَاءِ يُمارِي الوَفِيرِ.

قَالَتِ الفَرَاشَةُ: إِذَا كُنْتُ وَأَنْتِ زَهْرَةٌ من بَنَاتِ السَّرَابِ، فَإِنَّ مَاءَكَ، وَأَنْتِ

(٥) ذَكَرَ خَتَمَهَا آثَرُ حُجْرٍ فِي: الإِصَابَةِ، قالَ: كانَ لا يَدْخُلُ المَدِينَةَ طَوْقَةً إِلَّا اشْتَرَى بِهَا ثَمَّ جاءَ بها إلى الثَّيْبِيِّ، فيَقُولُ هَا أَهْذِيْكَ لَكَ. فَلَذا جاءَ صاحِبُهُ يَطْلُبُ نُعَيْمَانَ بِمَعْنَى أَخْضَرُهُ إلى الثَّيْبِيِّ وقالَ: أَعْطِ هذا نَعَرَ مَتاعِهِ، فيَقُولُ الثَّيْبِيُّ: أَوْلَمْ تُهْدِهِ لِي؟ فيَقُولُ: إِنَّهُ وَاللَّهِ لَمْ يَكُنْ عِنْدِي ثَمَنُهُ، وَلَقَدْ أَخْبَيْتُ أَنْ تَأْكُلَهُ، فيَضْحَكُ وَيَأْمُرُ لصاحِبِهِ بالثَّمَنِ، وَذَكَرَها آثَرُ الحَوْزِيِّ في كِتاب: الطَّرَافِ والمُتَماجِجِينَ، وَغَيْرُ وَاجِدٍ مِنَ المُولَفِينَ في التَّوَادِرِ.

ثَمَرَةٌ، غُصَارَةٌ مُسْتَنْقَعٌ كَرِيهٍ، فَزَهْوُكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الزَّهْرِ وَثَمَرِكَ بَاطِلٌ بَيْنَ الثَّمَرِ، فَإِنْ
الرُّوْرَ إِذَا اسْتَحَالَ فَإِنَّمَا يَسْتَحِيلُ إِلَى زُورٍ أَكْبَرَ.

وهذا يابى النبي كُنْتُ أَسْأَلُهَا إِلَى النَّبِيِّ إِنْ كَانَتْ تُعْبِرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا تُعْبِرُ
عَنْ مَكَانِ النَّدَى وَالسَّمَاحَةِ مِنْ قَلْبِ النَّبِيِّ الْكَبِيرِ، وَهُوَ لَا يَقْتَضِي تَأْخُذَنَا بِالْوَانِ مِنْهُ،
وَيَمْلَأُ جَوْ حَيَاتِنَا بِطَرَاوِيهِ، وَقُصَارَاهُ أَنَّهُ أَخْرَجَنَا مِنْ بَدَاوَةِ الطَّبْعِ، وَزَوَّدَنَا بِقَلْبِ
الْإِنْسَانِ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَكَانَ أَخَذَ الْحُضُورَ: إِنَّ الْحَدِيثَ ذُو شُجُونٍ، وَقَدْ أَذْكَرْتَنِي
بَلَحْنِ حَدِيثِكَ وَاقِعَةً شَهِدْتُهَا. كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ «وَقَدْ أَخَذَ وَلِيدُهُ الْحُسَيْنَ يَدْلُغُ لَهُ
لِسَانَهُ فَيَرَى الصَّبِيَّ حُمْرَتَهُ فَيَهْشُ إِلَيْهِ، وَغِيْبَتُهُ بُنْ بَدْرٍ حَاضِرٌ فَقَالَ:
يَا رَسُولَ اللَّهِ تَصْنَعُ هَذَا بِهَذَا، فَوَاللَّهِ إِنَّ لِي الْوَلَدَ وَمَا قَبْلَهُ قَطَّ.

قَالَ النَّبِيُّ: مَنْ لَا يَزُحِمُ لَا يُزَحِمُ».

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، وَكَانَ حَكِيمًا: كَمْ كُنْتُ جِدًّا مُحْسِنًا يَا نُعَيْمَانُ بِقَوْلِكَ
«وَقُصَارَى النَّبِيِّ أَنَّهُ زَوَّدَنَا بِقَلْبِ الْإِنْسَانِ»، فَقَدْ جَمَعْتَ غَايَةَ مَا يُقَالُ فِي أَخْصَرِ
مَقَالٍ، وَإِنَّهُ لَيُوحِي بِشَيْءٍ كَثِيرٍ. ثُمَّ أَطْرَقَ فِي تَأْمُلٍ لَمْ يَطْلُ بِهِ كَثِيرًا وَلَكِنَّهُ مَسَّ
الْجَمْعَ، فَتَقَلَّبُوا مِنْ جَوْ أَنْفُسِهِمْ فِي مَرْجِهِ إِلَى جَوْ نَفْسِهِ فِي تَأْمُلِهِ. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ
أَطْرَدَ يَقُولُ: لَا أَذْرِي مَاذَا تَرَكَ فِي أَنْفُسِكُمْ خَبَرُ أَبِي هُرَيْرَةَ، فَإِنَّهُ أَتَقَطَّ نَفْسِي عَلَى
السِّرِّ الْإِلَهِيِّ فِي مُحِيطِ الْكَوْنِ الَّذِي هُوَ مَصْدَرُ مَا فِيهِ مِنْ تَنَاسُتٍ وَنِظَامٍ، وَجَمَالٍ
وَتَنَاعُجٍ. وَإِذَا كَانَتْ قِصَّةُ الْمَثَلِ^(٦) تُعْبَرُ عَنْ وَاقِعِيَّةٍ كَوْنِيَّةٍ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى قِيَمَتِهَا،
وَذَلِكَ السِّرُّ هُوَ الرَّحْمَةُ، فَإِنَّهَا الْمَعْنَى الْأَزَلِيَّةُ الَّتِي أَنْبَتَتْ مِنْهُ الْحَقَائِقُ، وَكَانَ
الْوُجُودُ إِحْدَى ظَاهِرَاتِهَا، وَهِيَ فِيهِ مِقْيَاسُ الْقِيَمِ، وَنَحْنُ لَنْ نَتَّصِلَ بِالْحَقِيقَةِ

(٦) أَنَّى قِصَّةُ الْمَثَلِ الْأَفْلَاطُونِيَّةِ الَّتِي تَجْعَلُ الْحَيْرَ رَأْسَ الْمَثَلِ.

الأخلاقيّة والطبيعيّة، وتنقذ إلى أغوار المطلق إلا من طريقها، وعلى أضواؤها الملتصقة، على أن الخير الذي اغتبرته قصّة المثل رأساً ليس في حقيقته إلا أمثداد الرّحمة، وظاهرة من تحركها، والجمال تجسّد للرّحمة بأكثر بما هو تجسّد للخير، فهي ألفة الحقائق التي بها نفهم الكونيّة والأخلاقيّة فهما مطلقاً، ونضع اليد على مقياس القيمة الحق.

وميزة الإسلام أنه جعل الرّحمة دعامة وقام عليها، ولعلّه الدين الوحيد الذي تهدي بها إلى فهم الوجود، ومقياس الأخلاق، وتركيز القانون والاجتماع، وجعلها نظريّة فلسفيّة الأولى. فقد سعى الإسلام الله أحياناً رحيماً وأحياناً رَحماناً، وحين تحدّث عن الكون قال في مقام «وسعت رَحمتي كُلَّ شَيْءٍ». وفي مقام آخر قال: «كُتِبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحمة». وحين تحدّث عن المجتمع العالم قال: «وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». وعن الأسرة قال: «وجعل بينكم مودةً ورَحمةً». وقال النبيّ يصف نفسه: «أنا الرّحمة المهداة». وحين تحدّث عن الأخلاق قال: «الراحمون يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، إِرْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ». وما حدّثكم به أبو هريرة الآن «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ» ففلسفة الإسلام قامت على قاعدة الرّحمة التي عالَج بها نظام الحياة من شتى وجوهه وجوانبه، وبثّها في قانونه وأناطيمه، ودخل بها إلى الهيكل المشتعّر الخاشع، والمجتمع الصّاحب الدّاعي، وكسّر بها شجرة الأنانيّات الضّارية، وحدّ بها من مدّ الرّغبات التّهمة.

وبالرّحمة عالَج الإسلام طبيعة الإنسان المعقّدة، ليتلّع بها مبلّغ المثل الأعلى الذي عبّر عنه بقوله: «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»، وليحقّق بها مبدأ الشّاخي العامّ «إنما المؤمنون أخوة».

وليس هناك كلمة كفيلة بأن تدلّ على روح الإسلام الشائعة في كلّ أوضاعه وتعاليمه سوى الرّحمة، فهي رمز جامع لمجموعة حقائقه؛ كالمحبّة التي هي

الرَّمْزُ الجامع للمسيحية مِنْ أَقْطَارِهَا وَخَوَاشِيهَا، وَفَوْقَ مَا بَيْنَهُمَا أَنَّ فِي طَبِيعَةِ الرَّحْمَةِ تَوَازُنَ الْقَانُونِ، وَفِي طَبِيعَةِ الثَّانِيَةِ خَيَالِيَّةَ التَّجْرِيدِ.

وعلى أساسِ مِنَ الرَّحْمَةِ يُقِيمُ النَّبِيُّ التَّوْبِيَّةَ، وَيَضَعُ مَنَهِجَ الرِّبَايَةِ^(٧) السَّمْحَةَ الَّتِي تَأْذُنُ لِكُلِّ الطَّبَائِعِ بِالتَّمَاءِ فِي تَقْدِيرِ مَوْزُونٍ، دُونَ مَا كَبِتَ يورثُ آتِيكَاساً وَالتَّيَوَاءِ فِي الطَّبِيعَةِ الْمُتَفَتِّحَةِ. وَلِذَا ذَهَبَ وَلِيدُهُ بِخَنَائِهِ، وَلَا يَفْتَأُ يُغَادِيهِ بِشَأْسٍ حُبِّهِ النَّمِيرِ.

قَالَ سَدَّادُ بَنِي الْهَادِي: لِلَّهِ دُرُّكَ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَإِنَّ فِيهِمَا أَذْكَرُهُ الْآنَ شَاهِداً عَلَى مَا تَقُولُ: «إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ خَرَجَ عَلَيْنَا فِي إِحْدَى صَلَاتِي الْعِشَاءِ وَهُوَ حَامِلٌ لِحُسَيْنًا، فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ فَوَضَعَهُ ثُمَّ كَبَّرَ لِلصَّلَاةِ، فَأَطَالَ سُجُودَهُ فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا الصَّبِيُّ عَلَى ظَهْرِ رَسُولِ اللَّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ، فَرَجَعْتُ إِلَى سُجُودِي، فَلَمَّا قَضَى الصَّلَاةَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ سَجَدْتَ بَيْنَ ظَهْرِي صَلَاتِكَ سَجْدَةً أَطْلَعَتْهَا حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ أَوْ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْكَ، قَالَ: كُلُّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ، وَلَكِنْ آبُنِي آرْتَحَلَنِي فَكَرِهْتُ أَنْ أُعْجِلَهُ حَتَّى يَقْضِيَ حَاجَتَهُ».

فَقَالَ أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ: «طَرَفْتُ النَّبِيَّ ذَاتَ لَيْلَةٍ فِي بَعْضِ الْحَاجَةِ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ وَهُوَ مُسْتَمِلٌ عَلَى سَيِّءٍ لَا أَدْرِي مَا هُوَ. فَلَمَّا فَرَعْتُ مِنْ حَاجَتِي، قُلْتُ: مَا الَّذِي أَنْتَ مُسْتَمِلٌ عَلَيْهِ؟ فَكَشَفَهُ فَإِذَا حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ عَلَى وَرِكَيْهِ، فَقَالَ: هَذَانِ ابْنَايَ وَأَبْنَا ابْنَتِي، اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُمَا فَأُحِبُّهُمَا وَأُحِبُّ مَنْ يُحِبُّهُمَا».

وَأَسْتَأْنَفَ أَبُو الدَّرْدَاءِ حَدِيثَهُ فَقَالَ: إِنَّ الرَّحْمَةَ فِي الْعُصُورِيَّاتِ - وَمَظْهَرُهَا الرُّوْقَةُ وَالْحَدَبُ - هِيَ سِرُّ كِيَانِ الْمَوْجُودِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَقَائِيهِ، وَإِنَّ الطُّفُولَةَ إِذَا لَمْ تُؤْخَذْ بِرَحْمَةِ الْكَبِيرِ فَلَا بُدَّ أَنْ تَقَعَ هُوَّةٌ بَيْنَ الطُّورَيْنِ، تَذْهَبُ مُتَسِعَةً كُلَّمَا ذَهَبَتْ الْأَيَّامُ مُتَمَدِّدَةً، وَتَقْتَلِيءُ وَتَطْفَحُ بِالْأَحْقَادِ، فَتَحْبُو النَّسَوَاتِ الْمُغْرِيَّةَ بِالْحَيَاةِ، لِأَنَّ الطُّفْلَ لَمْ يَعُدْ

(٧) مِنْ وَضْعِنَا الْحَدِيدَ بِمَعْنَى تَوْبِيَّةِ الطُّفْلِ، مِنْ ثَلَاثِي: رَسَتْ.

يَجِدُ حَاضِرُهُ اللَّادِ فِي الْكَبِيرِ، وَلَآنَ الْكَبِيرَ لَمْ يَغْدُ يَجِدُ فِي الطُّفْلِ مُسْتَقْبَلُ وُجُودِهِ
كَحُلْمِ الْحَمْرَةِ فِي الْعَنْقُودِ.

فَمِثْلُ نَظَرَةِ عُيَيْنَةٍ بَنٍ بَدْرٍ إِلَى الطُّفْلِ تُورِثُ الْبُغْضَ الْخَفِيِّ، وَتُذَكِّي الصَّرَاعَ
بَيْنَهُمَا عَلَى نَحْوِ غَيْرِ مَشْعُورٍ بِهِ، فَلَا تَتَجَادَبُ أَجْزَاءُ الْكَائِنِ، بَلْ تَتَدَافَعُ، وَلَا
تَتَجَانَسُ بَلْ تَتَنَافَرُ، وَبِذَلِكَ يَتَذَيَّرُ حُبُّ الذَّاتِ فِي مَظْهَرِهِ الْاجْتِمَاعِيِّ وَتَبْهَتْ
أَحْلَامُهُ فَتَبْدُو خَائِيَةً.

إِنَّ النَّبِيَّ يُمِثُّ، فِي الشَّبَابِ الْمُسْتَوِيِّ، الرَّحْمَةَ عَلَى سَتَى أَطْوَارِهَا:
بِالشَّيْخُوخَةِ لِأَنَّهَا الْمَاضِي، فَهُوَ يَشْتَمِلُنَا بِالْحَنَنِ، وَبِالطُّفُولَةِ لِأَنَّهَا الْمُسْتَقْبَلُ، فَهُوَ
يَسْتَهْوِينَا بِالْأَمَلِ، فَتَتَوَاصَلُ أَطْرَافُ الْكَائِنِ وَتَتَّجِدُ فِي بَقَاءِ طَوِيلٍ، وَمَحَالٌ أَنْ يَقُومَ
مُجْتَمَعٌ عَلَى الْقَسْوَةِ. فَتَحْنُ وَأَبَاؤُنَا وَأَبْنَاؤُنَا أَطْوَارُ كَائِنٍ كُرُويٍّ وَاحِدٍ، يَدُورُ وَهُرِينَا
فِي كُلِّ وَضْعٍ وَحِينٍ وَجْهًا، وَكُرَةً هَذَا الْكَائِنِ إِنَّمَا تَدُورُ بِالرَّحْمَةِ، فَإِذَا نَفَذَتْ
جَمَدَتِ الْكُرَةُ وَدَوَتْ فِيهَا الرُّوحُ. وَالْحَيَاةُ لَا بُدَّ أَنْ تَتَفَسَّخَ وَتُحْتَوَى إِذَا لَمْ تَكُنْ دُنْيَا
مِنَ الرَّحْمَةِ، وَهَذَا مَا حَقَّقَهُ النَّبِيُّ فِي فِرْدَوْسِهِ الَّذِي تَزْهَوُ بِهِ أَرْضُ الْعَرَبِ، وَيَلْتَمِعُ
إِلَى بَعِيدٍ فِي إِغْرَاءِ.

إِنَّ الطُّفْلَ حَيَوَانٌ يَعِيشُ بِالْغَرِيزَةِ، وَبِالرَّحْمَةِ يُسْتَطَاعُ جَعْلُهُ إِنْسَانًا يَعِيشُ
بِالْقَلْبِ.

قَالَ نَعِيمَانُ، وَلَمْ تُفَارِقْهُ دُعَابَتُهُ: لَا غَرَوْ أَنْ كَانَتْ كُلُّ أَضْرَاسِكَ - أَبَا
الدَّوْدَاءِ - ضِرْسَ عَقْلٍ، أَوْ لَعْلَ لَكَ، وَحَدَّكَ مِنْ بَيْنِنَا، ذَلِكَ الصُّرْسُ... فَصَحَّحُوا
وَهُمْ يَتَنَادَوْنَ مُتَوَاتِينَ إِلَى الرُّوَاكِ... «وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ الْمَطِيِّ الْأَبَاطِيحُ»...

*

فِي بِلَادِ الْعَرَبِ الْمُبْتَدِئَةِ وَضَعَ النَّبِيُّ تَصْمِيمَ مَدِينَةٍ فَاضِلَةٍ...

وما إنْ آسَتْوَتْ عَلَى قَوَاعِدهَا، حَتَّى وَجَدَ فِيهَا الظَّمَاءُ التَّائِهُونَ هَيْكَلَ
السَّعَادَةِ الشَّارِدِ...

وَدُحِيتْ لِبِنَاتُهَا مِنْ كُلِّ مِثَالِيَّةٍ آتَقَى فِيهَا الْفِكْرُ وَالْعَمَلُ، فَلَمْ تَعْلُ بِالمِثَالِيَّةِ
فَتَطِيرَ بِهَا اللَّبَنَاتُ وَتَذْهَبَ فِي سُرُودِ...
وَكَانَتْ الرَّحْمَةُ نَامُوسَ تَمَاسِكِهَا وَتَجَادُيْهَا...

*

فِي هَيَاكِلِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ السَّعِيدَةِ كَانَ حُسَيْنٌ يَحْبُو...
وَهُوَ يَتَسَامَى فِي مُنْبَتِّ إِشْرَاقَاتِهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، كَمَا تَتَسَامَى اللَّالِيَةُ فِي
رَقَارِقِ النَّمِيرِ الْعَذْبِ...

فَكَانَ كَائِنًا كَالْأَلَمَاسِ، صَقَلَتْهُ الْأَضْوَاءُ وَأَنْطَبَعَتْ فِيهِ...
وَعَدَا، بَعْدَ حِينٍ، مِشْكَاءَ مُتَأَلِّقَةٍ، تَمِيسُ فِي فَضَاءِ الْهَيْكَلِ السَّعِيدِ...
وَتَهَبُ الْحَائِرِينَ طُمَأْنِينَةَ النُّفُوسِ، وَأَحْلَامَ السَّعْدَاءِ!...

* * *

يوم الدولة

أَصْبَحَ النَّبِيُّ وَقَدْ جَمَعَ إِلَيْهِ جَزِيرَةُ الْعَرَبِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْقَلِيلَ كَانَ ذَاهِباً أَيْضاً فِي طَرِيقِ سَائِرِهَا، كَمَا تَذْهَبُ الرِّحَى رَاسِمَةً خَطَّ دَائِرَتِهَا فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ. وَكَانَ لَا بُدَّ لِهَذِهِ الرِّحَى، وَفِيهَا أَنْطِلَاقٌ وَفِيهَا حَيَاةٌ، أَنْ تَرُوسَ دَوَائِرَها وَاحِدَةً فِي أُخْرَى أَوْسَعَ مِنْهَا، حَتَّى تَتَّصِلَ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ الْأَفْقُ الْمُطْبِقُ، الَّذِي هُوَ، فِي نَفْسِهِ، أَقْصَى الدَّوَائِرِ فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ.

وَالنَّبِيُّ، إِلَى هَذِهِ الْآوَنَةِ مِنَ الزَّمَنِ، كَانَ قَدْ قَذَفَ الدِّينَ فِي حَيَاةِ الْعَرَبِ رُوحاً، وَسَوَّى الدَّوْلَةَ قُطْبَ الرِّحَى فِي حَرَكَةِ الْحَيَاةِ الْجَدِيدَةِ، فَانْطَلَقَتْ وَلَمْ تَقِفْ، وَتَفَرَّجَتْ وَلَمْ تَنْكَمِشْ. وَأَبْدَأَ يَقَعُ مَقْيَاسُ الْحَيَاةِ الشَّامِكَةِ فِي الْحَرَكَةِ، بِمِقْدَارِ مَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَخْطُ خُطُوطاً جَدِيدَةً دَائِماً، وَتَشْتُرْ فِي مَدَى خُطُوطِهَا خَيْرَاتٍ لَا تَغِيضُ دَفْقَاتِهَا، وَلَا تَخْبُو إِشْعَاعَاتِهَا، وَلَا تَبْهَتْ أَلْوَانُ أَحْلَامِهَا...

كَانَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ، وَكَانَ النَّاسُ يَسْتَقْبِلُونَ بِهَا عَهْداً جَدِيداً، فَقَدْ هَيَّأَ النَّبِيُّ الْأَسْبَابَ لِلإِعْلَانِ عَنْ وِلَادَةِ دَوْلَةٍ فِي الْمُنَايَ الْبَعِيدِ الْمَجْهُولِ الْقُوَى، وَالْمَمْدُودِ الرِّغَابَاتِ. فَتَنَظَّمُ طَائِفَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَى تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، تَحْمِلُ رِسَالَةَ الدِّينِ وَالدَّوْلَةِ جَمِيعاً، فَقَدْ أَضْحَى نَبِيٌّ فِكْرَةَ وَرَعِيمَ دَوْلَةٍ.

وَكَانَتْ الْفِكْرَةُ الَّتِي أَنْبَجَسَتْ مِنْ يَنْبُوعِ الثُّبُوءِ، قَدْ أَمْتَدَّتْ وَهِيَ تَمْتَدُّ، فَكَانَ

لا بُدَّ للدَّولةِ، وَقَدْ تَرَكَّزَتْ، أَنْ تَتَحَرَّكَ لِتَمْتَنِدَ أَيْضاً. وَدَائِماً تَظَلُّ الْفِكْرَةُ فِي إِحْسَاسِ التَّارِيخِ هَزِيلَةً، إِذَا لَمْ تُرَافِقْهَا الدَّوْلَةُ الَّتِي تَجْعَلُهَا خَلَاقَةً وَمُعَيَّرَةً، وَالْفِكْرَةُ لَا تَكُونُ قَابِلَةً لِتَقْوَمَ عَلَى أُسَاسِهَا الدَّوْلَةُ دَائِماً، وَإِنَّمَا هِيَ فَقَطُ الْفِكْرَةُ الَّتِي آجَتَمَعَتْ^(١) فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ وَقَابِلِيَّاتِهِ الرَّائِدَةِ، وَأَنْبَعَثَتْ فِيهَا عَلَى سَكْلِ مِنَ الْحَيَاةِ، وَبِذَلِكَ تَكُونُ فِي آغْتِيَارِ الزَّمَنِ أَنَّهَا مِنْهُ، وَمَصِيرُ الْأَفْكَارِ الْأُخْرَى أَنَّهَا تَسْتَحِيلُ إِلَى نَأْمَاتٍ خَافَتَةٍ فِي أَذُنِ الدَّهْرِ، وَسَمِعِ التَّارِيخِ.

وَمِنْ طَبِيعَةِ الْفِكْرَةِ، الَّتِي تَجْتَمِعُ فِيهَا قُوَى تَارِيخِيَّةٍ كُبْرَى وَتَنْجَحُ فِي إِقَامَةِ دَوْلَةٍ جَدِيدَةٍ وَخَلْقِ تَارِيخٍ جَدِيدٍ، أَنْ تَكُونَ فِيهَا عَنَاصِرُ الثَّوْرَةِ كَامِلَةً، الثَّوْرَةُ الَّتِي هِيَ ظَاهِرَةٌ مِنْ يَقْظَةِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِدَةِ.

وَلَاَنْ تَعَالِيمِ النَّبِيِّ مِنْ هَذَا النَّوْعِ الَّذِي آجَتَمَعَتْ فِيهِ قُوَى التَّارِيخِ كَانَتْ لَا تَنْصِلُ بِمُجْتَمَعٍ إِلَّا وَتَعْمَلُ فِيهِ عَمَلَهَا، فَتُلْهِمُهُ وَتُحَرِّقُ عَلَيْهِ زُبُوفَهُ وَتُعَيِّرُهُ تَغْيِيرًا تَامًا، حَتَّى كَأَنَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا لَيْسَ مِنَ الْحَيَاةِ. بِذَلِكَ نَجَحَتْ نُبُوَّةُ مُحَمَّدٍ وَنَجَحَتْ دَوْلَتُهُ، وَفِيهَا الْقُوَى لِتَنْجَحَ كُلُّمَا حُرَّكَتْ وَأَنْبَعَثَتْ.

وَكَانَتْ كُتُبُ النَّبِيِّ إِلَى الْمُلُوكِ أَوَّلَ دَعْوَةٍ مِنْ نَوْعِهَا فِي التَّارِيخِ، دَعْوَةٌ دَوْلِيَّةٌ عَامَةٌ لِلدَّخُولِ فِي النِّظَامِ الْجَدِيدِ، وَجُهِتْ عَلَى سَكْلِ كِتَابٍ رَسْمِيٍّ. كَمَا كَانَتْ إِعْلَانًا بِوِلَادَةِ دَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ، الَّتِي فِي ضَمِيرِ الزَّمَنِ عَنْهَا: أَنَّهَا كُلُّمَا وُلِدَتْ حَقًّا يَتَغَيَّرُ وَجْهُ التَّارِيخِ.

(١) وَمَعْنَى آجَتَمَاعِ قُوَى التَّارِيخِ الرَّائِدَةِ فِي الْفِكْرَةِ، أَنْ تَشْتَمِلَ الْفِكْرَةُ الْجَدِيدَةُ عَلَى كُلِّ الصَّرُورَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ، سِوَاةٍ فِي الْأَخْلَاقِ وَالْحَيَاةِ وَالْاجْتِمَاعِ، وَمِثَالُهُ: أَنَّ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةَ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي دَوْلَةِ فَارِسَ ثُمَّ تَخَلَّقَتْ، وَكَذَلِكَ فِي دَوْلَةِ الرُّومَانِ، وَذَوِلِ الْأَرْضِ إِذْ ذَاكَ، وَجَدَتْ سَبِيلَ ظُهُورِهَا وَقَابِلِيَّةَ أَنْبِعَاثِهَا فِي الْفِكْرَةِ الْحَدِيدَةِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ، فَانْتَبَعَتْ فِيهَا كُلُّ قُوَى التَّارِيخِ الَّتِي كَانَتْ قَدْ رَكَدَتْ فِي الْأُمَمِ حَبِيئًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ فِكْرَةٍ فِي كُلِّ دَوْرٍ لَا تَمْلِكُ قُوَّةَ الْإِنْتِدَادِ وَالْحَيَاةِ وَالشَّيْطَانَةِ إِلَّا إِذَا كَانَتْ فِيهَا قَابِلِيَّةٌ لِأَنْبِعَاثِ الْقُوَى التَّارِيخِيَّةِ فِيهَا الَّتِي تَخَلَّقَتْ فِي أَوْضَاعِ الْأُمَمِ الْأُخْرَى.

في هذه الفترة كنتُ نحسُ في كُلِّ نَحْوٍ من أُنحاءِ المَدِينَةِ بِحَرَكَةِ نَشَاطٍ غَرِيْبَةٍ، وَتَسْمَعُ هَمَسَاتٍ مُسْتَطِيلَةً مُتَّصِلَةً الِهِمَمَاتِ، وَلَمْ يَكُنْ لِلنَّاسِ حَدِيثٌ إِلَّا حَدِيثُ الْكُتُبِ، وَمَاذَا سَيَكُونُ رَجْعُهَا وَرَدُّ الْمُلُوكِ عَلَيْهَا؟ وَكَانَ، فِي الطَّرِيقِ الْآخِذِ إِلَى الْعَوَالِي، جَمَاعَةٌ أَنْتَحَتْ بِنَفْسِهَا نَاجِيَةً ظَلِيلَةً تَكَاثَفَتْهَا أَوْرَاقُ الْأَغْصَانِ الْوَارِفَةِ. فَقَالَ قَائِلٌ: أَمَا تَرَوْنَ أَنَّهَا مُحَاوَلَةٌ خَطِرَةٌ، قَدْ تَوَلَّبَ عَلَيْنَا جَمَاعَاتُ الْأُمَمِ، وَهِيَ تُحِيطُ بِجَزِيرَتِنَا إِحَاطَةً السُّورِ بِالْمِغْصَمِ، فَإِنَّ نَفْسِي تَنْتَاشُهَا الْخَوَافُ، وَتَتَقَسَّمُهَا شِعَاعاً.

قَالَ الْمِقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ: لَا يَنْتَفِخُ سَحْرُكُ^(٢) بِالْأَوْهَامِ، وَلَا تُرْعِ، وَسِرٌّ عَنْ نَفْسِكَ الْخَوَافُ. إِنَّ لَنَا مِنْ قُوَانَا الْجَمِيعَةِ مَا يَجْعَلُنَا كُتْلَةً مِنَ الصُّلْبِ، مِنْ وَرَائِهَا الْإِيمَانُ يَشُدُّنَا، وَمِنْ وَرَاءِ الْإِيمَانِ اللَّهُ وَاهِبُ الْقُوَى وَالْقَدَرِ، فَلَسْنَا نَزْهَبُ عَاتِيًا مِنَ الْبَشَرِ. وَإِنَّ النَّفْسَ الَّتِي رَأَتْ وُجُودَهَا فِي اللَّهِ، تَنْتَاطُلُ بِهَا الْقُوَى، وَتَتَقَاصَرُ فِي مَدَى آغْتِيَارِهَا أَيُّهُ قُوَى أُخْرَى، فَتَنْقَذِفُ، وَهِيَ قِلَّةٌ رَاعِدَةٌ، مِنْ مَصْدَرِ الْقُوَّةِ الْكُبْرَى. وَحَظَّ الْإِنْسَانُ مِنَ الْحَيَاةِ، كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ نَفْسِهِ الَّتِي هِيَ يَنْبُوعُ الْمُطْلَقِ، وَلَيْسَ كَمَا هُوَ فِي مِرَاةِ الْوُجُودِ الَّتِي لَا تَعْكُسُ إِلَّا نِسْبِيَّةً وَظِلَالاً خَادِعَةً مُخْتَلِطَةً. وَإِنَّ الْوُجُودَ كَائِناً بَسِيطاً، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ إِلَّا حَقَائِقَ بَسِيطَةً، وَأَمَّا حَقَائِقُ الْوُجُودِ الْعَظْمَى فَهِيَ مِنْ هِبَاتِ الْإِنْسَانِ عَلَى الْوُجُودِ. وَالْإِنْسَانُ لَيْسَ كَائِناً مُتَفَصِّلاً مِنَ الْوُجُودِ فَقَطْ، بَلْ هُوَ أَدَاةُ خَلْقٍ وَتَكْمِيلٍ فِيهِ... فَالْحَيَاةُ وَأَشْيَاؤها، وَالْوُجُودُ الْمُعْتَوِيُّ وَفِكْرَتُهُ، بِدَعَةِ هَذَا الْإِنْسَانِ الْعَجِيبِ الَّذِي لَوْلَاهُ لَظَلَّ الْوُجُودُ بَسِيطاً سَاجِداً خُلُوعاً مِنَ الْإِغْرَاءِ.

وَالْإِنْسَانُ الَّذِي لَا يَفْتَأُ يَطْلُبُ كِبَرِيَاءَ الْوُجُودِ، وَيُحِسُّ بِنَشْوََةِ وُجُودِهِ فِي حُدُودِ هَذِهِ الْكِبَرِيَاءِ، بَلْ لَا يُحِسُّ بِالْوُجُودِ بَعِيداً، لَيْسَ كَائِناً طَبِيعِيّاً، وَإِلَّا فَهُوَ،

(٢) تَغْيِيرٌ كَيْفِيٌّ اسْتَعْمَلَهُ الْعَرَبُ فِي الْحَاثِيَةِ وَفِي الْإِسْلَامِ تَغْيِي: لَا يَمْلِكُ الرُّغْثُ وَالْهَلَقُ أَخْشَاءَكَ وَرَيْثِيكَ.

كَكَائِنٍ طَبِيعِيٍّ، شَيْءٌ نَافَهُ مِثْلُ أَيِّ كَائِنٍ آخَرَ يَنْمُو وَيَذْوِي بَيْنَ فُتْرَاتٍ مِنَ الزَّمَنِ.
والإيمانُ باللَّهِ الَّذِي دَعَا إِلَيْهِ الْإِسْلَامُ، فِي حَقِيقَتِهِ، إِيمَانٌ بِالْإِنْسَانِ، وَهَذَا
لِلْإِيمَانِ بِالْوُجُودِ الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ وَثِيَّةٌ تَحُولُ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِيمَانِ بِنَفْسِهِ
وَمَعْرِفَتِهَا، وَإِلَى هَذَا يَوْمُ قَوْلِ النَّبِيِّ الْأَعْظَمِ «مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ».
فالإنسانُ كائِنٌ إِلَهِيٌّ إِذَا فَهِمَ نَفْسَهُ، وَكُلَّمَا رَسَبَ إِلَى الطَّبِيعَةِ، وَأَمَنَ بِقُوَاهَا،
فَقَدْ رَسَبَ وَتَلَاشَى فِي غِمَارِ الْوُجُودِ الصَّامِتِ، وَعَادَ كَحَفَنَةِ هَامِدَةٍ مِنَ الرِّمَالِ.
وَالنَّبِيُّ بَشَرٌ بِالْإِنْسَانِ «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ» وَحَارَبَ الْوَثِيَّةَ لِأَنَّهَا كُفِّرَ بِهِ، وَارْتَدَّ
إِلَى تَأْلِيهِ مَظَاهِرِ الْوُجُودِ الْخَادِعَةِ، وَجَاءَ بِتَوْحِيدِ الْآلِهَةِ لِأَنَّهَا كُلَّمَا تَعَدَّدَتْ تَلَاشَى
الْإِنْسَانُ فِي سَاحَتِهَا.

وَمَا أَنْكَسَفَ قَمَرُ الْإِنْسَانِ فِي أُمَّةٍ، وَارْتَدَّتْ بِعِبَادَتِهَا إِلَى تَقْدِيسِ الطَّبِيعَةِ
دُونَ الْإِنْسَانِ، إِلَّا هَوَتْ مُضْمَجَلَّةً، وَكَانَ ذَلِكَ أَوَّلَ عِلَاقِمِ آخِضَارِهَا، فَإِنَّ
الْإِنْسَانَ، وَخَدَّهُ، هُوَ الْحَقِيقَةُ الْكُبْرَى فِي الْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ حِينَ خَلَقَهُ اللَّهُ عَلَى
صَوْرَتِهِ.

وَالْقُوَّةُ - يَا هَذَا - كَيْفِيَّةٌ لَا كَمِّيَّةٌ، وَلَيْسَتْ كَمَا هِيَ فِي مِرَاةِ الْوُجُودِ، بَلْ
كَمَا هِيَ فِي وَجْدَانِ الْإِنْسَانِ، وَالظَّفَرُ دَائِمًا يَكُونُ بِخَيَالِ الْقُوَّةِ وَمُبَالَغَاتِهَا فِي النَّفْسِ
«كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةً كَثِيرَةً يَأْذِنُ اللَّهُ». فَوَاللَّهِ لَوْ قَدَفَ بِنَا النَّبِيُّ إِلَى بَرَكِ
الْإِيمَانِ وَإِلَى كُلِّ مَدَائِنِ كِشْرَى وَقَيْصَرَ مَا وَثِقْنَا وَلَا نَكَلْنَا؛ وَنَحْنُ لَا بُدَّ ظَافِرُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: عَهْدُنَا بِكَ أَنْتَ بَطْلٌ، فَهِيَ أَنْتَ حَكِيمٌ أَيْضًا...

قَالَ الْمُقَدِّدُ: إِنَّ الْبُطُولَةَ مَعْرِفَةُ الْإِنْسَانِ نَفْسَهُ، فَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْعَمَلِ قَبْلَ عُنْهَا
بُطُولَةٌ، وَإِذَا بَرَزَتْ فِي الْفِكْرِ قَبْلَ عُنْهَا حِكْمَةٌ. فَالْبُطُولَةُ حِكْمَةٌ صَامِتَةٌ، وَلَنْ يَكُونَ
الْمَرْءُ بَطْلًا إِلَّا إِذَا سَبَقَ وَعَرَفَ نَفْسَهُ، أَيْ كَانَ حَكِيمًا، وَالنَّبِيُّ سَبَقَ وَعَرَفَنَا بَأَنْفُسِنَا،

فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ كُلُّ أَتْبَاعِ مُحَمَّدٍ أُبْطَالًا.

وَتَبَيَّنَ هُمْ عَلَى تَبْشِطِهِمْ فِي الْحَدِيثِ، عَرَضَ رَاكِبٌ مُجِدِّ يُغْذِي الْخَطِيئَةَ غَدًّا،
وَحِينَ حَاذَاهُمْ قَامَ إِلَيْهِ الْجَمْعُ وَخَفُّوا بِهِ مُلْقِينَ إِلَيْهِ رُؤُوسَهُمْ.

وَقَالُوا بِلَهْجَةِ الْمُتَنَبِّئِ: مَا وَرَاءَكَ؟ وَكَانَ هُوَ الرَّسُولَ الَّذِي بَعَثَهُ النَّبِيُّ بِالْكِتَابِ
إِلَى كِشْرَى.

قَالَ الرَّايِبُ، وَقَدْ أَلَوَى رَأْسَهُ حَتَّى حَاذَى رُؤُوسَهُمْ: إِنْ كِشْرَى بَلَغَتْ بِهِ
حِمَايَتُهُ أَنَّهُ مَرْقَى كِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ مُسْتَحْفَافًا حَانِقًا، فَمَا أَتَتْ عَلَيْهِ لَيْلَتُهُ سَالِمًا عَدَا
عَلَيْهِ أَتَبُّهُ فَقَتَلَهُ، وَقَامَ مَقَامُهُ، وَشَمَلَ النَّاسَ كَأَفْتَهُمْ نَوْحٌ، بَلْ أَنْوَأَتْ، مِنَ الذُّهُولِ
وَالدَّهْشَةِ وَالاضْطِرَابِ، وَتَرَكْتَهُمْ وَهُمْ يَمُوجُونَ كَالْآذِيِّ ذِي الْأَمْوَاجِ الْعَارِمَاتِ...
فَتَعَلَّقُوا بِمُسَائِلَتِهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، وَلَكِنَّهُ حَثَّ مَطِيعَتَهُ وَأَنْطَلَقَ يَسِيرُ، فَأَنْقَلَبُوا إِلَى
بَغْضِهِمْ يَتَعَجَّبُونَ.

قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: لَقَدْ صَدَقَ الْمَقْدَادُ وَاللَّهُ حِينَ قَالَ: إِنْ الْإِيمَانَ إِذَا خَبَا،
حَلَّ مَحَلُّهُ جَهْلُ الْإِنْسَانِ قِيَمَتَهُ. وَالْمُثُلُ الْعُلْيَا وَالْمَعْنَوِيَّاتُ الْخَالِدَةُ، وَهِيَ تَنْبُغُ مِنْ
مَعْرِفَةِ الْإِنْسَانِ بِنَفْسِهِ، لَا يَعُودُ لَهَا وُجُودٌ فِي جَوْهٍ وَفَضَائِهِ، فَيَسْتَبِطِرُ عَلَيْهِ نَوْحٌ حَادٌّ
مِنَ التَّفَاهَةِ يَقْعُدُ بِهِ عَنِ الْمَجْدِ، وَنَوْحٌ حَادٌّ آخَرُ مِنَ الْمَلَالِ يَهْبِطُ بِهِ إِلَى الرُّغَامِ. وَفِي مَا
نَقَلَ إِلَيْنَا الرَّسُولُ الْآنَ مِنْ حَالِ الْفُرْسِ شَاهِدٌ جِدُّ خَطِيرٍ، فَهُمْ أُمَّةٌ جَهْلُ الْإِنْسَانِ
فِيهَا قِيَمَتُهُ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَعُودَ وَلَا قِيَمَةَ لَهَا، زُوَيْدٌ أَنْ تُشْرِقَ عَلَيْهِمْ شَمْسُ إِنْسَانِيَّتِنَا
الْجَدِيدَةِ.

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى خَفُّوا، بَغْضُهُمْ فِي إِثْرِ بَغْضٍ، وَوَأَفُوا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ
النَّاسُ يَمُوجُونَ مَوْجًا، فَقَدْ هَبَطَ أَيْضًا الرَّسُولُ إِلَى قَيْصَرٍ وَهُوَ يُنْقَلُ بِمِقْدَارِ آخِرِيَامٍ
قَيْصَرٍ لِلْكِتَابِ، وَهَبَطَ سَائِرُ الرُّسُلِ الْآخَرُونَ يُنْقَلُونَ مِثْلَ ذَلِكَ؛ فَبَارَكَهُمُ النَّبِيُّ وَنَادَى

المُؤَذَّن «حَيَّ عَلَى الصَّلَاةِ، حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ» فَاسْتَوَى النَّبِيُّ فِي مُضَلَّاهُ، وَخَفَّ النَّاسُ يَنْتَظِمُونَ صُفُوفاً.

قَالَ قَائِلٌ لآخَرٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ النَّاسُ يُكَبِّرُونَ بِالصَّلَاةِ: إِنِّي لَيْسَتْخِفْنِي شُعُورٌ غَنِيْفٌ أَنَا مَعَهُ جِدُّ مُغْتَبِطٍ، فَقَدْ طَفَرْنَا إِلَى قِيَمَةِ التَّارِيخِ، وَغَدَوْنَا أُولَى فِكْرَةٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْفِكْرُ، وَأُولَى مُجْتَمَعٍ أُسْمَى مَا يَكُونُ الْمُجْتَمَعُ، وَإِنَّهُ سَيَظَلُّ لَنَا تَذْكَارَانِ خَالِدَانِ: يَوْمُ الْهَجْرَةِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ النَّبُوَّةِ، وَيَوْمُ الرُّسُلِ أَوْ الشُّفَرَاءِ وَهُوَ تَذْكَارُ نَجَاحِ الدُّوَلَةِ. «وَجَاءَ حُسَيْنٌ يَسْتَنِدُ بَيْنَ الصُّفُوفِ، وَقَدْ سَجَدَ النَّبِيُّ يُصَلِّي فَالْتَزَمَ غُنْفَهُ، فَقَامَ وَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، فَلَمْ يَزَلْ يُمَسِّكُهُ حَتَّى رَكَعَ».

مَضَتْ سَنَةٌ سَبْعٍ وَأَهْلَتْ سَنَةٌ ثَمَانٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ قَدْ شَارَفَ الرَّابِعَةَ أَوْ غَيْرَهَا، حِينَ آتَجَّهُ النَّبِيُّ لِدَكَ آخِرِ مَعْقِلٍ مِنْ مَعَاqِلِ الْأَوْهَامِ، (مَكَّةَ)، الَّتِي هَوَتْ بِالْإِنْسَانِ إِلَى دَرْكِ التَّارِيخِ، وَمَلَأَتْ أَجْوَاءَهُ بِالْأَسَاطِيرِ، حَتَّى أَنْقَلَبَ مَعَهَا وَهُوَ أُسْطُورَةٌ حَيَّةٌ، وَأَنْقَلَبَتْ دُنْيَاهُ الَّتِي يَحْيَاهَا وَهِيَ حَيَاةٌ فِي أُسْطُورَةٍ.

هَبَطَتْ جُمُوعُ النَّبِيِّ مَكَّةَ مِنْ كُلِّ صَوْبٍ، وَدَلَفُوا إِلَيْهَا مِنْ كُلِّ حَذَبٍ، وَبَرَزَ النَّبِيُّ كَالنَّشْرِ الطَّائِرِ، وَهُوَ رَمَزُ فِكْرَةٍ وَتَفَوُّقٍ، وَسَارَ حَتَّى دَخَلَ الْبَيْتَ، وَمِنْ آيَةٍ جِهَاتِيهِ أَوْهَامٌ مُتَجَسِّدَةٌ (أَصْنَامٌ)، عَبَدَهَا الْإِنْسَانُ، فَكَانَ يُشِيرُ إِلَيْهَا بِيَدَيْهِ كِلْتَاهُمَا، وَيَهْتِفُ بِكَلِمَةِ اللَّهِ الْقَارِعَةِ «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً». فَهَوَتْ مُكِبَّةً، وَغَابَ رَجُوعُ صَدَاهَا فِي الْغُورِ السَّحِيقِ، وَتَمَجَّدَ الْحَقُّ يَوْمَاً فِي دُنْيَا الْإِنْسَانِ، وَغَرَا النَّاسُ بِلَالِ الْمَوْقِفِ، وَرَاحُوا فِي يَقْظَةٍ آسْتِغْرَاقٍ كَانَتْ وَاعِيَةً، وَجَرَى عَلَى لِسَانِ فُضَالَةِ اللَّيْثِيِّ:

لَوْ مَا رَأَيْتَ مُحَمَّدًا وَجُنُودَهُ بِالْفَتْحِ يَوْمَ تَكَسَّرَ الْأَصْنَامُ

لَرَأَيْتَ نَوْرَ اللَّهِ أَصْبَحَ بَيْتَنَا وَالشُّرُكَ يَغْشَى وَجْهَهُ الْإِظْلَامُ

وَحَشِدَتْ فُرَيْشُ أَشَابَاتِ أَشَابَاتٍ، وَرَاحَ النَّبِيُّ يَخْطُرُ بَيْنَهُمْ، وَرُؤُوسُهُمْ قَدْ
سَاوَتْ الصُّدُورَ.

قال: ما تَرُونِي فاعِلًا بِكُمْ؟

قالوا: أَخْ كَرِيمٌ وَأَبْنُ أَخٍ كَرِيمٍ!

فَقَالَ، وَقَدْ جَمَعَ ثُبُلَ الْإِنْسَانِ مِنْ أَطْرَافِهِ: إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ!...

وَرَدَّدَ الصَّدَى فِي كُلِّ مَكَانٍ «إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»، الَّذِي كَانَ إِعْلَانًا
لِلْبَشَرِيَّةِ بِأَنَّ هَذَا يَوْمُ خُرُوجِهَا. فَلَمْ تَكُنْ حَرْبُ النَّبِيِّ عُنْتًا وَآضْطِهَادًا وَقَدْ وَجَدَ سَبِيلَهُ
إِلَيْهِمَا، وَإِنَّمَا كَانَتْ خَلَاصًا وَتَحْرِيرًا لَكِي يَتَنَفَّسَ الْإِنْسَانُ بِمِلْءِ رِئْتَيْهِ فِي الْعَرَاءِ...
وَتَرَدَّدَ فِي الدَّهْرِ أَنَّ مُحَمَّدًا أَطْلَقَ الْقَفِيرَ، وَكَسَرَ قَيْودَهُ...

وراح الفراش يطير في الحقول تتحاضنه أيدي الزهراء.

فَقَلَ النَّبِيُّ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَقَدْ آزَدَهَتْ بِنَهَجَاتِهَا، وَأَضْبَحَتْ وَفِي كُلِّ
نَيْتٍ صَدَى فَوْحَةٍ أَنْطَلَقَتْ مُتَمَاجِجَةً وَكَبِيرَةً، وَكَانَ النَّبِيُّ يُلَبِّي دَعَوَاتِهِمْ وَيُشَارِكُهُمْ
مِرَاحَ الظَّفَرِ وَفَخَارِهِ.

قَالَ يَغْلَى بُنُ مَرْءَةٍ: «خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَى طَعَامٍ وَأَنَا مَعَهُ، فَإِذَا حُسَيْنٌ فِي
السُّكَّةِ مَعَ غِلْمَانٍ يَلْعَبُ. فَتَقَدَّمَ النَّبِيُّ أَمَامَ الْقَوْمِ وَبَسَطَ يَدَيْهِ، فَجَعَلَ الْغُلَامُ يَفْرُ
هَا هُنَا وَهَا هُنَا، وَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ يُضَاحِكُهُ حَتَّى أَخَذَهُ، فَوَضَعَ إِيَّاهُ فِي يَدَيْهِ تَحْتَ
قَفَاهُ وَالْأُخْرَى تَحْتَ ذَقْنِهِ وَقَبْلَهُ، وَقَالَ:

حُسَيْنٌ مِنِّي وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ، أَحَبَّ اللَّهُ مَنْ أَحَبَّ حُسَيْنًا، وَحُسَيْنٌ سَبِطٌ مِنَ
الْأَسْبَاطِ».

*

نُجِبُ الْبُيُوتَةَ لِأَنَّهَا خُلُودٌ لِلذَّاتِ...
وفي الحُسَيْنِ كَانَ النَّبِيُّ يَرَى خُلُودَ ذَاتِهِ...
فَلَا جَزَمَ إِنْ كَانَ يَغْمُرُهُ بِهَذَا الْحُبِّ لِأَنَّهُ اسْتِمْرَارُ ذِكْرِ النَّبُوتَةِ...

*

ضَمُّهُ إِلَيْهِ مَلَأَ بَيْنَ الْحُبِّ وَالْمَجْدِ...
وَحَنَا طَوِيلًا عَلَيْهِ بَيْنَ الْقَلْبِ وَالْفِكْرِ...
فَكَانَ لَهُ مِنْ قَلْبِهِ وَفِكْرِهِ جَمِيعًا...
وظَلَّ أَبَدًا رَمَزَ مَجْدٍ شَامِخٍ، وَقُبْلَةَ حُبِّ كَتَنَفُسِ أَزْهَارِ السَّحْرِ وَعَبَقِي
الْخُلْدِ!...

*

الْحُبُّ سُعُورٌ إِلَى سُعُورٍ، وَخَفَقَةُ قَلْبٍ إِلَى خَفَقَةِ قَلْبٍ...
وَالشُّعُورُ جَوْهَرٌ فَزْدٌ لَيْسَ يَنْقَسِمُ...
فَكَانَ حُسَيْنٌ مِنْهُ وَكَانَ مِنْ حُسَيْنٍ!...

*

إِذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ!...
خِطَابٌ لِقُرَيْشٍ مُشِيرًا إِلَى كُلِّ إِنْسَانٍ فِي كُلِّ مَكَانٍ...
لِيَقِفَ شَاعِرًا بِوُجُودِهِ عَلَى حُطَامِ الْأَغْلَالِ وَرُفَاتِ أَرْبَابِ الْقُبُورِ...
فَهَذَا صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ يَنَادِي بِالْحُرِّيَّةِ وَيُنَادِي بِالْخَلَاصِ...

إذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ!...

كَلِمَةً صَدَرَتْ مِنْ رِسَالَةِ مُحَمَّدٍ وَبَيْتِ مُحَمَّدٍ...

فَكَانَتْ إِذْنَانًا بِأَنَّ مُؤَكِّبَ الْحُرِّيَّةِ مِنْ هَذَا الْبَيْتِ يَسِيرُ، وَفِي الطَّلِيعَةِ أَبَدًا
يَكُونُ...

وَطَبِيعَةُ الطَّلِيقِ، لَا تَجْعَلُهُ بِأَعْبَاءِ هَذَا الْأَمْرِ خَلِيقًا...

فَأَبْنَاءُ الْإِسَارِ يَنْطَلِعُونَ عَلَى شَهْوَةِ الْأَسْرِ...

فَقَدْ عَشَّشَتِ الْقُبُورُ فِي رُوحِيَّتِهِمْ وَتَوَلَّدَتْ مِنْهَا عَقْلِيَّتُهُمْ!...

*

وَلَكِنْ حَاوَلَ الطَّلِيقُ الْإِنْتِهَارَ وَكَانَ...

فَعَادَتْ قُبُورُ السُّجُنِ وَالسَّجَّانِ...

فَحَمَلَ حُسَيْنٌ - وَهُوَ رَامُوزُ بَيْتِ الْحُرِّيَّةِ وَحَارِسُهَا - الشُّغْلَةَ الْمُقَدَّسَةَ إِلَى كُلِّ
مَكَانٍ...

فَقَدْ سَمِعَ زُمْرَةً تُحْرِقُ الْأُرَمَ مِنْ وَرَاءِ الْقُبُورِ، فَأَعْلَنَ التُّكْرَانَ...

وَهَبَّ تَحْتَ صَوْتِ الْوَاجِبِ يُغَالِبُ الْبُخْرَانَ... وَهُوَ وَإِنْ لَمْ يَكْبَحْ جِمَاحَ
الطُّغْيَانِ...

فَقَدْ تَرَكَ فِي جَنْبِهِ نَوْرَةَ الْبُزْكَانِ...

* * *

دموع

كثيراً ما كَانَ النَّبِيُّ يُرى، في أُخْرِيَّاتِ أَيَّامِهِ، بَيْنَ ذَوِيهِ وَأَبْنَائِهِ يُؤَانِسُهُمْ، وَيَطْمَئِنُّ فِي نَشْوَةِ خَفِيَّةٍ إِلَى أَشْيَاءَ لَهْوِهِمِ الْبَرِيِّ وَمَرْجِهِمِ الْحُلُوِّ، وَيُعَاطِيهِمْ أَشْبَابَ هَذَا اللَّهْوِ وَهَذَا الْمَرْحِ، وَيَمُدُّ لَهُمْ فِيهِمَا، فَقَدْ حَقَّقَ حُلُمَ الْمَجْدِ وَأَدَّى غَايَةَ الرِّسَالَةِ الْقُضْوَى، فَهُوَ يَشْعُرُ بِالْأَطْمِئْنَانِ وَالرِّضَا، وَيُحْسِنُ بِتَزَاوُجٍ شَرُورٍ عَمِيقٍ.

وَكَانَ يَأْتِسُّ كَثِيرًا إِلَى هَذَا الْجَوْ الَّذِي تَشِيْعُ فِيهِ حَرَكَاتُ الطُّفُولَةِ نَاعِمَةً بِبِرَائَتِهَا، هَائِنَةً بِسَدَاجَتِهَا، مُنْتَشِئَةً بِطَرَاوَتِهَا... وَهِيَ، رُغْمَ قَسَوَتِهَا أَخِيَانًا، تَجِدُ وَقْعَهَا اللَّذِيذَ، فَإِنَّ الْبِرَاءَةَ جَمَالٌ عَلَى شَتَّى صُورِهَا وَأَلْوَانِهَا.

وَالطُّفُولَةُ، وَحْدَهَا، أَثْبَتُ حَقَائِقِ الْحَيَاةِ، وَمَا وَرَاءَهَا سُخْرِيَّاتٌ وَأَشْبَاهُ سُخْرِيَّاتٍ تَبْدُو خَشِيئَةً، وَكُلَّمَا أَوْغَلْنَا فِي مَدَى الْحَيَاةِ تَزِيدُ خُشُونَةً وَتَوَعُّرًا. وَحِينَ تُدْرِكُنَا لَذَائِهَا عَرَضًا فَإِنَّمَا تَكُونُ فِي شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ الرَّجْعَةِ إِلَى الطُّفُولَةِ، وَفِي إِنْصَاءٍ زُيُوفٍ ثَقِيلَةٍ مِنْ أَثْوَابِ التَّكَلُّفِ الْمُرْهَقَةِ... وَالتَّكَلُّفُ رِيَاءٌ وَأَنَايَةُ عَلَى كُلِّ وَجْهِهِ، وَلِذَلِكَ أَنْصَرَفَ جُهِدُ النَّبِيِّ إِلَى أَنْ يَضَعَ فِي كُلِّ الْحَيَاةِ بَرَاءَةَ الطُّفُولَةِ.

وَنَحْنُ لَا نَسْتَطِيعُ الرَّجْعَةَ إِلَى الطُّفُولَةِ وَبَعْنَهَا مِنْ جَدِيدٍ عَلَى آيَةِ صُورِهَا، كَمَا نَعْجِزُ دَائِمًا عَنْ خَلْقِ جَوْهَا الْمُتَرْفِ، فَتَطْلُبُهَا فِي الطُّفْلِ بِشَوْقٍ مَلِيحٍ، وَفِي نَوْعٍ مِنَ الْحَيْنِ الْآسِرِ، لِيَعْمُرَنَا بِرُوحِيَّتِهَا الَّتِي تَظَلُّ فِينَا أَمَلًا مَنشُودًا، وَرَغْبَةً حَادَّةً.

والتَّبِيُّ كَانَ يَجِدُ طُفُولَةَ حَيَاتِهِ اللَّادَّةَ فِي أَثْنَائِهِ كَمَا كَانَتْ وَعَلَى مَا كَانَتْ،
فَيَأْخُذُهُمْ بَصُوفِ اللَّعَابِ فِي خَنَانٍ وَافْتِرَارٍ. وَكَثِيراً مَا كَانَ يُرَى الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ
يَضْطَرِعَانِ وَهُوَ يُحَمِّسُهُمَا، أَوْ يَلْعَبَانِ بِالْمَدَاحِي^(١) وَهُوَ يُعْبُ الثَّهَاءَةَ عَبَّاءً، وَيَتَمَلَّأُ
مِنْهَا، وَيَتَذَوَّقُ «خَلَوَاءَ الْبَنِينَ» الَّتِي هِيَ النَّشْوَةُ الْكُبْرَى فِي ظِلَالِ الْعُمْرِ. فَإِنَّ لَدَاةَ
الْحَيَاةِ تَقُومُ فِي نَشْوَتَيْنِ: نَشْوَةٍ بِالطُّفُولَةِ، وَنَشْوَةٍ بِذِكْرَاهَا فِي الطُّفْلِ، وَمَا بَقِيَ مِنْ
فُصُولِ الْحَيَاةِ هَجِيرٌ كَهَجِيرِ الظَّهِيرَةِ، وَلَذَنْجُ كَلْدَنْجِ اللَّهَبِ، وَخُرْقَةٌ تَنْتَهِي بِمَرَارَتِهَا.
وَالطُّفْلُ طَائِرٌ يَرِفُ بَيْنَ أَثْدِينَا لِيَتَلَحَّقَ بِهِ إِلَى جَوْ حَقَائِقِهِ وَأَحْلَامِنَا، وَكَانَ
الْحَيَاةُ تَضَعُ الْحَقِيقَةَ الْعَارِيَّةَ السَّعِيدَةَ، بِكُلِّ فُتُونِهَا، بَيْنَ يَدَيِ الطُّفْلِ، فَيَغْرُقُ فِي
خُصَامِهَا زَمَناً، وَلَكِنَّهَا تَنَائِي وَهُوَ فِي قِمَّةِ شُعُورِهِ بِاللَّذَّةِ الْمُطْلَقَةِ، فَيَخْبُو وَرَاءَهَا فِي
لَهْفَاتٍ، ثُمَّ يَغْدُو فِي لَهْفَاتٍ، وَهِيَ تَنَائِي وَتَنَائِي حَتَّى تَحُورَ فِي كَوْنٍ مِنَ الضَّبَابِ
يَحُولُ الْأُفُقُ دُونَهَا، وَيَقْطَعُ بِالْحَيِّ الْمَسِيرُ فَيَسْتَعْرِقُ حَالِماً، هَائِماً، فَقَدْ سَقَطَ فِي
الشَّرَابِ، تَطَوَّفَ بِهِ وَتَنَازَعَهُ أَحْلَامُ الْمَاءِ.

وَإِذْ يَضْطَرِعَانِ، كَانَ التَّبِيُّ يُهَيِّجُ حَرَكَاتِ طُفُولَتَيْهِمَا الْمُتَشَابِكَةِ الَّتِي هِيَ رَمْزُ
عَبَثٍ فِي جِدٍّ، وَجِدٍّ فِي عَبَثٍ، تَنْتَظِمُهَا بَرَاءَةٌ مَارِحَةٌ.
فَيَقُولُ: «إِيهَآ حَسَنُ».

قَالَتْ فَاطِمَةُ: أَسْتَنْهَضُ الْكَبِيرَ عَلَى الصَّغِيرِ؟!

قَالَ: هَذَا جَبْرِيلُ يَقُولُ: «إِيهَآ حُسَيْنُ»!

وَجَبْرِيلُ رَمْزٌ مِنَ الْمُطْلَقِ، وَأَسْمٌ مِنَ الْمَثَالِ، وَفِي لَحْظَةِ اسْتِعْزَاقٍ وَاسْتِغْلَاةٍ
طَافَتْ بِنَفْسِ النَّبِيِّ صُورَةٌ مِنَ التَّجْرِيدِ بَرَزَتْ مُجَسِّمَةً وَمُكَبَّرَةً، وَهِيَ تُشَارِكُهُ نَشْوَتُهُ

(١) الْمَدَاحِي: أَخْجَازٌ، كَانُوا يَخْفِرُونَ خَفِيرَةً وَيَذْحُونَ فِيهَا بِتِلْكَ الْأَخْجَارِ، فَإِنْ وَقَعَ الْحَجَرُ فِيهَا فَقَدْ غَلَبَ
صَاحِبُهَا، وَإِنْ لَمْ يَتَغَنَّ غَلَبَ، وَالذَّخْوُ زُمِّي اللَّاعِبِ بِالْحَجَرِ وَالْجُوزِ وَغَيْرِهِ. أَيْ أَشْبَهَ مَا تَكُونُ بِالْغُولِ الْيَوْمَ.

وَبَهْجَةٍ مَا يَجِدُ جِيَالَ مَرَحٍ سِبْطِيهِ. وَلَمْ يَكُنْ جَبْرِيلُ غَرِيباً عَنْ جَوْهٍ، فَهُوَ زَمْزُ
رِسَالَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ حُسَيْنٌ بَعِيداً عَنْ قَلْبِهِ، فَهُوَ زَمْزُ حُبِّهِ. وَفِي هَذَا الِاسْتِنْهَاضِ
التَّمثِيلِيِّ زَمْزِيَّةٌ تُشِيرُ إِلَى أَنَّ الْحُسَيْنَ سَيَكُونُ رَائِدَ الرِّسَالَةِ وَعَلَمَ الْهُدَى، فِي أَعْمَاقِ
ضَمِيرِهِ صَوْتُ مِنَ الْغَيْبِ يَتَرَدَّدُ أَبَداً: إِيهَا حُسَيْنُ!...

مَعَ الْأَصِيلِ كَانَ فِي أَقْصَى الصَّخْرَاءِ رَاكِبٌ يَسِيرُ بَيْنَ الْجِدِّ وَالْهُوْنِ آخِذاً
نَحْوَ الْمَدِينَةِ، وَهُوَ يَتَدَوَّى مِنْ بَعِيدِ كُرَّةٍ يُدْخِرُهَا الْأَفْقُ عَلَى الرَّمَالِ، وَالصَّخْرَاءُ هَيْكَلُ
أَبْدِيَّةٍ مَكْشُوفَةٍ، تَتَمَدَّدُ فِي النَّفْسِ عَلَى رُحْبِهَا، فَتَتَمَدَّدُ بِهَا النَّفْسُ لَا مُتَنَاهِيَّةً تَطَالُعُ
الْمَجْهُولَ.

وَكَانَ الرَّايكِبُ أبا ذُوَيْبٍ الشَّاعِرَ الْحَزِينَ الَّذِي صَفَّرَ الْحُزْنَ عَلَى هَامَتِهِ إِكْثِلًا
تَنَائَرَتْ أَوْرَاقُهُ، وَتَقَيَّتْ أَشْوَائُهُ الْقَاسِيَةَ تَأْبُرُهُ فِي خَطَرَاتِ الذُّكْرِ، وَخَلَجَاتِ
الْحَيْنِ، وَرَجَفَةِ الْهَوَى، وَتَأَوَّدَاتِ الطَّيْفِ^(٢).

وَالصَّخْرَاءُ يَنْبُوغُ ذِكْرِيَاتٍ سَيِّمًا لِنَفْسِ إِنْسَانٍ مَحْزُونٍ تَكْسَرَتْ أَصْدَاءُ
الْأَسَى فِي أَدْنَاهِ، فَهُوَ يُحْسِنُ بَوَقْرَهَا فِي الْخَلَاءِ ضَاجِجاً غَنِيماً، وَالنَّفْسُ الْبَائِسَةُ يَزْدَادُ
فِيهَا صِدْقُ الْحَيِّسِ وَالْحَدَسِ، وَتَتَأَثَّرُ بِالْفَوَاجِعِ مِنْ بَعِيدٍ، وَبِرَّعْشَاتِ الْغَيْبِ وَالْمَجْهُولِ.
عَرْنَتْهُ، وَالْمَطِيَّةُ تَنْتَهَادِي بِهِ، هِزَّةً شَجِي، وَتَأَوَّدَتْ فِي أُعْطَافِ الصَّخْرَاءِ أَمَامَ
نَاطِرَتِهِ طُيُوفَ رَايِمَةٍ. «وَكَانَ قَدْ بَلَغَهُ أَنَّ التَّبِيَّ عَلِيلٌ، وَكَانَ قَدْ اسْتَشْعَرَ حُزْناً مُذِيّاً،
وَكَانَ قَدْ بَاتَ بِأَطْوَلِ لَيْلَةٍ لَا يَنْجَابُ دَيْجُورَهَا، وَلَا يَطْلُعُ نَوْرُهَا قَبْلَ أَنْ آتِبْدَأَ الْمَسِيرَ،
فَهَوَّمَ مَعَ الشَّخْرِ، فَسَمِعَ صَوْتَ الشَّاعِرِ يَهْتِفُ بِهِ فِي الْأَحْلَامِ:

خَطْبُ أَجَلٍ أُنَاخَ بِالْإِسْلَامِ بَيْنَ التُّخَيْلِ وَمَغْقِدِ الْأَطَامِ

(٢) غَيْبُهُ أَجْمَلُ مَا قِيلَ فِي الرِّثَاءِ وَالْتَفَجُّعِ وَمِنْهَا الْبَيْتُ الذَّاهِبُ نَقْلًا:

وَإِذَا الْمَيِّتَةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا أَلْقَيْتُ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

فَبِضِ النَّبِيِّ مُحَمَّدًا، فَعْيُونَا تَذْرِي الدُّمُوعَ عَلَيْهِ بِالشَّجَامِ
قال: فَأُصْحِيْتُ مِنْ مَنَامِي فَرِعَا، فَتَنَظَّرْتُ فَلَمْ أَرَ إِلَّا سَعْدَ الدَّابِحِ، فَأَوَّلَتْهُ ذَبْحًا
يَقَعُ فِي الْعَرَبِ، وَعَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ قُبِضَ.

فَعَحَنْتُ رَاحِلَتِي وَسِرْتُ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ طَلَبْتُ شَيْئًا أَرْجُو بِهِ، فَعَرَضَ لِي
شَيْئُهُمْ، قَدْ قُبِضَ عَلَى صِلٍّ، فَهِيَ تَلْتَوِي عَلَيْهِ وَالشَّيْئُهُمْ يَقْضُمُهَا حَتَّى أَكَلَهَا،
فَرَجَزْتُ ذَلِكَ وَقُلْتُ: شَيْئُهُمْ، شَيْءٌ هَمٌّ. وَالتَّوَاءُ الصَّلُّ: تَلْوِي النَّاسِ عَلَى الْقَائِمِ بَعْدَ
رَسُولِ اللَّهِ.

فَأَذَرَكَنِي خَيْرَةٌ مُتَلَطِّئَةٌ عَرَضَ لِي فِيهَا شَيْخٌ إِنْسَانٍ مُجِدِّ نَفَقَتْ تَحْتَهُ رَاحِلَتُهُ
مِنْ طَوِيلٍ مَا حَمَلَهَا وَرَاحَ يُحْمَلُهَا، وَلَمْ يَقْعُدْ بِهِ إِلَّا قِطَاعُ بَلٍّ هَبَّ فِي غَيْرِ تَوَقُّفٍ،
يَخْطُو لُخْطُوبَاتٍ وَاسِعَاتٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: لِأَمْرِ مَا جَدَعَ قَصِيرٌ أَنْفَهُ!!

«فَعَمَدْتُ الْخُطَى مَدًّا عَنِيفًا حَتَّى هَبَطْتُ الْمَدِينَةَ، وَلَهَا ضَجِيجٌ بِالْبُكَاءِ
كَضَجِيجِ الْحَجِيجِ إِذَا أَهْلَوْا بِالْإِحْرَامِ، وَهُمْ فِي ذُهُولٍ مُسْتَطِيلٍ وَوُجُومٍ.
فَقُلْتُ: مَا الْحَبَرُ؟

قالوا: قُبِضَ النَّبِيُّ!
فَجِئْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ فَوَجَدْتُهُ خَالِيًا، فَأَتَيْتُ بَيْتَ النَّبِيِّ فَوَجَدْتُ بَابَهُ مُرْتَجًا،
وَقِيلَ: هُوَ مُسَجَّى وَقَدْ خَلَا بِهِ أَهْلُهُ.

فَقُلْتُ: أَيْنَ النَّاسُ؟
قيل: فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ^(٣).

وفيما أنا فِي بَعْضِ طُرُقِ الْمَدِينَةِ أَمْشِي مِشْيَةَ الْحَزِينِ الْحَائِرِ، رَأَيْتُ عَارِضَ

(٣) راجع: حياة الحيوان الكبرى للدميري، ج ٢، ص: ٦٧٠

الصَّخْرَاءُ فَتَبَيَّنَتْهُ، فَإِذَا هُوَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ عَزَّتْهُ سَحَابَةُ حُزْنٍ صَابِتٍ مَكْظُومٍ، فَتَلَقَّيْتُهُ
بَيْنَ يَدَيَّ، وَقُلْتُ: أَأَنْتَ؟!

فَانْفَجَرَتْ وَأَنْفَجَرَتْ مَعَهُ بِدُمُوعٍ جَرَارٍ تَزِيدُ الْجَوَى لَوَعَةً، وَالْأَسَى لَذْعًا، وَكَانَ
نَشِيْجُهُ مَرِيْرًا كَمَنْ ثَكَلَ كُلُّ ذَوِيهِ فِي مَيْتَابٍ مُتَقَطِّعَةٍ مُتَلَا حَقَّةً، لَا تَفْصِلُ بَيْنَهَا إِلَّا
هُنِيْهَاتٌ وَفَيْنَاتٌ. وَكَانَ الْحُزْنُ يَشْتَدُّ بِهِ دِرَاكًا حَتَّى لَمْ يَغْدُ يَتَمَاسِكُ، فَأَخَذَتْهُ إِلَى
وَهُوَ يَضُمُّ يَتَشَنُّجٌ، وَيَلْقُوْ يَتَنَزَّى.

وَبَعْدَ لَايٍ أَفَاقٍ، وَكَانَتْ إِفَاقَتُهُ جِدًّا مَرِيْرَةً، فَقَدْ هَبَّ كَالْمَرُورِ يَطْلُبُ شَيْئًا
وَأَنَا وَرَاءَهُ، حَتَّى أَتَنَهَى إِلَى كُلِّ بَابٍ يَفْرَعُهُ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَرْتَدُّ عَنْهُ. فَقَدْ كَانَ
يَرْغَبُ فِي أَنْ يَرَى النَّاسَ لِيُخْرِجَ مِنْ وَحْدَتِهِ الْمُضْطَّةِ الْقَاتِلَةَ، وَلَكِنَّهُ لَا يَكَاذُ يَرَى
أَحَدًا حَتَّى تَزِيدَ أَرْمَةُ نَفْسِهِ، وَتَتَجَدَّدَ لَهُ ذِكْرَى تَبْعَتْ نَفْسَهُ أَشَدَّ أَلْتِيَاعًا.

وَلَمْ يَزَلْ يَذْنُو وَيَنَاقِ، فِي رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، حَتَّى قَادَهُ الْمَطَافُ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ،
وَكَأَنَّهُ أَرَادَ أَنْ يُدَاوِيَ الْأَسَى بِالْأَسَى، وَيُلَاشِي الْأَلَمَ بِالْأَلَمِ. وَأَحْسَ بِالْإِزْتِيَا حِ
الْعَمِيقِ حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْأَلَمَ كُلَّهُ يَذُوبُ فِي مُضَاعَفَاتِ الْأَلَمِ، وَيَتَلَبَّسُ النَّفْسُ سُعُورًا
سَلْبِيٍّ مُبْهَمًا لَا يَتَجَاوَبُ مَعَهُ، فِي النَّفْسِ، غُلُوءُ الْإِزْتِيَا حِ وَبُرْحَاءُ الْأَحْزَانِ، فَإِنَّ
الْمُشَايِعَةَ، عَلَى اخْتِلَافِهَا، نَشِيبَةٌ وَلَا فَوَاصِلَ بَيْنَ أَطْرَافِهَا، فَهِيَ إِذَا تَلَعَتْ غَايَتَهَا
هُبُوطًا، أَوْ آرْتِفَاعًا، تَتَحَوَّلُ أَوْ تَهْمُدُ.

رَغِبَ كَثِيرًا، وَأَطْمَأَنَّ إِلَى أَنْ يُجَابِيَ الْأَسَى فِي هَيْكَلِهِ، لِيَسْتَعْرِقَ فِي لَحَظَاتِ
الْمَرَاةِ الْمُطْلَقَةِ الَّتِي تَتَجَرَّدُ فِي الْإِطْلَاقِ، عَنْ مَعْنَاهَا وَوَقْعِهَا الْأَلِيمِ، فَقَدْ عَدَتْ
لَاغُصْبِيَّةً دُونَ أَغْصَابٍ تَتَقَلَّصُ أَوْ تَتَمَدَّدُ، إِنَّهَا أَصْبَحَتْ حَقَقَةً رُوحٍ فِي غَيْرِ لَوْنٍ.

فَمَضَى مُعَاذٌ بِإِحْسَاسٍ وَجْدَانِيٍّ عَفْوِيٍّ إِلَى بَيْتِ عَلِيٍّ، لِيُوَاجِهَ أَشَدَّ أَنْوَاعِ
الْأَسَى فِي شَخْصِ النَّسْرِ الْحَزِينِ وَفِرَاحِهِ الْحَيَارَى، فَهُوَ يَشْتَهِي، وَيُفَضِّلُ كَثِيرًا، خَيْرَةً

الأسى اللّاشاعرة، والغفوة في الألم على أن يظلّ في يقظة الآلام.
وقف دون البيت طويلاً ثمّ قرع الباب، وما أشدها وأمرها مُصادفةً، فقد
«برزت إليه فاطمة» تجول في مآقيها غصارة حبّ خالد، وتعلقت في أهدابها
الواسعة ذمعة كبيرة، ليتها سقطت!...

وفي ناحية من البيت رأى الحسين، وليد النبي الحبيب، منكباً على نفسه،
يدير لحاظه فلا يرى إلا دموعاً، ففرق في الدموع، وكان بين حين وآخر يناجي
نفسه، ويطارحها في حديث خفيض مسموع.

أبتاه.. أين هو؟ لم أعُد أراه! أليس لي أن أراه بعد اليوم؟ بالأمس القريب
كان يلاعنني، كيف نأى؟ لم يعد لي، بعد الآن، حنان ذلك القلب الكبير!!
فيزيد الفجعة ويحرك الشجج، ومعاذ حاليم أمام هذا المشهد مستغرق، إنه
لم يعد يحس بشيء، إنه غداً خلأ من كل شعور...

*

مات محمد البشري ليخلد محمد النبي...
فاستقبر الحسين لأولهما بالعاطفة والحنين...
وأفتدى ثانيهما بالدم القاني الصبيب...
حينما حاول مسّ جلال الخلود، غواة محققون...

*

بعد أشهر مغدودات رزية أمه الزهراء وملاكه الآخر...
الذي كان يثب على الأمل الهاني والسعادة الحائلة...
فجمدت في عينه دموع وفي قلبه دموع...
جعلته، في حياته كلها، ينظر إلى الأفق البعيد...

يَوَدُّ لو يَذُوبُ في الشَّفَقِ المُلْتَمِعِ من كُوى الأَبْدِيَّاتِ بِإِغْرَاءٍ...

*

مِرَاةٌ قَاتِلَةٌ على قَلْبِ غَضٍّ، هَبِطَتْ فَنَجَاةٌ فَنَتَقَلَّتْ به من حَالٍ إلى حَالٍ...
وَأَسْتَوَى دُفْعَةً، فَتَنَظَرَ إلى الحَيَاةِ من فَوْقِ كُورَةِ الرِّعَابِ فَرَأَى حَمَاتُهَا...
فَوَجَّهَ تَيَّارَهُ الطُّهُورَ، فَتَمَدَّدَتْ وَانْتَفَحَتْ مُتَجَهِّمَةً تُرِيدُ الصُّرَاعَ...
فَتَقَرَّرَها وَاسْتَعْلَى، فَقَدْ تَرَكَ فيها دَفَقَاتٍ مِنَ الِئْبُوعِ الأَقْدَسِ وهو لا بُدَّ
مُطَهِّرُها...

ولم يَزَلْ يَسْتَعْلَى حَتَّى لم يَغْدُ يُرى، إِلَّا نَجْمًا يَتَوَارَى في التَّخْلِيْقِ بِإِشْعَاعَاتٍ
وَأَغْتِمَاضَاتٍ...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْعَهْدِ الرَّاشِدِي



مع خليفة

في قَمَّةِ الْمَسْجِدِ الْعَزِيمِيِّ، حِينَما كَانَتِ الرَّايَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ تُنَسَّجُ وتُنْظَمُ خُيوطُهَا مِنْ تَمَالِكِ الْعَالَمِ الْقَدِيمِ، وَتَنْتَهَادِي مُتَطَوِّلَةً فِي الْفَضَاءِ، كَأَنَّهَا تُوسِّعُ الْآفَاقَ، وَتُطِلُّ عَلَى عَالَمِ يَمُورِ الْخُلُودِ، وَتَحْتَضِرُ جَدَاوِلَ الْأَبْدِيَّاتِ بِمَا فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، وَقَفَّ غَمَرُ بَرٍّ الْخَطَّابِ يُبَارِكُ هَذَا الْمَجْدَ وَيَقُولُ كَلِمَتَهُ بِلِسَانِ التَّارِيخِ، وَيُودِّعُ عَالَمًا يَذْفَعُهُ بِمَنْكِبَيْهِ، وَيَسْتَقْبِلُ عَالَمًا بِكِلْتَا يَدَيْهِ.

عَالَمٌ مِنْ طَوْبَى مُحَمَّدٍ، وَلَكِنَّهَا طَوْبَى مُتَخَيِّرَةِ تَحَيَّرِ الْوَاقِعِ، وَمُتَأَلِّقَةِ تَأَلَّقِ الشُّعَاعِ، وَهِيَ، إِلَى هَذَا، بِلَاءُ السَّمْعِ وَالبَصَرِ، وَمَرَاثُ الْأَمَانِيِّ... عَالَمٌ أَنْطَبَعَ عَلَى آفَاقِهِ وَجْهَ مُحَمَّدٍ فِي هَالَةِ الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ هُوَ اللَّوْحَةُ الَّتِي شَاءَتِ الْحَقِيقَةُ الْخَالِدَةُ أَنْ تَبْزُرَ فِيهَا كَامِلَةً، فَذَ نَضَّتْ عَنْهَا شَتَّى الْأَثْوَابِ.

جَلَسَ عَلَى أُرَيْكَةِ هَذَا الْعَالَمِ الْجَدِيدِ الَّذِي هُوَ مِنْ عَمَلِ نَبِيِّ الْخُلُودِ، وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الْأُرَيْكَةُ، أَوْ الْعَرْشُ، إِلَّا مِنْبَرُ الْمَسْجِدِ الَّذِي كَانَ مُحَمَّدٌ يَقِفُ عَلَيْهِ، وَيَهْتِفُ بِلِسَانِ السَّمَاءِ، يَهْدِي التَّائِبِينَ، وَالْأَثِيرَ، مِنْ وَرَائِهِ، يُرَدِّدُ النَّدَاءَ أَبْعَدَ مَا يَتَنَاهَى، فَمَحَا كَوْنًا وَأَثْبَتَ كَوْنًا، وَظَلَّ يَتَمَثَّلُ الْحَقِيقَةُ الْبَاقِيَّةُ بَيْنَ الْكَوْنَيْنِ، وَصَوَّتَ اللَّهُ فِي وَعْيِ الْعَالَمِينَ مُتَجَاوِبًا بِصَدَى الْأَبَدِ.

لَمْ يَكُنْ فِي عَالَمِ مُحَمَّدٍ عَرْشٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِيهِ عُبودِيَّةٌ، وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ بِلَاطٌ

لأنه لم يكن فيه إزهاب وآستصناع عظمات مزيفات، وإنما كان المنبر فيه هو العرش، والمنبر رمز يشير إلى الكوة التي شُع منها الهدى، وأنبتق منها الضياء. وكان المسجد فيه هو البلاط، والمسجد رمز يشير إلى التلاشي في الروح، والفناء في الإشراق، والنشوة الواعية في التأمل والاستغراق.

وقف عمر يتكلم، وكأنما زوي العالم إليه من أقطاره، وتآزخ في حدود موضعه، والتاس كأن على رؤوسهم الطير يصفون، والكون من ورائه يسمع ويحس. .. ومن أقصى المسجد جاء يحط بين الصفوف الحسين، وليد النبي، حتى بلغ مرقاة المنبر فما تهيبها، بل صعد رابط الجأش حتى انتهى إلى حيث يجلس عمر، فشاركه موضعه.

وكان منظرًا بدا غريباً، أعطى الناس لحظة أنبياء شرعوا معها يتلعون رؤوسهم ويتهايمسون، لحظات ذكرى انتقلت بهم من حال إلى حال، ومن زمن يعيشون فيه إلى زمن يحنون إليه، وقد ظل شائعاً حياً في الخطرات الحلوة، يوم كان الحسين يتخذ موضعه إلى جنب جدّه العظيم، في هذا الشكل وهذه الصورة.

ذكرى سعيدة جرت وراءها نوعاً من اللاشعور، وتمددت في تأمل طويل، وكان استغراقاً كله السكينة والاطمئنان، وإن بدا كالوجوم الراني.

شخص الناس إلى الغلام ينتظرون ما سيجيء به ويصدُر عنه، وكان الغلام أكثر منهم استغراقاً، وأكثر نفوذاً في الذكرى، فراح يملأ ناظره ويمنعها ممن استيقظت نفسه على أنه جدّه.

هو شديد الحنين، وشديد الهوى إلى أن يرى جدّه وقد فصل عنه زمن كان طويلاً في جس القلب، وكان خيلاً شديد الأسر له، فلما لم يجد فيه جدّه وجعاً مُلتاعاً، فقد أنهار ما اجتمع في خياله من لذات دُفعة، كمن حيل بينه وبين ما

يُسْتَهَي، وهو في أدقِّ فِتْرَةٍ مِنْ لَذَّةِ التَّدْوِيقِ، فَرَسَبَ فِيهِ خَيَالٌ يُهَيِّثُ بِهِ لَذَّةً، وَطَفَا فِيهِ خَيَالٌ آسْتَوَى مَعَهُ أَلَمٌ.

فَقَالَ لَهُ - أَيُّ لُغَمَرٍ - فِي شَيْءٍ مِنَ التَّحَدِّي الصَّارِمِ: «إِنزِلْ عَنِ مَنبَرِ أَبِي وَأَذْهَبْ إِلَى مَنبَرِ أَبِيكَ»... فَاسْتَمَلَهُ عُمَرُ وَحَنَا عَلَيْهِ طَوِيلًا، ثُمَّ قَالَ لَهُ فِي أَشْيَاءٍ مِنْ دِيمُقْرَاطِيَّةِ الْحَقِّ وَالْاعْتِرَافِ الْفَكْهِ الْجَمِيلِ:

«إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِأَبِي مَنبَرٌ... وَمَالَ عُمَرُ عَلَيْهِ ثَانِيَةً، فَقَالَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِنَ التَّرَقُّبِ وَالْامْتِحَانِ النَّفْسِيِّ: «مَنْ عَلَّمَكَ؟».

فَقَالَ الْحُسَيْنُ فِي أَشْيَاءٍ مِنَ الذَّاتِيَّةِ الْمُتَفَتِّحَةِ: «وَاللَّهِ مَا عَلَّمَنِي أَحَدٌ»... وَكَأَنَّمَا رَدَّ عَلَيْهِ: بِأَنَّهُ شُعُورُ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ، وَتَحَسُّسُ الشَّخْصِيَّةِ عَلَى مَحَلِّهَا وَمَوْضِعِهَا.

وَحَفَّ النَّاسُ يَشُدُّ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ يَقُولُونَ: إِنَّ الْحُسَيْنَ يُطِلُّ مِنْ نَافِذَةٍ مُقَلَّتِيهِ الْبَطْلُ...

وَكَانَ عُمَرُ قَدْ أَعْجَبَ بِهِ فِي غَيْرِ حَدٍّ، وَكَانَ قَدْ أُخِذَ بِشَخْصِيَّتِهِ الْقَوِيَّةِ فِي غَيْرِ مِقْدَارٍ، فَرَأَى لِزَامًا عَلَيْهِ أَنْ يُبْرِزَهُ فِي حَيَاةِ الْجِدِّ الْحَاكِمَةِ، وَأَنْ يَأْخُذَهُ بِأَسْبَابِ التَّوْجِيهِ وَالْإِشْرَافِ عَلَى تَصْرِيفِ الْمَقْدَرَاتِ الْعُلْيَا، فَقَالَ لَهُ:

«بَأَبِي! لَوْ جَعَلْتَ تَغْشَانَا»... وَأَنْقَضَى وَقْتُ قَبْلَمَا آجَتَمَعَ إِلَيْهِ ثَانِيَةً، وَتَخَلَّلَتْ أَحْدَاثٌ، فَقَدْ رُفِعَتْ إِلَيْهِ شَكَاوَى مِنْ أَطْرَافِ الشَّامِ عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَأَهْتَمَّ لَهَا عُمَرُ، وَكَانَ رَجُلًا صَلِيحًا، فَاسْتَقْدَمَهُ مَعَ الْبَرِيدِ مُسْرِعًا وَخَلَا بِهِ، وَكَانَتْ الطَّرِيقُ قَدْ جَمَعَتِ الْحُسَيْنَ بِعَبِيدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَصَّصَا إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ يَزِيدَ بْنِ أَبِي سَوْيَبَةَ، فَطَلَبَ ثَانِيَهُمَا الدُّخُولَ، فَقِيلَ لَهُ:

«إِنَّهُ خَالٍ بِمُعَاوِيَةَ»... فَأَنْقَلَبَ ابْنُ عُمَرَ، وَأَنْقَلَبَ الْحُسَيْنُ مَعَهُ، وَفَصَلَ زَمَنٌ

لم يَكُنْ بَعِيداً حِينَ صَادَفَ عُمَرَ، فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ الْمَدِينَةِ، الْحُسَيْنَ، فَقَالَ لَهُ:
«لَمْ أَرَكَ»... فَزَوَى لَهُ كَيْفَ حِيلَ يَبْنِي عِبْدَ اللَّهِ آئِنَهُ وَالْدُّخُولِ، وَكَيْفَ رَجَعَ
مَعَهُ، فَتَصَوَّرَ عُمَرَ، بِشَكْلِ الْجِدِّ، إِشْعَاراً بِالْفَرْقِ الْكَبِيرِ، وَقَالَ، وَصَوْتُ الْحَقِّ يُدَوِّي
فِي مَقَالِهِ:

«أَنْتَ أَحَقُّ مِنْ آئِنِ عُمَرَ. إِنَّمَا أَتَيْتَ مَا تَرَى فِي رُؤُوسِنَا، اللَّهُ ثُمَّ أَنْتُمْ»...
وَصَمَتَا يَمُشِيَانِ، وَوَقَفَ التَّارِيخُ مِنْ وَرَائِهِمَا يُرَدِّدُهَا كَلِمَةً خَالِدَةً فِي سَمْعِ الدَّهْرِ،
وَأُذُنِ الْأَبَدِ...

جهاد الشباب

حِينَ كَانَ الْفَتْحُ الْإِسْلَامِيُّ يَضَعُ إِحْدَى قَائِمَتَيْهِ فِي أَقْصَى الشَّرْقِ، وَالْأُخْرَى
عِنْدَ بَابِ الْغَرْبِ - يَفْرَحُ عَلَيْهِ هُجُوعُهُ وَيَنْفُضُ عَنْ جَفْنَيْ الْغَرْبِ الْبَاقِيَاتِ مِنْ رُقْدَةِ
الْأَيَّامِ، وَالْهَبَاءَةِ الَّتِي اسْتَحَالَتْ إِلَى ظَلَامٍ كَثِيفٍ حَالِكٍ حَوْلَ مُقَلَّتَيْهِ، وَبَيْنَ يَدَيْ
حَيَاتِهِ، كَأَنَّمَا لَمْ تُنْعِشْهُ بَعْدُ أَوَّلُ إِشْرَاقَةِ مِنْ صَحْوَةِ الشَّمْسِ - ذَهَبَ حُسَيْنٌ شَرْقًا،
وَذَهَبَ غَرْبًا، كَأَنَّهُ يَضَعُ بِيَدَيْهِ حَجَرَ الْإِسْلَامِ فِي قَاعِ دَنِي قَوْسِ النَّصْرِ مُبَارَكًا.
كَانَ حُسَيْنٌ يُنَاهِزُ الثَّانِيَةَ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِيهِ، حِينَمَا ذَهَبَ مُجُنْدِيًا يَلُوحُ بِشُعْلَةٍ
الْبَغْيِ وَالْإِضْلَاحِ فِي الْحَمَلَةِ إِلَى الْغَرْبِ.

وَكَانَ جَوًّا حَمَاسِيًّا ذَلِكَ الْجَوُّ الَّذِي صَبَغَ الْمَدِينَةَ، فَقَدْ تَحَوَّلَتْ مِنْ بَلَدٍ نَائٍ
مَجْهُولٍ، تُحِيطُ بِهِ الصَّخْرَاءُ، وَتَغْمُرُهُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ - وَالصَّخْرَاءُ مُحِيطٌ زَاخِرٌ
تَقُومُ فِيهِ الرِّمَالُ مَقَامَ الْمَاءِ - إِلَى عَاصِمَةِ مَزَكِرِيَّةٍ تَتَوَلَّدُ فِيهَا الْحَرَارَةُ وَتُورَغُّهَا، إِلَى
قَلْبِ عَالَمٍ تَخْفُقُ فِيهِ الْحَيَاةُ، وَيَنْبِضُ بِالْخَلَجَاتِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ.

فِي هَذَا الْجَوِّ الْحَمَاسِيِّ كَانَ التَّسَابُقُ عَلَى الْجِهَادِ قَدْ آتَخَذَ شَكْلَ مُبَارَاةٍ بَيْنَ
الشَّبَابِ وَالْكُهُولِ، وَمِنْ دُونَ الشَّبَابِ وَمِنْ فَوْقَ الْكُهُولِ.

هِيَ أُمَّةٌ جَدِيدَةٌ بَعَثَتْهَا رُوحٌ جَدِيدَةٌ، فَانْطَلَقَتْ، وَفِي غُرُوقِهَا عُصَارَاتٌ مِنْ
حَيَوَاتٍ فَايِضَّةٍ، تُجْرِيهَا فِي جِسْمِ الْعَالَمِ الْمُمَدِّدِ الْمُحْتَضِرِ، وَتَصِلُ غُرُوقَهُ بِغُرُوقِهَا،

فَتَمَشِي، طَائِفَةً عَلَيْهِ، دَائِرَةً فِيهِ، مَشْيَ الرُّوحِ الَّتِي تَمَشُّهُ بَتَارِهَا.

كَانَ السَّائِرُ فِي طُرُقِ الْمَدِينَةِ وَمُنْعَطَفَاتِهَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا الْأَصْدَاءَ قَوِيَّةَ مَرْهُوَّةٍ، هِيَ بَقَايَا هُتَافَاتِ تُثِيرِ الْأَعْصَابَ. وَكَانَ الْعَلَمَةُ يَتَقَادَفُونَ بِالْأَزْهَارِ، وَالْعِلْيَةُ يَتَحَايُونَ بِالْعَمَارِ^(١) وَالْمَسْرَةَ^(٢). فَقَدْ تَرَكَوا لِأَعْصَابِهِمِ الْمَائِجَةَ بِصُنُوفِ الْفَخَارِ وَالْمَجْدِ، سَبِيلَ هَوَاهَا وَمَجَالَاتِ التَّغْيِيرِ عَنِ آرْزِهَايَهَا. فَقَدْ وَرَدَتِ الْأَنْبَاءُ بِالْإِنْتِصَارِ الْمُؤَزَّرِ فِي بَرْقَةٍ، وَأَنْكَفَاءِ الْبَرْزِ هُنَاكَ.

وَكُنْتُ لَا تَجِدُ، كَيْفَمَا سِرْتُ وَأَنْتَى ذَهَبْتُ، إِلَّا جُمُوعاً تَمُوجُ فِي الْجُمُوعِ، مِنْ ظَاهِرِ الْمَدِينَةِ إِلَى دَاخِلِهَا، وَعَلَى فَجْأَةٍ أَخَذَ بَصَرُهُمْ فَارِساً يَطْوِي الْهَضَابَ، وَهُوَ يَكُرُّ بَيْنَهَا مَرّاً سَرِيعاً، فَشَمَلَتْهُمْ هَذَاةٌ عَطَّتْ عَلَى الضَّجِيجِ، وَضَمَّتْهُمْ لِحَظَةً آتِيَاهُ وَسُكُونٍ أَلْفَتْهُمْ فِي ضُمُوتٍ مُتَسَائِلٍ نَاطِقٍ، وَمَا حَلَّ بَيْنَهُمْ حَتَّى آتَقَوْا عَلَيْهِ، وَأَحَاطُوا بِهِ إِحَاطَةً السُّوَارِ بِالْمَعْصَمِ، وَأَخَذُوهُ بِسَيْلٍ مِنَ الْأَسْئِلَةِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَاسْتَوَى عَلَى الرِّكَابِ مُنْتَصِباً، وَخَاطَبَهُمْ بِصَوْتِهِ الْجَهَّوْرِيِّ الْحَادِّ النَّبْرَاتِ، وَالْمُسْتَعِيلِ الْمَقَاطِعِ وَالْكَلِمَاتِ:

أَيُّهَا الْأَنْصَارُ! أَيُّهَا الْأَبْطَالُ! الْيَوْمَ يَوْمُكُمْ، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةُ الْكِفَاحِ. أَفْسِحُوا لِي الطَّرِيقَ إِلَى الْمَسْجِدِ، إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ وَاتَّبِعُونِي! فَتَدَافَعَ النَّاسُ عَنْ طَرِيقِهِ صَاحِبِينَ هَاتِفِينَ: الْيَوْمَ يَوْمُنَا. إِلَى مَقَرِّ الْخَلِيفَةِ... وَقَفَ الرَّجُلُ عَلَى مَقَرِّيَّةٍ مِنَ الْخَلِيفَةِ، وَوَجَّهَ مَقَالَهُ، تَارَةً لِلْجُمُوعِ وَتَارَةً إِلَيْهِ: «إِنَّ جُرْجِيرَ الْمُمَلَّكِ، مَا بَيْنَ طَرَابُلُسَ إِلَى طَنْجَةَ، أَشَبَّ الْجُمُوعِ، وَحَشَدَ الْجُنُودِ مِنْ أَطْرَافِ مَمْلَكَتِهِ، لِلْإِخْدَاقِ وَالْإِيقَاعِ بِجَيْشِ الْعَرَبِ، وَهُوَ يَتَرَبَّصُّ بِنَا الدَّوَائِرِ،

(١) الْأَزْهَارُ وَالرُّيْحَانُ تُجْعَلُ بَاقَاتٍ وَيُخَيَّا بِهَا. قَالَ عُبَيْدُ بْنُ الْأَبْرَصِ:

سَجَدْنَا لَهُ وَرَفَقْنَا الْعَمَارَا.

(٢) الْمَسْرَةُ: أَطْرَافُ الرِّيَاحِينِ يُخَيَّا بِهَا، وَيُقَالُ سَرُوهُ أَيَّ حَيَّاهُ بِالْمَسْرَةِ.

وَبَاتَ الْخَطْبُ عَلَى قَابِ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى. وَإِنْ عُقِبَتْ بِنُ نَافِعٍ، فَأَيْدُنَا الْمُظْفَرُ، قَدْ بَاتَ فِي ضَائِقَةٍ مِنَ الْأَمْرِ، وَلَكِنَّهُ مُسْتَبِيلٌ أَشَدَّ آسْتِنْسَالٍ» يُكَافِحُ كِفَاحَ الْمُشْتَمِتِ فِي الدِّفَاعِ وَالْهُجُومِ وَمُدَاوَرَةَ الْخُصُومِ، وَهَذَا يَوْمٌ لَهُ مَا بَعْدَهُ.

فإلى الجهادِ أيُّها المؤمنون! إلى القيامِ بالتزاماتِ العقدِ بينكم وبينَ الله، على تجديدِ العالمِ، وأخذهِ بالمبادئِ الإنسانيةِ الفُضلى: «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ، فَاسْتَبِشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ». إِنَّ إِخْوَانَكُمْ، مِنْ قَبْلُ، رَوَّاءُ الرِّمَالِ الرَّايَّةِ إِلَى أَفْرَيقَةِ بَدَائِمِهِمِ الصَّبِيَّةِ، وَهُمْ أَسْخِيَاءُ، وَبَنَوْا مِنْ جَمَاجِمِهِمْ مَعَايِلَ الصَّخْرَاءِ. وَهِيَ دِمَاؤُهُمُ الْيَوْمَ تُنَادِيكُمْ وَتَسْتَضِرُّكُمْ بِصَوْتِهَا الرَّجَافِ الرَّعُودِ، مِنْ وَرَاءِ الرَّجْمِ وَتَسْتَدْبُرُكُمْ إِلَى التَّضَحِّيَةِ.

فإلى الكِفَاحِ! إلى النَّصْرِ!

وما هو حتَّى آخَتَلَطَ صَوْتُهُ بِأَصْوَاتِ الْجُمُوعِ، وَذَابَ فِي دَوْبِهَا الْعَمِيقِ: بَلْ إِلَى الشَّهَادَةِ! إِلَى الْمَوْتِ!... وَبَقِيَتِ الْأَصْدَاءُ يُودِّدُهَا الْقَضَاءُ، وَيَطُوفُ بِهَا الْأَثِيرُ فِي كِبْرِيَاءٍ وَخَيْلَاءِ.

وَتَدَفَّقَ النَّاسُ عَلَى التَّطَوُّعِ، وَكَانَ فِي «مُقَدِّمَتِهِمِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنُ وَعَبْدُ اللَّهِ ابْنُ عَبَّاسٍ وَعِلْيَةُ لَا تُحْصَى» وَخَفُّوا رَاجِلِينَ:

أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ بَلِيلٍ فَلَمَّا أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ

مِنْ مُنَادٍ وَمِنْ مُجِيبٍ وَمِنْ تَضْهَالٍ خَيْلٍ، خِلَالَ ذَلِكَ رُغَاءُ

وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا حَتَّى هَبَطُوا مَصَافَّ الْقِتَالِ، فَأَخَذُوا مَوَاضِعَهُمْ، وَدَارَتْ رَحَى الْحَرْبِ أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ ضَاقَ الْخِنَاقُ فِيهِ عَلَى الْبَرْوَرِ، فَأَنكَفَرُوا مُتَحَزِّقِينَ

يَتِيهَوْنَ بَيْنَ الْحُزُونِ وَالشُّهُولِ، وَبَيْنَ الْأُودِيَةِ وَالْهَضَابِ.

وَيَعْدُ بِضِعِّ سِنِينَ «أَنْتَظِمَ الْحُسَيْنُ فِي الْجَيْشِ الذَّاهِبِ شَرْقاً إِلَى طَبْرِسْتَانَ»
بِإِذْلٍ أَنْفُسَهُ، مُضْحِياً حُوبَاءَهُ بِسَبِيلِ كَلِمَةِ اللَّهِ الَّتِي عَاشَ لَهَا، وَقَضَى كَرِيماً تَحْتَ
ظِلَالِهَا الدَّائِمِيَّةِ وَيُنَوِّدُهَا الْحَمْرَاءُ.

كَانَتْ الْأَنْبَاءُ عَنْ تَضَحُّيَةِ الشَّبَابِ وَأَسْتَيْسَالِهِمْ تَرْدُ إِلَى الْمَدِينَةِ طَافِحَةً إِعْجَاباً
وَبُشْرًا. وَكَانَتْ حَدِيثَ الْيَوْمِ بَيْنَ النَّاسِ، فِي الْأُنْدِيَةِ وَالْمَنَازِلِ، وَفِي مُنْقَطَعَاتِ
الطَّرِيقِ، حَيْثُ يَخْلُو الْوُقُوفُ عِنْدَ الْأَصِيلِ لِفَقَةِ تَجْدٍ فِي هَذَا النَّوْعِ مِنَ اللَّهْوِ تَشْلِيَةً
رَائِعَةً، وَتُحِشُّ بِظَمًا إِلَى الصَّحْبِ، يُدِّدُهُ الْفُضُولُ أحياناً فَتَمَلُّاً بِجَوْ نَفْسِهَا الْمُقْفِرِ بِهَذَا
اللَّوْنِ مِنَ الْأَنْعِمَاسِ فِي الصَّحْبِ.

وَفِي طَرَفٍ مِنْ أَطْرَافِ الْمَدِينَةِ أَنْفَرَدَ جَمْعٌ، يَبْتَهِمُ الْبَرَاءَ بِنُ عَازِبٍ،
يَتَجَادَبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ عَنْ أَبْطَالِ الْجِهَادِ الشَّبَابِ. فَقَالَ: إِنَّ الشَّبَابَ مَعْنَاهُ تَقْشُحُ
بَرَاعِمِ الصَّبَا عَنْ حَيَاةِ الْجِدِّ وَالْوَاجِبِ، وَعَنْ تَبَعَاتِ الْحَيَاةِ؛ وَفَقَةُ الشَّبَابِ هُمْ أَشِعَّةُ
حَاضِرِنَا فِي وَقْدَةِ تَأَلُّقِهَا، فَإِذَا بَدَتْ كَسِيفَةً كَلِيلَةً فَقَدْ خَسِرْنَا الْحَاضِرَ وَالْمُسْتَقْبَلَ
جَمِيعاً، وَكَانُوا إِعْلَاناً عَنْ أَنَّ غَيْرُ جَدِيرِينَ بِالْحَيَاةِ.

فَإِنَّ الْحَيَاةَ قُوَى سَائِبَةً كَمِثْلِ الرُّقَارِقِ عَلَى وَجْهِ الرُّمَالِ، وَلَكِنَّهَا تَتَجَمَّعُ فِي
فَتْرَةِ الشَّبَابِ بِمِثْلِ خَزَانِ الْمَاءِ، فَتَتَكَسَّرُ عِنْدَ خَنَايَاهُ الْقُوَى، وَتَتَوَلَّدُ فِيهَا التِّيَارَاتُ،
فَتَتَدَفَّقُ بِجَيَاشَةٍ هَادِرَةٍ.

فَالشَّبَابُ مَجْمُوعَةٌ مِنْ تَيَّارَاتِ قُوَى الْحَيَاةِ، فَإِذَا كَانَ الْخَزَانُ مَلْمُوءاً بِالثُّقُوبِ
وَالشُّقُوقِ، أَنْسَابَتِ الْمِيَاهُ فِي كُلِّ وَجْهِ، وَتَبَعَثَرَتْ قُورَاهَا، وَغَاصَّتْ بَيْنَ الْوَهَادِ
وَالْحُزُونِ مُتَرَسِّبَةً فِي مُسْتَنْقَعَاتِ آجِنَةٍ. وَحِينَ لَا يَكُونُ لِلشَّبَابِ حَصَانَاتٌ وَمَنَاعَاتُ
يُمَدُّهَا شُعُورٌ بِالْحَقُوقِ وَالْوَاجِبَاتِ وَحِشٌّ مُرَهَفٌ بِالتَّبَعَاتِ، فَقَدْ عَادَ شَبَاباً رِخْواً،

أَفْضَلُ مِنْهُ شَيْخُوخَةٌ فَانِيَةٌ.

وَسُبَابُنَا الَّذِينَ آبَعَتْهُمْ الْمَبَادِيءُ آتِبَعَانًا، لَا مَحِيدَ عَنْ أَنْ تَنْطَلِقَ بِهِمْ تَيَارَاتُ الْقُوَى، أَنْطِلَاقًا يَنْتَهِي بِالسَّبِيلِ الْإِسْلَامِيِّ الْمُطَهَّرِ الْجَارِفِ إِلَى غَايَتِهِ، فَيَعْمُرُ حَتَّى الرَّبِيِّ، لِيُنْكَشِفَ عَنْ حَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

وَنَحْنُ الَّذِينَ قُمْنَا بِوَاجِبِنَا مَعَ صَاحِبِ الرِّسَالَةِ، وَكَانَ أَذْنَى مَا بَدَّلْنَاهُ أَنْفُسُنَا - وَمَا بَقَاؤُنَا فِي عَيْنِ الْيَوْمِ إِلَّا ذِكْرَى جِهَادٍ وَتَمَثُّلُ كِفَاحٍ - لَا يَسْعُنَا إِلَّا أَنْ نُبَارِكَ سُبَابَهُمُ الْعَصْرَ وَجِهَادَهُمُ الْمُظْفَرَّ. وَإِذَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يَأْخُذَ بِأَنْبِيَاهِنَا طَوِيلًا فَإِنَّمَا هُوَ ذَلِكَ الْإِقْبَالُ عَلَى التَّضَحِّيَةِ بِسَبِيلِ الْمَبَادِيءِ لِلْمَبَادِيءِ دُونَ مَا أَنَانِيَّةٍ رَغْنَاءَ وَرَنَانِيَّةٍ^(٣) حَقُودٍ، فَقَدْ ذَابَتْ عِظَامِيَّةٌ (أُرِسْتَقْرَاطِيَّةٌ) مَنْ كَانَ مِنْهُمْ عِظَامِيَّةً فِي بَوْتَقَةِ الْإِيمَانِ. وَالرِّسَالَةُ التَّاجِحَةُ هِيَ الَّتِي تَسْتَطِيعُ أَنْ تُكْفَلَ تَحْوِيلَ الْعِظَامِيَّةِ مِنْ قَاعِدَةِ الدَّمَاءِ وَالرَّاءِ، إِلَى قَاعِدَةِ الْمَبَادِيءِ وَالتَّضَحِّيَاتِ.

فَهَذَا الْحُسَيْنُ، سِبْطُ النَّبِيِّ، لَهُ مِنْ عِظَامِيَّةِ الدَّمِ مَا لَيْسَ لِأَحَدٍ الْيَوْمَ، أَوْ قَبْلَ الْيَوْمِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ يَمْضِي تَحْتَ رَايَةِ الْوَاجِبِ كَأَيِّ جُنْدِيٍّ تَحْدُوهُ مِثْلُ غَايَتِهِ. وَلَا أَرَاهُ إِلَّا مُعْتَقِدًا أَنَّ الْقَدِيمَ، إِنَّمَا يَجِدُ رَوْحَهُ فِي الْجَدِيدِ لِيَعْدُوَ كَانِنًا حَيًّا رَائِعًا، وَإِلَّا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ تَظَلُّ زَفْرًا مِنْ زُمُودِ التَّارِيخِ...

فَأُطْرَقَ الْجَمْعُ وَشَمَلَهُمْ صَمْتُ وَاعٍ ثُمَّ خَفَّوْا إِلَى رَوَاجِلِهِمْ وَهُمْ يُرْدُدُونَ قَوْلَهُ:

«وَلَا فَالْقَدِيمُ وَحْدَهُ، إِنْ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ شَيْءٍ، فَإِنَّمَا يُعْبَرُ عَنْ مَوْمِيَاءٍ مُجْدٍ فَقَطْ...».

* * *

(٣) الرِّبَانِيَّةُ تُرَادَفُ الْأَنَابِيَّةُ تَمَامًا عِنْدَ الْعَرَبِ الْقُدَامِيِّ، وَالرَّيْنَانِيَّةُ: الْأَنَابِيَّةُ تَكَذِّلُكَ.

في الثورة

مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، كِمِصْرَ وَالْعِرَاقِ وَالْيَمَنِ وَالشَّامِ، خَيِّمَ جَوًّا مُكْفَهَرًا
يُنْذِرُ بِشَيْءٍ. وَكَانَتْ أَلْوَانُهُ مُخْتَلِطَةً إِلَّا أَنَّهَا بَدَأَتْ تَسْتَحِيلُ، خَيْطًا بَعْدَ خَيْطٍ،
وَتَتَكَشَّفُ عَنْ لَوْنٍ أَحْمَرَ قَانٍ، كَأَنَّهُ لَوْنُ الدِّمِ الْحَائِقِ، أَوْ لَوْنُ الشَّفَقِ الَّذِي أُطْبِقَ بِهِ
لَيْلٌ بِهِيم.

وَكَانَ الْهَمْسُ فِي أَيِّ مَكَانٍ يَطُولُ وَلَا يَقْصُرُ، وَيَتَنَاوَحُ فِي زَفَرَاتٍ تَبْعَثُ
أَسَى، وَلَكِنَّهُ مِنْ نَوْعِ الْأَسَى الْغَاضِبِ الَّذِي يَزْدَادُ اسْتِعْمَالًا بِالذِّكْرِ وَالتَّزْدَادِ. فَقَدْ
اسْتَفَاقَ النَّاسُ عَلَى وَضْعٍ غَيْرِ مُحَبَّبٍ بَلْ كَرِهِيهِ بَغِيضٍ، اسْتَفَاقُوا عَلَى مُجْتَمَعٍ بَدَأَ
يَتَعَقَّدُ وَتَطْفُو عَلَى سَطْحِهِ طَبَقَاتٌ تَجُرُّ وَرَاءَهَا يَضَالًا هَادِرًا وَتَنَاحِرًا زَهِيًّا، بَعْدَ أَنْ
كَانُوا شَعْبًا يَقُومُ عَلَى قَاعِدَةِ الْمَسَاوَةِ، فَهُوَ مُجْتَمَعٌ مُنْسَجِمٌ.

كَثْرَةُ مُعْدِمَةٍ، وَهِيَ مُعْتَدَّةٌ بِذَاتِهَا شَاعِرَةٌ بِشَخْصِيَّتِهَا، فَخَوْرٌ بِمَا أَبْدَتْ مِنْ
قُوَّةٍ وَقَدَمَتْ مِنْ تَضَحِيَّاتٍ، وَقِلَّةٌ زَادَ بِهَا الثَّرَاءُ زِيَادَةً جَعَلَهَا تُحْرِزُ كُلُّ قُوَى النُّشَاطِ
وَتَدْخِرُ مَقْوَمَاتِ الْحَيَاةِ كَافَّةً. وَلَمْ يَكُنْ وَسْطًا دَرَجٌ عَلَى الشُّخْرِيَّةِ وَالْعَمَلِ فِي
الْأَرْضِ، فَيُظَلُّ النُّضَالُ فِيهِ خَفِيًّا وَبَطْنِيًّا فِي إِعْطَاءِ نَتَائِجِهِ، بَلْ كَانَ وَسْطًا فُرُوسِيًّا،
وَالْفُرُوسِيَّةُ آغْيَادِيَّةٌ وَشُعُورٌ بِوُجُودِ الذَّاتِ، وَزَادَتْهَا الْفُتُوْحُ إِحْسَاسًا بِقِيَمَتِهَا، فَكَانَ
أَنْ تَفَاعَلَتْ تَفَاعُلًا تَنَافُرِيًّا مَعَ الْوَضْعِ الْجَدِيدِ، وَكَانَ أَنْ أَنْفَذَتْ وَقَدَفَتْ بِالشَّرِّ

إلى مكان قصي.

والشعور بالذات قاعدة الأمة الناهضة، فهي لا تقبل سيادة ولا تتوَلَّد فيها السادة من أي نوع كان، وتظلُّ أبداً توافقة إلى الإصلاح آخذة بأسبابه متقلبة في مدى أطواره.

رَكَدَتِ الفُتُوحُ فَتَضَبَّتْ أَهْمُ مَوَارِدِ الدَّوْلَةِ، وَكَانَ الْعَمَلُ السِّيَاسِيُّ قَدْ اتَّجَهَ، فِيمَا سَبَقَ هَذِهِ الْحَقِيقَةُ، إِلَى جَعْلِ الْعَرَبِ مَادَّةَ حَرْبٍ فَقَطْ، فَلَمْ يَنَالُوا نَصِيباً فِي الْأَرْضِ. وَلَكِنَّ الْجُنْدِيَّ لَنْ يَبْقَى جُنْدِيّاً أَبَداً خُصُوصاً وَالدَّوْلَةُ الْعَرَبِيَّةُ قَدْ أَخَذَتْ الْأَمَمَ بِحَرْبٍ إِصْلَاحِيَّةٍ عَالَمِيَّةٍ، فَكَانَتْ حَاجَتُهَا إِلَى الْجُنُودِ كَبِيرَةً غَيْرَ مُقْتَصِدَةٍ، فَشَمَلَتْ الْعَرَبَ عَامَّةً، وَسَرَّعَانَ مَا وَفَّقَ الْعَرَبُ إِلَى غَايَتِهِمْ، وَسَرَّعَانَ مَا أَدَّوْا رِسَالَتَهُمْ، فَزَكَدَتْ حَرَارَةُ الْفَتْحِ إِلَى دَرَجَةِ الْهُمُودِ، وَعَجَزَتِ الدَّوْلَةُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنْ كِفَايَتِهِمْ، فَإِذَا هُمْ طَبَقَةٌ فَقِيرَةٌ غَايَةً فِي الْفَقْرِ وَالْخِصَاصَةِ وَالْعَدَمِ، وَإِذَا بِجَانِبِهِمْ طَبَقَةٌ أُخْرَى ثَرِيَّةٌ غَايَةً فِي الثَّرَاءِ، وَهِيَ لَمْ تَجْهَدْ أَيْ جُحُودٌ وَلَمْ تَبُلْ أَيْ بَلَاءٌ، وَإِنَّمَا أَمْتَصَّتْ وَتَمَلَّأَتْ.

كَبُرَ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ يَسْتَسِيغُوا وَضِيعَةً نَائِبَةً بَغِيضَةً عَلَى هَذَا الشُّكْلِ، لَا سِيَّمًا وَالْإِسْلَامُ فِي تَشْرِيعِهِ جَعَلَ لِلْمُحَارِبِ نَصِيباً فِي الْمَغَانِمِ كَافَّةً، وَبِذَلِكَ مَكَّنَهُ مِنْ أَنْ يَتَحَوَّلَ رَجُلًا مَدَنِيًّا، دُونَ أَنْ يَكُونَ كَلًّا عَلَى الدَّوْلَةِ وَالْخَزَائِنَةِ الْعَامَةِ. وَلَمْ يُقَرَّرِ الْإِسْلَامُ الْجُنْدِيَّةَ نِظَامًا دَائِمًا، لِأَنَّهُ لَا يَزِمِي إِلَى أَنْ يَجْعَلَ مِنْ حُكُومِيَّةِ دَوْلَةٍ حَرْبٍ، بَلْ سَنَّ الْجُنْدِيَّةَ، عِنْدَ الضَّرُورَةِ، مِنَ الْمَدَنِيِّينَ أَنْفُسِهِمْ، وَبِهَذَا ضَمِنَ شَيْئَيْنِ خَطِيرَيْنِ:

١ - جَعَلَ مَسْئُولِيَّةَ الدِّفَاعِ عَامَّةً، لَكِنِّي يَشْعُرُ بِهَا الشَّعْبُ شُعُورًا شَامِلًا بِدُونِ تَفَاوُتٍ.

٢ - الْحَدَّ مِنْ طُعْيَانِ الْجُنْدِ وَرُوحِيَّتِهِمْ، حَتَّى لَا يَذْفَعُوا الدَّوْلَةَ كُلَّ حِينٍ إِلَى

مضايقي لحروبٍ جديدةٍ، فالإسلامُ وَضَعَ في نظامِهِ ما يحولُ بينَ الدَّولَةِ المُشْتَقَّةِ مِنْ طَبِيعَتِهِ، وبينَ حَرْبِ الأَطْمَاعِ.

وَكَانَتِ الهُوَّةُ تَتَّسِعُ بَيْنَ الطَّبَقَاتِ اتِّسَاعاً عَظِيماً، وَعَلَى شَكْلِ مُخِيفٍ، كَمَا أَخَذَ الوَضْعُ يَتَطَوَّرُ مِنْ سَيِّئٍ إِلَى أَشْوَأَ حَتَّى اسْتَفْحَلَ شَرُّهُ، وَبَاتَ يُنْذِرُ بِخَطْبِ خَطِيرٍ وَأَنْكَفَاءِ أَنْقِلَابِيٍّ كَبِيرِ الأَثَرِ. وَزَادَ فِي يَقْظَةِ الخَطْبِ تَنَاخُرُ الأَحْزَابِ الكَثِيرَةِ^(١)، فَهُنَاكَ أَحْزَابٌ رَئِيسِيَّةٌ أَهْمُهَا:

حِزْبُ الأُمَوِيِّينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ المُتَنَبِّسِينَ إِلَيْهِ أَبُو سُفْيَانَ، وَأَبْنُهُ مُعَاوِيَةُ وَمَرْوَانَ ابْنُ الحَكَمِ، والمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ.

والحِزْبُ الشُّعْبِيُّ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، وَجُفَيْتَةُ التُّخْرَانِي، وَكَعْبُ الأَخْبَارِ، وَهَذَا الحِزْبُ كَانَ صَنِيعَةً لِلحِزْبِ الأُمَوِيِّ، وَمُنْقِذاً لِأَغْرَاضِهِ الدَّمَوِيَّةِ وَمَآرِبِهِ الإِزْهَابِيَّةِ.

وحِزْبُ المُحَافِظِينَ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَأَبُو أُيُوبِ الأَنْصَارِيِّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعُمَارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَالْمُقْدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ.

وحِزْبُ الشُّعْبِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ أَبُو ذَرٍّ الغِفَارِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْأٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، والأَشْثَرُ التَّخَمِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ حَذَيفَةَ، وَكَانَ هَذَا الحِزْبُ يَسْتَنِيهِمْ إِلَى سِيَاسَةِ حِزْبِ المُحَافِظِينَ، وَطَائِعُهُ أَنَّهُ تَوَرَّيٌّ عَنيفٌ.

وحِزْبُ أَهْلِ المَدِينَةِ: وَأَكْبَرُ رِجَالِهِ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، وَأَبْنُهُ قَيْسٌ، وَالْحُبَابُ بْنُ الْمُنْذِرِ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ حَسَّانٍ، وَكَانَ أَهَمُّ أَهْدَافِ هَذَا الحِزْبِ مُنَاصَظَةُ الحِزْبِ الأُمَوِيِّ وَتَحْطِيمُ مُحَاوَلَاتِهِ.

وإلى جَانِبِ هَذِهِ الأَحْزَابِ كَانَتْ تَقُومُ أَحْزَابٌ أُخْرَى ثَانَوِيَّةٌ أَهْمُهَا:

(١) رَاجِعْ تَفْصِيلَ الكَلَامِ عَلَيْهِ فِي كِتَاب: تَارِيخُ الحَسَنِ: نَقْدٌ وَتَحْلِيلٌ، طَبْعَةُ مَكْتَبَةِ العِرْفَانِ، ١٩٤١.

حِزْبُ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ عَائِشَةُ.

وَحِزْبُ أَنْبَاءِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: وَأَكْبَرُ الْمُتَّبِعِينَ إِلَيْهِ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ.

وَالْحِزْبُ الْأُمَوِيُّ الْمُتَشَقُّقُ: وَكَبِيرُ أَقْطَابِهِ عُمَرُو بْنُ الْعَاصِ.

وَمَا إِنْ آسَخَوْذَ الْحِزْبِ الْأُمَوِيِّ عَلَى سُؤُونَ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا فِي عَهْدِ عُثْمَانَ، حَتَّى أَلْفَتْ بَعْضُ هَذِهِ الْأَحْزَابِ جَبِيهَةً مُعَارِضَةً قَوِيَّةً. فَقَدْ شَاءَ الْبَيْتُ الْأُمَوِيُّ أَنْ يَجْعَلَ مِنْ نَفْسِهِ طَبَقَةً حَاكِمَةً، وَشَاءَ، إِلَى ذَلِكَ، أَنْ يَجْعَلَ مِنْ قُرَيْشٍ طَبَقَةً عِظَامِيَّةً (أَرَسْتَقْرَاطِيَّةً). وَهَؤُلَاءِ الْأُمَوِيُّونَ لَمْ يَكْتَفُوا بِأَنْ يَفْرِضُوا أَنْفُسَهُمْ وَوُجُودَهُمْ الْخَالِي مِنْ الْحَيَاةِ وَالْجُهْدِ، بَلْ تَجَاوَزُوا هَذَا إِلَى تَعْبِيَةِ الْمُجْتَمَعِ فِي طَبَقَاتٍ لَهَا أَمْتِيَاذَاتُهَا وَقِيَمُهَا، الَّتِي تَهْبِهَا لِحَقُوقًا دُونَ مَا وَاجِبَاتٍ، وَبَسْبِيهَا تَفَاتٍ لِنَفْسِهَا مِنْ الْاَعْتِيَاذَاتِ الْاَجْتِمَاعِيَّةِ، مَا يُحَوِّلُهَا آتِيَهَابَ كُلِّ غُثْمٍ، يَغْرُمُ بِسَبِيلِ حِيَاذِيَتِهِ سَوَاذَ الْجُمُهورِ.

وَكُلَّمَا وُجِدَتْ لِمَجَاعَةٍ مَا لِحَقُوقَ دُونَ وَاجِبَاتٍ، فَقَدْ وَجِدَ لَدَيْهَا شَرُّ أَنْوَاعِ التَّطَفُّلِ الْاَجْتِمَاعِيِّ، وَحِينَمَا تَنْتَقِلُ هَذِهِ الْاَعْتِيَاذَاتُ إِلَى الْقَانُونِ يَنْتَقِضُ الْاِنْسِجَامُ وَالتَّوَازُنُ الْاَجْتِمَاعِيَّانِ، وَيُنْسَاقُ الْمُجْتَمَعُ، كُوهًا، فِي مَآزِقِ التَّنَاحُرِ الَّذِي يَبْدَأُ مِنْ أَجْلِ الدَّائِيَّةِ، وَيَنْتَهِي مِنْ أَجْلِ الْحَيَاةِ، وَهُنَا يَأْخُذُ شَكْلُهُ الدَّامِي، وَمُظْهَرُهُ الْكَالِخِ الرَّهِيْبِ، وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ «إِنَّمَا أَهْلِكَ مَنْ قَبْلُكُمْ أَنَّهُ إِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكَوهُ، وَإِذَا أَثِمَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ». فَإِذَا أَبُو سُفْيَانٍ يَقُولُ، عِنْدَمَا وَلِي الْحِلَافَةَ عُثْمَانُ: «يَا بَنِي أُمَيَّةَ تَدَاوَلُوهَا بَيْنَكُمْ تَدَاوُلَ الْكُرَّةِ، قَوْلَ الَّذِي يَخْلِفُ بِهِ أَبُو سُفْيَانٍ مَا زِلْتُ أَنْتَظَرُهَا لَكُمْ، وَلَتَصِيرَنَّ إِلَى أَنْبَائِكُمْ وَرَاثَةً»، وَإِذَا سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ يَجْعَلُ سَوَاذَ الْعِرَاقِ بُسْتَانًا لِقُرَيْشٍ، وَإِذَا الثَّرَوَاتُ الْفَاجِشَةُ تَصِيرُ وَجَمْعُ فِي أَيْدِي الْأُمَوِيِّينَ وَأَنْصَارِهِمْ، وَإِذَا مَزَوَانُ يَسْتَبِدُّ بِالْمُقَدَّرَاتِ الْعُلْيَا عَلَى هَوَاهُ، وَإِذَا أَكْثَرُ الْأَقَالِيمِ تَذْهَبُ إِقْطَاعَاتٍ بَيْنَ فُلَانٍ وَفُلَانٍ، وَإِذَا الْقَانُونُ يُعْبَثُ بِهِ فَلَا يُطَبَّقُ أَحْيَانًا وَكَثِيرًا، بَلْ ذَهَبُوا بِهِ مَعَ الْهَوَى إِلَى حَدِّ أَشْعَرَ النَّاسِ أَنَّهُمْ لَمْ يَعُودُوا سَوَاءً فِي نَظَرِيَّةِ الْحَقِّ وَنَظَرِيَّةِ الْجَزَاءِ فَسَبَقَ إِلَى الْأَذْهَانِ أَنَّ هُنَاكَ فَوْضَى دُونَ مَا سَكَ، وَأَنَّ هُنَاكَ فَسَادًا

في أداة الحكم سبب هذه القوضى دون ما ريب، والفساد يُبيح الثورة، فتدافعت الجموع في تياراتها.

كان الرائد الطواف بين مضر والحجاز والعراق، والذي يجوب متردداً بين هذه الأقاليم يلتمس، ويرى من فواجع الوضع القائم ما يملأه حنقا وثورة، كان يرى بؤساً في غير حد وشقاء مخيفاً، وفقرًا متعولاً، وكان هذا الفقر والشقاء والبؤس يتوزع هنا وهناك، ليجتمع ويألف خصوصاً في بيئات الذين كانوا، إلى زمن قريب، رمز الفخار العربي والإسلامي، رمز الكفاح والجهاد في كل مكان.

نعم كانت هذه الطوائف تنعم بذكرى أمجادها الكبيرة، ولكنها تتحرق أيضاً، وهي ترى مقدار ما تبذخ به أقلية فرضت نفسها، واستحوذت على الثروة، دون أي جهد وسابقة كفاح. فيعلى بن أمية يملك ما قيمته مائة ألف دينار عدا عقاراته الكثيرة، وعبد الرحمن بن عوف يملك ما قيمته خمسمائة ألف دينار، وزيد بن ثابت يملك من الذهب والفضة ما كان يُكسر بالفؤوس... إلخ. وأيضاً رأوا أن هذا البذخ المترف جرّ وراءه أنواعاً من المجاوزات في السلوك الذي سنّ نهجه النبي، وعهدهم به لم يكن بعيداً. كما كوّنّت هذه العنصرة واللذائنة، في بيئات الأقلية المذكورة، طائفة من الآراء المتطرفة وجدت سبيل شيوخها في المجتمع، فقابلها بكثير من الاستنكار، ولكن لم تقدم، مع ذلك، جماعة من الأنصار، فتولدت في الوسط دعوة إلى هذا الجديد المانع الكثير، ودعاة إلى التجديد الرخو.

بيد أن الكثرة محافظة متمسكة بذلك القديم الذي وجدت فيه سبيل قوتها، وانتشرت مؤمنة بأفكاره، وصلاحيته كطب للبشرية اللاهية المحتضرة، فهم جنود رسالة جاءتهم بهذا القديم الذي لمسوا فيه خيرهم. فلا يدع إن استنكرت الكثرة خطة هذا الجديد، ولا يدع إن تحدّوا أنصاره وأتهموهم بالمروق، ولا يدع إن دخلوا معهم في صراع بدأ خفياً، ثم امتدّ حمياً.

وصادَفَ، في هذهِ الفترةِ اللاهيةِ، تطوَّفَ رَجُلٌ نَعْرِفُ أَنَّ اسْمَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبْيَأَ، وكانَ على ما يَظْهَرُ، إِنَّ صَحَّ أَنَّهُ وَجَدَ، صاحبَ نفسِ حساسيةِ شاعريةِ، وصاحبَ فكرةٍ مُنظَّمةٍ إصلاحيَّةٍ، مِنْ وَرائِهِما رُوحٌ ثائِرةٌ. فَاتَّصَلَ بِكُلِّ وَسْطٍ إسلاميٍّ إِذْ ذاكَ، وَاسْتَلْهَمَ الحِياةَ العامَّةَ الَّتِي آنَعَكَسَتْ صُورَتُها وَأَلوانُها في نَفْسِهِ، فَاسْتَعَرَّ ضَمِيرُهُ، وَاتَّقَدَّتْ جَوانِحُهُ، فَلَمْ يَكُنْ بُدَّ مِنْ أَنْ يَلْتَهُبَ، وَلَمْ يَكُنْ مَنَاصٌ مِنْ أَنْ يَهْتِفَ بالإصلاحِ وَضُرورةِ تَغييرِ الوَضْعِ البائِسِ البائِسِ، وكانَ غَنيفاً في طَبِيعَتِهِ، وَزادَتْهُ الحالَةُ العامَّةُ غَنَفاً، فَقَدْ تفاعَلَتِ الصِّفَةُ الحَيَويَّةُ الشَّائِعَةُ في المُجْتَمَعِ بِطَبِيعَتِهِ تفاعُلاً جَعَلَهُ يثورُ، وَجَعَلَهُ يُبَشِّرُ بِمبادئِ الإصلاحِ الثَّوريَّةِ. وَلَمْ يَكُنِ المُجْتَمَعُ حينَذاكَ في حاجَةٍ إلى أَكْثَرِ مِنَ التَّنَادِي بِهِ وَاسْتِصْراحِهِ، فَقَدْ كانَ بحالَةٍ مِنَ الثَّورِ والتَّفاعُلِ إلى دَرَجَةِ القَدَحِ بالأَوارِ.

وهو، إلى هذا، قَدِ اجْتَمَعَ بِأَقْطابِ الحَرَكةِ الثَّوريَّةِ في مِصرَ والشَّامِ والعِراقِ، وَتَأَثَّرَ بِهِمْ، وَلا سِوَمَا أَبُو ذَرٍّ الغِفاريُّ الَّذِي رَكَزَ^(٢) أَفْكارَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَبْيَأَ، وَهذا وَجَدَ فِيهِ يَتَّبِعاً دِينياً وَمَعنَوياً خَصباً، يُمكنُهُ أَنْ يَسْتَمِدَّ مِنْ أَخبارِهِ عَنِ النَّبِيِّ، ما يَجْعَلُهُ سَنَدًا لأفكارِهِ، فَإِنَّ أبا ذَرٍّ كانَ يُحَدِّثُ، مِنْ قَبْلِ وَرُودِ آئِنِ سَبْيَأَ إلى الشَّامِ،

(٢) يَظُنُّ البَسطاءُ مِنَ المُؤرِّخينَ، تَبَعاً لَتَقْديراتِ آسْتِشرافيَّةٍ مُرسَلَةٍ إِسلاماً، أَنَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ - بِلَکَ الشَّخْصِيَّةِ الَّتِي هِيَ سِيفُ تاريخيَّةٍ، أَوِ الحُرَافِيَّةِ، مِنْ سِيفَةِ غُموضِها إلى حَدِّ يُبَيِّحُ لَنا إِنْكارَها مَرَّةً - قَتَنَ مُجْتَمَعاً بِأَشرِهِ، وَهذا مُتَقَوِّضٌ على ضَوْءِ البِسيكولوجيَّةِ الاجتماعيَّةِ؛ وَقَتَنَ أبا ذَرٍّ الَّذِي سائِرُ النُّشوءِ الدِّينيِّ الجَدِيدِ في كُلِّ أَطْوارِهِ. وَتَبَيَّنَ لَنا دَرَجَةُ ما فِيها مِنْ سَخَفٍ حينَما نَعْرِفُ أَنَّهُمْ بِشَخْصِيَّةِ سِيبِهِ تاريخيَّةٍ يُريدونَ تَغييرَ مَخرى حادَّةٍ تاريخيَّةٍ هائِمةٍ، وَلا سَلَكُ في أَنِها طَريقَةُ مِيتافِزيقِيَّةٍ يُرادُ بِها تَعليلُ المَعلومِ بِالْمَجهولِ، وَما يَدرِنا فَلَعَلَّ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ عَنَتَرُ أَجْتِماعِيٍّ بِمِثْلِ عَنَتَرِ الفُروسيِّ؟ وَأَنا إِذا كُنْتُ أَستَطيعُ أَنْ أَقولَ بِهذا الشَّيْءِ المَدْعُوعُ عَبدَ اللَّهِ بْنَ سَبْيَأَ، فَإِنَما أَستَطيعُ الإِقرارَ بِهِ على أَنَّهُ يَلْمِيزُ المَدْرَسَةَ الغِمارِيَّةَ، وَيؤكدُ هذا أَنَّهُ مِنْ أَنصارِ عَلِيِّ بْنِ أَبي طالِبٍ في الحائِبِ السِّياسِيِّ والدِّينيِّ مِنْ أَفكارِهِ، وَمَعروفٌ أَنَّ أبا ذَرٍّ مِنْ أَنصارِ عَلِيٍّ، فَلو قَرَضَنا أَنَّهُ جاءَ بِأَفْكارٍ مَرَدِّكيَّةٍ فَلِماذا لَمْ يَحْتَرِ إِلا مُناصَرَةَ عَلِيٍّ، وَكانَ أَوْجَحُ لَدَعْوَتِهِ لو ناصَرَ ذِكْرِي أَبي بَكْرٍ وَعَمَرَ. وَالشُّبُّ في نَظرِنا الَّذِي أَدى إلى نُشوءِ مَدْرَسَةِ أَبي ذَرٍّ وَدَعْوَتِهِ إِنِما هُوَ ذلكَ التَّورُطُ والثَّالِکُ على مِثْلِکِ الثَّراءِ المُتَطَوِّفِ الَّذِي أَحَدَثَ بِأَشْبابِهِ الأَقْلِيَّةَ الأُمويَّةَ وَأَغْرائِها، وَورُودُها ذلكَ البَروزُ الأَرِشْطَراطيِّ واسْتِيعابُها الإِفْطاعِيَّ، فَکانَ في ذلكَ ما أَغْرى أبا ذَرٍّ على فَهْمِ الشَّرِيعَةِ ذلكَ فَهْمِهِ.

بأحاديثه المُستندة إلى النبي، وكلُّها تحمِلُ عناصرِ الأفكارِ التي انطَلَقَ أبْنُ سَبَأٍ يُرَوِّجُ لها. والذي لَدَيْنَا مِنْ وَثَائِقِ التَّارِيخِ يَشْهَدُ أَنَّ إِعْلَانَ أَبِي ذَرٍّ عَنْ هَذِهِ الْأَفْكَارِ وَقَعَ قَبْلَ أَوَّلِ الْتِقَاءِ بَيْنَهُمَا، كما يَشْهَدُ أَيْضاً أَنَّ تَكُونِ شَخْصِيَّةِ أَبِي سَبَأٍ كَانَ بَعْدَ أَوَّلِ لِقَاءٍ. فَالتَّارِيخُ وَكُتُبُ الْحَدِيثِ تَعْرِفُ جَيِّداً أَنَّ أبا ذَرٍّ كَانَ يُحَدِّثُ، فِي الشَّامِ، بِمِثْلِ هَذِهِ الْقِصَّةِ الَّتِي هِيَ مِنْ وَقَائِعِهِ عَهْدَ النَّبِيِّ.

قال: «سَابِثُ رَجُلًا - وهو بِلَالٌ - فَعَيَّرْتُهُ بِأُمِّهِ، وَكَانَتْ رَقِيقَةً، فَقَالَ لِي النَّبِيُّ: يَا أبا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟! إِنَّكَ أَمَرُوْهُ فَيَكُ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوَانُكُمْ خَوَّلُكُمْ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيَلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلَا تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ».

يَزُوي أَبُو ذَرٍّ مِثْلَ هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، فِي حَقِّ الْمَوَالِي الْأَرْقَاءِ بِالْقَانُونِ، قَصْدُ مُحَارَبَةِ الْوَضْعِ الَّذِي شَاءَتْ بِهِ الْأَقْلِيَّةُ جَعَلَ سَوَادِ الْمُجْتَمَعِ أَرْقَاءً أَجْتِمَاعِيَّينَ.

فَالَّذِي لَا رَيْبَ فِيهِ إِذَا، أَنَّ أَبْنَ سَبَأٍ كَانَ يَحْمِلُ أَفْكَاراً اسْتَلْهَمَهَا مِنْ حَالَةِ الْمُجْتَمَعِ الْقَائِمَةِ، وَلَكِنَّهُ سَقَطَ عِنْدَ أَبِي ذَرٍّ عَلَى مَا يَزُكُّهَا وَيُوضِّحُهَا، وَيُعْطِيهَا الْغُنْصَرَ الدِّينِيَّ الْمَفْقُودَ لَدَيْهِ مِنْ قَبْلُ، وَكَانَ سَبَبَ تَخَوُّفِهِ مِنْ نَشْرِ أَفْكَارِهِ الْحُرَّةِ، وَبِالْحَرِيِّ أَفْكَارِ الشَّرِيعَةِ، عَلَى طَرِيقَةِ أَبِي ذَرٍّ، فَمَضَى يُبَشِّرُ فِي طُولِ الْبِلَادِ وَغَرَضُهَا بِمَا إِنَّهُ الدِّينُ أَيْضاً.

رَأَيْنَا كَمْ كَانَتْ أَقَالِيمُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ الْكَبِيرَةِ مُتَوَثِّرَةً، وَرَأَيْنَا إِلَى أَيِّ حَدٍّ قَدْ أَحْسَسَ الشَّعْبُ أَنَّ الْأَقْلِيَّةَ الْحَاكِمَةَ تَحِيكُ حَوْلَهُ مُؤَامَرَةً وَاسِعَةً النُّطَاقِ، تُبَالِغُ حَتَّى تَتَّصِلَ بِحَيَاتِهِ، فَانْكَفَأَ الشَّعْبُ كُلُّهُ فِي الْأَقَالِيمِ يَتَأَمَّرُ بِهَا، وَيُسَبِّحُ مِنْ حَوْلِهَا شِبَاكَةً، وَلَقَدْ بَاتَتْ الْحَالَةُ الْعَامَّةُ نَجِيءٌ فِي كَلِمَتَيْنِ: حُكُومَةٌ تَتَأَمَّرُ بِالشَّعْبِ، وَشَعْبٌ يَتَأَمَّرُ بِالْحُكُومَةِ، وَلَكِنْ لِلشَّعْبِ الْكَلِمَةُ الْأَخِيرَةُ وَالْعُلْيَا دَائِماً.

وَعَبَدَ اللَّهُ بَنِي سَبْيَا أَيْانَ مَرَّةٍ، وَأَيْنَ أَنْطَلَقَ، يُصَادِفُ جُمُوعاً تَعْتَلِجُ عَلَى جُمُوعٍ،
وَكُتْلُ الْمُؤَامَرَةِ تَنْتَشِرُ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَتَتَوَزَّعُ لَتَحْتَشِدَ. وَلَقَدْ أَحْسَنَ التَّعْبِيرَ عَنْ أَمَانِي
الْجَمَاعَاتِ وَتَصْوِيرِ أَخْلَامِهِمْ وَأَمَالِهِمْ، فَأَفْتَيْنَا بِهِ وَأَفْتَيْنَ بِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ يَزُطُّ بَيْنَ
هَذِهِ الْجُمُوعِ إِلَّا رَابِطَةُ الشُّعُورِ بِضُرُورَةِ الْإِصْلَاحِ السَّرِيعِ، فَقَدْ بَلَغَ مِنْ شِدَّةِ الْفَسَادِ
أَنْ كَانَ أَكْثَرُ النَّاسِ تَحُمُّساً لِلثَّوْرَةِ هُمْ أَهْلُ الْمَدِينَةِ، وَالْمَعْرُوفُ عَنْ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ
يُحَاوِلُونَ شَتَّى الْمَحَاوَلَاتِ لِلتَّرْغِيقِ وَالتَّوْجِيهِ، فَكَانَ شُعُورُهُمْ بِضُرُورَةِ الثَّوْرَةِ مَغْنَاهُ أَنَّ
الْحَزَقَ قَدْ آتَسَعَ عَلَى الرَّاقِعِ، وَأَنَّ حَالَةَ الْفَوْضَى لَا يَنْجُعُ مَعَهَا إِلَّا الْقَمْعُ الْعَنِيفُ،
فَتَحَلَّوْا عَنْ طَرِيقِ الْجُمْهُورِ، أَوْ قُلْ كَانُوا فِي الطَّلِيعَةِ.

ولكن، مع ذلك، فقد ظلَّ حِزْبُ عَلِيٍّ، أَوْ حِزْبُ الْمُحَافِظِينَ، يَبْذُلُ جُهُوداً
جَبَّارَةً بِسَبِيلِ تَقْرِيبِ وَجْهَةِ النَّظَرِ بَيْنَ كُتْلَةِ الشَّعْبِ وَكُتْلَةِ الْحُكُومَةِ، وَيَحُولُ، جُهْدَ
الْمُسْتَطَاعِ، بَيْنَ الْجُمْهُورِ وَبَيْنَ مَا رِيَهُ الدَّائِمِيَّةُ، وَكَثِيراً مَا جَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ ضَمَانَةً لِهَيْئَةِ
الْحُكْمِ. وَالشَّيْءُ الْجَدِيدُ بِالتَّشْجِيلِ وَنَصَاعَةِ الذِّكْرِ أَنَّ هَذَا الْحِزْبَ بَقِيَ مُوَالِياً، بَعْطُفٍ
صَادِقٍ، لِلْحُكُومَةِ إِلَى السَّاعَةِ الْآخِرَةِ الَّتِي لَمْ يُمْدُ مُمَكِّناً فِيهَا ضَبْطُ أَغْصَابِ
الْجُمْهُورِ الثَّائِرَةِ، فَطَغَى عَلَى الْحَوَاجِزِ وَبَدَأَ التَّهْدِيمَ.

وَمِنَ الْإِنْصَافِ بَلْ مِنْ الْخَيْرِ أَنْ نَذْكُرَ أَنَّ الْجُمْهُورَ، مَعَ ذَلِكَ، لَمْ يَكُنْ أَرْعَنَ
فِي ثَوْرَتِهِ، فَقَدْ آتَصَلَ بِأَوْلِيَاءِ الْأُمُورِ وَالشُّلْطَةِ وَطَالَبَ مُسْتَشْفِعاً بِمُثَلِّيهِ مِرَاراً
وَتَكَرَّراً، وَلَكِنْ مَطَالِبَتُهُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، كَانَتْ تَبَوُّءُ بِالْفَسْلِ، وَكَانَ فَشْلاً ذَرِيعاً
مُتَوَاصِلاً مِنَ النَّوْعِ الْمُثِيرِ، فَلَا يَدْعُ إِنْ هَبَّ الشَّعْبُ هَبَّتَهُ الْعَاتِيَّةُ، وَتَرَكَّزَتِ الثَّوْرَةُ
الْإِنْتِقَامِيَّةُ فِي رَأْسِهِ تَرَكَّزَ الْفِكْرَةُ الثَّابِتَةُ، لَا يَحُولُ عَنْهَا فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

هَبَطَتْ وَفُودُ الْأَمْصَارِ الْمَدِينَةَ مَرَّةً وَأُخْرَى إِلَى مَرَاتٍ كَثِيرَةٍ، وَكَانَتْ، فِي كُلِّ
مُنَاسَبَةٍ، تَحْمِلُ طَائِفَةً مِنْ أَمَانِيهَا، وَهِيَ مَلَأَى بِالرَّجَاءِ تَوَدُّ لَوْ صَدَقَتْ أَحْلَامُ أَمَالِهَا،
وَكَانَتْ تَرْجِعُ، فِي كُلِّ مَرَّةٍ، بِوَعْدٍ مَغْسُولَةٍ، وَلَكِنْ لَا تَلْبُثُ أَنْ تَسْتَحِيلَ إِلَى صَدَى

يَأْسٍ فِيهِ غُرُورُ الشَّرَابِ.

ساءها، في كُلِّ تَجَرِبَةٍ وَكُلِّ مُحَاوَلَةٍ، إِخْفَاقُ الْمُتَقَلِّبِ، فَأَغْيِظَتْ كَذِي النَّفْسِ
الْجَرِيخَةِ عَلَى مَنْ لَا يَفْتَأُ يَنْكَأُ جِرَاحَهُ وَيُجْرِي دِمَاءَهُ، وَلَمْ يَسْغُهَا كَظْمُ عَوَاطِفِهَا
الْمُلْتَهَبَةِ، فَهَدَرَتْ صَاحِبَتَهُ مُخْتَجَّةً، تُرِيدُ وَضْعَ حَدٍّ لَأَلَامِهَا وَبِأَسَائِهَا الْمُسْتَعْرِيةَ،
فَكَانَتْ تَصْطَلِدُ تَكَرَّاراً وَبِرَاراً بِمَا يَوْقُظُ فِيهَا شُعُورَ الْحَيَاةِ الْمُتَنَقِّمَةِ. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنِ
الْجَمَاعَاتُ تُرَى فِي أَيِّ مَكَانٍ إِلَّا مُلْتَمِعَةً بَعْضاً عَلَى بَعْضٍ تَتَهَامَسُ فِي أَمْرِ خَطِيرٍ.

وفي هذه الْفَتْرَةِ الْمُلْتَهَبَةِ كَانَ يَطُوفُ، كَمَا قُلْنَا، فِي أَقْطَارِ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ،
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَبَأٍ فِيمَا زَعَمُوا، فَمَا حَلَّ بُقْعَةً إِلَّا وَسَمِعَ فِيهَا تَجَاوُبَ نَائِمَةٍ وَاجِدَةٍ
مُسْتَنْكِرَةٍ، فَاسْتَمَلَ عَلَى حَفِيظَةٍ مُتَحَرِّقَةٍ تَأْتِكِلُ فِي خَنَائَاهُ غَيْظاً وَتُحْرِقُ الْأَرْثَمَ. وَمَا
هُوَ إِلَّا أَنْ هَبَطَ الشَّامُ فَاتَّصَلَتْ أَسْبَابُهُ بِأَسْبَابِ أَبِي ذَرٍّ فَقَدْ سَمِعَهُ يَنْتَقِدُ وَلَا يُيَالِي
عَلَى أَيِّ وَجْهِهِ فُسِّرَ آتِنَاؤُهُ، وَيَتَحَدَّى الْمُجْتَمَعُ^(٣) وَالِدَوْلَةَ، وَكُلَّ أَسْرَةِ الْحُكْمِ تَحْدِياً
جَارِحاً بِمَنْطِقِ الدُّسْتُورِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَامِّ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ، وَمَنَاهِجُ السُّلُوكِ
التَّقْلِيدِيَّةِ، وَيَأْخُذُ عَلَى الْإِنْطِلَاقِيِّينَ الْمُتَجَاوِزِينَ مَذَاهِبَ سُلُوكِهِمْ.

رَأَى وَلَمْ يَمَسْ مِقْدَارَ تَهَاوِي النَّاسِ فِي التَّرَفِّ بِالْعُدْوَى، وَتَهَاوَيْتِهِمْ عَلَى الرِّفَاهِ مِنْ
أَيِّ طَرِيقٍ، وَتَسْتَشْبِغُ خُطَّةَ هَذَا السُّلُوكِ إِبَاحِيَّةً وَلَا مُبَالَاةً، فَجَعَلَ مِنْ نَفْسِهِ وَأَتْبَاعِهِ
حَاجِزاً يُقَاوِمُ التِّيَّارَ، فَوَقَّفَ فِي كُلِّ مَكَانٍ يُشِيرُ بِمَبَادِيئِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ يَقْرَعُ سَمْعَ
النَّاسِ بِمَا قَدْ عَهِدَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ، وَبِمَا قَدْ سَمِعَهُ مِنْهُ وَوَعَاهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَكِنْ بَعْضاً مِنَ
النَّاسِ كَانُوا قَدْ آسْتَنَامُوا إِلَى هَذَا الْجَدِيدِ، وَتَذَوَّقُوا وَلَذَّتْهُمْ أَشْيَاؤُهُ، فَأَبْزَوْا عَلَيْهِ وَأَبَى
عَلَيْهِمْ، فَانْطَلَقَ لَا يُيَالِي غَضَباً وَلَا رِضاً.

وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ يَرَى أَنَّ فِكْرَةَ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ هِيَ الْفَضِيلَةُ، وَالْإِنْسَانُ هُوَ

(٣) تَفْصِيلُ رَأْيِنَا فِي مَدْرَسَةِ أَبِي ذَرٍّ، وَتَفْصِيلُ آرَائِهِ فِي الْحَيَاةِ وَغَايَتِهَا، وَفِي الْمُجْتَمَعِ وَنِظَامِهِ، وَفِي الْحُرِّيَّةِ
الْأَدْبِيَّةِ، وَعِلَاقَةِ الْحَيِّ بِاللَّهِ، نَجِدُهُ فِي كِتَابِنَا: مَدْرَسَةُ أَبِي ذَرٍّ وَالثَّرْوَةُ الْكُبْرَى فِي الْإِسْلَامِ.

الفاضل فقط. فعلى الناس إذا أن يحلوا أشياء الفضيلة بينهم، وأن يؤفروا كل جهودهم على تحقيقها وانتهاج سُننها وأساليبها. وأما أولئك الذين يجمعون أكبر جهودهم وهمهم على التزويد من مخاريف الحياة الناعمة وأسباب العيش الرفيع، فإنهم لا يفضلون، في اختياره، عن سائمات وجدت سبيل لحظوظها. والإنسان عنده، إذا جمع همه هذا الجمع، فإنه ينقلب حيواناً فقط ميزته أنه أقدر على التحليل بما فيه من الفكر، وأما الإنسانية فإنها غنصر غريب عنه. ولكي يكون إنساناً، ويظل كذلك، لا بد له من حياة أخرى مادتها الفضيلة، والفضيلة، في نظره، هي التجرد والعمل.

هو يريدنا أن نعمل ونكافح بما استطعنا إلى ذلك، كما يريدنا أن نتجرد أيضاً فلا ننعيم في مدى الفتون، يريد منا سيراً بما فينا من حياة عضوية ذات حرارات، واستغلاء بما فينا من روح لا تفتأ تنشأ السموم.

وليس أضرب على الكائن الإنساني من أن يسير بالحياة فقط، إذ بهذا يشبه سير الرّحى تتحرك وهي قابضة بملحها. وفرق ما بين الإنسان والحيوان أن الثاني تسير به الحياة، والأول يسير بالحياة، ويستغلي دوماً بالروح التي هي فكرة الحياة وغايتها وضميرها وأخلاقيتها. وإذا كانت الحركة ضرورية للحياة، والفضيلة، التي هي التجرد، ضرورية للإنسانية، فلكني تكون أحياء إنسانيين يجب أن نعمل، ويجب أن نتجرد، وأما إذا عملنا فقط فقد نحزننا غنصر الإنسانية فينا وأشفقنا، كما نتعقد الحياة حين نضعها في معتزك أطماعنا وشباك شهواتنا. فكان يوصي ويلح أن نعمل، وأن نتجرد، أي نعمل ولا ندخر، فحضر بأقصى أسلوب وأعتفه على عدم الكثر، ولوح ما شاءت له فكرته وشاء ضميره بقوله تعالى:

«والذين يَكْتِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ، يَوْمَ يُخْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وظُهُورُهُمْ هذا ما كَتَبْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ».

وهو يرى أيضاً أنّ الدولة كالفرد سواء بسواء، فإذا كثرت ولم تتجرد انحصت، وتولدت لديها الأطماع. فتتخذ الدولة كما تتخذ الأفراد، وحارب الكثر الاجتماعي، كما حارب الكثر الفردي. وشئها شعواء على دنيا القصور وحياة الترف، فقد نظرت إليها نظره إلى مآثم للمثالية العليا والأحلام النشائية، فمؤكّب الإنسانية لا بد أن يتوقف ويتوكل، ويتقلب مؤكّب رجب إذا شئتوا المولج به في دنيا الشهوات.

ومن ناحية أخرى أحس بالأم البؤس في الناس، وأحس أن الدولة تتوسل بالتشخيصات القانونية إلى انتهاك المسّميات الحقوقية من أربابها، والاستيخوذ على الثورة الاجتماعية وتبديدها دون مستحقّيها، فقدّر واستنتج أن الحكومة المنتخبة هي ذات الحق الأول في التصرف بالأموال الشائعة. فتسميتها مال الخزينة بمال الله التي يراود منها الشيوخ، وسيلة إذا للتلاعب والاستيخوذ، فحمل حملة نكراء على هذه التسمية المغلوطة، ونادى أنها مال المسلمين، هذه التسمية التي تؤذي، في تسلسلها المنطقي الحقوق، إلى منع حرّية التصرف، وإلى وجوب توزيعها عليهم وتعلّق حقوقهم بها.

وبلغ من شدة وطأة هذه الدعوة، أن جعل الأنانيون الطامعون يفرزون من طريقه كلّما رأوه، وزاد في تأثير دعوته وانتشارها أنه كان يشفع أقواله هذه بأحاديث مأثورة سمعها من النبي. فوجد عبّد الله بئ سباً في هذه الأفكار، التي يسمّعها من أبي ذر، ما هو العلاج الناجع لروح المجتمع البائسة، ووجد فيها أيضاً خالص أفكاره، وفوق ذلك وجد فيها ما تشوق إليه رغبة المطالبين بالإصلاح الحائرين، فانطلق على سنة أبي ذر يبشر ولا يحفل.

توقّف في الكوفة وهو يذرع الأقطار، فرأى فيها حركة أقوى من سائر الحركات الأخرى في المدن والعواصم، فأنخرط فيها ونظّمها، وهناك وضعت

«عريضة الحق» أو «مطالب الإصلاح» فلم تُقابل من الهيئة الحاكمة بالحسن بل بالإغراض، فتألبوا، وكان أن توسط علي بن أبي طالب بينهم وبين الخليفة فوعدوا خيراً، وما إن بارحوا المدينة حتى أوعزت السلطة العليا إلى معاوية بالقبض عليهم في جمل، وبعد لأي أفرج عنهم فعادوا إلى المطالبة مرة أخرى، بيد أنهم استعدوا للخصومة مهما نجم عنها، ومهما احتبكت ألوانها الكالحة. وكانت عريضة الحق تستعمل على:

- أ - إبعاد البطانة المشرفة على تفسير الأمور حالياً ولا سيما مزوان بن الحكم.
- ب - الرجوع إلى سياسة الأموال التي درج عليها النبي، دون السياسة التي جرى على سنتها الخليفة الثاني ولا تزال.
- ج - ضرب اليد على طماعية قريش.
- د - الحد من صلاحية الولاة والأمراء، فيقيّد تصرفهم بالخراج والأموال العامة.

هـ - الحيلولة دون الأمراء واستبدال الأهلين.

وقدب الوفود تحت ستار الحج، وهي تخفي أغراضها الدائمة الثورية، وشاع الهمس في المدينة، وأنطلقت عبارات الانتقاد تروج كالنار في الهشيم، وقد اتصّلت بعلي أخبارهم فتحوّف مغبة الأمر وبادر إلى الاجتماع بغثمان، فقال له: «ألتاس ورائي وقد كلموني فيك، وآللّه ما أدري ما أقول لك، وما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه».

إنك لتعلم ما تعلم، ما سبقناك إلى شيء فتخبرك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلعك، وما خصصنا بأمر دونك. وقد رأيت وسمعت وصحبت رسول الله ونلت صهره، وما أبى أي فحافة بأولى بعمل الحق منك، ولا أبى الخطاب بأولى بشيء

مِنْ الْخَيْرِ مِنْكَ...»

ثم يقول:

«فَاللَّهِ اللَّهُ فِي نَفْسِكَ. فَإِنَّكَ وَاللَّهِ مَا تُبْصِرُ مِنْ عَمِّي، وَتُعَلِّمُ مِنْ جَهْلِي، وَإِنَّ الطَّرِيقَ لَوَاضِحٌ بَيْنِي...»

فإذا آغْتَذَرَ عُثْمَانُ إِلَيْهِ بِأَنَّهُ يَقْتَنِي أَثَرُ عُمَرَ أَجَابَهُ عَلِيٌّ:

«سَأُخْبِرُكَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَانَ كُلُّ مَنْ وَلِيَ فَإِنَّمَا يَطَأُ عَلَى صِمَاحِهِ، إِنْ بَلَغَهُ عَنْهُ حَرْفٌ جَلَبَهُ ثُمَّ بَلَغَ بِهِ أَقْصَى الْعَايَةِ. وَأَنْتَ لَا تَفْعَلُ، صَعُفْتَ وَرَفَقْتَ عَلَى أَقْرَبَائِكَ...»

فإذا ذَكَرَ لَهُ عُثْمَانُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ يَمُنُّ وَلَاَهُ عُمَرُ مُدَّةَ خِلَافَتِهِ كُلِّهَا، وَأَنَّهُ يَقْتَدِي كَذَلِكَ بِعُمَرَ فِي تَوَلِّيَّتِهِ، أَبَانَ لَهُ عَلِيٌّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْعَمَلَيْنِ فَقَالَ:

«أَنْشُدْكَ اللَّهَ! هَلْ تَعْلَمُ أَنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ أَخْوَفَ مِنْ عُمَرَ، مِنْ يَوْفَا^(٤) غُلَامِ عُمَرَ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ عَلِيٌّ: إِنَّ مُعَاوِيَةَ يَفْتَطِيعُ الْأُمُورَ دُونَكَ وَأَنْتَ تَعْلَمُهَا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ هَذَا أَفَرُّ عُثْمَانَ فَيَبْتُلُغُكَ وَلَا تُعَيِّرُ عَلَى مُعَاوِيَةِ».

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَزَلْ بِعُثْمَانَ يُوَعِّزُ صَدْرَهُ عَلَى عَلِيٍّ، وَيَضْرِبُ لَهُ الْمَثَلَ بِشِدَّتِهِ عَلَيْهِ فيقول:

«هَكَذَا يَسْتَقْبِلُكَ وَأَنْتَ إِمَامُهُ وَسَلَفُهُ وَأَبْنُ عَمِّهِ وَأَبْنُ عَمَّتِيهِ، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا غَابَ عَنْكَ مِنْهُ؟»، وَكَذَلِكَ يَقُولُ سَعِيدُ بْنُ الْعَاصِ وَسَائِرُ بَطَانَتِهِ (حَتَّى أَجْمَعَ أَلَا يَقُومُ دُونَهُ). وَعَلِيٌّ جِيالَ تَرْدُدِ عُثْمَانَ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَنْ يَقُولَ:

«مَا يُرِيدُ عُثْمَانُ أَنْ يَنْصَحَهُ أَحَدٌ، أَتَخَذَ بَطَانَةً أَهْلَ غِيْشٍ لَيْسَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا

(٤) يَوْفَا: اسْمُ غُلَامٍ عُمَرَ، وَكَانَ إِذَا رَأَاهُ يُوَعِّدُ مِنْهُ رَغْبًا، فَضْرِبَ الْمَثَلَ بِهِ فِي الرُّغْبِ.

وَقَدْ تَسَبَّبَ بِطَائِفَةٍ مِنَ الْأَرْضِ، يَأْكُلُ خَرَايجَهَا وَيَسْتَذِلُّ أَهْلَهَا».

وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ يُخَرِّضُ النَّاسَ عَلَى عُثْمَانَ، وَيَجْبُهُ سِيَاسَتَهُ عَلَانِيَةً وَيَتَجَسَّسُ عَلَيْهِ، وَيَقْضُخُ الْأَحَادِيثَ الَّتِي تَجْرِي دَاخِلَ دَارِهِ، وَلَا يَلْقَى أَحَدًا إِلَّا أَدْخَلَ فِي رُوعِهِ كَرَاهِيَّتَهُ، وَيَسْتَغِلُّ الْمُنَاسَبَاتِ وَالظُّرُوفَ حَتَّى قَالَ يَصِفُ نَفْسَهُ:

«أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَمْتُ قُورَةَ نَكَأْتُهَا، إِنْ كُنْتُ لَأَلْقَى الرَّاعِي فَأَخَرُّضُهُ عَلَى عُثْمَانَ...» وَهَذَا عُثْمَانُ يَسْتَشِيرُهُ فِي جَمَاعَةٍ مِنْ صَحْبِهِ فَيَقُولُ لَهُ عَمْرُو:

«أَرَى أَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ النَّاسَ بِمَا يَكْرَهُونَ، فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَرِمُ أَنْ تَعْتَدِلَ، فَإِنْ أَتَيْتَ فَأَعْتَرِمُ عَزْمًا وَأَمْنًا فِيهِ قُدَمًا...» وَيُقَابِلُهُ حِينَمَا خَطَبَ عُثْمَانُ عَلَى مَلَأٍ مِنَ الصَّاحِبِينَ الْمُتَمَرِّدِينَ بِقَوْلِهِ:

«يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ نَهَايِرَ وَرَكَبْنَاهَا مَعَكَ، فَثُبْ نَثْبٌ...» وَهَذِهِ عَائِشَةُ تَجْتَرِيءُ وَهُوَ يَخْطُبُ، فَتَقُولُ وَقَدْ نَشَرْتُ قَمِيصَ النَّبِيِّ:

«هَذَا قَمِيصُ النَّبِيِّ لَمْ يَبَلِّ، وَقَدْ أَبْلَيْتَ سُنَّتَهُ...». وَهَذَانِ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ يُعِينَانِ الثَّائِرِينَ بِالْمَالِ.

وَالْجُمُوعُ الْمُتَالِبَةُ الْوَافِدَةُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، حِيَالٌ مَا تَرَى وَحِيَالٌ مَا تُحِسُّ بِهِ مِنْ آلامٍ فِي قَرَارَتِهَا، تَفْتَحُ ثَائِرَتُهَا، وَمَضَتْ فِي أَنْدِفَاعِهَا مُتَمَرَّةٌ غَاضِبَةٌ. فَبَدَلَ عَلِيٌّ كُلَّ جُهْدٍ لِتَخْفِيفِ ثَائِرَتِهِمْ وَتَبْرِيدِ غُلُوبِهِمْ، وَحَمَلَ عُثْمَانُ عَلَى إِعْطَائِهِمْ مُهَلَّةَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. فَلَمَّا أَنْتَهَتْ أَجْتَمَعُوا عَلَى بَابِهِ، مِثْلَ الْجِيَالِ، عَلَى حَدِّ تَعْبِيرِ الْمُؤَرِّخِينَ. قَالَ عُثْمَانُ لِمُرَّانٍ: «أُخْرِجْ وَكَلِّمُهُمْ فَإِنِّي أَسْتَحْيِي أَنْ أَكَلِّمَهُمْ»، فَخَرَجَ مَزُونًا إِلَى الْبَابِ، وَالنَّاسُ يَرْكَبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَقَالَ:

«مَا سَأَلَكُمْ قَدْ أَجْتَمَعْتُمْ كَأَنَّمَا جِئْتُمْ لِنَهْبٍ؟ شَاهَتِ الْوُجُوهُ، كُلُّ إِنْسَانٍ

أَحْذُ بِأُذُنٍ صَاحِبِهِ؟ جِئْتُمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَنْزِعُوا مُلْكَنَا مِنْ أَيْدِينَا؟ أَخْرِجُوا عَنَّا. أَمَا وَاللَّهِ لَئِنْ رُمْتُمُونَا لَيَمُرَّنَّ عَلَيْكُمْ أَثَرُ لَا يَسُرُّكُمْ، وَلَا تَحْمَدُوا غِبَّ رَأْيِكُمْ. أَرْجِعُوا إِلَى مَنَازِلِكُمْ، وَاللَّهِ مَا نَحْنُ بِمَغْلُوبِينَ عَلَى مَا فِي أَيْدِينَا.

كَانَتْ هَذِهِ الْخُطْبَةُ الْمَقْلُوءَةُ حُخْمًا وَرُعُونَةً، سَرَارَةً شَدِيدَةً الْأَثَرِ فِي إِذْكَاءِ الثُّورَةِ وَتَقْرِيبِ خُطُوبَاتِهَا، وَمَزْوَانٌ لَمْ يُفْلِحْ فِيهَا بِإِثَارَةِ النَّاسِ فَقَطْ، بَلْ أَفْلَحَ أَيْضًا بِإِثَارَةِ عَلِيِّ نَفْسِهِ، الَّذِي ضَمِنَ لِلْجُمْهُورِ تَشْوِيَةَ الْأُمُورِ عَلَى مَا يَوْعَبُ، وَقَدْ أَشْفَقَ فِي يَدِهِ حَقًّا، وَمَا وَسِعَهُ، تَحْتَ عَاصِفَةِ نَفْسِهِ وَعَاصِفَةِ الْجُمْهُورِ الْمَائِجِ، إِلَّا أَنْ يَقُولَ مَقَالَتُهُ الْمَشْهُورَةَ:

«مَا رَضِيتَ مِنْ مَزْوَانَ وَلَا رَضِي عَنكَ، إِلَّا بِتَحْرِيفِكَ عَن دِينِكَ وَعَنْ عَقْلِكَ، مِثْلَ جَمَلِ الطَّعِينَةِ يُقَادُ حَيْثُ يُسَارُ بِهِ. وَاللَّهِ مَا مَزْوَانُ بِذِي رَأْيٍ فِي دِينِهِ وَلَا فِي نَفْسِهِ. وَإِنَّمَا اللَّهُ إِنِّي لِأَرَاهُ سَيُورِدُكَ ثُمَّ لَا يُصْدِرُكَ، وَمَا أَنَا بِعَائِدٍ بَعْدَ مَقَامِي هَذَا لِمَعَاتِبَتِكَ، أَذْهَبَتْ شَرَفَكَ وَغُلِبَتْ عَلَى أَمْرِكَ».

وَدَخَلَتْ عَلَيْهِ أَمْرَاتُهُ نَائِلَةُ ابْنَتِهِ الْفَرَاغِيَّةِ^(٥)، فَقَالَتْ:

«أَتَكَلِّمُ أَوْ أَسْكُتُ»، فَقَالَ: «تَكَلِّمِي» فَقَالَتْ:

«قَدْ سَمِعْتَ قَوْلَ عَلِيٍّ لَكَ وَإِنَّهُ لَيْسَ يُعَاوِدُكَ، وَقَدْ أَطَعْتَ مَزْوَانَ يَقُودُكَ

حَيْثُ شَاءَ» قَالَ: «فَمَا أَصْنَعُ؟...» قَالَتْ:

«تَتَّقِي اللَّهَ وَتَتَّبِعُ سُنَّةَ صَاحِبَيْكَ مِنْ قَبْلِكَ، فَإِنَّكَ مَتَى أَطَعْتَ مَزْوَانَ قَتَلَكَ. وَمَزْوَانُ لَيْسَ لَهُ عِنْدَ النَّاسِ قَدْرٌ وَلَا هَيْبَةٌ وَلَا مَحَبَّةٌ. وَإِنَّمَا تَرَكَكَ النَّاسُ لِمَكَانِ مَزْوَانَ مِنْكَ، فَأَرْسِلْ إِلَى عَلِيٍّ فَاسْتَصْلِحْهُ فَإِنَّ لَهُ مِنْكَ قَرَابَةً وَهُوَ لَا يُعْصَى». فَأَرْسَلَ عُثْمَانُ إِلَى عَلِيٍّ فَأَبَى أَنْ يَأْتِيَهُ وَقَالَ: «قَدْ أَعْلَمْتُهُ أَنَّنِي لَسْتُ بِعَائِدٍ».

كَبَّرَ عَلَى عَلِيٍّ مِثْلُ ذَلِكَ الْمُنْطِقِي، الَّذِي فَاجَأَ بِهِ الْجُمُوعُ مَزْوَانُ بِلِسَانِ

(٥) لَيْسَ فِي الْعَرَبِ مَنْ هُوَ يَفْتَحُ الْغَاءَ لَا بِضَمِّهَا يَبْرُأُ أَيْ نَائِلَةً هَذَا وَالْأَخْرُوصُ الْكَلْبِيُّ

الْخَلِيفَةِ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ فِي هَذِهِ الْمَرْحَلَةِ الْعَصِيْبِيَّةِ وَبَيْنَ التَّلَظُّبِيِّ وَالْإِهَامِ
الْوَضْعِ الْقَائِمِ، إِلَّا كَلِمَةُ رَعْنَاءٍ كَالَّتِي فَاهَ بِهَا مَرْوَانَ، عَلَى أَنَّهَا هَدَمَتْ قِيَمَةَ
وَسَاطَتِيهِ، وَأَلْقَتْ فِي رُوعِ النَّاسِ آزْتِيَاباً حَقِيقِيّاً حَادّاً فِي جَذْوَى مُدَاخَلَتِيهِ، لِهَذَا -
وَهُوَ فِي مِقْيَاسِ كُلِّ عَصْرِ مُبَرَّرٌ - تَنَحَّى وَأَعْتَزَلَ وَأَعْتَصَمَ فِي حُدُودِ هَذَا التَّنَحِّيِ
وَالْإِعْتِزَالِ. وَلَكِنَّ غَلِيّاً، مَعَ كُلِّ مَا هُوَ عَاتِبٌ وَوَاجِدٌ، لَمْ يَزَلْ يُقَدِّرُ وَيَذْهَبُ فِي
مَدَى تَقْدِيرِهِ بَعِيداً، فَيَنْتَهِي إِلَى الْكَارِثَةِ وَيَتَرَاءَى لَهُ سَبَبُهَا، فَيَرْهَبُ هَوْلَهَا وَيَخْشَى
وُقُوعَهَا. يَجِبُ إِذَا أَنْ لَا يَظَلَّ بَعِيداً، وَإِنْ تَوَارَى مِنَ الْمَيْدَانِ إِزَاءَ مَوْقِفِ بَطَانَةِ عُثْمَانَ
مِنَ الْجُمْهُورِ، هَذَا الْمَوْقِفَ التَّائِيِ الْمُثِيرَ، فَبَادَرَ إِلَى تَقْدِيمِ وَلَدَيْهِ - لِإِعْتِبَارَاتِهِمَا
التَّقْدِيرِيَّةِ - وَمَوَالِيهِ، كَيْ يُنْهِنَهُمَا عَوَادِي الْأَحْدَاثِ وَطَائِشَاتِ الْخُطُوبِ. وَحِينَ بَلَغَهُ
«أَنَّ النَّاسَ حَصَرُوا دَارَهُ وَمَنَعُوهُ الْمَاءَ بَعَثَ إِلَيْهِ بِثَلَاثِ قِرْبٍ، وَقَالَ لِلْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ:
أَذْهَبَا بِسَيْفَيْكُمَا حَتَّى تَقُومَا عَلَى بَابِهِ وَلَا تَدْعَا أَحَدًا يَصِلُ إِلَيْهِ بِمَكْرُوهِ، وَكَانَ أَنْ
خُضِبَ الْحَسَنُ بِالِدَّمَاءِ وَشُجَّ قَنْبَرُ مَوْلَاهُ».

وَبَاتَ عَلِيٌّ مُطْمَئِنّاً، فَقَدْ رَتَّبَ الْأُمُورَ جَيِّدًا، وَهُوَ وَاثِقٌ مِنْ أَنَّ مَجْرَى
الْحَادِثِ سَيَسِيرُ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ: يُضْطَرُّ عُثْمَانُ تَحْتَ ضَعْفِ الْجُمْهُورِ، إِلَى إِجَابَةِ
مَطَالِبِ الْإِضْلَاحِ وَتَنْجِيَةِ بَطَانَتِهِ وَلَا سَيِّمًا مَرْوَانَ، وَلَوْجُودِ آبْنَيْهِ وَمَوَالِيهِ أَطْمَآنٍ مِنْ
عَدَمِ دُنُوِّ الْخُطْبِ مِنْهُ. فَإِنْ وَجَدَهُمْ يُعَبِّرُ عَنْ مُعَارَضَةِ عَمَلِيَّةِ أَكِيدَةِ مَنْ جَانِبِهِ، فَلَا
يَتَّصِلُ بِهِ مَكْرُوهٌ دَامٍ يَضَعُ حَدّاً لِحَيَاتِهِ، وَإِنَّمَا كُلُّ مَا فِي الْأَمْرِ أَنَّهُ سَيَضَعُ حَدّاً
لَأَسَالِبِ الْحُكْمِ الْأَسْتِثْنَائِيَّةِ وَمَهَازِلِ الْعَابَةِ. وَمَا كَانَ يَذْهَبُ أَنَّ الْمُغْرِبِينَ، ذَوِي
الْمَارَبِ، كَانُوا قَدْ آتَدَسُوا فِي الْجُمْهُورِ الَّذِي عَدَا جِدَّ حَسَّاسٍ وَجِدَّ مُتَأَثِّرٍ، فَتَدَفَّقَ
السَّيْلُ جَارِفاً وَ«جَزَى الْوَادِي فَطَمَّ عَلَى الْقَرِيِّ».

هَذَا مَا عَرَفَ التَّارِيخُ عَنْ عَلِيٍّ وَبَنِيهِ إِزَاءَ الْمَصْرَعِ، بَيْنَمَا عَرَفَ مِنْ نَاحِيَةِ
ثَانِيَةِ أَنَّ عُثْمَانَ، وَهُوَ مُحَاصَرٌ، كَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَهُوَ بِالشَّامِ:
«إِنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَدْ كَفَرُوا، وَأَخْلَفُوا الطَّاعَةَ وَنَكثُوا الْبَيْعَةَ، فَأَبْعَثْ إِلَيَّ مِنْ

قَبْلَكَ مِنْ مُقَاتِلَةِ أَهْلِ الشَّامِ عَلَى كُلِّ صَغْبٍ وَذُلُولٍ»، فَإِذَا مُعَاوِيَةُ حِينَمَا جَاءَهُ كِتَابُهُ «يَتَرَبَّصُ بِهِ فَقَدْ كَرِهَ - عَلَى حَدِّ دَعْوَاهُ - مُخَالَفَةَ أَصْحَابِ الرَّسُولِ، وَقَدْ عَلِمَ أَجْتِمَاعُهُمْ عَلَى ذَلِكَ».

وَمِنْ تَهَكُّمَاتِ الْقَدَرِ أَنْ يُخَرِّضَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ عَلَى قَتْلِ عُثْمَانَ، وَتَجَبُّهُهُ عَائِشَةَ عَلَانِيَةً، وَتَحَلَّى مُعَاوِيَةُ عَنْ تَجَدُّيهِ، وَيُعِينُ عَلَيْهِ طَلْحَةَ وَالزُّبَيْرُ كِلَاهُمَا، ثُمَّ يَتَفَرُّ هَؤُلَاءِ أَنْفُسَهُمْ هُنَا وَهُنَاكَ، يُطَالِبُونَ بِدَمِهِ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ الَّذِي أَخْلَصَ لَهُ النَّصِيحَةَ، وَحَذَّرَهُ مِنْ هَذَا الْمَصِيرِ، وَكَانَ مِجَنُّهُ دُونَ رَوَاكِضِ الْخُطُوبِ.

*

بَيْنَ حَقٍّ وَبَاطِلٍ وَمُسْتَضْرِحٍ وَنَاكِيلٍ، تَرَاقَصَ الْحَيْطُ مُضْطَرِباً مُتَرَنِّحاً كَبَحْرِ اسْتَقْبَلَ بَيْنَ خَنَائِهِ الْعَاصِفَةِ...

فَمَادَ بِهَا وَمَادَتْ بِهِ زَمَنًا، وَأَنْطَلَقَ يَقْدِفُ بِالزَّبَدِ يُعَبِّرُ عَنْ أَنَّهُ حَانِئٌ، وَيَزُومِي بِالْمَوْجِ مُنْطَاوِلاً كَأَنَّهُ يَتَهَدَّدُ...

فَقَدْ عَشَبَتِ الْعَاصِفَةُ بِأَبْدِيَّةِ الشُّكُونِ الْجَائِمَةِ عَلَيْهِ. وَهُدُوءِ اللَّانِهَائَةِ الْغَايِصَةِ الْحَائِمَةِ فِيهِ...

*

شَعَرَ الْبَحْرُ^(٦) أَنَّ الصُّخُورَ^(٧) الشَّامِيَّةَ فِي أَرْجَائِهِ لَيْسَتْ مِنْ طَبِيعَتِهِ... فَاسْتَدَارَ عَلَيْهَا يُزْمِجُ نَائِراً هَادِراً، فَقَدْ أَيقَنَ أَنَّهَا مَكَمَّنُ الْعَاصِفَةِ، فَهُوَ يَنْوُءُ بِاقْتِيلِهَا...

(٦) كِنَانَةٌ عَنِ الشَّغْبِ الَّذِي هُوَ فِي الْوَاقِعِ بَحْرٌ خَيَوِيٌّ يَفِيضُ بِالْقُوَى، وَتَارِيخُهُ سَيَّلٌ مِنَ الْهُدُوءِ وَالْعَوَاصِفِ وَالتَّيَّارَاتِ وَالتَّنَاحُرَاتِ بَيْنَ أَحْيَائِهِ.

(٧) كِنَانَةٌ عَنِ الْأَرَسْطَرِاطِيَّةِ، وَمَا حَلَّ مَحَلَّهَا فِي الْمُسْتَجَمَعِ الْحَدِيثِ، وَفِي الْوَاقِعِ أَنَّ لِهَذِهِ الْأَرَسْطَرِاطِيَّةَ طَبِيعَةً الصُّخْرِ مِنْ كِبَرِيَاءِ قَابِيَّةٍ وَجَسٍّ تَلِيدٍ.

وحين طارَ لثَّه طَمَا عَلَيَّهَا وَتَجَاهَلُ وُجُودَهَا...
وهو، وإن لم يَتَلَعَّهَا، رَدَّهَا إِلَى حَيْثُ لَا يَكُونُ لَهَا حِسَابٌ فِي كِبَرِيَاءِ
الْوُجُود...
*

إِنَّ كِبَرِيَاءَ الْوَاحِدِ تَجَاهُلٌ لُجُودِ الْآخَرِينَ...
ولكنَّ وُجُودَهُمْ فِي حِسِّ الْوَاقِعِ، أَكْبَرُ مِنْ وُجُودِهِ فِي حِسِّ الْخَيَالِ...
فإنَّ وُجُودَهُ قَبْضَةٌ مِنَ الظَّلَامِ، وَوُجُودُهُمْ قَبْضَةٌ مِنَ الشُّعَاعِ...
وما تقابلا إِلَّا ذَابَ الْأَوَّلُ فِي الثَّانِي دُونَ مَا أَثَرِ يَقْفُو...
إِنَّ الْكِبَرِيَاءَ صِفَةٌ ذَاتِيَّةٌ لِلْكَثَرَةِ، وَهِيَ تُشِيرُ إِلَى الْعَدَدِ...
وَإِذَا نَجَحَ الْفَرْدُ فِي آتِبِلَاعِ الْكُلِّ أَخْيَانًا، فَإِنَّهُ مُتَعَرِّضٌ لِحَظَرِ التَّمَرُّعِ دَائِمًا...
فَالْكُلُّ قُبْلَةٌ قَدْ تَبَوَّرَ حِينًا، وَلَكِنْ فِيهَا إِمْكَانِيَّةُ التَّفْجُرِ أَبَدًا...
*

فِي طَبِيعَةِ الْبَحْرِ رَشَاقَةُ الْحَرَكَةِ، وَفِي طَبِيعَةِ الصُّخْرِ سُكُونٌ بَلِيدٌ، وَأَيْضًا قَاسٍ
مُتَعَجِّهِم...
وَبَيْنَهُمَا وَقَفَ إِنْسَانٌ^(٨) فِيهِ وَعْيُ السُّكُونِ وَقَصْدُ الْحَرَكَةِ، يَصِلُ أَشْبَابَ
أَحَدِهِمَا بِأَسْبَابِ الْآخَرِ...
وَكَانَتْ كِبَرِيَاءُ الصُّخْرِ عَمِيَاءَ فَلَمْ تَقْنَعْ بِغَيْرِ وُجُودِهَا، فَانْطَلَقَتْ أَعَاصِيرُ
الْبَحْرِ تَرَاوُرٌ فِي مِثْلِ الْفَحِيحِ...

(٨) كِنَايَةٌ عَنْ كُلِّ مُضِلِّحٍ إِنْسَانِيٍّ يَفْعَلُ فِي مَهْدِي الْمَبَادِيءِ كَعَلِيٍّ.

وَوَقَفَ هَذَا الْإِنْسَانُ عِنْدَ الشَّاطِئِ يَنْظُرُ مُتَفَجِّعاً، فَإِذَا الْوُجُودُ الْمَخْدُوعُ -
الَّذِي أَصْحَى غَوْرًا - تَرَفُّصُ فَوْقَهُ مَوْجَةٌ مَارِحَةٌ... فِي نَعْمَةٍ تُخَيِّرُ: أَنَّهُ كَانَ هُنَا شَيْءٌ
فِيمَا زَعَمُوا...

*

مَضَى ذَلِكَ الْإِنْسَانُ وَقَدْ أَبْصَرَ وَسَمِعَ، مُطْرِقًا مُرَدِّدًا: بِهَذَا نَطَقَ الْحَقُّ فِي
صَدَى الْمَوْجِ...

وَرَوَى هَذَا الْإِنْسَانُ لَوَلَدِهِ^(٩) أُمَثُولَهُ، يُبْخِرُ، فَلَيْتَ مُتَأَمِّلًا يُعْبِرُ عَنْ أَنَّهُ وَعَى...
وَلَمْ يَكُنْ طَوِيلًا، حَتَّى كَانَ يَنْفَسِيهِ رَجْفَةٌ رَعَشَاتٍ وَخَلَجَاتٍ، وَرَجْعَةٌ أَصْدَاءِ
الْمَوْجِ...

وَشَرَعَ النَّاسُ يَزُوُونَ، بَعْدَ ذَلِكَ، أُمَثُولَةَ آبِنِ الْإِنْسَانِ...

* * *

(٩) كِنَايَةٌ عَنْ أَشْخَى أَهْبَاءِ الْوَعْيِ الْحَدِيدِ كَالْحُسَيْنِ.

في الزوبعة

عن مأساة حمراء اختلطت فيها الأشلاء بالدماء، آنكشف الفصل الأخير
من فصول الثورة التي كانت تمثل على أرض المدينة وفي بطحاها الفسيحة
المدى، البعيدة الآفاق، والتي كانت تتجاوب بأصدائها الهادئة هنا وهناك، قريّة
بعيدة، فتتفاعل مع الأحياء تفاعلاً ملوّناً الرعشات، فمن يئضاء ناصعة كالزبد، ومن
سوداء فاحمة كالقار، ومن حمراء قانية كالعشم، وأعصاب الجماعات تتمدد
وتتقلص وتعلو وتهبط... فجذلاً هناك وغضباناً هنا، وبين هذا وذاك تنبعث
نأμάτων مُحترقة، أو زفارات مُحترقة، أو بقايا هتافات مُحترقة طروب.

وهم، وإن لم يجمعهم الأسى، فقد تنفّس سائرهم الصعداء، ولكن لم
تلبث أن دارت الثورة على نفسها بالغة عنيفة، فقد أفتلت قيادها وهبت طائشة
على قطبيها، شاردة في لولبها.

كان الجمهور قد ألتهب بروحية الدماء وشربتها، فعدا دموياً وشرساً، يضرب
على أشنائه في شكل كريب، كأنه يتأكلها، أو كأنما يتأكل الأشباح والطيوف التي
استوت في مكان الحيس من نغمته، فهو يتوعد ضارباً بقبضته في الهواء كمن
يتبحث في مكان الفضاء عن أثار عليه خفيظته، والحفايظ قاسية نهمّة إذا
انطلقت في مدى الشعور المتصري، وأعصاب الحي حينما تضرب، وتهيجها

النَّقْمَةُ لَا تَذْهَبُ فِي آتِنَاقِمِهَا إِلَى الْإِيقَاعِ السَّاحِقِ بَمَنْ أَسْعَرَهَا فَقَطُّ، بَلْ تَرَوُحُ
مَاضِيَةً وَرَاءَ ذَلِكَ بَعِيداً. فَهِيَ لَمْ تَرَوْ حُرُوقَةَ الظُّلْمِ الْفَائِرِ، فَتَطْلُبُ سَحَقَ أَخْيَلِيَّتِهَا،
وَتُصَارِعُ الْخِيَالَ الْبَغِيضَ الَّذِي تَمَدَّدَ عَلَيْهَا فِي ثَوَرَةِ الدَّمَاءِ... وَمِثْلُ هَذَا الْجُمْهُورِ لَا
يَزْعَى لِلْمَوْتِ قَدَاسَةً وَحُرْمَةً، وَكَذَلِكَ كَانَ فَقَدْ حَالَ بَيْنَ جَسَدِ الْخَلِيفَةِ الْمَفْؤُودِ وَبَيْنَ
الدَّفْنِ، أَنَّهُ حَانِقٌ لَا يُطِيقُ أَنْ يَرَى شَيْعاً يُجَدِّدُ لَهُ الذِّكْرَى أَشَدَّ هَوَلاً.

إِنْطَلَقَ النَّاسُ فِي مَذْهَبِ أَغْصَابِهِمِ الْمُنَازِمَةِ الْمُتَعَقِّدَةِ دُونَ هَوَادَةٍ أَوْ لِينٍ،
يَدُكُونُ مَعَالِمَ الْمَاضِي الْقَرِيبِ كَيْفَ حَلَا لَهُمْ، وَيَضْحَكُونَ كَيْفَمَا شَاءَتْ أَهْوَاؤُهُمْ،
وَفِي هَذَا التَّجْمُهِرِ الْكَبِيرِ قَامَ الْأَشْتَرُ مُنْتَصِباً فَوْقَ الْجُمُوعِ مُلَوَّحاً بِسَيْفِهِ، هَادِراً
بِمَنْطِقِهِ النَّارِيِّ الْمُتَّقِدِ الَّذِي كَانَ يَخْرُجُ مُمْتَدّاً كَأَلْسِنَةِ اللَّهَبِ قَائِلاً:

أَلَا سُحْقاً لِيَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْأَشْرَارِ،

وَوَيْلٌ لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَتُونِ الشَّعْبِ الْفَوَّارِ،

فَيَدُ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْغَيْبِ تَغْتَصِرُ الْمُسْتَبِدِّينَ الْفُجَّارِ،

وَلَا بُدَّ لِلظُّلَمِ مِنْ أَنْ يَلْتَهُمَهُ فِي ضَمِيرِ الْكَوْنِ أَفْعَوَانُ جَبَّارِ،

وَرَحِمَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ الرَّفِيقَ الَّذِي أَنْقَلَبَ لِيُنْهَ مَعَهُمْ إِلَى أَنْقِيَادٍ وَصْغَارِ،

وَحَيَّا اللَّهُ غَضَبَةَ الْأَحْرَارِ،

وَكِبْرِيَاءَ بَطْشَةِ الشَّعْبِ إِذَا ثَارَ،

الَّتِي أَنْتَصَفَتْ لِلْمَظْلُومِينَ الْأَبْرَارِ،

فَهَؤُلَاءِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَأُولَئِكَ، أَعْدَاءُ الشَّعْبِ، إِلَى النَّارِ،

وَحَذَارِ أَنْ تَتْرُكُوا لِلْعَادِينَ فُرْصَةَ الْفِرَارِ وَالنَّفَارِ،

فَهَلُمُّوا كَالسَّيْلِ أَنْدِفاعاً إِلَى بَطْلِ الْأَحْدَاثِ الْكِبَارِ،

فَقَدْ أُعْطِيَتْ الْقَوْسُ بَارِيهَا وَتَمَّ الْإِنْصَافُ وَالْإِنْصَارُ،

وَأَطْمَأَنَّ مُشَرَّدُو الطُّغْيَانِ فِي الْقِفَارِ،

وَأَنْتَحَرَ الْعُدُوَانُ وَأَنْصَارُهُ أَيَّ أَنْتِحَارِ،

وَأَعْتَلَى الْحَقُّ عَلَى الْبَاطِلِ، وَذَابَتْ لُحْلُكَةُ اللَّيْلِ فِي رَائِعَةِ النَّهَارِ.

فَانْطَلَقَ النَّاسُ، يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ، وَتَدَافَعُوا فِي كُلِّ طَرِيقٍ كَالْقُلَلِ
السَّاقِطَةِ الْمُتَدَحْرِجَةِ، إِلَى دَارِ عَلِيٍّ يُنَادُونَ بِهِ خَلِيفَةً وَزَعِيمًا.

كَانَ فِي مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ جَمَاعَةٌ يَتَجَاذِبُونَ أَطْرَافَ الْحَدِيثِ، فِي شَيْءٍ مِنْ
التَّنَافُرِ فِي الرَّأْيِ وَالنَّظَرِ إِلَى الْحَدِيثِ الدَّامِي الَّذِي تَمَّ عَلَى أَيْدِي النَّاسِ.

قَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ: لَقَدْ عَدَا النَّاسُ أَقْدَارَهُمْ وَائْتَمَّ اللَّهُ، وَاسْتَطَالُوا عَلَى
مَقَامِ الْخِلَافَةِ، وَلَمْ يَزَعُوا حَصَانَةَ الْعَهْدَةِ الَّتِي تَمَّتْ بِالْإِثْبَابِ، وَلَكِنْ:

مَنْ سَرَّهُ الْمَوْتُ صِرْفًا لَا مِزَاجَ لَهُ فَلْيَأْتِ مَأْسَدَةً فِي دَارِ عَفَانَا

لَتَسْمَعَنَّ وَشِكَاً فِي دِيَارِهِمْ أَلَلُّهُ أَكْبَرُ يَا ثَارَاتِ عُثْمَانَ

قَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: مَاذَا تَقُولُ؟ عَدُوا أَقْدَارَهُمْ فَقَطُّ! بَلْ هُمْ أَتَمَّةٌ
سَفَاكُونَ، وَنَحْنُ لَمْ نَفْتِنَا مِنْهُمْ، بَلْ نَصِيبُ كَبِيرٍ مِمَّا اقْتَرَفُوا. كَانَتْ جِنَايَةٌ مَا
أَهْوَلُهَا! إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى أَيْدِينَا نَحْنُ، نَعَمْ، نَحْنُ، فَلَا أَرَاهَا إِلَّا مُلْطَخَةً بِالدَّمِ الزَّكِيِّ
الْبَرِيِّ. لَقَدْ شَارَكْنَا هَؤُلَاءِ الْمَجْرِمِينَ إِلَى حَدِّ كَبِيرٍ، بَلْ كُنَّا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ، كُنَّا مَطَايَا
الْجَرِيمَةِ.

لَعَلَّكُمْ لَا تَذَرُونَ أَنَّ فِي الْحَادِثَةِ يَدًا مَجْهُولَةً حَاكَتْ هَذِهِ الْمُوَامَرَةَ الطَّاعِيَةَ مِنْ
أَطْرَافِهَا، وَأَخْكَمَتْ أَسْبَابَهَا. نَعَمْ اسْتَطِيعَ أَنْ أَتَّهِمَ وَأُغْلِبَ بِمِلٍّ فَمَيَّ أَنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ
مَا وَرَاءَهَا... وَابْتَسَمَ ابْتِسَامَةً صَفْرَاءَ كَالْفَحِيحِ فِي شِفَاوِ مُلْتَوِيَةٍ مَقْلُوبَةٍ صَحَبَهَا

تَكْثُرُ فِي الْجُفُونِ كَأَنَّهُ يُشِيرُ... وَلَكِنَّهَا أَكْمَةُ شَفَافَةٍ تُرَى مِنْ خِلَالِهَا الْأَشْبَاحَ.

تَنَمَّرَ جَهْجَاهُ الْغِفَارِيُّ وَرَدَّ عَلَيْهِ: بَلْ بَاءَ أَصْحَابُكَ بِشَرِّ أَعْمَالِهِمْ، وَإِنْ مَنْ بَقِيَ مِنْهُمْ لَيَنْتَظِرُ يَوْمَ أَكْثَرُ سُوءًا، وَلَوْ كَانَتْ الْأُمُورُ إِلَيَّ لَمَا تَرَدَّدْتُ فِي أَنْ أُبْطِشَ بِكَ أَوَّلَ مَا أُبْطِشُ، فَأَنْتَ هُوَ رَأْسُ الْأَنْعَى، وَبِنَفْسِي أَنْ أُرْوِيَ بِكَ أَعْصَابِي الظَّامِئَةَ.

فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: «مَتَى اسْتَغْبَدْتُمُ النَّاسَ وَقَدْ وَلَدْتُهُمْ أُمَّهَاتُهُمْ أَحْرَارًا»، أَلَمْ يَقُلْهَا لِعُمَرَوِ بْنِ الْعَاصِ وَأَيُّهُ يَوْمَ سَامَا الْمِصْرِيِّ الْبَرِيءِ وَأَضْطَهْدَاهُ اسْتِغْلَاءً فِي الْأَرْضِ وَعُثُوًّا. قَالَ هَذَا فِيكُمْ وَلَمْ تَتَرَبَّعُوا عَلَى دَسْتِ الْحُكْمِ، وَلَمَّا تَصِرْ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ وَأَسْبَابُ السُّلْطَانِ إِلَى أَيْدِيكُمْ، فَكَيْفَ وَقَدْ تَسْوَدَّتُمْ؟ أَرَدْتُمُوهَا فِرْعَوْنِيَّةً وَرُبُوبِيَّةً، وَرَكِبْتُمُ النَّاسَ بِالْبَغْيِ مَطَايَا شَهَوَاتٍ... وَثَارَتْ بِهِ حَفِيزَتُهُ، فَانْقَلَبَتْ سَخْنَتُهُ وَنَجَّهَمَ عَلَى شَكْلِ مُنْكَرٍ، وَبَدَّرَتْ مِنْهُ حَرَكَةٌ تُنْذِرُ بِشَرِّ، لَوْلَا أَنْ خَفَّ عَمَارُ بْنُ يَاسِرٍ فَحَالَ دُونَهُ، وَتَنَاوَلَ الْحَدِيثَ:

كَمَا تَقُولُ - يَا مُغِيرَةُ - إِنَّ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ مَا وَرَاءَهَا، وَلَكِنْ كَمْ يُسْقَطُ فِي يَدِكَ إِذَا لَمْ يَكُنْ وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا بَطَانَةُ الْخَلِيفَةِ الرَّاجِلِ نَفْسُهَا، ثُمَّ لَمْ تَنْكَشِفْ عَنْ أَحَدٍ سِوَاهُمْ، فَأَنَا أَرَى كَمَا تَرَى وَأُقَدِّرُ مِثْلًا تُقَدِّرُ، بَيِّدْ أَنِّي كُلَّمَا حَدَّقْتُ بَيْنَ الْخِلَالِ، وَأَطَلْتُ التَّحْدِيقَ وَأَنْعَمْتُ النَّظَرَ، فَلَسْتُ أَرَى وَرَاءَ الْأَكْمَةِ إِلَّا مَنْ ذَكَوَتْ لَكَ، ثُمَّ لَا أَرَى إِلَّا إِيَّاكَ وَأَصْحَابَكَ.

نَعَمْ فِي مَضَرَعِ الْخَلِيفَةِ الْفَطِيحِ مُؤَامَرَةٌ أَنْتُمْ نَظَّمْتُمُوهَا بِأَنْفُسِكُمْ، وَقَدْ يَقَعُ غَرِيبًا عَلَيْكَ أَنْ يَتَأَمَّرَ الْمَرْءُ بِنَفْسِهِ، وَقَدْ تَسَحَّرَ فِي سِرِّكَ مِنْ قَوْلِي، وَلَكِنَّ الْمَتَهَوِّزَ الطَّائِشَ طَالَمَا نَالَ نَفْسَهُ بِخُسَامِيهِ، كَذَلِكَ الصَّائِدُ الَّذِي حَمَلَ فِخَاخَهُ وَأَنْطَلَقَ يُرِيدُ الطَّيَّاءَ، فَقَالَ لِنَفْسِهِ: لَوْ حَمَلْتُهَا مَفْتُوحَةً مُهَيَّأَةً لَكُنْتُ أَسْرَعَ إِلَى نَيْلِ الْغَايَةِ وَأَرْجَى فِي الْفَائِدَةِ، فَقَعَلَ وَسَارَ... وَلَمْ يَمُضْ بَعِيدًا حَتَّى أَطَبَّقَ بِهِ فَعَّ مَعَ حَرَكَاتِ الْمَسِيرِ،

فَسَقَطَ يَفْخَصُ فِي الْأَرْضِ^(١)، وَقَدْ قَنَصَ نَفْسَهُ فِي شَهْوَةِ الطُّبَاءِ.

إِنَّكَ أَدْرَى مِنْ غَيْرِكَ بِمَا كَانَ مِنْ سِيَاسَةِ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ الْقَائِمَةِ عَلَى الْعُسْفِ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا تَمْشِي عَلَى الْجَمَاجِمِ وَتَنْعَمُ عَلَى أَشْلَاءِ الْأَحْيَاءِ. لَقَدْ ضَنُّوا عَلَيْهِمْ حَتَّى
بِمَا يَسُدُّ رَمَقَهُمْ وَيَبُلُّ حُلُوقَهُمْ، وَيَخْلُوا عَلَيْهِمْ بِأَقْلٍ مِنَ الْقَلِيلِ، وَسَامُوهُمْ إِذْ لَالًا،
وَأَوْرَدُوهُمْ مَوْرِدَ التَّهْلُكَةِ.

فَيَعْتَ ثَلَاثُ الْبَطَانَةِ بِسُكْنَى الْقُصُورِ الْمُبْتَوَّثَةِ بِالرِّيَاشِ، وَأَصَمُّوا آذَانَهُمْ عَنِ
الْأَنْبِيَاءِ الصَّارِخِ الْمُتَبَيِّنِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَأَوْهَمُوا الْخَلِيفَةَ الرَّقِيقَ الْحَاسَةَ أَنَّ الشَّعْبَ فِي
أَسْعَدِ مَا يَكُونُ حَيَاةً، وَضَرَبُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ بِأَسْوَارٍ وَحُجُبٍ، وَمَنَعُوهُ عَنِ الشَّعْبِ
وَمَنَعُوا الشَّعْبَ عَنْهُ، وَسَمَّوْا رَأْيَهُ فِي النَّاصِحِينَ الْمُخْلِصِينَ، وَجَعَلُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ
أَوْصِيَاءَ عَلَى الْخَلِيفَةِ الَّذِي شَاوَرُوا الْحُجَرَ عَلَيْهِ، وَغَفَلُوا عَنْ أَنَّ الْقُصُورَ الَّتِي آغْتَصَمُوا
بِهَا قَامَتْ عَلَى أَجْسَادٍ حَيَّةٍ تَتَحَسَّسُ بِالْآلَامِ، وَكَانَ فِي آتِنَفَاضَةٍ مِنْ آتِنَفَاضَاتِهَا مَا
أَحَالَ دُنْيَا ثَلَاثِ الْقُصُورِ أَطْلَالًا وَخَرَائِبَ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّائِرِينَ لَمْ تَحْدُثْ لَهُمْ فِكْرَةُ الْجَرَمَةِ وَلَا شَهْوَتُهَا، وَإِنَّمَا حَدَاهُمْ تَنَفُّسُ
الْحُرِّيَّةِ الْمَضْغُوطَةِ بَيْنَ ضُلُوعِهِمْ، كَمَا رَامُوا، بِإِخْلَاصٍ، إِنْقَادَ الْخَلِيفَةِ مِنْ بَطَانَتِهِ،
وَرَفَعَ وَصَايَتِهَا الْقَسْرِيَّةَ عَنْهُ، وَإِنْ كَانَ خَلِيقًا بِهَذِهِ الْوَصَايَةِ حَقًّا، وَبِمِثْلِ هَؤُلَاءِ
الْأَوْصِيَاءِ، فَمَا هُوَ وَالْخِلَافَةُ إِذَا ؟

وَلَكِنْ طَاشَ بِالثَّائِرِينَ السَّهْمُ فَأَصَابَ مَنْ لَمْ يَكُنْ هَدَفًا، يَبْدَأُ أَنَّهُ يُعْزَى أَنَّ
الْبَطَانَةَ أُصِيبَتْ فِي مَقْتَلِهَا بِمَصَابِيهِ، فَمَصَابِيهِ، وَإِنْ يَكُنْ خَطَأً فِي حِسَابِ الشُّعُورِ،
فَإِنَّ سُقُوطَ تِيكَ الْبَطَانَةِ كُلِّ الْعَدْلِ فِي حِسَابِ الْفِكْرِ، وَالْجُمْهُورُ الشَّاعِرُ لَا يُحَدِّدُ
النَّبِيَّةَ بِمَنْطِقِ الْقَانُونِ بَلْ بِمَنْطِقِ الْأَلَمِ، فَلَيْسَ بِدَعَا إِذَا تَجَاوَزَ وَاسْتَفْحَلَ. وَلَوْ تَنَاوَلْنَا

(١) تَغْيِيرٌ كِنَائِيٌّ يَغْنَوْنَ بِهِ يَضْرِبُ أَدِيمَ الثَّرَابِ بِيَاطِنِ الْقَدَمِ.

المَوْقِفَ، حتَّى بِمَنْطِقِ القانون، فَإِنَّ دَعْوَى التَّغْيِيرِ بِهِ لَا تُنْقِذُهُ مِنَ الْجَزَاءِ، وَلَقَدْ أَلَفَ الشَّعْبُ مُحْكَمَتَهُ، فَلَهُ الْكَلِمَةُ الْأُولَى وَالْآخِرَةُ، وَلَقَدْ قَالَهَا بِكُلِّ وَضُوح.

وإِنْ كَانَ حَقًّا مَا تَقُولُ مِنْ أَنَّ التَّائِيذِينَ غَضَبُهُ مُجْرِمَةٌ، فَإِنَّ تِيكَ الْبِطَانَةَ أَهْوَلُ جَرِيمَةٍ حِينَ دَخَلُوا بِهَا إِلَى كُلِّ بَيْتٍ. وَلَسْتُ بِهَذَا أُرِيدُ تَبْرِيرَ الْخَطْبِ، وَلَكِنِّي أَقْصِدُ إِلَى هَذِهِ فِكْرَةَ الْجَرِيمَةِ عَلَيْكَ الَّتِي تُغْلِيهَا، وَلَعَلَّكَ تَعِي.

فَقَالَ جَهَّجَاهُ الْغِفَارِيُّ: تَقُولُ لَعَلَّهُ يَعْنِي؟ أَأَنْتَ غَرِيبٌ عَنْ شِبَاكِهِ وَأَحَابِيلِهِ. إِنَّهُ يُرِيدُ بِقَصْدٍ تَسْمِيمَ رَأْيِ النَّاسِ وَبُلْبُلِيَّتِهِمْ، وَلَا يَلْبَثُ هُوَ وَمَنْ فَاتَنَا مِنْ بَطَانَةِ الْخَلِيفَةِ، حَتَّى يُلَوِّحُوا بَيْنَ النَّاسِ بِالْعُثْمَانِيَّةِ، وَيَجْعَلُوا مِنْ عُثْمَانَ مَوْضِعًا ثَائِرًا قَصْدَ إِلْقَاءِ الشَّعْبِ فِي الْفَوْضَى، وَأَنْكِفَائِهِ كُتْلًا عَلَى نَفْسِهِ، وَمَا أَسْرَعَ تَرَدُّدَ الْجُمُوعِ، فَهِيَ لَا تُحَاكِمُ وَلَكِنَّا تَشْعُرُ بِبَالَغَاتِ.

فهذا - وأشار إلى المغيرة - يَغْتَمِدُ عَلَى رُوحِيَّةِ الْجُمْهُورِ، قَصْدَ الْحَارَظَةِ بِالْعُنْصُرِ النَّفْسِيِّ الْقَلْبِيِّ لِإِبْجَادِ حَالَةِ فَوْضَى شَامِلَةٍ، وَهُوَ لَا يَأْبَهُ، بِسَبِيلٍ مَا يُرِيدُ، أَنْ تَنْذُكَ مَعَالِمُ مُجْتَمَعِنَا الْعَظِيمِ. لِنَقْرِضَ أَنَّ عُثْمَانَ صُرِعَ بِقَصْدٍ أَنْ يُصْرَعَ فَقَدْ صُرِعَ عُمرُ مِنْ قَبْلِهِ، وَمَا تَهْمُنَا فُرُوقُ الْمَلَابَسَاتِ الَّتِي نَجِدُ قِيَمَتَهَا فِي الْإِغْتِبَارِ الْفَرْدِيِّ دُونَ الْإِغْتِبَارِ الْاجْتِمَاعِيِّ، فَهُمَا، كَحَادَثَيْنِ، سَوَاءٌ بِسَوَاءٍ. فَلِمَاذَا يُحَرِّضُ بِالْإِتِّهَامِ، وَيَسْتَشِيرُ بِالتَّفَجُّعِ وَالتَّوَجُّعِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ يَقْصِدُ شَرًّا؟

قَالَ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ: نَعَمْ، أَجْدَى عَلَيْنَا، وَأُولَى بِنَا، أَنْ نَعْتَبِرَ بِالْحَادِثِ وَلَوْ لَمْ يَحُلْ مِنْ خَطَأٍ، فَتُنَادِي الْوَضْعَ وَنَجْتَهِدَ جَيِّدًا بِحُسْنِ التَّائِي، كَيْ نَحُولَ بَيْنَ الشَّعْبِ، بِمَنْعِ الْأَسْبَابِ، وَبَيْنَ الْعَوْدَةِ إِلَى آوْتِكَابِ خَطَأٍ جَدِيدٍ مِنْ شَاكِلَتِهِ. قَدْ مَاتَ الْمَيِّتُ وَبَقِيَ الْحَيُّ مُضْطَرِبًا، فَلْنَعْرِفْ كَيْفَ نُدْخِلُ الْاطْمِئْنَانَ إِلَى نَفْسِهِ، وَبِذَلِكَ نَكُونُ قَدْ أَصْلَحْنَا الْخَطَأَ وَرَبَحْنَا الْمُصِيبَةَ. وَأَمَّا تَزْوِيعُ الْجُمْهُورِ، بِثَهْمَةِ الْإِجْرَامِ وَالذَّمِّ، فَإِنَّهُ تَكْبِيرٌ لِدَائِرَةِ الْخَطَأِ وَتَوْسِيعٌ لِحَوَاشِي الذَّمِّ، وَمَا أَرَى هَذَا إِلَّا دَعْوَةً جَاهِلِيَّةً تَقُومُ

على الانتقام في غرضها القريب، وعلى المؤامرة بالنظام في غرضها البعيد...
وقطع حسان عليه تسلسل حديثه حين انتهى إلى هذه النقطة، فقد مضى
يردد قول الشاعر:

قومي هُمُو قتلوا أُميتم أخي فإذا رَمَيْتُ يُصِيبُنِي سَهْمِي
أَصْبَحَ عَلَيَّ الْخَلِيفَةُ، وَاجْتَمَعَتْ فِي يَدَيْهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ، فَثَابَ إِلَى الْجَمْعِ
هُدُوؤُهُ مَشْفُوعاً بِالْأَمَلِ وَارْتِقَابِ فَجْرِ جَدِيدٍ.

وبدأ علي، أول ما بدأ، بإعطاء الحق إلى الشعب، فقد وجد أن مشاكلهم
المعلقة أضحت مُزمنة لم يُبْتِ فيها بشيء، فعطف على آلام هذا الجمهور، وواساه
بنفسه وقلبه ما وجد إلى ذلك سبيلاً.

وذهب مع تقديره بأن المجتمع الذي يقوم النظام فيه على برنامج غير
مكتوب، يظل غرضة للعبث والتلاعب والتصرفات التي من شأنها أن تُضيرهُ، إذا لم
يقصِد أولاً، وقبل كل شيء، إلى الاختيار وانتقاء الشخصيات التي تضم، إلى
الكفاءة، الإخلاص والضمير. بل من رأي علي أن الإصلاح، حتى في المجتمعات
التي يشتوي النظام فيها على برامج مكتوبة، لا يتيم على وجه مضمون إلا
بالشخصية المنتقاة، ولمس، إلى ذلك، أن أكبر عناصر الشكوى وأهم أجزائها هو
الجزء الخاص بالأمرء والولاة، فبادر قداماً إلى تغيير التعيينات.

وكان طلحة والزبير كلاهما مرشحاً لولاية من ولايات الأمصار الكبرى،
فلما أظهرها على أن التعيينات الجديدة لم يُصنَّها منها نصيب، امتعضا نوع
امتعاض، ولمسا في الطرف الذي لم يزل قلقاً مضطرباً، ما يُمكنُهُما من القيام بحملة
ضغط على الخليفة الجديد، لا سيما وقد وجدوا في الناس من يطالب بإقامة الحد
الشَّرْعِي على الذين باسروا الأغنياء بالنفس.

وعليّ لم يُؤخّزهما من حيث إنّهما ليسا بالجدريّين، فهما من ذوي السابقة، ومن أقدر العناصير، بل لأنّ الظرف لم يزل يُعجّ بالحزبيّة ولم يزل مُتشبّعاً بروحها. فإذا بعث بهما إلى الأقاليم التي تُناصرهما، كالكوّفة بالنّظر إلى الزّبير، والبصرة بالنّظر إلى طلحة، فقد سهّل لهما حُرّيّة التّصرّف والانفراد بالرّأي لمكان الثّقة الحزبيّة. وحُرّيّة التّصرّف هي التي بات يشكو الناس منها، كما كان الحال بمعاوية في الشّام على عهد عُثمان، على أنّ الأمير يُصبح، بهذه الحزبيّة المناصرة، قليل الاهتمام بأوامر السّلطة العليا، بحيثُ تتخذ به الأقاليم، في كلّ مكان، شكل إقطاعيات لا تتصلّ بالمرجع الأعلى الإيجابيّ المسؤول إلّا اتّصالاً إسميّاً. وإذا تأرّمت العلاقة بين الرّئاسة العليا والأمير، استطاع الانفراد بإقليمه، وقطّع العلاقة التي لم تكن تُعبّر عن اتّصال إيجابيّ. وهذا خطرٌ يهدّد الدّولة، وداءٌ وييل في جسم الحكم، خصوصاً إذا تواطأ طائفة من أمراء الأقاليم على العصيان باتّفاق المصالح الموجبة، فإنّه يقع الخطر الحقيقي على الكيان الحكومي، كما تطلّ هذه الصّلة الإسميّة للإقليم الإقطاعيّ ينبوع ضررٍ للرّئيس الأعلى، وذلك حين لا يحفل الأمير بالأوامر التي تصدر له، ولا يزهّب مزجعه فيعقب كيف شاء، ويكون المسؤول عن تصرّفه هو الرّئيس الأعلى في نظر الشعب، فينتهم بالتواطؤ معه أو بالتغافل عنه، رغم أنّه، في الواقع، لا يستطيع أن يحيك معه حيكاً، مثلما كان الحال في زمن عُثمان، فقد أصبح اتّصال الأقاليم بمركز الخلافة إسميّاً، والأمير الإقطاعيّ يتصرّف كيف حلا له، لا ينتظر أمراً ولا يخضع لأمر. وإنّما يستخدّم ذلك الطّابع (الإكليشه): «هذا أمرُ الخليفة» سِتاراً فقط، كما كان يفعل معاوية في الشّام، فاتّهم الخليفة وأسحقق ونسبت الفوضى.

وإذا بعث بهما عليّ إلى الأقاليم الأخرى، وليس لهما فيها أنصارٌ وأشياخ، بل على العكس أعداء حزبيّون، فقد أعاد الوضع إلى القلبي، ودفع الجمهور إلى التّمرد بالشّكوى المصطنعة، فعمد إلى مداواة الحالة العامّة، وحقّق الحزبيّة وغنّعاتها،

وإيجاد جسم اجتماعي سليم أولاً. فَيَبْنِي يَدِيهِ مُجْتَمَع مَرِيضٌ، وهو يَتَطَلَّبُ
شخصيات جديدة لم تَنَحَرُطُ في الحقل العام، والحياة السياسية الصّاحبة
المتناجزة، حتى إذا تَمَّ له ما يُريدُ عادَ فَفَكَرَ فِيهِمَا وفي سيواهما. ولكنهما فَسَّرَا
إِغْفَالَهُمَا بِالْعَدَاءِ، فَانَصَرَفَا إِلَى إِيجَادِ الْوَسَائِلِ الْقَمِينَةِ بِالضُّغْطِ، فَوَجَّهَا وَجْهَهُمَا
شَطْرَ مَكَّةَ. وَبَيْنَا هُمَا فِي بَعْضِ الطَّرِيقِ لَقِيَا عَائِشَةً وَهِيَ قَائِلَةٌ مِنْ مَكَّةَ، فَزَوَّيَا لَهَا مَا
كَانَ مِنْ أَمْرِ الثَّائِرِينَ وَعُثْمَانَ، وَمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِمْ وَعَلِيٍّ، وَكَاشَفَاها بِمَا عَزَمَا عَلَيْهِ.
وَصَادَفَ هَذَا رَغْبَةً خَفِيَّةً فِي ضَمِيرِهَا وَهَوًى كَامِناً، بِمَا اسْتَطَاعَ الزُّبَيْرُ، بِمَا لَهُ مِنْ
دَلَالَةٍ عَلَيْهَا، وَهُوَ زَوْجُ أُخْتِهَا أَشْمَاءَ، وَوَالِدُ مَنْ اسْتَخْلَصَتْهُ لِنَفْسِهَا مِنْ أَثْنَائِهِ، حَتَّى
أَخْتَارَتْ لِكُنْيَتِهَا اسْمَهُ وَذَلِكَ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ آبُئُهُ. فَحَمَلَاها عَلَى الرَّجْعِ، وَسَهَّلَا لَهَا
الْخَوْضَ فِي مَقْغَمَةٍ سِيَاسِيَّةٍ طَاحِنَةٍ، اتَّصَلَتْ حَتَّى أَنْقَلَبَتْ دَمَوِيَّةً حَادَّةً.

وَلَمَّا هَبَطُوا مَكَّةَ وَجَدُوا فِيهَا قُلُوبَ الْأُمَوِيِّينَ، فَفَكَرُوا جَمِيعاً بِاسْتِغْلَالِ الْمَوْقِفِ
وَتَرْتِيبِهِ عَلَى هَذَا الشَّكْلِ:

يَغْصِي بِالشَّامِ مُعَاوِيَةُ، وَهُمْ يَغْضُونَ بِالْعِرَاقِ، حَتَّى إِذَا اسْتَقَامَ لَهُمُ الْأَمْرُ
وَأَسْتَقَرُّوا، حَاصَرُوا الْحِجَازَ وَأَنْتَزَعُوا مُقَدَّرَاتِ السُّلْطَةِ الْعُلْيَا، وَأَزْعَمُوا الْخَلِيفَةَ عَلَى
التَّسْلِيمِ بِمَطَالِبِهِمْ.

إِتَّصَلَ بِعَلِيٍّ كُلُّ مَا دَارَ بِخَلَدِهِمْ وَمَا عَزَمُوا عَلَيْهِ، وَاتَّصَلَ بِهِ، فَوْقَ ذَلِكَ،
أَنَّ الْخَطْبَ سَيَعْدُو دَائِرَتَهُ الضَّيِّقَةَ، لِيُزُولَ عَائِشَةُ إِلَى الْمَيْدَانِ بِمَا تَبَعَتْهُ مِنْ خَامِدَاتِ
النُّفُوسِ، وَفِي الْحَيْطِ الْعَرَبِيِّ خُصُوصاً. أَلَيْسَتْ أَمْرَأَةً وَأَمْرَأَةٌ لَهَا قِيَمَتُهَا وَمَنْزِلَتُهَا
الرَّوْحِيَّةُ الْفَرِيدَةُ؟ فَهِيَ زَوْجُ النَّبِيِّ وَأَبْنَةُ الْخَلِيفَةِ الْأَوَّلِ، وَمَزْجَعُ عِلْمِيٍّ فَقْهِيٍّ. وَمِنْ
نَاحِيَةِ ثَانِيَةٍ، أَلَيْسَ الْمَوْضُوعُ نَفْسُهُ حَسَاساً مُثِيراً؟ أَلَيْسَ كُلُّ الثَّائِرِينَ الَّذِينَ تَمَّ الْحَادِثُ
عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي صُفُوفِ عَلِيٍّ؟ أَلَيْسَتْ نَفْسِيَّةُ الْجُمُوعِ شَدِيدَةُ الْحَسَاسِيَّةِ يَهْوِلُ الدِّمِ
الْمَطْلُولِ، وَضَعِيفَةُ الْحَاكِمَةِ وَالْمُؤَاوَنَةِ؟ أَلَيْسَ الظَّرْفُ مُتَبَلِّلاً يَمِيدُ وَيَمُورُ بِالْفَوْضَى؟

ففي الأمر إذا غُدَّةٌ خطيرة، ولا بُدَّ أن يَشْتَغَلَهَا هؤلاء الواجدون.

فَكَرَّ وَقَدَّرَ وَقَلَّبَ وَجَوَّهَ الرَّأْيَ، حَتَّى آتَتْهُى إِلَى أَنَّ الْحَالَةَ النَّاشِئَةَ الْبَادِيَّةَ، سَتَسْتَحِيلُ إِلَى فَوْضَى خَطِيرَةٍ، قَدْ تَنَذَّرْتُ مَعَهَا صُرُوحَ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ، وَأَنْتَهَى أَيْضاً إِلَى أَنَّ صِفَةَ التَّبَلُّلِ، وَهِيَ تُسَاعِدُ عَلَى الدَّسِّ وَالْإِتِهَازِ، لَا يَحْسِمُهَا إِلَّا عَمَلٌ سَرِيعٌ غَنِيْفٌ. وَفَكَرَّ كَثِيراً قَبْلَ أَنْ آتَبْتَدَأَ بِطَلْحَةِ الرَّبِّيْرِ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا عَائِشَةُ، فَقَدْ لَمَسَ خَطَرَ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَمْلِكُونَ مِنْ أَسْبَابِ السَّيْطَرَةِ وَالتَّأْثِيرِ الرُّوحِيِّ قَدْرًا كَبِيراً، وَقَدْ أَوْضَحَهُ بِقَوْلِهِ:

«بُلِيتُ بِأَنْصُ النَّاسِ، وَأَنْطَقِي النَّاسِ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي النَّاسِ. يُرِيدُ بِأَنْصُ النَّاسِ يَغْلَى بِنِ أُمِّيَّةٍ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسِ مَالاً وَنَاصِاً، وَأَنْطَقِي النَّاسِ طَلْحَةَ بِنِ عُبَيْدِ اللَّهِ، وَأَطْوَعُ النَّاسِ فِي النَّاسِ عَائِشَةَ».

وَمِنْ نَاحِيَةٍ ثَانِيَةٍ فَقَدْ اسْتَجَلَى طَبِيعَةُ الْبَصَرَةِ، عَلَى صَوْرِ الرُّوحِيَّةِ الَّتِي كَانَتْ بَارِزَةً فِي الْعِرَاقِ إِذْ ذَاكَ، فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مَكَانِ التَّفَكُّكِ وَالتَّفَشُّخِ، وَعَدَمِ الْإِنْجَامِ وَالتَّمَاثُلِ، بَيْنَمَا الشَّامُ كَانَتْ عَلَى الْعَكْسِ مُتَمَاثِلَةً بِوَحْدَةِ الدَّمِ وَالتَّغْرِيرِ. فَالْبَصَرَةُ إِذَا أَقَلَّ عَنَاءٌ وَأَكْثَرَ خَطَرًا وَأَبْعَدُ نُفُودًا، بِمَا يَمْلِكُ اللَّاجِئُونَ إِلَيْهَا مِنْ صَدَى بَعِيدٍ، عَمِيقِ التَّجَاوُبِ فِي النَّفْسِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ الْعَامَّةِ. فَكَانَ لِزَامًا أَنْ يَنْبَعَثَ قُوْرُهُ إِلَيْهِمْ، وَيَتَّخِذَ الْبَصَرَةُ هَدَفَ ضَرْبَتِهِ الْأُولَى الْخَاطِطَةَ السَّاحِقَةَ، فَيُزْهِبَ بِهَا الْمُتَمَرِّدِينَ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَمَجَالٍ.

وَأَقَامَ خُطَّتَهُ عَلَى حَرْبِ السَّرْعَةِ لِيَكُونَ نَجَاحُهَا مَضْمُونًا، فَيُعِيدَ الثَّقَّةَ الْمَفْقُودَةَ، بَعْدَ الثُّورَةِ، إِلَى الْهَيْئَةِ الْحَاكِمَةِ الْجَدِيدَةِ، وَيَضْبِطَ الْعَاصِفَةَ. كَمَا اسْتَعَانَ بِالنَّقْدِ وَالِدَعَايَةِ أَدَاةَ حَرْبِيَّةٍ هَائِلَةٍ التَّأْثِيرِ، وَأَذْرَكَ ضَرُورَةَ هَذَا الْغُصْرِ فِي الْحَرْبِ. فَدَفَعَ أُمَّ سَلَمَةَ، زَوْجَ النَّبِيِّ، وَهِيَ مِنْ أَعْوَانِهِ، إِلَى آتِيقَادِ عَائِشَةَ عَلَى شَكْلِ حَادٍّ، فِيمَا أَقْدَمَتْ عَلَيْهِ مِنْ مُعَاوَرَةٍ، فَكَتَبَتْ إِلَيْهَا، وَمِنْ جِهَةٍ ثَانِيَةٍ أَذِيعَ الْكِتَابُ وَهُوَ:

«مِنْ أُمِّ سَلَمَةَ، زَوْجِ النَّبِيِّ، إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي أَحْمَدُ اللَّهَ إِلَيْكَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ.

أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ هَتَكَتِ سُدَّةَ بَيْنِ رَسُولِ اللَّهِ وَأُمَّتِهِ. جَمَعَ الْقُرْآنُ ذُبُولَكَ فَلَا تَسْحَبِيهَا، وَسَكَرَ خَفَازَتِكَ فَلَا تَبْتَذِلِيهَا، فَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ... لَوْ عَلِمَ رَسُولُ اللَّهِ أَنَّ النِّسَاءَ يَحْتَمِلْنَ الْجِهَادَ عَهْدَ إِلَيْكَ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ قَدْ نَهَاكَ عَنِ الْفِرَاطَةِ فِي الدِّينِ. فَإِنَّ عَمُودَ الدِّينِ لَا يَثْبُتُ بِالنِّسَاءِ إِنْ مَالَ، وَلَا يُرَأْبُ بِهِنَ إِنْ أَنْصَدَعَ. جِهَادُ النِّسَاءِ غَضُّ الْأَطْرَافِ وَضَمُّ الدُّيُولِ وَقَصْرُ الْمَوَادَّةِ. مَا كُنْتُ قَائِلَةً لِرَسُولِ اللَّهِ لَوْ عَارَضَكَ بِبَعْضِ هَذِهِ الْقَلَوَاتِ، نَاضَةً قَعُوداً مِنْ مَنْهَلٍ إِلَى مَنْهَلٍ، وَعَدّاً تَرْدِينَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ، وَأُقْسِمُ لَوْ قِيلَ لِي يَا أُمُّ سَلَمَةَ أَدْخُلِي الْجَنَّةَ لَا سَتَحْيِيْتُ أَنْ أَلْقَى رَسُولَ اللَّهِ هَاتِكَةً حِجَاباً ضَرَبَهُ عَلَيَّ... فَاجْعَلِيهِ سِتْرَكَ، وَقَاعَةَ الْبَيْتِ حِصْنَكَ، فَإِنَّكَ أَنْصَحُ مَا تَكُونِينَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مَا قَعَدْتَ عَنْ نَصْرَتِهِمْ. وَلَوْ أَتَى حَدَّثُكَ بِحَدِيثٍ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ لَتَهَشَّيْتُ نَهَشَ الرَّقْشَاءِ الْمُطْرِقَةِ، وَالسَّلَامِ».

وَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعَايَةِ الْحَزِينَةِ أَثَرُهَا الْكَبِيرُ، فَأُمُّ سَلَمَةَ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ أَيْضاً، وَهِيَ تَشْجُبُ عَلَى عَائِشَةَ حَرَكَتِهَا، وَتَتَنَقَّدُهَا أَنْتِقَاداً لَا ذِعَاً. وَقَدْ تَرَكَتْ أَثَرَهَا الْمَوْغُوبَ فِيهِ وَالْمُتَوَخَّى نِفْلُهُ، وَكَانَ أُبْرَزَ مَا تَرَكَتْ أَثَرَانِ:

١ - إعطاء صورة نائية عن مُحَاوَلَةِ النِّسَاءِ مِثْلَ هَذِهِ الْمُحَاوَلَةِ، فَقَدْ رَوَوْا «أَنَّ آبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - وَعَائِشَةُ عَمَّتُهُ - لَقِيَهَا فِي بَعْضِ مَآتِي الطُّرُقِ رَاكِبَةً عَلَى بَغْلَةٍ، فَقَالَ:

إِلَى أَيْنَ يَا أُمَاه؟

قَالَتْ: أَصْلِحُ بَيْنَ حَيِّينِ مِنْ أَحْيَاءِ الْمُسْلِمِينَ تَقَاتِلَا.

قال: عَزَمْتُ عَلَيْكَ إِلَّا رَجَعْتَ، فَمَا غَسَلْنَا أَيْدِيَنَا مِنْ يَوْمِ الْجَمَلِ حَتَّى نَعُودَ إِلَى يَوْمِ الْبَغْلَةِ».

٢ - شَجَعُ الرُّعَمَاءِ وَالْأُمَرَاءِ عَلَى أَنْ يُنْكِرُوا عَلَيْهَا، فَقَدْ كَتَبَ إِلَيْهَا زَيْدُ بْنُ صَوْحَانَ رَدًّا عَلَى كِتَابِهَا إِلَيْهِ:

«سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَا بَعْدُ: فَإِنَّكَ أَمَرْتَ بِأَمْرِ وَأَمَرْنَا بِغَيْرِهِ، أَمَرْتَ أَنْ تَقْرِي فِي بَيْعَتِكَ وَأَمَرْنَا أَنْ نُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً. فَتَرَكْتَ مَا أَمَرْتَ بِهِ وَكَتَبْتَ تَنْهَيْنَا عَمَّا أَمَرْنَا بِهِ، وَالسَّلَامُ... وَمَضَى الْخُطْبَاءُ يُخَصُّوْنَ عَلَيْهَا تَبْلُغَهَا وَتَنَاقُضَهَا. فَبَعْدَ أَنْ كَانَتْ تُشِيرُ بَعْلِي فِي زَمَنِ عُثْمَانَ، وَكَذَلِكَ طَلَحَهُ وَالزُّبَيْرُ يَنْصَحَانِ بِأَنْ يَكُونَ عَلِيٌّ الْخَلِيفَةُ، إِذَا هُمْ يَخْرُجُونَ جَمِيعًا لِحَرْبِهِ وَمُقَارَعَتِهِ فِي أَحْرَجِ السَّاعَاتِ الْعَصِيَّةِ، وَبِذَلِكَ يُسَهِّلُونَ سَبِيلَ الْعَمَلِ لِلْإِنْتِهَازِيِّينَ النَّفْعِيِّينَ.

فَحَزَبُ الدَّعَايَةِ الَّتِي أَصْطَلَعَهَا عَلِيٌّ وَقَذَفَ بِهَا خُصُومَهُ، أَثَرَتْ أَثَرَهَا الْكَبِيرَ، وَفَكَكَّتِ الْوَحْدَةَ فِي الْمُعَشْكَرِ الْآخِرِ. «فَاعْتَزَلَ بِالْجُلَحَاءِ - مِنَ الْبَصْرَةِ عَلَى فَوْسَحَيْنِ - الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ، وَاعْتَزَلَ مَعَهُ زُهَاءُ سِتَّةِ آلَافٍ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ».

وعلى هذا الوُضْعِ فَاجْتَأَهُمْ عَلِيٌّ بِجُنْدِهِ «وفيه ثمانمائة من الأنصار وأربعمائة يَمْنُ شَهِدَ بَيْعَةَ الرُّضْوَانِ، وَكَانَتْ رَايَةُ عَلِيٍّ مَعَ آبْنِهِ مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَقَفِيَّةِ، وَعَلَى مَيْمَنَتِهِ الْحَسَنُ، وَعَلَى مَيْسَرَتِهِ الْحُسَيْنُ، وَعَلَى الْخَيْلِ عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، وَعَلَى الرَّجَالِ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي بَكْرٍ، وَعَلَى الْمُقَدِّمَةِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ. وَرَخَفَ عَلِيٌّ نَحْوَ الْجَمَلِ بِنَفْسِهِ فِي كَتِيبَتِهِ الْخُضْرَاءِ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَحَوْلَهُ بَنُوهُ حَسَنٌ وَحُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ، وَدَفَعَ الرَّايَةَ إِلَى مُحَمَّدٍ وَقَالَ: أَقْدِمْ بِهَا حَتَّى تَوْكُزَهَا فِي عَيْنِ الْجَمَلِ. يَا بُنَيَّ تَزُولُ الْجِبَالُ وَلَا تَزُلُ، عَصُ عَلَى نَاجِذِكَ، أَعِزَّ اللَّهُ جُحُومَتَكَ، تَذُ فِي الْأَرْضِ قَدَمَكَ، إِزْمِ بِبَصْرِكَ أَقْصَى الْقَوْمِ وَغَضُّ بَصْرِكَ وَأَعْلَمُ أَنَّ النَّصْرَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَتَقَدَّمَ مُحَمَّدٌ فَرَسَقَتُهُ السَّهَامُ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: رُوَيْدًا حَتَّى تَنْفَذَ سِهَامَهُمْ... فَأَنْفَذَ عَلِيٌّ يَسْتَحِثُّهُ، فَلَمَّا أَبْطَأَ عَلَيْهِ جَاءَ بِنَفْسِهِ. وَقَالَ لَهُ: أَقْدِمْ لَا أُمُّ لَكَ. ثُمَّ أَدْرَكَهُ رِقَّةٌ عَلَيْهِ، فَتَنَازَلَ الرَّايَةَ مِنْهُ بِيَدِهِ الْيُسْرَى وَذُو الْفِقَارِ مَشْهُورٌ فِي يَمْنَى يَدَيْهِ، وَنَادَى بِعَقْرِ الْجَمَلِ

فَوَقَّعَتِ الْهَزِيمَةَ».

كانتْ مَعْرَكَةُ الْجَمَلِ، بِدُونِ رَيْبٍ، أَوْ كَادَتْ تَكُونُ هِيَ الْمَعْرَكَةُ الْفَاصِلَةَ، وَأَنْ تَنْقَلِبَ مِنْ حَيْثُ الْقِيَمَةُ ثَانَوِيَّةً، وَأَنْ تُعْتَبَرَ حَرَكَةً فَرْعِيَّةً لِتَطْهِيرِ بَعْضِ عَنَاصِرِ الشَّعْبِ الْبَاقِيَةِ، خُصُوصاً وَالْمُقَاوَمَةَ الْكِفَاحِيَّةَ أَخِذَةً بِهَذَا الشَّكْلِ مِنَ الشُّرْعَةِ وَالِدَّعَايَةِ الْمَوْفَقَةِ، الَّتِي أَشْعَرَتِ النَّاسَ كَافَّةً بِالْإِسْمِئْزَازِ مِنْ شَعْبِ الْمُشَاغِبِينَ. تَبَدَّدَ أَنَّ الْحَالَ تَبَدَّلَتْ وَجَعَلَتْ لِصِفَتَيْنِ الصِّفَةَ الْحَاسِمَةَ الرَّئِيسِيَّةَ لاعتبارات:

١ - إِسْتِحَالَةُ فِكْرَةِ الْعَقِيدَةِ وَرُوحِيَّتِهَا الْأَخْلَاقِيَّةِ عِنْدَ عَلِيِّ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، وَالْفِكْرَةُ مِنَ الثَّوَابِتِ تَصْرِفُ كُلَّ قُوَى الْمَرْءِ الرُّوحِيَّةِ وَالْمَعْنَوِيَّةِ إِلَيْهَا، وَتَقِفُ لُجْهَودَهُ الْعَمَلِيَّةَ فِي سَبِيلِهَا وَمَدَى غَايَتِهَا، فَقَدْ تَرَكَّزَتْ تَرَكُّزُ الْأَعْصَابِ، فَصَاحِبُهَا لَا يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى وَلَا يُحِسُّ أَوْ لَا يُحِبُّ أَنْ يُفَكِّرَ، وَأَنْ يَرَى، وَأَنْ يُحِسَّ، إِلَّا فِي مَوَاقِعَ مُبُولِهَا، كَمَا لَا يُدَبِّرُ وَيُقَدِّرُ إِلَّا عَلَى ضَوْئِهَا. لِذَلِكَ لَمْ تَكُنْ سِيَاسَتُهُ عَلِيٍّ مُشْتَقَّةً مِنْ صَمِيمِ الْحَيَاةِ كَمَا هِيَ بِمَسَاوِئِهَا، بَلْ مِنْ رُوحِ الْحَيَاةِ كَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ بِقَضَائِلِهَا. فَهَذَا الرَّجُلُ الَّذِي عَرَفْنَاهُ دَمَوِيًّا فِي قَضِيَّةِ الْإِنْتِصَارِ لِلْعَقِيدَةِ، نَرَاهُ شَدِيدَ الْكِرَاهِيَّةِ لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ وَأَسَالِيِبِهَا فِي قَضِيَّةِ قَمْعِ حَرَكَاتِ الْمُتَمَرِّدِينَ، فَهُوَ يُفَرِّقُ بَيِّنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ. وَلَكِنْ وَسَطُهُ لَمْ يَكُنْ يَفْهَمُ هَذَا الْفَرْقَ فَهَمًّا حَسَنًا، أَوْ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَهُمَا أَلْبَتَّةَ، فَقَدْ رَأَيْنَا عُثْمَانَ الْخَلِيفَةَ يُسَمِّي تَمَرُّدَ أَهْلِ الْمَدِينَةِ كُفْرًا فِي كِتَابِهِ إِلَى مُعَاوِيَةَ، وَنَرَى عَمَّارًا وَمُحَمَّدَ بْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَمِنْ وَرَائِهِمَا سَائِرُ النَّاسِ، يُنْظَرُونَ إِلَى خُصُومِهِمْ نَظْرَةَ الْمَارِقِينَ مِنَ الدِّينِ، وَبِالتَّالِيِ يَجِبُ أَنْ يُطَبَّقُوا عَلَيْهِمْ أَحْكَامُ الْكُفَّارِ وَقَانُونُ الْإِرْتِدَادِ.

كَانَ الْجُمْهُورُ مُتَشَبِّعًا بِهَذِهِ الْفِكْرَةِ وَمَا يَتَرْتَّبُ عَلَيْهَا وَيَلَابِسُهَا، إِذَا عَلِيٍّ وَهُوَ الْمُتَشَرُّعُ الْعَبْقَرِيُّ وَالْمُسْلِمُ الْوَاعِي لِحَقِيقَةِ الْإِسْلَامِ يَحْمِلُ عَلَى أَسَاسِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ، لَعَلَّا يَتَوَرَّطَ النَّاسُ فِي أَسْتِباحَةِ مُفْتَضَّلَاتِهَا الْقَانُونِيَّةِ الَّتِي تُحَوِّلُهَا حَالَةَ الْحَرْبِ

في الأسرة والمال والمالِك والقيمة الشخصية، التي يتبع فقدها الأسر والاسيرقاق. ويُن للئاس، بمطيقه العميق، أن هناك صفة ثالثة هي الفسق، وهو لا يتعد بالمرء البتة عن دائرة الإيمان، كما لا تترتب عليه الاستباحة بل التأديب فقط.

وأنظر كيف يتأتى إلى إقناعهم بخطأ فكرتهم حين قالوا «أحل لنا دماءهم وحرم علينا أموالهم، فقال علي:

هي السنة في أهل القبلة.

قالوا: ما ندري ما هذا؟

قال: فهذه عائشة رأس القوم أتساهمون عليها؟

قالوا: سبحان الله! أمنا.

قال: فهي حرام

قالوا: نعم.

قال: فإنه يحرم من أنبائها ما حرم منها... فنادى في الناس: لا يسلبن قتيل ولا ينبع مديز، ولا يجهز على جريح ولا يحل متاع. ولكن الجهرة الكبرى ساذجة بسيطة في فكرة الدين، فوقع عليهم هذا النداء وقع اليأس في محل الأمل، وجعلهم يلغطون كثيراً، ويتأففون كثيراً، وحملهم على تفكير طويل فيما هو الفرق بين الكفر والعضيان، وفيما هو الفرق بينهما وبين الإيمان.

فأما أولئك البداهة الأعراب الذين لم يفهموا الدين إلا على شكل سطحي، استغصى على تفكيرهم فهم الفروق الدقيقة بينهما، فمضوا على أنه لا فرق، وافتنعوا بما آتتهوا إليه، واستملوا على نوع من التسخط الحفي كان غير مشعور به إلا قليلاً، لأنهم، بمقتضى نظريتهم، حال الخليفة بينهم وبين حقهم في الغنم

وَمَنْعَهُمْ إِيَّاهُ. وَمِنْ هَؤُلَاءِ كَانَتْ نَوَاطِئُ الْخَوَارِجِ، وَقَدْ صَاغُوا فِكْرَتَهُمْ هَذِهِ، فِيمَا بَعْدُ،
بِأَنَّ مُرْتَكِبَ الْكَبِيرَةِ كَافِرٌ.

وَأُولَئِكَ الَّذِينَ صَحِبُوا النَّبِيَّ طَوِيلًا، وَعَرَفُوا كَثِيرًا مِنْ مَنَاطِقِ الدِّينِ، اسْتَمَلُوا
عَلَى أَطْمِئْنَانٍ كَبِيرٍ، حِينَمَا أَوْضَحَ لَهُمْ عَلَيَّ الْفَرْقَ كَمَا لَوْ لَمَسُوهُ. وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ
مَنْ فَهِمَ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْفِسْقِ، عَلَى نَوْعٍ فِيهِ مُبَالِغَةٌ وَتَكْبِيرٌ، فَقَالَ بِالْمُتَزَلِّتَيْنِ
الْمُتَزَلِّتَيْنِ^(٢). وَكَانَتْ هَذِهِ الْأَسْتِثْنَايَاتُ الْمُخْتَلِفَةُ كُلُّهَا، حَوْلَ الْمَوْضُوعِ الَّذِي أَثَارَتْهُ
مُشْكِلَةُ الْغَنَائِمِ بَعْدَ يَوْمِ الْجَمَلِ، أَفْكَارًا غَيْرَ وَاضِحَةٍ كَثِيرًا، وَاتَّخَذَتْ سَبِيلَ وَضُوحِهَا
فِيمَا بَعْدُ، وَقَامَتْ عَلَى أُسَاسِهَا الْفَرْقُ الْإِسْلَامِيَّةُ الَّتِي عُرِفَتْ بِأَسْمَائِهَا أَحِيرًا.

٢ - نَظَرِيَّتُهُ فِي حُصُومِهِ أَتَاهُمْ مُسْلِمُونَ، فَلَا يَجُوزُ أَخْذُهُمْ فِي غَيْرِ حُدُودِ
الْإِسْلَامِ وَقَانُونِهِ، وَهُوَ يُسْتَفْتَى بِهِمْ «أَمْشِرْ كُونَ هُمْ؟»

قَالَ: مِنَ الشُّرْكِ فَزُوا... قِيلَ: فَمُنَافِقُونَ هُمْ؟

قَالَ: إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا. قِيلَ: فَمَا هُمْ؟

قَالَ: إِخْوَانُنَا بَعَوْا عَلَيْنَا... وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ: لَا تَقُولُوا كَفَرُ أَهْلُ الشَّامِ،
وَلَكِنْ قُولُوا: فَسَقُوا وَظَلَمُوا». فَلَا بُدَّ إِذَا أَنْ يُفَارِضَهُمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُقِيمَ الْحُجَّةَ
عَلَيْهِمْ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يُلَايِنَهُمْ مَا وَسِعَتْ ذَلِكَ وَوَجَدَ فِيهِمْ أَمَلًا، دُونَ لُجُوءٍ إِلَى
الْعُنْفِ الَّذِي لَا يَسْتَحِلُّهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يُغْنِيَتْهُ.

فَقَرَأَهُ يُفَارِضُ مُعَاوِيَةَ، وَيُرْسِلُ إِلَيْهِ الرَّسُولَ بَعْدَ الرَّسُولِ، وَالْكِتَابَ تَلَوَّ
الْكِتَابَ، حَتَّى اسْتَعْمَلَ مَعَهُ أُسْلُوبًا يَقْرُبُ مِنَ الرَّجَاءِ. فَإِذَا بِهِ يُذَكِّرُهُ بِمَوْقِفِ أَبِيهِ مِنْهُ،

(٢) أَخْطَأَ مَوْزُوخُ الْفَرْقِ حِينَ تَوَهَّمُوا أَنَّ فِكْرَةَ الْأَعْتِرَالِ فِي الْمُتَزَلِّتَيْنِ بَيْنَ الْمُتَزَلِّتَيْنِ لَمْ تُعْرَفْ إِلَّا فِي خَلْقَةِ الْحَسَنِ
التَّضَرُّيِّ، عَلَى لِسَانِ وَاصِلِ بْنِ عَطَاءٍ وَعَمْرُو بْنِ عَبِيدٍ، وَإِنَّمَا أَنْشَأَهَا بَعْدَ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ خِيَالُ مُشْكِلَةِ الْغَنَائِمِ،
وَتَوْضِيحُ عَلَيِّ الْفَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ.

وإذا به يَتَّهَمُهُ بِالْعُقُوقِ فِي رِفْقٍ. قَالَ فِي بَعْضِ كُتُبِهِ إِلَيْهِ:

«وَقَدْ كَانَ أَبُوكَ، أَبُو سُفْيَانَ، أَتَانِي حِينَ قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ آبُشْطُ يَدَكَ أَبَايَعَكَ فَأَنْتَ أَحَقُّ النَّاسِ بِهَذَا الْأَمْرِ، فَكُنْتُ أَنَا الَّذِي أُبَيِّتُ عَلَيْهِ مَخَافَةَ الْفُرْقَةِ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ لِقُرْبِ عَهْدِ النَّاسِ بِالْكَفْرِ. فَأَبُوكَ كَانَ أَعْلَمَ بِحَقِّي مِنْكَ، وَإِنْ تَعْرِفَ مِنْ حَقِّي مَا كَانَ أَبُوكَ يَعْرِفُهُ تُصِيبَ رُشْدَكَ وَإِلَّا فَتَتَعَبَّنِ اللَّهُ عَلَيْكَ».

ولكنَّ مُعَاوِيَةَ كَانَ قَدْ سَاوَرَهُ الطَّمَعُ، وَلَعِبَتْ أَحْلَامُهُ الْكِبَرَى أَمَامَ نَازِلِيهِ، وَقَدْ فَهِمَ مِثَالِيَّةَ عَلِيٍّ وَتَقَوَاهُ فَعَمَدَ لاسْتِغْلَالِهَا. فَإِذَا هُوَ يُصَانِعُهُ، وَيُظْهِرُ لَهُ خِيَوَاتًا وَاضِحَةً مِنَ الْأَمَلِ بَعْدَ أَنْ يَضَعُ عُقْدَةً يَتَعَايَا بِهَا، فَيَعْذُرُهُ عَلِيٌّ وَيَمْضِي فِي مُفَاوَضَتِهِ. وَمُعَاوِيَةُ لَمْ يَكُنْ يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا آكْسَابَ الْوَقْتِ لِتَهْيِئَةِ نَفْسِهِ، وَبَغْيِ رُوحِ الْمَلِكِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ، فَهُوَ يَتَمَنَّى طَوْلَ الْوَقْتِ وَطَوْلَ الصَّرَاحِ مَعَ ظُهُورِهِ بِمُظْهِرِ الْمُشْتَسْلِمِ إِذَا أَنْحَلَتْ الْعُقْدُ أَوْ أَقْتَعَهُ بِحُلُّهَا، وَبِهَذَا الْمَظْهَرِ يَضْمَنُ أَنْ لَا يَأْخُذَهُ عَلِيٌّ بِحَرْبِ خَاطِفَةِ سَاحِقَةٍ، بَلْ يَرُفِقُ بِهِ، فَتَتَحَوَّلُ الْمَعْرَكَةُ الْجَدِيدَةُ إِلَى حَرْبِ إِنْهَاكِ وَإِزْعَاجٍ، وَهِيَ لَا مَحَالَةَ سَتَشْبَعُ صِفَةَ التَّمْلُلِ وَالْيَأْسِ فِي جَيْشِ عَلِيٍّ. أَضِيفَ إِلَى هَذَا أَنَّ هَذَا الْجَيْشَ، مُنْذُ حِينَ، قَدْ خَرَجَ مِنْ مَعْرَكَةِ كُبَيْرٍ، وَمِنْ قَبْلِ كَانَ نَهِيكًا بِالْفَتْوحِ فِي كُلِّ مَكَانٍ، وَلَا يَلْبَثُ أَنْ يَدُورَ هَذَا التَّمْلُلُ دَوْرَتَهُ وَيَعْمَلُ عَمَلَهُ، وَلَا بُدَّ أَنْ يَنْزُكَ صُدُوعًا وَآخِثِلَافًا فِي الرَّأْيِ، فَيَنْتَقِسِمَ الْجَيْشُ شَيْعًا، وَيُقَلِّتَ مِنْ يَدِ عَلِيٍّ الرِّمَامَ.

أَمَّا يَرَاهُ يُجِيبُهُ حِينَمَا طَلَبَ تَأْجِيلَ الْحَرْبِ شَهْرًا، أَلَيْسَ يَسْمَحُ لِجَيْشِ الشَّامِ، حِينَ آسَتْوَلَى جَيْشُهُ عَلَى الشَّرِيعَةِ، بِالشُّفْيَا «حَتَّى آزْدَحِمَ عَلَيْهَا السُّقَاةَ مِنَ الْعَشْكَرَيْنِ وَمَا يُؤْذِي إِنْسَانَ إِنْسَانًا»^(٣) فَطَالَ أَمَدُ الْمَعْرَكَةِ مِائَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا، وَهَذَا وَقْتُ طَوِيلٍ

(٣) رَوَى الثَّارِخُ أَنَّ جَيْشَ الشَّامِ سَبَقَ إِلَى الشَّرِيعَةِ، فَطَلَبَ عَلِيٌّ السَّمَاعَ لِجَيْشِهِ فَأَبَى مُعَاوِيَةُ عَلَيْهِ، فَلَمَّا غَلَبَتْ عَلَيْهَا وَطَلَبُوا إِلَيْهِ ذَلِكَ سَمَحَ لَهُمْ. فَزَهَرَنَ بِهَذَا عَلِيٌّ عَلَى أَنَّهُ يُحَارِبُ لِلْحَقِّ وَلَيْسَ يُحَارِبُ لِلْعَلَنَةِ وَشَهْرَةٍ =

في عُمرِ حَرْبٍ مِنْ هَذَا التَّوَعُّعِ، وَسَمَحَ طَوْلُ الْوَقْتِ لِلْأُفْكَارِ الَّتِي نَبَتْ فِي رُؤُوسِ الْجُمُوعِ أَنْ تَنْمُوَ وَتَسْتَفْجِلَ، وَتُشَكِّلَ نَظَرِيَّةً لَهَا أَسْرَهَا وَتَأْثِيرُهَا فِي قَرَارَاتِهِمْ، وَكَانَ هَذَا التَّمَاءُ مَشْفُوعاً بِعَاصِفَةٍ مِنَ الْمَلِلِ وَالْيَأْسِ.

وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ هَذَا خَافِياً عَلَى عَلِيٍّ، بَلْ كَانَ يَنْظُرُ وَيَبْتَئِسُ، فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحُلَّ الْمَشْكِلةَ الْقَائِمَةَ، وَلَكِنْ عَلَى طَرِيقَتِهِ الْمِثَالِيَّةِ، وَبِمَنْطِقِ الْقَانُونِ الَّتِي يَقْدِّسُهُ. وَعَلِيٍّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَنَّ الظَّرْفَ يَتَأَزَّمُ عَلَيْهِ، وَالْوَقْتُ يَتَعَقَّدُ، وَالْفُرْصَةُ تَكَادُّ تُفْلِتُ مِنْهُ إِلَى خَصْمِهِ، يُرِيدُ أَنْ يُحَارِبَ حَرْبَ الْحَقِّ، وَيَنْتَصِرَ لِلْعَدَالَةِ بِالْعَدْلِ، وَإِلَّا فَهُوَ، فِي نَظَرِهِ، يَخْدَعُ ضَمِيرَهُ وَيَخْدَعُ النَّاسَ، إِذَا سَمَحَ لِنَفْسِهِ بِأَنْتِهَاجِ قَدَاسَةِ الْحَقِّ بِسَبِيلِ تَأْيِيدِ قَضَايَا الْحَقِّ.

عَلَى أَنَّهُ كَانَ رَاضِياً، فَلَمْ يَبْتَئِسْ لِأَنَّهُ وَاقِعٌ مِنْ أَنَّ النِّهَايَةَ الطَّافِرَةَ فِي مُتَنَاوَلِ يَدِهِ، يَضُمُّهَا إِلَيْهِ سَاعَةً يُرِيدُ، وَكَذَلِكَ كَانَ حِينَ يَعِيسُ مِنْهُمْ، وَضَرَبَهُمُ الصَّرِيَّةَ الْقَاصِمَةَ الَّتِي أَلْجَأَتْهُمْ إِلَى حِيلَةٍ رَفَعَ الْمَصَاحِفَ الْمُغْتَادَةَ كَثِيراً، فَقَدْ رُفِعَتْ غَيْرَ مَرَّةٍ يَوْمَ الْجَمَلِ، فَهِيَ إِذَا لَا تَمْلِكُ تَأْثِيرَ الْمُفَاجِئَةِ بَلْ مُعْتَادَةٌ بَارِدَةٌ الْأَثَرِ ضَعِيفَةُ الْمَقْعُولِ، لَوْلَا مَا كَانَ قَدْ آسَتْخَوْذَ عَلَى الْجُمُوعِ مِنْ آسْتِفْحَالِ الْأَفْكَارِ الْخَطِرَةِ الَّتِي سَبَقَ وَأَشْرْنَا إِلَيْهَا، فَتَصَدَّعَتْ وَخَدَّةُ الصُّفُوفِ بِهَذَا السَّبَبِ.

لَقَدْ عَادَتْ الزُّوْبَعَةُ إِلَى الْهُبُوبِ مَرَّةً أُخْرَى أَشَدَّ غُنْفاً، فَتَمَزَّقَ شِرَافُ السَّفِينَةِ، وَمِثْلَتْهَا الْأَمْوَاجُ الْمُتَعَاطِمَةُ الْمُتَكَسِّرَةُ عَلَى جَوَانِبِهَا فِي جَبَرُوتٍ. وَعَلِيٍّ فِي هَذِهِ الْعَمْرَةِ الطَّائِشَةِ كَانَ يَنْشَطُ إِلَى كَشْفِ الْمَهْزَلَةِ وَسَحْقِ طَوَاغِيَّتِهَا، وَلَكِنْ بِجَبِشٍ مَرِيضٍ فَتَعَايَا عَلَيْهِ وَتَرَكَهُ حَيْثُ يَشَاءُ فِي الْمَيْدَانِ. لَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنْ مُسَايَرَةِ الْجُمْهُورِ الْكَبِيرِ، وَلَمْ يَجِدْ بُدّاً مِنَ الْخَوْضِ فِي تَيَّارِ الْمَهْزَلَةِ الَّتِي آسَتْوَلَّتْ بِرُوحِهَا عَلَى الْجُمْهُورِ إِلَى

= الشَّلْطَانِ. وَأُعْطِيَ مَثَلاً قَدْماً فِي التَّارِيخِ كُلِّهِ، إِذَا أَطْطَرَّ إِنْسَانٌ إِلَى الْحَرْبِ، كَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِنْسَاناً شَرِيفاً قَبْلَ أَنْ يَأْخُذَ.

النهائية. فلَيْسَ مِنْ سَبِيلٍ لِمُدَاوَاةِ الرُّوحِيَّةِ الْعَامَّةِ عَلَى ضَوْءِ النَّفْسِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ، إِلَّا
الْأَخْذُ بِالتَّاسِ حَتَّى نِهَائِيَةِ الطَّرِيقِ فِي مَدَى مَا اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمْ، فَإِنَّ الْأَمْرَاضَ
الاجْتِمَاعِيَّةَ، مِنْ نَوْعِ الهَيْسْتِيرِيا الحَادَّةِ، يُدَاوَى مَعَهَا الْوَهْمُ بِالْوَهْمِ، وَعَلَى ذَلِكَ نَزَلَ
عِنْدَ رَأْيِهِمْ لِيُهَيِّئَ الظُّرْفَ الْمُنَاسِبَ مِنْ جَدِيدٍ.

فَعَلَيَّْ إِذَا لَمْ يَشَأْ قَصْدًا أَنْ يَشْتَغِلَ سُورَعَتُهُ، وَهِيَ تَقْتَضِي الْبَطْشَ، اسْتِغْلَالًا
حَازِمًا وَسَرِيعًا، وَكَانَ هُوَ الْوَاجِبُ إِذْ ذَاكَ مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ عَشْكَرِيَّةٍ. نَحْنُ نَعْرِفُ عَلَيًّا
بَطْلَ الْحَرْبِ، فَلِمَاذَا أَعْرَضَ هَذَا الْإِعْرَاضَ، وَأَخْتَارَ الْبُطْءَ فِي الْإِيقَاعِ بِالْخِصْمِ بَعْدَ
تِلْكَ السُّرْعَةِ الْمُؤَقَّتَةِ فِي الْإِثْقَالِ وَالْإِعْدَادِ؟ لَأَنَّ عَلِيًّا لَمْ يَكُنْ يَطْلُبُ السُّلْطَانَ مِنْ
أَجْلِ السُّلْطَانِ، بَلْ مِنْ أَجْلِ إِحْقَاقِ الْحَقِّ وَإِخْلَالِ الْمَثَلِ الْأَعْلَى الْاجْتِمَاعِيِّ فِي دُنْيَا
التَّاسِ، وَإِلَّا فَالسُّلْطَانُ فِي كِبَرِيَاءِ نَفْسِهِ وَفِي كِبَرِيَاءِ مَعْنَوِيَّتِهِ «لَا يُسَاوِي عَقْطَةً عَنَرٍ»
كَمَا كَانَ يَقُولُ.

هُوَ يُرِيدُ السُّلْطَانَ مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ، فَإِذَا أَنْتَهَكَ الْحَقُّ مِنْ أَجْلِ السُّلْطَانِ فَقَدْ
خَنَقَ ضَمِيرُهُ، وَاعْتَصَرَ يَدَيْهِ قَلْبُهُ فِي قَسْوَةٍ وَوَحْشِيَّةٍ.

فَمَاذَا يُرِيدُ مِنْ كِفَاجِهِ إِذَا؟ إِنَّهُ يُرِيدُ تَطْبِيقَ قَضَايَا الْعَدْلِ حَتَّى فِي السَّاعَةِ الَّتِي
يَجُوزُ فِيهَا الْجَوْرُ، إِنَّهُ يُرِيدُ الْحَقَّ حَتَّى فِي سَاعَةِ حَيَثَانِ الْبَاطِلِ وَطُغْيَانِ الْمُتَكَبِّرِ. وَلَكِنْ
هُمْ قَلَّةٌ الَّذِينَ تَسَامَوْا إِلَى فَهْمِهِ، وَهَيْهَاتَ حَيَاةِ الْأَطْمَاعِ، الْمَحْدُودَةِ بِالشَّرَايِينِ
وَالْأَعْصَابِ، أَنْ تَنْبُضَ بِمِثْلِ خَلَجَاتِ قَلْبِهِ، وَتُحْسَ بِحِسِّهِ، وَتُنْدَى بِمِثْلِ شُعُورِهِ. كَانَ
أَكْبَرَ مِنْ مُحِيطِهِ وَلَا يَدْعُ، وَأَسْمَى مِنْ مُجْتَمَعِهِ وَلَا رَيْبَ، فَهُوَ رَيْبُ مُحَمَّدٍ الْمُتَبَلُّورِ
مِنْ سَنَاءِ الْوَحْيِ وَضِيَاءِ النُّبُوَّةِ، وَهُوَ أَكْبَرُ اللَّالِكَةِ الَّتِي أَنْكَشَفَتْ عَنْهَا دُنْيَا الْقُرْآنِ.
فَهَلْ يَغْبِثُ بِوُجُودِهِ وَضَمِيرِهِ فِي مَلْهَى يَدَيْهِ طَائِعًا مُخْتَارًا، وَمِنْ أَجْلِ مَا لَا يَرَاهُ
شَيْعَةً؟

إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُؤْمِنُ بِمَا يُقَالُ «إِذَا لَمْ يَكُنْ مَا تُرِيدُ فَأَرِدْ مَا يَكُونُ»، فَهَذِهِ خُطْئُهُ

صغارٍ وحياتٍ وجنٍ وخَوَرٍ، بل كَانَ يُؤْمِنُ بِغَايَةِ أَسْمَى وَيُبَشِّرُ بِبَهْدٍ:

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا كَذَلِكَ. فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً
فَلَا تَحْنُ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَحَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ الْفَاضِلَةِ. وَلَا تَأَلُ جُهْداً فِي الدَّعْوَةِ
إِلَى التَّغْيِيرِ، كَيْ يَبْقَى لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَاطِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

إِنَّ الَّذِينَ يَنْتَهِكُونَ كُلَّ قَدَاسَةٍ، بِسَبِيلِ الْفَوْزِ، سَاقِطُونَ فِي مِيزَانِ الْأَخْلَاقِ
وَقِسْطِاسِ الرُّوحِ، وَعَلَيَّ لَيْسَ مِنْ طَبِئَتِهِمْ، بَلْ ذَلِكَ الْأُسْلُوبُ، فِي حِسِّ عَلَيٍّ، أَهْرُزُ
أُسْلُوبٍ مِنْ أَسَالِيبِ الْحَيَاةِ وَأُنَكِّرُهَا. وَالْعَلَبَةُ تَكُونُ مِقْيَاسَ النَّجَاحِ فِي حِسِّ
الْجَامِدِينَ جُمُودَ الْمَادَّةِ وَالطَّبِيعَةِ الصَّمَاءِ، بَيْنَمَا مِقْيَاسُ نَجَاحِكَ، فِي حِسِّ الشَّاعِرِينَ،
بِمَقْدَارِ مَا تَكُونُ أَبْيَضَ نَاصِعاً فِي ضَوْءِ الْمِصْبَاحِ وَسَنَى الْفَجْرِ.

وَالْوُجُودُ نَوْعَانِ: وَجُودٌ بِالْحَيَاةِ، وَوُجُودٌ فِي أَبَدِيَّةِ الْمَبَادِيءِ، وَالثَّانِي مِنْهُمَا
أَكْبَرُ الْوُجُودَيْنِ، فَإِنَّ عُمُرَ أَوْلَاهِمَا فِي حُدُودِ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ، وَعُمُرَ ثَانِيهِمَا فِي حُدُودِ
الْخُلُودِ، وَأَيْنَ مَدَاهُ؟...

وَإِذَا بَقِيَ ذُو الْوُجُودِ الْأَوَّلِ، فَإِنَّمَا يَبْقَى فِي ذِكْرِ التَّارِيخِ شَوْهَةٌ مُومِيَاءَ،
بَيْنَمَا يَظَلُّ ذُو الْوُجُودِ الثَّانِي، فِي ذِكْرِ الْأَبَدِ، مَشْكَاةَ حَيَاةٍ تَفِيضُ بِالتَّوَرِّ بِالضِيَاءِ.
وَلَمْ يَشَأْ عَلَيٌّ، وَقَدْ أَخَذَ بِمَقْوَدِ السَّفِينَةِ، أَنْ يَثْرُكَهَا هَائِمَةً، وَيَثْرُكَ لِلخَاطِفِينَ
(الْقُرْصَانِ) أَتْبَهَاتَهَا. فَعَالَمُهَا بِمَقْدَارٍ وَمَقْدَارٍ كَبِيرٍ، وَالْعَوَاصِفُ تَتَنَاقَشُ مِنْ حَوْلِهَا
وَبَيْنَ يَدَيْهَا، وَعَلَيٌّ كَالرَّبَّانِ الْمَاهِرِ يُرْخِي الشَّرَاعَ أحياناً، فَيَمْضِي فِي مَدَى مِثْلِ
الْجُمْهُورِ، وَيَوْضِي بِالتَّحْكِيمِ، وَيَشُدُّ الشَّرَاعَ أحياناً فَيَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ بِالنُّهْرَانِ.

وُخْرُجِ الْخَوَارِجِ إِنَّمَا تَمَّ بِاسْتِفْحَالِ فِكْرَةٍ أَنْ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْكُفْرِ وَالْعِصْيَانِ، فَإِنَّ
قَضِيَّةَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، فِي تَفْكِيرِهِمْ، كَقَضِيَّةِ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَيْسَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ
بَيْنَهُمَا وَاسِطَةٌ يَلْتَقِيَانِ، فِيهَا. فَالتَّحْكِيمُ إِذَا خَطَأَ، وَالْخَطَأُ مَعْصِيَةٌ، وَالْمَعْصِيَةُ كُفْرٌ،
فَانتَهَوْا، فِي سَبِيلَةِ النَّتَاجِ، إِلَى ضَرُورَةِ الْإِيمَانِ مِنْ جَدِيدٍ. وَهَذِهِ الْفِكْرَةُ، فِي

جَوهرها، لا تَزِيدُ عَنْ عُقْدَةٍ مَسْرُجِيَّةٍ، إِلَّا أَنَّهُا، مَعَ ضَعْفِ الْحَاكِمَةِ الْعَقْلِيَّةِ وَالنَّقْدِ
الْفِكْرِيِّ، تَبْدُو عُقْدَةً عَسِيرَةَ الْحَلِّ. فَلَدَى الْبِدَاةِ تَسْلِيمٌ عَفْوِيٌّ بِكُلِّ خَاطِرَةٍ وَإِنْ تَكُنْ
سَخِيفَةً، وَفِي نَفْسِيَّتِهِمْ قَابِلِيَّةٌ لِلاسْتِحْجَارِ وَالتَّصَلُّبِ عَلَى شَكْلِ عَفْوِيٍّ أَيْضاً،
بَحِيثٌ تَسْتَحِيلُ إِمَاعَتَهُ إِلَّا بِتَحْطِيمِ الرُّؤُوسِ الَّتِي تَحْمِلُهُ، وَكَذَلِكَ حَدَثَ.

وَلَقَدْ تَمَلَّأَ الْحُسَيْنُ بِعِظَاتِ مَوْقِفِ أَبِيهِ فِي كُلِّ مَرَاكِجِهِ، وَحَلَّلَهَا فِي نَفْسِهِ،
وَأَحْلَاهَا مِنْ قَلْبِهِ مَحَلًّا ثَابِتًا. وَخَاضَ مَعَ الْوَلَدِ الْعَظِيمِ الصَّرَاعَ عَلَى سَتَى الْوَالِدِ،
وَكَانَ لَهُ أَثَرٌ أَيْ أَثَرٌ، وَلَمْ يَقِفْ عِنْدَ الشَّاطِئِ مُتَرَقِّباً بَلْ عَائِثٌ حَائِضٌ تَقُومُ بِهِ لُجَّةٌ
وَتَقَعْدُ بِهِ أُخْرَى، وَتَدْفَعُهُ مَوْجَةً لَتَسْتَقْبِلَهُ الْمَوْجَةُ الثَّانِيَّةُ، وَالتَّقَى^(٤) سَيْفُهُ بِسَيْفِ أَخِيهِ
مُحَمَّدٍ، فَشَكَلَا قَوْساً قَاعِدَتْهَا الْمِبَادِيءُ الَّتِي مِنْ أَجْلِهَا خَاضَ أَبُوهُمَا الْكَبِيرُ الْكِفَاحَ
دُونَ هُدْنَةٍ أَوْ هَوَادَةٍ.

وَبَقِيَ فِي سَمْعِ التَّارِيخِ وَبَصَرِهِ مَائِلاً حَيًّا:
أَنْ عَلِيًّا بَطَلُ الْحَقِّ فِي السَّلَامِ وَفِي الْحَرْبِ، وَهُوَ الْإِنْسَانُ الَّذِي آمَنَ حَالَ إِلَى
طَاقَةٍ فِي وُجُودِ الْحَقِّ وَكِيَانِهِ...

*

شَاءَ اللَّهُ أَنْ لَا يُحَقِّقَ مَغْزَى أُمُثُولَةِ عَلِيٍّ إِلَّا آبُنُهُ الْحُسَيْنُ، آبُنُهُ الْحَبِيبُ...
فَزِدَّدَ عَلَى شَكْلِ آخَرَ: إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَحَاوِلْ أَنْ تَجْعَلَهَا
كَذَلِكَ...

فَإِذَا لَمْ تَنْجَحْ أَيْضاً، فَلَا تَخُنْ ضَمِيرَكَ، وَعِشْ وَخَدِّكَ مِثَالاً لِلْحَيَاةِ
الْفَاضِلَةِ...

(٤) إِمَارَةٌ إِلَى مَا ذَكَرَ الْمُؤَرِّخُونَ مِنْ أَنَّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ بَصُرَ بِعَلِيٍّ فَأَرَادَ قَتْلَهُ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ كَيْسَانُ مَوْلَى عَلِيٍّ
فَأَخْتَلَفَا ضَرْبَتَيْنِ سَقَطَ بَيْنَهُمَا كَيْسَانُ، فَجَذَبَ عَلِيٌّ أَحْمَرَ بَنِي أُمَيَّةَ، وَضَرَبَ بِهِ الْأَرْضَ فَكَتَسَتْ مَثَكِبُهُ
وَعُضْدَتُهُ، وَشَدَّ عَلَيْهِ أَنَّهُا عَلِيٌّ حُسَيْنٌ وَمُحَمَّدٌ فَضَرَبَاهُ بِأَشْيَاءٍ مِمَّا قَتَلَاهُ.

ولا تَأَلُّ بِجُهْدٍ يَبْذُلِ النَّفْسَ، كَيْ يَتَّقِيَ لِلْحَقِّ فِي تَارِيخِ الْبَابِلِ مَثَلٌ يَضْرِبُهُ...

*

على أَنَّهُ أَضَافَ إِلَيْهَا أُمَثُلَتُهُ الْأُخْرَى...

إِذَا لَمْ تَكُنِ الْحَيَاةُ كَمَا تُرِيدُ، فَلْيَكُنِ الْمَوْتُ كَمَا تُرِيدُ...

وإِلَّا فَهَيْبَاتٌ أَنْ تَشْعُرَ بِخِلَافَةِ الْمِثَالِيَّةِ فِي الْإِيمَانِ، وَتَكُونَ مِنَ الْأَخْرَارِ...

*

بَقِيَ طَابَعُ الْإِنْسَانِ الْكَامِلِ عَلَيَّ، الَّذِي لَا يُحَرِّكُهُ الْحَقْدُ، وَلَا تَمِيلُ بِهِ
النَّرَاغَاتُ وَالنَّرَوَاتُ...

طَابَعاً لِأَنْبَائِهِ، فَقَدْ قِيلَ لِأَبْنَيْهِ مُحَمَّدٍ، دَسَاءً، تَوَلِيداً لِلْمَوْجِدَةِ:

لِمَ يَدْفَعُ بَكَ أَبُوكَ فِي الْحَرْبِ وَلَا يَدْفَعُ بِالْحَسَنِ وَالْحُسَيْنِ؟...

فَقَالَ بَوْحِي الْقَلْبِ الْمِثَالِي: هُمَا عَيْنَاهُ وَأَنَا يُمْنَاهُ، وَهُوَ يَدْفَعُ عَنْ عَيْنَيْهِ

يَمِينِهِ...

هَذَا طَابَعُ عَلَيٍّ فِي الْأُخُوَّةِ وَالْإِحَاءِ، فَأَيُّ دُنْيَا، بَلْ أَيُّ خُلْدٍ سَعِيدٍ، لَوْ تَسَنَّى

لِلْحَيَاةِ أَنْ تَبْرَزَ بِطَوَابِعِهِ الْأُخْرَى...

* * *

إلتیاع

في دارة قريية من الكوفة انعقد أول مؤتمر سياسي إرهابي، وأنفض عن مؤامرة دموية واسعة النطاق، تولى أمرها ثلاثة نفر فداييون كلهم خارجي. فقد كان لمركبة النهرين، التي أنكشفت عن مأساة مريزة، وقع حاد في نفوس الخوارج كافة، فتشطوا، تحت إلحاح سورة الانتقام، يجتمعون هنا وهناك، ويوالون الاجتماع في كل مكان. فما من بيت إلا ودخلته طائفة من الأرزاء، وأنطلقت العيون كأفواه القرب تتحدّر عن مثل خيوط القطرات المفضّة آرفضاً عبق نظيم، وبالأحرى المتحدّرة مؤلفة آتلاف نوط شتيت.

وكان عبد الرحمن بن ملجم من أبناء الهوى والشباب، فهو عاشق مدنف الفؤاد متيم الصبوة، لقي قطام آتة الشحنة من تيم الرباب، في أصيل ليلة من ليلا الصّخراء التي يختلط فيها سكون الجمال وجمال السكون، برجفات القوافل، وهي تهوّم راجعة أو منطلقة، كأنها سارحة في طفل الأبد، أو سائحة مع راد الأمل الخابي.

وقطام هذه فتاة آفتنت بها طبيعة الجمال أي آفتنان، ومشت في تقاطيعها زوائج الحسّن وآيات الفن، فبرزت كالزهرة أول ما تتشقق عنها الأكمام، أو كالفتنة الحية المايجة التي أضافت إليها الصّخراء آنيهاها، فجاءت بساطة في

تَرْكِب، وَوُضُوحاً فِي غُمُوضٍ... تَحْطُرُ كَيْفَمَا آتَّفَقَ لَهَا، فَتُثِيرُ، فِي مَدَى خُطَاهَا،
تَهَاوِيلَ السَّحْرِ وَعَبَقاً مِنَ الْهَوَى الْمَسْفُوحِ، وَضَبْجَةَ الْجَوَى الشَّرُودِ.
وَالْجَمَالَ، فِي الْغَوَانِي وَفِي كُلِّ شَيْءٍ، أَرَادَتْهُ الطَّبِيعَةُ لَتُعَبِّرَ عَنْ تَذَوُّقِهَا الْفَنِّيِّ،
وَعَنْ أَنَّ غَايَةَ التَّفَاعُلِ الْكَوْنِيَّ يَنْتَهِي بِالْكَوْنِ إِلَى الْفَنِّ وَيَجْتَمِعُ عَلَيْهِ، وَأَنَّ بَقَاءَ
الْوُجُودِ قَائِمٌ عَلَى الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ فَقَطْ.

فَالطَّبِيعَةُ الصَّامِتَةُ تُحَاوِلُ مُحَاوَلَاتِهَا تَحْتَ الْإِرَادَةِ الْفَنِّيَّةِ، لِتَنْتَهِيَ إِلَى الْفَنِّ
الصَّامِتِ الَّذِي هُوَ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْجَمُودِ، وَتَبْتَدِئُ الْحَيَاةَ أَوْ الطَّبِيعَةَ مِنَ الْفَنِّ
الصَّامِتِ، لِتَنْتَهِيَ كَذَلِكَ إِلَى الْفَنِّ الْحَيِّ الَّذِي هُوَ رُوحُ الْحَيَاةِ أَيْضاً، وَتَبْتَدِئُ
الطَّبِيعَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ مِنَ الْفَنِّ الْحَيِّ، لِتَنْتَهِيَ فِي غَايَتِهَا إِلَى الْفَنِّ الْوَاعِي الَّذِي هُوَ الْمُثَلَّ
الْعُلْيَا.

وَالِى هَذَا الْفَنِّ الْوَاعِي تَنْتَمِي فِكْرَةُ الرُّوحِ وَالْخُلْدِ، حَتَّى اللَّهُ فِي الْأَذْيَانِ فِكْرُهُ
الْفَنِّ الْمُطْلَقِ، وَالْوُجُودُ إِذَا يَتَحَرَّكُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ، لِيَسْمُوَ تَحْتَ هَذِهِ الرُّغْبَةِ الْجَاذِبَةِ
بِالشُّوقِ. وَإِلَى هَذَا يُشِيرُ قَوْلُ النَّبِيِّ: «خَلَقَ اللَّهُ آدَمَ عَلَى صَوْرَتِهِ»، مِنْ حَيْثُ إِنَّ فِي
الْإِنْسَانِ أَكْبَرَ قِسْطٍ مِنْ جَمَالِ فَنِّ الْوَعْيِ، أَوْ فَنِّ الْقَصْدِ، إِذْ فِيهِ تَحَوَّلَتْ حَرَكَةُ
الطَّبِيعَةِ الْفَنِّيَّةِ، مِنْ حَرَكَةٍ لِقَاصِدَةٍ إِلَى قَصْدٍ فِي الْحَرَكَةِ... هَذَا حَدِيثٌ فَاهٌ بِهِ آيُنُ
أَبِي عَتِيْقٍ فِي أُمْسِيَّةٍ مِنْ أَمَاسِي الطَّائِفِ، عِنْدَ مَعْنَى نَضِيرٍ، جَمَعَهُ وَعَمَرَ بَنُ أَبِي
رَبِيعَةَ وَالثَّرَيَّا، وَزُمرَةً كَبِيرَةً يَمُنُّ يَطْلُبُونَ الْحَيَاةَ اللَّاهِيَةَ الْحَالِمَةَ، كَانَ بَيْنَهُمْ آيُنُ
مُلْجَمٍ.

فَقَالَ عَمَرُ يُحَاوِرُهُ: لَكَأَنِّي بِكَ - يَا آيُنُ أَبِي عَتِيْقٍ - وَأَنْتَ حُشِيَّةُ فُتُونٍ وَدُنْيَا
عَرَامٍ، وَلَمْ أُحِطْ بِكَ الصَّفَةَ حِينَمَا قُلْتُ:

أَأَهْجُرْنَهَا؟! وَأَنْتَ زَيْنَتْهَا لِي أَنْتَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لِلْإِنْسَانِ

وَقَهَقَ مُشِيراً إِلَى الثَّرَيَّا.

قَالَ آبْنُ أَبِي عَتِيقٍ: لَا تُثْرِبَ عَلَيْكَ، فـ «اللَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ». نَحْنُ بِإِرَادَةِ الْفَنِّ يَسْتَحْفِنَا سِحْرُهُ، فَتَتَوَاقَعُ عَلَى الرِّمَالِ مُنْتَشِينَ بِمَوْجَةِ الرَّبْدِ، وَلَعَلَّ ثُرْيَاكَ أَكْبَرُ مَوْجَاتِ الرَّبْدِ الْحَائِمِ فِي شَاطِئِ الْفَنِّ الْمَسْحُورِ.

قَالَتِ الثُّرَيَّا: فَأَنَا فِي خَيَالِكَ إِذَا - يَا آبْنَ أَبِي عَتِيقٍ - بَعْضُ مَنْ غَايَةِ الْكَوْنِ فِي تَفَاعُلِهِ الْأَبَدِيِّ، لِأَنِّي بَعْضُ مَنْ فِئْتَةِ الْفَنِّ فِيهِ... وَرَاحَتْ تَزُمُّ آبْنَ أَبِي رَبِيعَةَ.

قَالَ عُمَرُ: مَاذَا تَقُولِينَ؟ لِأَنْتِ، وَاللَّهِ، كُلُّ فِئْتَةِ الْفَنِّ إِنْ كَانَ هَذَا يَفِي بِمَوْفِعِكَ فِي قَلْبِي، وَلَأَنْتِ كُلُّ غَايَةِ الْكَوْنِ إِنْ كَانَتْ لِلْكَوْنِ غَايَةٌ... فَرَاحَتْ تَضْحَكُ فِي خَفَرٍ، وَكَانَتْ ضِحْكَةً تُعْبِرُ عَنْ نَشْوَتِهَا فـ «الْعَوَانِي يُعْرِهُنَّ الشَّاءُ»، وَلَمْ تَلْبَثْ هُنَيْهَةً حَتَّى قَالَتْ:

«لَوْ أَنَا نَادَيْتُكَ وَاعْمَرَاهُ فَمَاذَا تَقُولُ؟... وَكَأَنَّهَا اسْتَحَفَّتْهُ فَهَبَّ يَفْعَلُ كَالْمُخُوبِ: أَقُولُ، أَقُولُ: لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ. لَبَّيْكَاهُ» وَمَدَّ صَوْتَهُ.

لِلأَوَّلِ لِقَاءَ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَقَطَامٍ، مَرَّتْ فِي مُحَايَلَتِهِ قِصَّةُ أُمِّسَيَّةِ الطَّائِفِ، وَشَعَرَ بِخِلَافَةِ الْحُلُمِ، لَوْ كَانَ لَهُ مِنْ قَطَامٍ مَا كَانَ لَعُمَرُ مِنَ الثُّرَيَّا.

وَكَانَ أَنْ رَأَتْ قَطَامٍ مِنْهُ مَا رَأَى مِنْهَا، وَأَحْسَتْ بِمَثَلِ مَا اجْتَمَعَ فِي أَحَاسِيهِ مِنْ أَخْلَامٍ، فَقَدْ تَوَاصَلَ بَيْنَهُمَا هَوًى، وَمَشَى بَيْنَ فَوَازِيهِمَا غَرَامٌ، وَلَقَّهَمَا وَجَدٌ، وَاسْتَدَارَ عَلَى قَلْبَيْهِمَا بَحْوًى وَهِيَامٌ. كَانَ فِي نُقْطَةِ الدَّائِرَةِ قَلْبُهَا، وَفِي إِطَارِ الدَّائِرَةِ قَلْبُهُ يَدُورُ، وَلَا يَدْرِي مِنْ أَيْنَ أَبْتَدَأَ أَوْ إِلَى أَيْنَ يَنْتَهِي، وَدَائِمًا يَكُونُ قَلْبُ الْمَرْأَةِ مِنَ الثَّوَابِتِ، فَهِيَ غَنِيَّةٌ بِالْإِعْرَاءِ، وَقَلَمًا تَكُونُ غَنِيَّةٌ بِالْحِسِّ الصَّافِي، وَهِيَ قَلَمًا تَتَحَرَّكُ بِالْحُبِّ مِنَ التَّرَجِسِيَّةِ، وَلَكِنَّهَا دَائِمًا تَتَحَرَّكُ بِالكَرَاهِيَّةِ وَالْبُغْضِ.

كَانَ بَيْنَهُمَا لِقَاءٌ إِثْرَ لِقَاءٍ، وَكَمْ تَمَنَّى لَوْ أَفْنَا الْعُمَرَ فِي لِقَاءِ سَكْرَى تَضِلُّ عَنْ صَحْوِهَا، أَوْ تَدْفَعُ بِهِمَا فِي لَانِهَائِيَةِ الْفَنَاءِ قَبْلَ فَنَائِيَا.

عِنْدَ مَهْوَى أَحَدِ الْكُتُبَانِ الَّذِي حَفِظَ لَهُمَا أَوَّلَ أَنْتِشَاءَةٍ مِنْ غَرَامِهِمَا وَآخِرَ
 أَنْتِشَاءَةٍ، كَانَا يَحْلُمَانِ، وَمَا أَصْحَابُهَا، إِلَّا عَلَى صَوْتِ النَّعْيِ أَنْ وَقَعَتِ النَّهْرَوَانِ ذَهَبَتْ
 بِكُلِّ الشُّيُوخِ وَأَكْثَرِ الْفُتَيَانِ، وَأَنَّ تَبَارَ الْأَزْزَاءِ جَرَى عَلَى كُلِّ بَيْتٍ، وَعَمَرَ أَعْلَى
 الْعَرَصَاتِ حَتَّى أَذْنَى الْأَوْدِيَةِ. فَتَمَايَلَتْ مَعَ النَّعْيِ مُرْتَعِدَةً كَمَا تَمَايَلَتْ فَصَبَاتُ الْغَوْرِ
 فِي حُرُوفِ الْأَوْدِيَةِ وَالْمَنْعَرَجَاتِ، وَأَنْهَمَرَتْ عَيْنَاهَا بِالْذُمُوعِ الْمُتَنَائِرَةِ تَنَائِرُ الْبَرْدِ،
 وَثَارَتْ ثَائِرُهُ أَتْبَنِ مُلْجِمٍ عَلَى لَحْنِ دُمُوعِهَا الْقَانِيَةِ... وَتَحْتَ عَوَامِلِ الثَّارِ الْفَائِرِ وَسُورَةِ
 الْإِنْتِقَامِ الْعَاصِفِ، إِلَى أَلْيَتِهِ الرَّهِيئَةِ لَيَنْتَقِمَنَّ لَهَا وَلَهُ، وَلَيُشْفِنَنَّ نَفْسَهَا وَنَفْسَهُ
 وَلَيَقْرُونَ عَيْنَهَا وَعَيْنَهُ!

وَطَبِيعَةُ الْجَبَرُوتِ فِي الرَّجُلِ تَأْتِي أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الْمَرْأَةُ،
 كَمَا تَأْتِي طَبِيعَةُ الْإِغْرَاءِ فِي الْمَرْأَةِ أَنْ تَظْهَرَ بِمُبَالَغَاتِهَا إِلَّا فِي فُضَاءٍ نَظَرَ الرَّجُلُ،
 كَأَنَّهُمَا، بَعْدَ تَنَاحُرٍ طَوِيلٍ، أَصْطَلَحَا عَلَى أَنْ تَسْتَنِيْمَ الْمَرْأَةُ إِلَى جَبَرُوتِهِ، فَهِيَ تُطَالِبُهُ
 بِهِ فِي الْخُطُوبِ، وَعَلَى أَنْ يَسْتَنِيْمَ الرَّجُلُ إِلَى إِغْرَائِهَا، فَهُوَ يُطَالِبُهَا بِهِ فِي الشُّبُوبِ،
 وَهَيْئَمَاتِ الْأَحْلَامِ، وَدَعْدَغَاتِ الشُّكُونِ الَّذِي يَتَمَدَّدُ فِي فُضَاءِ النَّفْسِ بِأَسْتِزْخَاءٍ.

فِي دَارَةٍ لَا تَبْعُدُ كَثِيرًا عَنِ الْكُوفَةِ، تَسَارَعَ إِلَيْهَا مَفْجُوعُونَ وَمَفْجُوعَاتٌ،
 وَلَبِثُوا يُزْعِدُونَ وَيُزِيرِقُونَ، تَحْتَ إِحْيَاءِ الْمَأْسَاةِ الْحَمْرَاءِ الَّتِي كَانَتْ تَنْصِلُ بِأَعْصَابِهِمْ
 فَتَحَرَّكُهَا، مُتَصَلِّبَةً مُتَعَقِّدَةً تَشْتَهِي لَوْ تَمَدَّدَتْ خَائِفَةً سَاحِقَةً...

قَامَ الْخَرِيتُ بْنُ رَاشِدٍ النَّاجِيَّ يَخْطُبُهُمْ:

لَقَدْ كَبَّرَ عَلَيْنَا وَاللَّهِ مَضْرُوعُ إِخْوَانِنَا الْأَبْرَارِ، وَمَا بَقَاؤُنَا بَعْدَهُمْ؟ أَتَنْتَظِرُونَ أَنْ
 يَنْخَطِفَكُمْ جَيْشٌ عَلَيَّ زُمْرَةً بَعْدَ زُمْرَةٍ، وَطَائِفَةٌ بَعْدَ طَائِفَةٍ؟ إِنَّهُ لَا يَنْتَظِرُكُمْ مِنْهُ إِلَّا
 الْمَوْتُ، الْمَوْتُ الدَّلِيلُ الْوَضِيعُ! الْمَوْتُ الْغَائِلُ الزُّوَامُ! أَلَا فَانْفِرُوا وَمُوتُوا فِي عَقْرِ
 الْحِرَابِ، وَلَا تَمُوتُوا فِي عَقْرِ الدِّيَارِ!

فَهَبَ الْقَطْرِيُّ بِنَ الْفُجَاءَةِ يُثْشِدُهُمْ:

أَقُولُ لَهَا، وَقَدْ طَارَتْ شَعَاعاً، مِنْ الْأَبْطَالِ وَيُحَكِّ لَنْ تُرَاعِي
فَإِنَّكَ لَوْ سَأَلْتَ بَقَاءَ يَوْمٍ عَلَى الْأَجَلِ الَّذِي لَكَ لَنْ تُطَاعِي
فَصَبْرًا فِي مَجَالِ الْمَوْتِ صَبْرًا فَمَا نَيْلُ الْخُلُودِ بِمُسْتَطَاعِ
وَلَا ثَوْبُ الْبَقَاءِ يَنْوِبُ عِزُّ فَيُطَوَّى عَنْ أَخِي الْخَنَعِ الْيَرَاعِ
سَبِيلُ الْمَوْتِ غَايَةُ كُلِّ حَيٍّ قَدَاعِيهِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ دَاعِي
وَمَنْ لَا يُعْتَبِطُ يَسْأَمُ وَيَهْرَمُ وَتُسْلِمُهُ الْمَوْتُ إِلَى أَنْقِطَاعِ
وَمَا لِلْمَرْءِ خَيْرٌ فِي حَيَاةٍ إِذَا مَا عُذُّ مِنْ سَقَطِ الْمَتَاعِ
وَوَقَفَ فَرَوْهُ بِنَ تَوَقَّلِ الْأَشْجَعِي فَقَالَ:

أَلَا فَاسْمَعُوا: إِنَّ عَلِيًّا أَرَادَ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَقْعَةِ التَّهْرَوَانِ أَمْثَلَةً زُهَيْتَةً، يُلَوِّحُ بِهَا
فِي وَجْهِ خَصْمِهِ، فَيَقْلُ عَرَبُهُ، وَيُدْخِلُ الرُّوْعَ إِلَى قَلْبِهِ، وَيُحَذِلُ عَلَيْهِ أَعْصَابَهُ، فَيَبْطِشُ
بِنَا تِلْكَ الْبَطْشَةَ السَّاحِقَةَ.

إِنَّ عَلِيًّا هُوَ أَخْوَجُ مَا يَكُونُ - وَقَدْ تَهَيَّأَ لِحَرْبِ خَصْمِهِ - إِلَى مِثْلِ جَبَّارٍ
مُرْعِدٍ يُعِيدُ بِهِ إِلَى الْأَذْهَانِ مِثْلَ رَهْبَةٍ مَعْرَكَةِ الْجَمَلِ، وَيُدْخِلُ فِي رُوعِ خُصْمِهِ مِثْلَ
آثَارِهَا فَيَمْتَلِئُونَ دُغْرًا وَخَوْفًا، كَمَا أَرَادَ أَيْضًا أَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ إِلَى نَفْسِ جَيْشِهِ، فَقَدْ
عَرَاهَا وَهْنٌ وَخَوْزٌ، وَأَنْ يُعِيدَ الثَّقَّةَ بِالْجَيْشِ وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى مُغَامَرَةِ كُبْرَى فَاصِلَةٍ.
وَعَلَيَّ لَمْ يَضْرِبْنَا ضَرْبَتَهُ تِلْكَ فِي التَّهْرَوَانِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ بَدَلَ أَقْصَى الْجُهْدِ
لِلْعُودَةِ إِلَيْهِ، أَوِ الْقَيْئَةِ إِلَى مُشَارَكَتِهِ فِي نِزَالِ خَصْمِهِ، وَلَقَدْ أَرْخَى لَنَا مِنْ عِنَانِهِ حَتَّى
أَخَذْنَا سَهْلَ بَنٍ حُنَيْفٍ، وَأَنْتُمْ تَعْرِفُونَ سَابِقَتَهُ وَلَا تَجْهَلُونَ مَكَانَهُ، فَوَجَدَ إِذْ ذَاكَ
السَّبِيلَ لَتَجْرِبَتِهِ، وَهُوَ وَائِمٌ اللَّهُ قَدْ أَعْدَرَ.

وَلَسْتُ أَقُولُ تَنْبِيْطاً عَنْهُ، بَلِ اخْتِيَاطاً لِدِمَائِنَا، وَعَلَيَّ «لَمْ يَزَلْ عِنْدَنَا فِي الشُّبْهَةِ وَالشُّكِّ»... وَهَا إِنِّي مُعْتَرِلٌ.

فَوَثَبَ الْحَرِيْثُ يَخْفُقُ بِرَأْسِهِ وَيُثْرِقُ بِعَيْنَيْهِ، وَيُزْعِدُ بِصَوْتِهِ، وَيُلَوِّحُ بِكُلْتَا يَدَيْهِ: أَدْعُوْةً إِلَى التَّفَاقِي وَالْكُفْرِ؟ إِنَّتَفَحَ سَحْرُكَ وَجَبْنَتْ وَهَذَرَتْ دِمَاءُ الْأَطْهَارِ. أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوِّءِ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَنْفِرُونَ! وَهَا إِنِّي نَافِرٌ ثَائِرٌ!

فَاشْتَعَلَتْ حِمَاسَةُ الشَّبَابِ حُصُوصاً، وَأَنْدَفَعُوا فِي تَيَّارِ أَصْوَاتِهِمْ كَالْجُنُونِ يُرْدُّدُونَ: أَلَا فَمَيْتَةُ السَّوِّءِ لَنَا إِنْ كُنَّا لَا نَنْفِرُ وَنَنْتَقِمُ!... وَأَنْكَشَفَ الْجَمْعُ عَنِ آعْزَالِ فَرْوَةِ الْأَشْجَعِيِّ بِشَهْرَزُورٍ، وَنِفَارِ الْحَرِيْثِ التَّاجِي بِالْأَهْوَاِ ثُمَّ بِالْأَشْيَافِ.

وَلَكِنَّ الشَّبَابَ تَنَادَوْا إِلَى بَعْضِهِمْ وَالْوَااجِتِمَاعَ، وَتَوَتَّبَتِ الْخُطَطُ وَبِرَامِجِ السَّيْرِ بِالْمُؤَامَرَةِ الْإِنْتِقَامِيَّةِ، فَهَمَّ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْعَمَلَ جَهْرًا، فَلْيَعْمَلُوا سِرًّا، وَلْيَعْمِدُوا إِلَى الْغِيلَةِ.

وَكَانَ أَكْثَرُ هَؤُلَاءِ الشَّبَابِ تَحَمُّساً عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ مُلْجَمٍ، الَّذِي أَنْدَفَعَ بِحَفِظَةِ الْحُبِّ، وَعَمِلَ كَنِي يُوْضِي قَلْباً بَاتَ مَعْمُوداً... إِنَّهُ سَيُجَازِفُ كَيْفَمَا شَاءَتْ الْمَجَازَفَةُ، وَكَيْفَمَا كَانَتْ خُطُورُهَا.

أَلَيْسَ فِيهَا مَا يُؤْضِي مَحْبُوبَتَهُ الْمَفْجُوعَةَ بِأَيِّهَا وَأَخِيهَا؟ أَلَيْسَتْ سَتَشِيْغُهُ بِرَعَشَاتِ قَلْبِهَا وَخُفُوقِهِ؟

أَمَا سَتَحْتَفِظُ بِذِكْرِي نَابِضَةً تَشِيْعُ بَيْنَ أَهْتَازَاتِهَا آتِسَامَةً حُبِّ بَاكِئَةٍ، وَمَعْنَى هَوًى كَسِيفٍ؟

فِي إِحْسَاسِ آئِنِ مُلْجَمٍ أَنَّ هَذَا كَافٍ بَلْ كَثِيْرٌ، لَا سِيَّيْمَا وَقَدْ جَعَلَتْ قَتْلَ عَلِيٍّ مَهْرَ قَلْبِهَا وَحُبِّهَا وَجَسَدِهَا، فَلْيَعْتَزْضُهُ إِذَا كُلُّ خَطَرٍ، وَلْتَقُمْ فِي طَرِيقِهِ أَيُّهُ الْعَقَبَاتِ، فَهُوَ لَا بُدَّ مُقْتَحِمُهَا. إِنَّهُ لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ وَلَا يَرَى سِوَى عُرُوسِ أَخْلَامِهِ

تُبَارِكُهُ وَتَنْظُرُ إِلَيْهِ بِشَجِيحٍ وَتَخَوْفٍ.

أَلَيْسَتْ الْآنَ تَوَدُّعُهُ وَهِيَ بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ مُتَصَارِعَتَيْنِ، تَهْتَرُ تَحْتَ غَنِيْفٍ صِرَاعِهِمَا، هَا هِيَ تَتْرُكُهُ يَنْطَلِقُ، مَشْرُورَةٌ تَحْتَ فَوْرَةِ الشَّارِ وَالْمَوْجِدَةِ، ثُمَّ لَا يَكَادُ يَخْطُو، حَتَّى يَطْغَى حُبُّهُ فِي حَنَائِيَا رُوحِهَا فَتَنْبَعِثُ وَلَهُى وَرَاءَهُ، تَشُدُّهُ إِلَيْهَا، وَتَعْتَنِقُهُ أَغْتِنَاقًا غَنِيْفًا.

إِنَّهَا بَيْنَ عَاطِفَتَيْنِ قَاسِيَتَيْنِ بِمَوْقِعِهِمَا عَلَى قَلْبِهَا، فَهِيَ تَخَافُ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ، وَتَخَافُ مِنْهُ أَنْ لَا يَفْعَلَ. إِنَّهَا فِي حَيَازَةٍ يَقْضَى لَيْسَ تَغْفَى، وَنَفْسُهَا سَكْرَى تُعْرِبِدُ. ظَلَّتْ جِينًا بَيْنَ سَخَاءٍ بِهِ فَتُشْرِقُ عَلَى وَجْهِهَا آبَتِسَامَةٌ رَاعِدَةٌ، وَبَيْنَ بُحْلِ بِهِ فَتَتَوَلَّى وَتَدُوبُ آبَتِسَامَتُهَا فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَسَى السَّاهِمِ. يَبْدُو أَنَّهَا لَمْ تُطْلِقْ فَأُغْمِثَ بَيْنَ عَوَاطِفِهَا الْمُتَنَازِلَةِ، فَاسْتَنْدَتْ إِلَيْهِ وَجَفَوْنُهَا غَافِيَةً تَحْتَ أَطْبَاقٍ مِنَ الدُّمُوعِ، غَيْرَ أَنَّهَا رَمَقَتْهُ أُخِيرًا، وَقَالَتْ لَهُ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْخَفُوتِ:

«إِلْتَمِسْ غِرَّتَهُ، فَإِنْ أَصَبْتَ شَفِيتَ نَفْسَكَ وَنَفْسِي، وَيُهِنْكَ الْعَيْشُ مَعِي، وَإِنْ قُتِلْتَ فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا وَزِينَةِ أَهْلِهَا... لَقَدْ صَحَّ عَزْمُهَا فِي النَّهَائِيَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ.

وَأَنْطَلَقَ آبْنُ مُلْجَمٍ إِلَى حَيْثُ كَانَ جَمَاعَتُهُ يَنْتَظِرُونَ عِنْدَ الْحَطِيمِ فِي مَكَّةَ، وَكَانَ لَا يَسْمَعُ، كَيْفَمَا سَارَ، إِلَّا أَصْوَاتًا رَهِيْبَةً النَّأْمَاتِ، فَيَتَلَفَّتُ يَمِينًا وَشِمَالًا، فَلَا يَرَى شَيْئًا، وَلَكِنَّهُ يَقِفُ كَالْمَذْعُورِ يَشُدُّهُ إِلَيْهِ مَوْضِعُهُ أَنَا، وَيَنْطَلِقُ أَنَا كَالِهَائِمِ الْمَشْرُورِ تَتَقَادَفُهُ طَرِيقُهُ مِثْلَ كُرَّةٍ، لَقَدْ عَدَا، تَحْتَ مَا تَجِيْشُ بِهِ نَفْسُهُ وَيَغْتَلِيْجُ بَيْنَ حَنَائِيَاهُ مِنْهَا، كَالْمَفْرُورِ، لَمْ يَكُنْ مِنْ شَيْءٍ بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَنْعَكِسُ أَضْدَاءُ نَفْسِهِ فِي أُذُنَيْهِ، وَيَسْمَعُ صَجَّتَهَا فِي الْخَلَاءِ حَزِيْنَةً أَوْ مُعْتَبِطَةً.

إِنْتَهَى إِلَى أَصْحَابِهِ وَأَتْرَابِهِ «فَتَذَاكُرُوا أَمْرَ النَّاسِ، وَعَابُوا عَلَى وَلَايَتِهِمْ،

وَذَكَرُوا أَهْلَ النَّهْرِ فَتَزَحَّمُوا عَلَيْهِمْ، وَقَالُوا: مَا نَصْنَعُ بِالْبَقَاءِ بَعْدَهُمْ. إِخْوَانُنَا الَّذِينَ كَانُوا دُعَاةَ النَّاسِ لِعِبَادَةِ رَبِّهِمْ، وَالَّذِينَ كَانُوا لَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمًا، فَلَوْ شَرِينَا أَنْفُسَنَا فَأَتَيْنَا الزُّرُوسَ فَالْتَمَسْنَا قَتْلَهُمْ فَأَرْخَنَّا مِنْهُمْ الْبِلَادَ وَثَارْنَا بِهِمْ إِخْوَانَنَا.

قَالَ آبْنُ مُلْجَمٍ - وَتَعَرَّضَ لَهُ طَيْفٌ قَطَامٍ يَبْتَئِسُ لَهُ وَيُبَارِكُهُ - أَنَا أَكْفِيكُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

وَقَالَ الْبَرَكُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ مُعَاوِيَةَ بْنَ أَبِي سُفْيَانَ.

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ بَكْرِ: أَنَا أَكْفِيكُمْ عَمْرُو بْنَ الْعَاصِ... فَتَعَاهَدُوا وَتَوَاقَعُوا بِاللَّهِ: لَا يَنْكُضُ رَجُلٌ مِنَّا عَلَى صَاحِبِهِ الَّذِي تَوَجَّهَ حَتَّى يَقْتُلَهُ أَوْ يَمُوتَ دُونَهُ.

بَعْدَمَا غَابَ آبْنُ مُلْجَمٍ عَنْ عَيْنِي قَطَامٍ، شَعَرْتُ بِغِبْطَةٍ، لَمْ تَلْبِثْ أَنْ مَارَجَتْهَا حَسْرَةٌ كَانَتْ تَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهَا، عَلَى سَكَلِ مَوْجَاتٍ مُتَدَفِّقَةٍ، وَلَمْ تَلْبِثْ أَنْ فَارَتْ وَأَصْطَحَبَتْ. فَحَقَّقْتُ إِلَى الطَّرِيقِ الَّذِي سَلَكَ تَوَدُّ لَوْ أَدْرَكْتُهُ، وَلَكِنَّهَا تَوَقَّفَتْ وَلَمْ تَسْقُطْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ وَلَوْ فِي الْقَتَامِ. فَظَلَّتْ تَزُونُ جَاحِظَةً وَشَفَتْهَا بَيْنَ أَشْنَانِهَا، وَظَلَّتْ تُنَمِّسُ وَجِيبَ قَلْبِهَا بِيَدٍ، وَتُكْفِكِفُ مِنْ غَرْبٍ دَمْعِهَا بِيَدٍ، وَطَالَ بِهَا الْمَقَامُ وَلَفَّهَا اللَّيْلُ كَأَنَّهُ يُجَلِّبُهَا بِثَوْبِ الْحِدَادِ.

سَمِعْتُ، بَعْدَ حِينٍ، أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ هَبَطَ الْكُوفَةَ فَهَالَهَا مَا سَوْفَ يُقَدِّمُ عَلَيْهِ، فَضَمَّتْ إِلَيْهِ، مِنْ قَوْمِهَا، رَجُلًا أَسْمُهُ وَزْدَانُ، تَمَثَّلَتْ، فِي أَقْصَى عَوَاطِفِهَا، لَوْ أَنَّهُ سَقَطَ طَعْمُ الْفَرِيسَةِ وَنَجَا صَيَاذُهَا الْحَبِيبُ الْمُقَدَّى.

مَا لَبِثَ آبْنُ مُلْجَمٍ أَنْ لَقِيَ أَصْحَابَهُ فِي الْكُوفَةِ وَكَاتَمَهُمْ أَمْرُهُ، ثُمَّ سَارَ إِلَى «شَبِيبِ بْنِ بَجْرَةَ فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ فِي شَرَفِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ؟

قَالَ: وَمَا ذَاكَ؟

قَالَ: قَتَلْتُ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ.

قال: ثَكَلْتُكَ أُمُّكَ. لَقَدْ جِئْتُ شَيْئاً إِذَا، كَيْفَ تَقْدِرُ عَلَيْهِ؟

قال: أَكْمُنُ لَهُ فِي الْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ لَصَلَاةِ الْعَدَاةِ شَدَدْنَا عَلَيْهِ فَقَتَلْنَاهُ، فَإِنْ نَجَّوْنَا سَفَيْنَا أَنْفُسَنَا وَأَذْرَكْنَا ثَأْرَنَا، وَإِنْ قُتِلْنَا فَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا.

قال: وَيَحْك! لَوْ كَانَ غَيْرَ عَلِيِّ لَكَانَ أَهْوَنَ عَلَيَّ، فَقَدْ عَرَفْتُ بَلَاءَهُ فِي الْإِسْلَامِ وَسَابِقَتَهُ مَعَ النَّبِيِّ (ص)، وَمَا أَجِدُنِي أَنْتَسْرِحُ لِقَتْلِهِ.

قال: أَمَا تَعْلَمُ أَنَّهُ قَتَلَ أَهْلَ النَّهْرِ! إِمَادَ الصَّالِحِينَ؟

قال: بلى... فَأَجَابَهُ، وَأَتَى الثَّلَاثَةَ إِلَى قَطَامٍ وَهِيَ مُعْتَكِفَةٌ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ، فَدَعَتْ لَهُمْ بِالْحَرِيرِ فَعَصَبَتْهُمْ بِهِ، وَأَخَذُوا أَسْيَافَهُمْ وَجَلَسُوا مُقَابِلَ السُّدَّةِ الَّتِي يَخْرُجُ مِنْهَا عَلِيٌّ... قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: إِنِّي لِأُصَلِّيَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ فِي الْمَسْجِدِ الْأَعْظَمِ فِي رِجَالِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِ الْمَصْرِ، مَا هُمْ إِلَّا قِيَامٌ وَرُكُوعٌ وَسُجُودٌ، مَا يَشَأُمُونَ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى آخِرِهِ، إِذَا خَرَجَ عَلِيٌّ لَصَلَاةِ الْعَدَاةِ، فَجَعَلَ يُنَادِي: أَيُّهَا النَّاسُ، الصَّلَاةُ، الصَّلَاةُ. فَتَنَظَرْتُ إِلَى بَرِيْقٍ وَسَمِعْتُ: الْحُكْمَ لِلَّهِ يَا عَلِيُّ، لَا لَكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ! فَرَأَيْتُ سَيْفاً ثُمَّ رَأَيْتُ ثَانِياً ثُمَّ سَمِعْتُ عَلِيّاً يَقُولُ: لَا يَفُوتَنَّكُمُ الرَّجُلُ! وَشَدَّ النَّاسُ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ، فَأُخِذَ وَأُذْخِلَ عَلَى عَلِيٍّ فَقَالَ:

النَّفْسُ بِالنَّفْسِ إِنْ أَنَا مِثٌ، وَإِنْ بَقِيَتْ رَأَيْتُ فِيهِ رَأْيِي... ثُمَّ أَلْتَفَتَ إِلَى ذَوِيهِ فَقَالَ: يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ: لَا أَلْفَيْتُكُمْ تَخَوْضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا يُقْتَلَنَّ إِلَّا قَاتِلِي، أَنْظِرُوا حَسَنُ، إِنْ أَنَا مِثٌ مِنْ ضَرْبَتِهِ فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً بِضَرْبَتِهِ، وَلَا تُثَمِّلْ بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ص) يَقُولُ: إِنَّا كُمْ وَالْمَثَلَةُ لَوْ أَنَّهَا بِالْكَلْبِ الْعَقُورِ... وَلَمَّا أَحَسَّ دُنُوهُ جَمَعَ إِلَيْهِ الْحَسَنُ وَالْحُسَيْنَ، فَقَالَ:

أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالْأَتْبَعِيَا الدُّنْيَا، وَإِنْ بَعَثْتُكُمْ، وَلَا تَبْكِيَا عَلَى شَيْءٍ

زَوَى عَنْكُمَا، وَقُولَا الْحَقَّ، وَأَرْحَمَا الْيَتِيمَ، وَأَغْيِثَا الْمَلْهُوفَ، وَأَصْنَعَا لِلْآخِرَةِ وَكُونَا
لِلظَّالِمِ خَضَمًا وَلِلْمَظْلُومِ نَاصِرًا، وَأَعْمَلَا بِمَا فِي الْكِتَابِ، وَلَا تَأْخُذْكُمَا فِي اللَّهِ لَوْمَةً
لَا يَمُ... ثُمَّ نَظَرَ إِلَى مُحَمَّدٍ بْنِ الْحَقَفِيَّةِ فَقَالَ: هَلْ حَفِظْتَ مَا أُوصَيْتُ بِهِ أَخَوَيْكَ؟
قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: فَإِنِّي أُوصِيكَ بِتَوْقِيرِ أَخَوَيْكَ، الْعَظِيمِ حَقُّهُمَا عَلَيْكَ، فَاتَّبِعْ أَمْرَهُمَا
وَلَا تَقْطَعْ أَمْرًا دُونَهُمَا. ثُمَّ قَالَ: أُوصِيكُمَا بِهِ فَإِنَّهُ شَقِيقُكُمَا وَأَبْنُ أَيْكُمَا، وَقَدْ
عَلِمْتُمَا أَنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُحِبُّهُ... ثُمَّ لَمْ يَنْطِقْ إِلَّا بِقَوْلٍ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَتَّى
قُبِضَ...»

فَلَيْتَهَا إِذْ فَدَتْ عَمْرًا بِخَارِجَةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بِمَنْ شَاءَتْ مِنَ الْبَشَرِ!

*

خَاضَ عَلِيٌّ الْكِفَاحَ الْإِسْلَامِيَّ وَلَمْ يُذِرْكَ مَذْرَكَ الرِّجَالِ، وَقَضَى فِي سَاحَةِ
هَذَا الْكِفَاحِ وَهُوَ أَسْمَى الرِّجَالِ...
وَكَأَنَّهُ بِكِفَاحِهِ أَتَمَّ عَلَى الْإِسْلَامِ كِفَاحَهُ، فَالْتَبَّى كَافَحَ الشُّرُكِ، وَعَلِيٌّ كَافَحَ
النِّفَاقِ...

وَالْتَبَّى ظَفِيرَ بِالْمَعْرَكَةِ الْحَاسِمَةِ، وَعَلِيٌّ ظَفِيرَ بِمَعْرَكَةِ التَّطْهِيرِ الْحَاسِمَةِ أَيْضًا...
فِي كُلِّ عَيْنٍ أَنتَ قُرُوتُهَا فِي كُلِّ جِيلٍ أَنْتَ عَلَيْهَا!
شَاءَ الْحَقُّ أَنْ يُقَدِّمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ نَمُودَجَهُ فَكَانَ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْعُلْيَا أَنْ تَعْتَرِضَ مُتَأَلِّقَةً فِي أَفْقِ الْأَحْيَاءِ فَكَانَتْ عَلِيًّا...
وَشَاءَتِ السَّمَاءُ أَنْ لَا تُسَلِّمَهُ إِلَى أَطْبَاقِ الثَّرَى الْمُظْلِمِ، فَاخْتَارَتْهُ مِلءَ عَيْنِ
الْحَقِّ شَهِيدًا...

*

إِسْتَعْبَرَ الْحَسَنُ، وَتَوَلَّى الْحُسَيْنُ مُلْتَمَعًا، فَقَدْ دَقَّتْ سَاعَةٌ مَاتَ فِيهَا الْبَطْلُ...
وَأَعْوَزَهُ الدَّمْعُ، وَلَكِنَّ عَلِيًّا لَا يُشَيِّعُ بِالْدُمُوعِ...
فَإِنَّ تَكْرِيمَ الْبَطْلِ لَا يَكُونُ إِلَّا بِتَضْحِيَةٍ فِي بُطُولَةٍ، وَبُطُولَةٍ فِي التَّضْحِيَةِ...
فَبَكَاهُ وَلَكِنْ لَمْ يَبْكِهِ بِالْدُمُوعِ بَلْ بِالْدماءِ الْخَالِدَاتِ!...

*

تَنْظَّمُ عَلَى رَأْسِ الْحُسَيْنِ إِكْلِيلُ أَسَى، وَلَكِنَّهُ إِكْلِيلُ غَارٍ يُعَبِّرُ عَنْ خَالِدِ
الْمَجْدِ... فَقَدْ ضَمَّ جَدُّهُ وَأُمُّهُ وَأَبَاهُ فِي آخِيبَاكَ وَضِيء...
وَكَانَ شِعَارُهُ أَنَّى سَارَ وَكَيْفَ سَعَى...
وَوَضَلَ الْإِكْلِيلُ كَأَنَّ فِيهِ مَحَلًّا لَزَهْرَةٍ حُمْرَاءَ أَيْضًا...
فَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ كَانَ يَنْفُسِهِ تِلْكَ الزَّهْرَةَ الْحُمْرَاءَ...
وَوَضَلَ إِكْلِيلُ الْغَارِ الْعَظِيمِ ذِكْرَى رَائِعَةٍ فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ!...

*

إِسْتَعْرَقَ الْحُسَيْنُ فِي أَسَى مُذِيبٍ، وَجَرَى عَلَى لِسَانِهِ مِنْ مَرْثِيَّةِ أَبِي الْأَسْوَدِ
الدُّوَلِيِّ:

إِذَا آسَتْفَقَبَلَتْ وَجْهَ أَبِي حُسَيْنٍ رَأَيْتَ الْبَدْرَ رَاغٍ التَّاطِيرِ
لَقَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشٌ حَيْثُ كَانَتْ بِأَنَّكَ حَيَّوْهَا حَسْبًا وَدِينًا
ثُمَّ تَمَّتْ: لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يَقُولُ «أَبِي حُسَيْنٍ»؟...
لَا شَكَّ أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ يُنَادِينِي، يُنَادِينِي أَنَا...
وَيَخْلِقُ بِي أَنْ أُجِيبَ النَّدَاءَ!...

* * *

مِنْ أَيَّامِ الْحُسَيْنِ السَّبِّطِ (٤)

في الهيكل

هَجَرَ النَّاسَ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَسَيَّمَ الْحَيَاةَ الصَّاحِبَةَ، وَقَدْ أَمْتَدَّتْ إِلَيْهِ بِأَرْزَائِهَا،
وَأَتَّصَلَتْ إِلَى قَرَارَةِ حَوْبَائِهِ بِأَسْبَابِ بِأَسَائِهَا، فَمَا بَشَّتْ فِي وَجْهِهِ إِلَّا قَلِيلاً، عَلَى أَنَّ
ذَلِكَ الْقَلِيلَ لَمْ يَكُنْ إِلَّا كَالْفَتْرَةِ بَيْنَ نَجْمَتَيْنِ.

بَلَّةُ فِكْرَتُهُ عَنِ الْحَيَاةِ، وَكَانَتْ لَا تَزِيدُ فِي آعْتِبَارِهِ عَنْ مَسْرُوحِيَّةِ مُرْسَلَةٍ
إِزْسَالاً، لَا تَتَقَيَّدُ بِوَحْدَةِ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، تَسُرُّ فِي بَعْضِ مِنْهَا، وَتُشْقِي فِي بَعْضٍ،
وَتُضْحِكُ وَتُبْكِي وَتُلْدُّ وَتُؤْلِمُ. وَهِيَ مَعَ ذَلِكَ لَا تُؤْلِمُ حَقِيقَةً كَمَا لَا تُلْدُّ حَقِيقَةً،
وَلَكِنَّهَا تُغْرِي بِالْأَلَمِ وَاللَّذَّةِ إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى أَشْيَائِهِمَا الشُّعُورُ، فَتُلَوَّنُ بِهَا وَتَعْلُقُ فِي
الْفِكْرِ رَغْبَةً تَصْدِيقُهَا، وَإِلَّا فَهِيَ، فِي حَقِيقَتِهَا، ضِحْكَةٌ نَحْنُ نَفْتَعِلُهَا وَنَحْنُ نَعُودُ
فَنُصَدِّقُهَا وَنُؤَكِّدُهَا.

أَمَّا أَنَّهَا وَاقِعٌ فَأَبْعَدُ مَا تَكُونُ عَنْ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَلِمَاذَا تَكُونُ مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ
قَوْمٍ فَوَائِدُ؟... وَلِمَاذَا لَا تَمْتَلِكُنَا مَشَاعِرُ وَاحِدَةٍ جِيَالِ الْحَادِثِ الْوَاحِدِ؟

أَلَيْسَ هُوَ حَادِثًا وَاحِدًا لَا يَمْلِكُ هَذَا التَّبَايُنَ، فَمِنْ أَيْنَ جَاءَ إِذَا؟ إِنْ كَانَ
الْحَادِثُ عِلَّةً وَالْمَشَاعِرُ الْمُتَبَايِنَةُ تَنْشَأُ عَنْهُ بِالْعَلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ، فَكَيْفَ اخْتَلَفَتْ؟

وَلِمَاذَا أَقْتَنِعُ أَنَا بِأُسْلُوبٍ وَمَنْطِقٍ لَا يَقْتَنِعُ بِهِمَا الْآخَرُ فِي زَمَانٍ وَمَكَانٍ لَيْسَا
مُخْتَلِفَيْنِ؟ وَيُحِسُّ كُلُّ مَنَا أَنَّ الْوَاقِعَ هُوَ مَا أَنْطَوَى عَلَيْهِ، وَشَعَرَ بِهِ شُعُورًا فِكْرِيًّا أَوْ

مَعْنَوِيًّا. أما يُحِسُّ كُلُّ مِنَّا، إذا اقْتَنَعَ بِأَمْرٍ أَوْ بِرَأْيٍ، أَنَّهُ انْتَقَلَ مِنْ وَاقِعٍ لَمْ يَعُدْ لَهُ
هذا الأَسْمُ، إلى وَاقِعٍ لَيْسَ سِوَاهُ خَلِيقًا بِإِطْلَاقِ الأَسْمِ؟ أَلَسْنَا لَا نَبْتَئِسُ وَنَحْنُ نَعْبَثُ
جَذَلِينَ بِأَشْلَاءِ الأَعْدَاءِ وَدِمَائِهِمْ؟

فَالطَّبِيعَةُ الحَيَّةُ إِذَا تَهَدَّمَتِ العِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ فِي نَفْسِهَا، ثُمَّ لَا تَخْضَعُ لِنَامُوسِهَا،
وَالعِلَاقَةُ السَّبَبِيَّةُ هِيَ ظَاهِرَةُ الوَاقِعِ، فَلَا يَدْعُ، بَعْدَ هَذَا، إِنْ كَانَتِ الحَيَاةُ لَيْسَتْ
وَاقِعًا، أَوْ لَا تُعْبِزُ عَنْ وَاقِعٍ فِي كَثِيرٍ أَوْ قَلِيلٍ.

إِنَّ الحَيَاةَ إِنَّمَا تَجِدُ وَاقِعَهَا فِي آنِفَعَالِنَا الضَّمِيرِيِّ^(١) أَوْ الِوُجْدَانِيِّ، فَكُلُّ مَا لَا
يَجِدُ طَرِيقَ أَنْتِهَائِهِ إِلَى مَوْكِرِ الانْفِعَالِ الضَّمِيرِيِّ لَيْسَ بِحَيَاةٍ. فَلِكُنِّي يَكُونُ إِذَا
لِلْعِلَاقَةِ السَّبَبِيَّةِ عَمَلٌ فِي الطَّبِيعَةِ الحَيَّةِ فَتَنْتُجَ وَخْدَةٌ أُثِرَ، لَا بُدَّ مِنْ وَخْدَةٍ زَمَانٍ
وَوَخْدَةٍ مَكَانٍ، وَوَخْدَةٍ حَادِثٍ وَوَخْدَةٍ ضَمِيرٍ، وَهَذِهِ الأَخِيرَةُ أَهَمُّ الوَخْدَاتِ مِنْ
حَيْثُ تَجِدُ الحَيَاةَ الإِنْسَانِيَّةُ فِي بَيْدَائِهَا وَاقِعَهَا. فَأَشْيَاءُ الحَيَاةِ لَا تَجِدُ حَيَاتِهَا، وَبِعِبَارَةٍ
أُخْرَى لَا تَجِدُ حَقِيقَتَهَا، إِلَّا إِذَا اسْتَجَابَ إِلَيْهَا الشُّعُورُ، وَإِلَّا فَأَيْنَ الأَلَمُ واللَّذَّةُ؟ وَأَيَّانَ
تَقُومُ المَغْرِبَاتُ والفُتُونُ؟ فَلَنُجَرِّبُ إِذَا جَيِّدًا أَنْ لَا نَضْحَبَ أَلْوَانَ الحَيَاةِ الَّتِي تَمُرُّ بِنَا
بِاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِ، فَتَنْقَلِبَ مَسْرُجِيَّةً تَافِهَةً القِيَمَةِ. وَنَحْنُ مِنْ هَذِهِ المَسْرُجِيَّةِ نَفْسِهَا -
وَهِيَ أَفْتِعَالُنَا - نُسَرُّ وَنَأْسَى إِذَا اسْتَجَبْنَا إِلَيْهَا بِشُعُورِنَا، فَسِرُّ مَا يَنْتَابُنَا مِنْ شَقَاءِ الحَيَاةِ،
أَوْ سَعَادَتِهَا، قَائِمٌ فِي الاسْتِجَابَةِ الشُّعُورِيَّةِ فَقَطُّ، فَالْحَيَاةُ لَيْسَتْ تَمْلِكُ سِوَى أَشْمَاءِ
نَحْنُ نُفَرِّغُ فِيهَا مَسْمِيَّاتِهَا. فَإِذَا حُلْنَا بَيْنَ الشُّعُورِ وَالاسْتِجَابَةِ، أَذَرَكْنَا سِرَّ الحَيَاةِ
وَحَقِيقَتَهَا، وَاسْتَشْعَرْنَا بِهَيْئَتِ الخُلْدِ، وَأَنْشَتَيْنَا نَتَقَلَّبُ فِي حَيَاةٍ ذَابَتْ عَلَيْهَا
كِبَرِيَاءُ أَبَدِيَّةِ السَّمَاءِ، وَكِبَرِيَاءُ مَعَانِيهَا وَأَخْلَامِهَا... رَنَّ فِي أَذُنِ الحُسَيْنِ وَهُوَ فِي
مَذْهَبِ تَفْكِيرِهِ هَذَا أَوْ تَأْمُلِهِ... فَلَنَنْتَجِرْ! هَلُمَّ إِلَى الهَيْكَلِ! إِلَى مِخْرَابِ المَقْبَدِ،
مِخْرَابِ الرُّوحِ وَالجَمَالِ وَالْحُبِّ وَالْخَيْرِ!

(١) نَفْيِي بِالضَّمِيرِ هُنَا الْمُضَعَرُّ، أَيِ الْمَعْنَى اللَّغَوِيَّةِ دُونَ الْمَعْنَى الْأَخْلَاقِيَّةِ، وَكَذَلِكَ الِوُجْدَانِ.

ظَلَّ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ النَّشْوَةِ وَسَكْرَةِ الحُلُمِ، وَخَيْنِ الرُّوحِ، وَرَفَةِ الطُّهْرِ،
وَحَقَقَةِ الحُبِّ، وَظَلَّ النَّاسُ خَارِجَ الهَيْكَلِ يَتَقَلَّبُونَ في حَيَاةِ تَمَوُّجِ الفُتُونِ
وَالشَّهَوَاتِ، وَرَشَحَاتِ الأعْصَابِ مِنْ لَذَّةِ وَأَلَمٍ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا مِنَ السَّرَابِ.
كَانَ كَأَنَّهُ في مِخْرَابِهِ بَيْتَ القَصِيدِ في أُنْشُودَةِ الحَيَاةِ، أَوْ أُنْشُودَةِ الطُّهْرِ في
شِعْرِ الوُجُودِ.

ظَلَّ في مِخْرَابِ الرُّوحِ رَانِيَا شَاخِصًا، زَمَنًا طَوِيلًا، في حِسَابِ مَنْ دُونَ
مُحْدُودِ الهَيْكَلِ، وَإِنْ كَانَ، في حِسَابِهِ، لَمْ يُفْنِ اللَّحْظَةَ الْأُولَى بَعْدُ، وَهَلْ في لَحْظَةِ
الإِشْرَاقِ وَجُودٌ لِلزَّمَنِ؟ إِنْ لَحْظَةُ الإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، وَأَوَّلُ آخِرٍ في الأَبَدِ إلْغَاءُ فِكْرَةِ
الزَّمَانِ مِنْهُ.

وَفِي لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ سِرُّ الحَيَاةِ، وَلِمَكَانِ هَذَا السِّرِّ فِينَا لَا نَفْتًا نَنْشُدُ النَّشْوَةَ
فِي الحُبِّ وَفِي الفَنِّ. وَلَآنَ في لَحْظَةِ الإِشْرَاقِ لَحْظَةٌ أَبَدِيَّةٌ، لَا يَشْعُرُ المَحِبُّونَ بِدُنْيَا
الحَيَاةِ وَمَا آجَتَمَعَ فِيهَا، ثُمَّ لَا يَشْعُرُونَ بِغَيْرِ دُنْيَاهُمْ، لَقَدْ آتَنَشَوْا فَهَمَّ يَحْلُمُونَ.

فِي كُلِّ أَشْيَاءِ الوُجُودِ لَفَتَاتُ إِشْرَاقٍ، وَهِيَ تَتَنَادَى بِالحَيِّ إِلَى التَّائُمْلِ لِيَتَجَوَّزَ
مِنْ عُبابِ السَّرَابِ، قَبْلَمَا يُعْتَصِرُ فِي الأَلِيمَاكِ السَّائِخِ.

إِنْ لَحْظَةُ الإِشْرَاقِ فِي الفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ فِي الحُبِّ، وَلَحْظَةُ الإِشْرَاقِ
فِي الفَنِّ تَنْتَهِي بِلَحْظَةِ الإِشْرَاقِ فِي الهَيْكَلِ أَيْ التَّائُمْلِ، وَهُنَا تَزْدَفُ سُدُودُ الشُّعُورِ
فِي القَلْبِ، فَتَدْفُقُ لُجُجُ الإِشْرَاقِ، وَفِي عُبابِهَا بَاتَ الحُسَيْنُ يَطْفُو حَالِمًا يَشْمُو بِهِ
الْمَدُّ. إِنَّهُ نَشْوَانُ. أَلَيْسَتْ حُشَاشَتُهُ تُنْذِرُهَا خَمْرَةُ اللَّهِ، تُرَابٌ بِقَمِي: إِنَّهَا تُنْذِرُ بِرَحِيقِ
الأَزَلِ.

بَدَأَ الحُسَيْنُ لَا يَرَى شَيْئًا، إِلَّا رَأَى اللَّهَ وَرَاءَهُ، وَانْتَهَى وَهُوَ لَا يَرَى شَيْئًا إِلَّا
رَأَى اللَّهَ أَمَامَهُ، وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ لَا يَرَى شَيْئًا، فَقَدْ فَنِيَتْ الظُّلَالُ كُلُّهَا فِي الإِشْرَاقِ،

وَأَمْحَى خَيَالُ الْأَشْيَاءِ فِي مُقَلَّةِ الشَّمْسِ.

فَلَا يَدْعُ إِنْ أَسْتَوَى قَلْبُهُ عَلَى قَاعِدَتِهِ، كَمَا أَسْتَوَى فِكْرُهُ عَلَى الْقَاعِدَةِ
عَيْنِهَا، وَتَمَلَّأَ ضَمِيرُهُ بِالمَثَالِيَةِ وَشَاعَ فِي وَجْدَانِهِ الْحَقُّ بِقَضَايَاهُ الْعَلِيَا. فَهُوَ خَصِيبُ
الرُّوحِ أَكْثَرَ مَا تَكُونُ خُصُوبَةٌ، وَمِنْ فُؤَادِهِ يَتَدَفَّقُ نَمِيرُ صَالِحِ الْخَيْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ
وَالْإِنْسَانِ، وَتَتَفَجَّرُ مِنْ أَعْمَاقِ نَفْسِهِ يَنَابِيعُ الْفَضَائِلِ. فَظَلَّ مُصَدَّرَ كَمُودَاتِ تُشِيرُ
إِلَى الْمَكَارِمِ الَّتِي قِيلَ عَنْهَا: إِنَّهَا أَخْلَامُ الشَّاعِرِ وَأُغْنِيَةُ الْعُنْدَلِيْبِ، أَلَا لَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ
الْأَخْلَامُ الْعَلِيَا تُشِيرُ إِلَى الْحُسَيْنِ وَتَقُولُ: إِنِّي هُنَا!

كَانَ قَدِ اسْتُطِيرَ قَلْبُهُ بِالْحَقِيقَةِ الْإِلَهِيَّةِ، فَهُوَ لَا يَقْتَأُ يَنْشُدُهَا وَيَسْتَعْرِقُ مُتَمَلِّمًا
فِي يَبْدَاءِ جَمَالِهَا، فَكَأَنَّهُ وَهُوَ فِي الْحِرَابِ قَدْ جَسَدَ الْحِرَابِ فِيهِ مَعْنَاهُ. فَلَمْ يَدُغْ يَمْدُ
خَيَالِ الْإِنْسَانِ بَلْ عَدَا يَمْدُ وَاقِعَ الْإِنْسَانِ، حِينَ أَضْحَى مَعْنَى الْحِرَابِ لِنَسَانًا يَعِيشُ
فِي النَّاسِ، فَكَانَ مِثَالُ الْخَيْرِ كُلِّ الْخَيْرِ، وَمِثَالُ الطُّهْرِ كُلِّ الطُّهْرِ، فَلَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا
مُضَلِّبًا حَتَّى كَأَنَّ حَيَاتَهُ جَاءَتْ عَلَى مِقْدَارِ الصَّلَاةِ، وَإِلَّا سَخِيئًا جَوَادًا حَتَّى كَأَنَّ
غَايَةَ الْحَيَاةِ فِي غَايَةِ الْجُودِ، وَإِلَّا مُسْتَطِيبًا صَهَوَاتِ خُبُولِهِ إِلَى مَكَّةَ كَأَنَّهُ يَشْعُرُ بِالْحَجِّ
أَنَّهُ - مِثْلَمَا نَعْبُرُ الْيَوْمَ - تَسْجِيلٌ لِلْأَنْسَمِ فِي سِجْلِ التَّشْرِيفَاتِ، وَلَيْسَ أَشْهَى إِلَى قَلْبِهِ
مِنْ مُعَاوَدَةِ ذَلِكَ؟

لِذَا، كَانَ الْحُسَيْنُ، بِجَاذِبِيَّةِ الرُّوحِ، مَهْوًى الْقُلُوبِ وَنَدَى الْأَفْعِدَةِ تَحُومُ مِنْ
حَوْلِهِ كَأَنَّهَا تَزُورِي غُلَّتْهَا، فَقَدْ سَقَطَ الْعِطَاشُ مِنْهُ بَعْدَ التَّيِّهِ عَلَى رَقَارِقِ التَّيْبُوعِ، فَمَا
كُنْتُ تَرَى النَّاسَ «إِلَّا عُكْفًا حَوْلَهُ» مُنْتَشِينَ، يَنْعَمُونَ بَيْنَ يَدَيْهِ بِالْحَنِينِ إِلَى
الْمَجْهُولِ «كَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِهِمُ الطُّيْرَ».

فَكَانَ مَحَلُّهُ مِنَ النَّاسِ مَحَلُّ جَدِّهِ النَّبِيِّ، تَجِدُ فِيهِ الْأَرْوَاحَ الشَّارِدَةَ الْحَائِرَةَ مَا
تَشْتَهِي مِنْ طُمَأْنِينَةٍ وَمَا تَشَاءُ مِنْ سَكِينَةٍ. فَإِذَا عَبَدَ اللَّهُ بُنُ عَبَّاسٍ عَلَى مَكَانَتِهِ يَأْخُذُ
بِرِكَابِهِ فِي شُعُورٍ وَدُونَ شُعُورٍ، وَإِذَا قِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ، قَالَ: «إِنَّ هَذَا آتَى رَسُولِ اللَّهِ،

أَفَلَيْسَ مِنْ سَعَادَتِي أَنْ أَخَذَ بِرِكَابِهِ؟... وإذا أبو هُرَيْرَةَ يَسِيرُ وَالْحُسَيْنُ فِي بَجَنَازَةٍ فَأَغْيَا الْحُسَيْنُ وَقَعَدَ، «فَجَعَلَ أَبُو هُرَيْرَةَ يَنْقُضُ الثَّرَابَ عَنْ قَدَمَيْهِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: وَأَنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ تَفْعَلُ هَذَا؟

فَقَالَ لَهُ: دَعْنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ يَعْلَمُ النَّاسُ مِنْكَ مَا أَعْلَمَ لَحَمْلُوكَ عَلَى رِقَابِهِمْ!... وإذا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ «يَرَى الْحُسَيْنَ مُقْبِلًا وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ فِي جَمَاعَةٍ، فَيَقُولُ: هَذَا أَحَبُّ أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَيَّ أَهْلِ الْأَرْضِ وَإِلَى أَهْلِ السَّمَاءِ الْيَوْمَ».

وكان، على هذه المكانة، لا تَزِدُّهُ كِبَرِيَاءُ الْمُتَخَايِلِ، فَإِنَّ الْكِبَرِيَاءَ شُعُورٌ بِنَقْصِ الذَّاتِ، وَجَبَرَتْ لِهَذَا النِّقْصِ بِالظُّاهِرِ، وَمَا حَاجَةُ الْعَظِيمِ إِلَى الْأَنْوَابِ، وَالْعَظَمَةُ ذَاتِيَّةٌ تَكُونُ أَكْثَرَ أَسْرًا كُلَّمَا كَانَتْ أَكْثَرَ عُويَا.

فَالْكِبَرِيَاءُ مَرَضٌ يَبْنَى أَنْ يَكُونَ فِي الذَّاتِ، أَوْ أَنْ يَكُونَ فِي الْإِذْرَاكِ، وَفِي كِلْتَا حَالَتَيْهَا تُعْبِرُ عَنْ أَنَّهَا كَشَجَرَةٍ الْأُورَاقِ فِي الْخَرِيفِ، أَوْ كَزَعْبِ الثَّعْمِ فِي الْإِغْصَارِ.

زَعَمُوا أَنَّ تُفَاحَةَ نَبَتَتْ فِي أَضَلِّ شَجَرَةٍ بَلُوطٍ، فَأَطَلَتْ عَلَيْهَا مِنْ عَلَيَّائِهَا الشَّامِخِ بِخَيْلَاءٍ وَأَزْدِهَاءٍ، وَقَالَتْ: أَنْتِ حَقِيرَةٌ، حَقِيرٌ بَنَانُكَ الَّذِي تَحْمِلِينَ، حَتَّى صَوْتُكَ حَقِيرٌ فِي نَجْوَى النَّسِيمِ سَاعَةً يَنْطَلِقُ فِي السَّحْرِ يُغَارِلُ غَايَاتِ الْأَشْجَارِ وَيُسَامِرُهَا... وَأَنْتَقَضَتْ تَصَفُّقٌ، فَقَدْ مَرَّ الرِّيحُ يَهْدُهَا، وَذَهَبَتْ تَضْحُكُ مُتَمَائِلَةً فِي سُخْرِيَّةٍ وَكِبَرِيَاءٍ. وَهَبَتْ فِي أَثَرِ الرِّيحِ أَعَاصِيرُ تَزَارُ فَطَالَتْ ضِخْكَتُهَا وَاسْتَحَالَتْ فَهْقَهَةً لَمْ تَزَلْ تَمْتَدُّ، وَلَكِنَّهَا أَنْقَلَبَتْ فَجَاءَةً إِلَى مِثْلِ حَشْرَجَةٍ رَهِيَّةٍ أَنْكَفَاتٍ مَعَهَا تَزُوتُ بِالْأَرْضِ عِنْدَ قَدَمِ التُّفَاحَةِ، فَمَالَتْ هَذِهِ عَلَيْهَا رَائِيَةً تَقُولُ:

لَعَلَّكَ الْآنَ - أَيُّهَا الْأَخْتُ - أَصْدَقُ زَمْرًا فِي الْكِبَرِيَاءِ...

وَمَرَّ سَائِرُ طَرِيقِي بَحْدٍ بِهِ الْمَسِيرُ، فَوَقَفَ عِنْدَهُمَا تَعْبًا ضَاوِيًا، وَأَهْوَتْ يَدُهُ تَطْعَمُ مِنْ ثَمَرِ الْبَلُوطَةِ، فَخَبَطَتْهُ مَرَارَةٌ حَادَّةٌ، فَتَقَرَّرَ مُسْتَنْعِصًا كَالَّذِي مَسَّهُ أَفْعَى، وَتَرَايَدَ

به الظلماً، وتَلَبَّثَ في حَيْرَةٍ طَوِيلاً قَبْلَ أَنْ أَخَذَ مِنْ ثَمَرِ الأُخْرَى، فَاخْلَوَى وشَاعَ الرُّيُّ في جَوَانِحِهِ، فَقَالَ:

مُبَارَكَةٌ أَنْتِ! فَإِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الذَّاتِ فِي شَكْلِ حُدُودِ الحِسَانِ، وَأَمَّا أَنْتِ الأُخْرَى فَبُعْدًا لَكَ! إِنَّكَ تَحْمِلِينَ عُصَارَةَ الكِبْرِيَاءِ فِي شَكْلِ جِلَّةِ الجِمَالِ! فَسَمِعْتُ كِلْتَاهُمَا مُحْكَمَ الحَقِيقَةِ عَلَيَّهِمَا، فَمَا تَاهَتْ إِحْدَاهُمَا، وَهِيَ كَبِيرَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ الوجودِ، وَلَقَدْ تَضَاءَلَتِ الأُخْرَى وَهِيَ عَدِيمَةُ الذَّاتِ كَبِيرَةُ فِي العَدَمِ، وَرَاحَتْ وَقَدْ أَخْضِرَّتْ عَلَيْهَا الكِبْرِيَاءُ كَأَنَّهَا تَنْظُرُ إِلَى أَشْلَائِهَا مُمَزَّقَةً... وَقِيلَ، بَعْدَ حِينٍ، إِنَّ المَوَاقِدَ أَنْتَهَبَتْهَا، وَحَالَتْ فِي الرَّمَادِ والدُّخَانِ تَقُولُ أَيْضاً: إِنِّي لَمْ أَرَلْ كِبْرِيَاءً تَعْلُوا!...

«مَرَّ الحُسَيْنُ بِمَسَاكِينٍ يَأْكُلُونَ فِي الصُّفَّةِ^(٢)، فَقَالُوا: الغَدَاءُ. فَتَنَزَّلَ وَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ المُتَكَبِّرِينَ. فَتَعَدَّى ثُمَّ قَالَ: قَدْ أَجَبْتُكُمْ فَأَجِيبُونِي، قَالُوا: نَعَمْ... فَمَضَى بِهِمْ إِلَى مَنْزِلِهِ، وَقَالَ لَخَادِمِهِ: أَخْرِجِي مَا كُنْتُ تَدَّخِرِينَ».

والحُسَيْنُ كَانَ، وَهُوَ فِي الهَيْكَلِ، لَا يَفْتَأُ يُعِينُ النَّظَرَ فِي حَيَاةِ النَّاسِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَعْشَاهَا، يُصْلِحُ فِيهَا وَيُصْلِحُ لَهَا حَتَّى آذَنَهُ الهَيْكَلُ بالخُرُوجِ، كَمَا خَرَجَ جَدُّهُ مِنْ غَارِ جِرَاءَ قَبْلُ، لِيَأْخُذَ الحَيَاةَ طَبَقَ قَاعِدَةِ الإِسْلَامِ، فَتَحَدَّثَهُ أَوْثَانُ الأَحْيَاءِ، فَحَارَبَهُمْ مُنْتَشِرِينَ وَمُجْتَمِعِينَ.

فَالنَّبِيُّ الجَدُّ، مِنْ قَبْلُ، حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي الفِكْرِ وَدَحْضَهَا؛ وَالْحُسَيْنُ السَّبْطُ حَارَبَ الوَثَنِيَّةَ فِي المُجْتَمَعِ، وَهُوَ، وَإِنْ لَمْ يَدْحَضْهَا، فَقَدْ رَسَمَ الطَّرِيقَ لِحَرْبِهَا، وَأَبَاحَ ثَوْرَةَ التَّحَرُّرِ عَلَى أَيْةِ صُورِهَا وَأَشْكَالِهَا.

*

(٢) المكان المَعْدُ لِطَعَامِ الْمَسَاكِينِ وَالْفُقَرَاءِ.

ذَابَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ فِي الْقُشُورِ...
وَرَاخَ الْأَحْيَاءُ يَتَعَلَّقُونَ مِنْهَا بِالْعُثَاءِ وَالظَّلَالِ...
فِي نَشْوَةِ كَنْشَوَةِ الْخَفْرِ تُعْبِزُ عَنْ أَنَّهَا بَاطِلَةٌ، تَمُدُّ بِالْعَرَبِدَةِ دُونَ مَا
أَحْلَامُ!...

*

وَقَلِيلٌ هُمُ الَّذِينَ نَفَذُوا مِنَ الْقُشُورِ إِلَى اللَّبَابِ...
فَطَعِمُوا الْحَيَاةَ الَّتِي هِيَ هَيْئَةُ الْأَبَدِيَّةِ...
فَاسْتَعْلَوْا وَوَقَفُوا عَلَى هَامِ الْقُشُورِ يَنْظُرُونَ إِلَى الْعَلَاءِ...
وَتَحَدَّثَ هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ رَأَوْا، عِنْدَ أَفْقِ الْأَبَدِيَّةِ، إِنْسَانًا يُمِجُّ فِي السَّمَاءِ...
عَرَفُوا فِي طَلْعَتِهِ إِنْسَانَ الْهَيْكَلِ الَّذِي أَغْرَاهُمْ بِاللَّحَاقِ!...

* * *

في وجه الظلم

في جَوْفِ اللَّيْلِ العميقِ عُمَقَ الأَبَدِيَّةِ والمجهولِ، حينَ كَانَ الظَّلَامُ يَنْتَشِرُ على
شَكْلِ أُرْدِيَّةٍ فَاحِمَةٍ، تُلْفَعُ وَجْهَ الكَوْنِ وتُلْقِيهِ في سُكُونٍ حَائِرٍ وشَبَابٍ واجِمٍ
مُخِيفٍ، أَنْطَلَقَتْ أَنَّهُ تَتَّبِعُهَا أُخْرَى وَأُخْرَى، في تَلَاخُفٍ بَدَأَ بَطِيئاً ثُمَّ كَرَّ سَرِيعاً،
وكانَتْ أَنَا تُسَمِّعُ جَرِيحَةً، وَيُخَيِّلُ أَنَّهَا تُرَى دَائِمَةً كَلِمَةً، تَجْتَمِعُ فَتُشَكِّلُ صَرِيحَةً
بَاعِثَةً أَوْ بَعْتَةً صَارِيحَةً، وَتَتَوَزَّعُ مُتَفَقِّطَةً مُتَنَاوِحَةً فَتَتَوَلَّفُ لِحْنًا فَانِيًا، كَأَنَّهُ لِحْنُ
التَّلَاشِيِ الْمُحْتَضِرِ، أَوْ نَعْمَةُ الْفَنَاءِ الدَّائِبِ في أَفْوَاهِ الْقُبُورِ.

أَضْغَى الْحُسَيْنُ إلى مَا يَتَنَاهَى في سَمْعِهِ، وَمَالَ بِأُذُنِهِ كَأَنَّهُ يَسْأَلُ: مَاذَا؟ وَقَدْ
خَفَّ قَلْبُهُ إِلَيْهَا يُسَاقِئُ السَّمْعَ، وَلَكِنَّ التَّأْمَاتِ اخْتَلَطَتْ فَأَدَارَ أُذُنَيْهِ كِلْتَابَهُمَا إلى
الْجِهَاتِ كُلِّهَا، وَهَذَا قَلْبُهُ يَتَوَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا، يَبْدَأُ أَنَّهَا ظَلَّتْ تَقُولُ في مَنْطِقِ
الصَّدَى: أَوَاةُ! وَظَلَّ كَأَنَّهُ يَقُولُ: مَاذَا؟ وَاخْتَلَطَتِ الْآهَاتُ وَأَنْبَهَمَتْ... فَهَبَّ
يَشْتَدُّ خَارِجَ الْهَيْكَلِ مُسْتَطَلِعًا وَهُوَ يُرَدِّدُ:

الْلَّيْلُ لَيْلٌ، وَهُوَ وَئِيلٌ وَئِيلٌ وَسَالٌ بِالْقَوْمِ الطُّغَاةِ السَّيْلُ

وَيْلٌ لِلظُّلَمِ وَالظَّالِمِينَ، «الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

أَطْلَ مِنَ الْهَيْكَلِ، وَأَطْلَعَ رَأْسَهُ، وَالتَّاسُ مُتَجَمِّهَرُونَ على بَعْضِهِمْ كَالْعَمَامِ

المُرْفَ يَقُولُونَ: أَفِي كُلِّ يَوْمٍ صَحِيَّةٌ وَدَمٌ يُطَلُّ؟ أَفِي كُلِّ يَوْمٍ تَمَرُّقُ أَكْبَادٌ وَتُنْثَرُ أَشْلَاءٌ؟

لَقَدْ جَاءَ النَّعِيُّ بِأَنَّ حُجْرَ بْنَ عَدِيٍّ طُلَّ دَمُهُ مُنْذُ لَيَالٍ فِي نَقْرِ مِنْ صَحْبِهِ، وَهَوْلَاءِ وَجُوهُ أَهْلِ الْكَوْفَةِ يَسْتَصْرِخُونَ وَيُنْتَصِفُونَ.

قَالَ الْحُسَيْنُ: رَبَّاهُ مَا أَسْمَعُ... أَحْجَرُ يُقْتَلُ وَلَا نَصْنَعُ شَيْئاً؟ فَيَا حَيَاةَ أَشْيَحِي وَأَعَزِّي، وَيَا دُنْيَا الْآيْمِينَ ذَوِيي وَأَصْمَحَلِّي!

وَكَانَ قَدْ آذَنَهُمُ الْفَجْرُ بِالصَّلَاةِ فَعَاجَوْا إِلَى الْمَسْجِدِ وَالتَّأَمَّوْا صُفُوفاً، وَمَا أَنْصَرَفُوا حَتَّى تَحَلَّقُوا عَلَى شَكْلِ دَوَائِرٍ فِي بَعْضِهَا... فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكَوْفَةِ فَقَالَ:

أَيُّهَا النَّاسُ: أَنْتُمْ هُنَا فِي الْمَدِينَةِ بَقِيَّةُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ، وَالْيَكْمُ تَتَجَهُّ الْأَنْظَارُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، وَإِلَى ظِلَالِكُمْ يَفِيئُونَ قَصْدَ تَطْهِيرِ الْمُجْتَمَعِ مِنَ الْأَذْرَانِ.

أَنْتُمْ هُمْ الْأَنْصَارُ، وَبَيْنَكُمْ تَرَعْرَعَتِ الثُّبُوءُ، وَاسْتَدَّتْ قَوَادِمُهَا، وَرَبَتْ خَوَافِهَا. فَاسْتَوَى النَّسْرُ وَحَلَّقَ صُعْدًا فِي كُلِّ مَجَالٍ، وَارْتَعَدَتْ فَرَائِصُ الْبَغَاثِ، وَأَهْوَى الْحَفَّاشُ إِلَى الْحَفَائِرِ يَسْتَحْفِي. وَلَقَدْ عَادَ النَّسْرُ الْآنَ إِلَى وَكْرِهِ، وَأَخَذَهُ رُقَادٌ عَمِيقٌ، فَاسْتَنْسَرَ الْبَغَاثُ وَعَدَّتِ الْهَوَامُّ فِي كُلِّ مَكَانٍ. إِنَّ الْمَدِينَةَ هِيَ نَسْرُ الثُّبُوءِ، فَأَهْيِئُوا بِالنَّسْرِ إِلَى التَّخْلِيقِ لِتَرْتَعِدَ الْهَوَامُّ مِنْ جَدِيدٍ، وَتُنْسَحِقَ فِي الرُّغَامِ أَبَدًا.

أَلَا فَأَنْتُمْ حَفَظَةُ الْوَحْيِ، وَحَامُو ذِمَارِ الرِّسَالَةِ دُونَ الْعَاطِشِينَ. أَلَا لَقَدْ آوَدَّ الْمُجْتَمَعُ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ الرُّغْنَاءِ، وَلَكِنْ بَأَثْوَابٍ أُخْرَى تَتَمَاجُجُ مِنْ خِلَالِهَا، وَلَيْتَ هَذَا فَقَطْ، إِنَّهُ ضَمَّ إِلَى جَاهِلِيَّتِهِ، قَبْلَ الرِّسَالَةِ، جَاهِلِيَّةَ كُلِّ أُمَّةٍ وَكُلِّ قَبِيلٍ.

أُنْظُرُوا! أُنْظُرُوا! لَقَدْ بَعِثْتُ مُحَمَّدًا عَدُوًّا لِلْمُلْكِيَّاتِ، فَبَشْنَا نَتَقَلَّبُ فِي أَرْدَا أَشْكَالِهَا. وَعَلَّمَ مُحَمَّدٌ ضَرُورَةَ الْحَدِّ مِنْ طُعْيَانِ رِجَالِ الْمَالِ، فَصَارَتْ كُلُّ الْقَوَى فِي

أُئِدِيهِمْ. وَأَطْلَقَ مُحَمَّدٌ حُرِّيَّةَ الْفَرْدِ، وَأَعْطَاهُ الْحَقَّ بِالْحَيَاةِ كَيْفَ شَاءَ فِي حُدُودِ الصَّالِحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْعَامِّ، وَفِي لِحُدُودِ الْأَخْلَاقِ الْمُسْلِكِيَّةِ وَالضَّمِيرِ الْإِنْسَانِيِّ الشَّامِلِ، فَإِذَا نَحْنُ نَحْيَا فِي اسْتِعْبَادِ اجْتِمَاعِيٍّ مُنْكَرٍ، حَتَّى لَقَدْ تَنَاهَوْا فَانْتَرَعُوا حَقَّ الْحَيَاةِ مِنْ أَيْدِينَا، وَبَاتُوا يُنْعَمُونَ عَلَيْنَا، إِذَا شَاءَتْ شَهَوَاتُهُمْ، بِقَدْرِ حَقِيرِ بَلِيدٍ مِنَ الْحَيَاةِ الْبَائِسَةِ الشَّقِيَّةِ، وَأَفْضَلُ مِنْهَا الْمَوْتُ خُطَّةً، وَاللَّهِ.

وَصَحَّ الْكِئِدِيُّونَ مِنْ أَطْرَافِ الْجُمُوعِ وَبَيْنَهَا: يَا لِنَارَاتِ حُجْرٍ! وَأَنْطَلَقَ الْمُتَكَلِّمُ الْكُوفِيُّ يَصِلُ مَا أَنْقَطَعَ مُلْتَاعاً مُهْتَاجاً: لَقَدْ أَذْكَرْتَنِي نَارَاتُهُمْ مَضْرَعُ حُجْرِ بْنِ عَدِيِّ الْكِئِدِيِّ، وَمَنْ يَجْهَلُهُ؟ لَقَدْ كَانَ مِنْ أَكْبَرِ أَعْلَامِ الرِّجَالِ، وَنُقْطَةُ الْفَضْلِ مِنْهُمْ، فَقَدْ صَحِبَ النَّبِيَّ وَأَظْهَرَ أَرْوَاعَ أَنْوَاعِ الْبُطُولَاتِ فِي فَتْحِ الشَّامِ مَعَ أَبِي عُبَيْدَةَ. وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِ «أَنَّ مُعَاوِيَةَ لَمَّا وَلَّى الْمَغِيرَةَ بْنَ سَعْبَةَ الْكُوفَةَ سَنَةَ إِحْدَى وَأَرْبَعِينَ، دَعَاهُ وَأَوْصَاهُ بِشَتْمِ عَلِيٍّ وَذَمِّهِ، وَالْعَبْثِ عَلَى أَصْحَابِهِ وَالْإِقْصَاءِ لَهُمْ، وَبِاطْرَاءِ شِيعَةِ عُثْمَانَ وَالْإِدْنَاءِ لَهُمْ وَالِاسْتِمَاعِ مِنْهُمْ. فَأَقَامَ الْمَغِيرَةُ عَامِلاً لِمُعَاوِيَةَ سَبْعَ سِنِينَ وَأَشْهُرًا، لَا يَدْعُ ذِمَّ عَلِيٍّ، وَالْوُقُوعَ فِيهِ، وَالِدَّعَاءَ لِعُثْمَانَ بِالرَّحْمَةِ، وَالتَّزْكِيَةَ لِأَصْحَابِهِ وَالْمُطَالِبِينَ بِدَمِهِ.

فَكَانَ حُجْرٌ إِذَا سَمِعَ ذَلِكَ قَالَ: بَلْ إِيَّاكُمْ قَدَّمَتِ اللَّهُ وَلَعَنَ... ثُمَّ قَامَ فَقَالَ: كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنَّ مَنْ تَذَمُّونَ وَتُعَيِّرُونَ لِأَحَقُّ بِالْفَضْلِ... أَلَا لَقَدْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ مُعَاوِيَةَ سِيَاسَةً تَدُلُّ عَلَى عَدَمِ فَهْمٍ جَيِّدٍ لِنَفْسِيَّةِ الْجَمَاهِيرِ، وَعَدَمِ تَعْلُّغٍ بَيْنَ خَنَايَاهَا وَفِي خِلَالِهَا، فَقَدْ كَانَ فِي هَذَا التَّنْقِصِ مَا يَكْفِي لِيَبْعَثَ الدَّفَائِنَ وَإِذْكَاءِ نَارِ الْخَفَائِظِ إِذْكَاءَ جَهَنَّمِيَّاتٍ سَاجِرًا، قَدْ يَأْتِي عَلَى أَرْكَانِ الدَّوْلَةِ وَيُطَوِّحُ بِهَا سَرَّ تَطْوِاحٍ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ نَفْسٍ تَنْطَوِي عَلَى أَحْقَادِ طَائِمَةِ دَفِينَةٍ وَتَغْدُو فِي آتِمَارَاتٍ تُزَوِّي بِهَا سَخَائِمَهَا. نَعَمْ هِيَ حِمَاقَةٌ، وَإِنْ كَانَ يَزْمِي بِهَا إِلَى جُمْلَةٍ غَايَاتِ:

أ - التَّشْفِي، وتوكيد ما سَبَقَ ونَشَرَهُ مِنْ دِعايَاتٍ ضِدَّ عَلِيٍّ فِي الشَّامِ وسَائِرِ مَنَاطِقِ نُفُوذِهِ.

ب - بَثَّ عَقِيدَةَ سَيِّئَةٍ تَنُمُو مَعَ الْأَيَّامِ لَدَى النَّاسِ فِي الْبَطْلِ الْإِسْلَامِيِّ الْخَالِدِ عَلِيٍّ، وَفِي بَنِيهِ، وَبِذَلِكَ يَأْخُذُ الطَّرِيقَ دُونَهُمْ إِذَا رَامُوا مُحَاوَلَةً مِنْ نَوْعِ الْمُحَاوَلَاتِ الْكُبْرَى، فَقَدْ سَمَّ الْجَوَّ عَلَيْهِمْ. وَغَيْرُ خَفِيِّ أَنَّ الْآرَاءَ وَالْمُعْتَقَدَاتِ إِنَّمَا تَنْشَأُ بِالتَّلْفِينِ وَالتَّكْرَارِ وَالْمُعَاوَذَةِ.

ج - تَحْرِيكَ أَنْصَارِ عَلِيٍّ لِلتَّمَرُّدِ وَاسْتِثَارَتِهِمْ لِلشَّعْبِ عَلَى رِجَالِ الدَّوْلَةِ وَالدَّوْلَةِ، وَبِذَلِكَ يَجِدُ السَّبَبَ لِإِدَانَتِهِمْ وَأَخْذِهِمْ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، وَهَذَا مَا وَقَعَ لِحُجْرِ بْنِ عَدِيٍّ وَجَمَاعَةِ كُبْرَى هُنَا وَهُنَاكَ.

ولكن، رُغِمَ أَنَّهَا تَقْصِدُ إِلَى كُلِّ هَذَا، فَقَدْ كَانَتْ سِيَاسَةً هُوَ جَاءَ أَعْمَى فِيهَا غُنْصُرُ الْإِنْتِقَامِ وَغَلَبَ عَلَى قَصْدِ السَّلَامِ الصَّرُورِيِّ إِذْ ذَاكَ، لِإِيجَادِ حَالَةٍ تَوَاضِلٍ صَاحِبِ مُخْلِصٍ بَيْنَ الدَّوْلَةِ وَالشَّعْبِ.

وَالْمُغِيرَةُ كَانَتْ، إِلَى ذَلِكَ، حَسَنَ التَّأْتِي، فَهِيَ يَفْعَلُ مَا يَأْمُرُ بِهِ مَرْجِعُهُ، وَيُزَكُّ النَّاسَ لِحُرِّيَّتِهِمْ فِي التَّغْلِيْقِ كَيْفَ شَاءُوا. «وَلَمَّا هَلَكَ، سَنَةَ إِحْدَى وَخَمْسِينَ، جُمِعَتِ الْكُوفَةُ وَالْبَصْرَةُ لِزِيَادِ بْنِ سُمَيَّةَ، فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ وَذَكَرَ عُثْمَانَ وَأَصْحَابَهُ فَقَرَّظَهُمْ، وَذَكَرَ قَتْلَهُ وَلَعَنَهُمْ، فَقَامَ حُجْرٌ فَفَعَلَ مِثْلَ الَّذِي كَانَ يَفْعَلُ بِالْمُغِيرَةِ، وَرَجَعَ زِيَادٌ إِلَى الْبَصْرَةِ، وَوَلِيَ الْكُوفَةَ عَمْرُو بْنُ الْحُرَيْثِ، فَبَلَغَهُ - أَيُّ زِيَادًا - أَنَّ حُجْرًا يَجْتَمِعُ إِلَيْهِ شِيعَةُ عَلِيٍّ، وَيُظْهِرُونَ أَلَهُمْ وَالْبِرَاءَةَ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَعَمَلِهِ. فَشَخَّصَ إِلَى الْكُوفَةِ وَخَطَبَ الْجُمُعَةَ، وَأَطَالَ الْخُطْبَةَ وَأَخَّرَ الصَّلَاةَ، فَقَالَ حُجْرٌ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ. ثُمَّ قَالَ: الصَّلَاةُ! فَمَضَى فِي خُطْبَتِهِ، فَلَمَّا خَشِيَ قُوَّةَ الصَّلَاةِ نَارَ إِلَيْهَا وَثَارَ النَّاسُ مَعَهُ. وَلَمْ يَسْغَ زِيَادًا إِلَّا التَّرْوُلَ وَالصَّلَاةَ بِالنَّاسِ، وَكَتَبَ إِلَى مُعَاوِيَةَ فِي أَمْرِهِ، فَكَتَبَ إِلَيْهِ مُعَاوِيَةُ: أَنَّ شُدَّهُ فِي الْحَدِيدِ ثُمَّ

أَحْمِلْهُ إِلَيَّ... فَأَخَذَ زِيَادُ حُجْرًا وَحَبَسَهُ ثُمَّ حَمَلَهُ إِلَى مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا دَخَلَ عَلَيْهِ
سَلَّمَ فَقَالَ لَهُ: وَاللَّهِ لَا أَقِيلُكَ وَلَا أَسْتَقِيلُكَ، أَخْرِجْهُ فَأَضْرِبُوا عُنُقَهُ... فَقَالَ
حُجْرٌ لِلَّذِينَ يَلُونُ أُمْرَهُ:

دَعُونِي حَتَّى أَصَلِّيَ رَكْعَتَيْنِ!

قالوا: صَلِّ... فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ خَفَّفَ فِيهِمَا، ثُمَّ قَالَ:

لَوْلَا أَنْ تَظُنُّوا بِي غَيْرَ الَّذِي أَنَا عَلَيْهِ لَأَخْبَيْتُ أَنْ تَكُونَا أَطْوَلَ بِمَا كَانْتَا، وَلَئِنْ
لَمْ يَكُنْ فِيمَا مَضَى مِنَ الصَّلَاةِ خَيْرٌ فَمَا فِي هَاتَيْنِ خَيْرٌ... ثُمَّ قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ مِنْ
أَهْلِهِ:

لَا تُطْلِقُوا عَنِّي حَدِيدًا وَلَا تُغْسِلُوا عَنِّي دَمًا، فَإِنِّي أَلَاقِي بِهَا مُعَاوِيَةَ غَدًا عَلَى
الْجَادَةِ... ثُمَّ تَتَبَعَ أَصْحَابَهُ وَاحِدًا بَعْدَ آخَرَ، فَقَتَلَ عُمَرَ بْنَ الْحَمِقِ وَرِفَاعَةَ بْنَ شَدَادٍ
إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ لَا يُحْصَوْنَ.

أَلَا يَا سِبْطَ مُحَمَّدٍ! إِنَّ مَبَادِيءَ مُحَمَّدٍ تُنَادِيكَ، وَقُرْآنَ مُحَمَّدٍ يَهَيِّبُ بِكَ،
إِلَى الْعَمَلِ، إِلَى الْعَمَلِ السَّرِيعِ، فَلَمْ يَغْدُ فِي الْقَوْسِ مَنِيْعٌ، وَلَا فِي الصَّبْرِ مُعْتَصِمٌ،
فَقَدْ تَشَقَّقَ الْحِزَامُ عَلَى الطُّبِيِّينَ، بَلْ تَهَرَّأَ مِثْلَ نَسِيلِ الرَّعْبِ.

وَهَبَّتْ تُغُولُ أَحْتُ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ بِقَوْلِهَا:

تَرَفُّعُ أَئِهَا الْقَمَرُ الْمُنِيرُ لَعَلَّكَ أَنْ تَرَى حُجْرًا يَسِيرُ
يَسِيرُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ لِيَقْتُلَهُ كَمَا زَعَمَ الْحَبِيرُ
تَجَبَّرَتِ الْجَبَابِرُ بَعْدَ حُجْرٍ وَطَابَ لَهَا الْخَوَزَنْقُ وَالسَّيْدُ
وَأُضْهِتِ الْبِلَادُ بِهِ مُحُولًا كَأَنَّ لَمْ يَأْتِهَا يَوْمٌ مَطِيرُ
أَلَا يَا حُجْرَ حُجْرَ بْنِ عَدِيٍّ تَلَقَّيْتُكَ السَّلَامَةَ وَالشُّرُورُ

أَخَافُ عَلَيْكَ... مَا أُرْدَى عَدِيًّا وَشَيْخًا فِي دِمَشْقَ لَهُ زَيْرُ
 أَلَا يَا لَيْتَ مُحْجَرًا مَاتَ مَوْتًا وَلَمْ يُنَحَّرْ كَمَا نُحَجِّرُ الْبَعِيرُ
 فَإِنْ يَهْلِكَ فَكُلُّ زَعِيمٍ قَوْمٌ إِلَى هُلْكِ مِنَ الدُّنْيَا يَصِيرُ
 وَعَلَى إِثْرِ ذَلِكَ قَامَ قَيْسُ بْنُ فَهْدَانَ يَقُولُ، وَهُوَ مُفْعَمُ الْحُزَنِ كَالَّذِي فَقَدَ كُلَّ
 ذَوِيهِ، أَوْ كُلِّ بَنِيهِ:

يَا مُحْجَرُ يَا ذَا الْخَيْرِ وَالْأَجْرِ يَا ذَا الْقَضَائِلِ نَابَةَ الذِّكْرِ
 كُنْتُ الْمُدَافِعَ عَنْ ظُلَامَتِنَا عِنْدَ الظُّلُومِ وَمَانِعَ الثُّغْرِ
 كَانَتْ حَيَاتُكَ إِذْ حَيَّيْتُ لَنَا عِزًّا، وَمَوْتُكَ قَاصِمُ الظُّهْرِ
 يَا طُولَ مُكْتَابِي لِقَتْلِهِمْ مُحْجَرًا، وَطُولَ خَزَاةِ الْبَصْدِرِ
 قَدْ كِدْتُ أَضْعُقُ جَاذِعًا أَسْفًا وَأَمُوتُ مِنْ جَزَعٍ عَلَى مُحْجَرٍ
 فَدَمَعْتُ مُقْلَتَا الْحُسَيْنِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ: لَوْلَا بَيْعَةُ سَبَقَتْ
 لَسِرْتُ بِالنَّاسِ، وَثُرْتُ بِالظَّالِمِينَ، حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، وَاللَّهِ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ.
 وَبَيْنَمَا هُمْ مُجْلُوسٌ لَمْ يَتَفَرَّقُوا بَعْدُ، جَاءَ الْبَرِيدُ بِكُتُبٍ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ
 عَبَّاسٍ، فَكَانَ هَذَا أَسْرَعَهُمَا إِلَى فَضْلِ الْكِتَابِ. فَإِذَا زِيَادٌ «يَعْتَذِرُ فِي شَأْنِ مُحْجَرٍ
 وَأَصْحَابِهِ، فَأَلْقَى الْكِتَابَ رَاجِفًا مُرْتَعِدًا وَهُوَ يَقُولُ كَذَبٌ! كَذَبٌ! ثُمَّ أَنْشَأَ يُحَدِّثُ:
 إِنِّي حِينَما كُنْتُ فِي الْبَصْرَةِ كَبَّرَ بِي النَّاسُ تَكْبِيرَةً، ثُمَّ كَبَّرُوا الثَّانِيَةَ وَالثَّالِثَةَ، فَدَخَلَ
 عَلَيَّ زِيَادٌ فَقَالَ:

هَلْ أَنْتَ مُطِيعِي يَسْتَقِيمُ لَكَ النَّاسُ... فَقُلْتُ: مَاذَا؟

فَقَالَ: أُرْسِلُ إِلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، نَاسٍ مِنَ الْأَشْرَافِ، فَأَضْرِبُ رِقَابَهُمْ، فَإِنَّهُ
 يَسْتَقِيمُ لَكَ الْأَمْرُ... فَعَلِمْتُ أَنَّهُ صَنَعَ بِمُحْجَرٍ وَأَصْحَابِهِ مِثْلَ مَا أَشَارَ بِهِ عَلَيَّ.

وكان على المدينة يؤمّيز مزوان بن الحكم، فترقى الخبر إليه، فكتب إلى معاوية «يُعلمه أن رجلاً من أهل العراق قدّموا على الحسين وهم مقيمون عنده يحتفلون إليه... فكتب معاوية إلى الحسين:

أما بعد: فقد انتهت إليّ أمور عنك لست بها حريّاً، إن كانت حقاً فقد أظنك تركتها رغبة فدعها، ولعمري لله إن من أعطى الله عهداً وميثاقه لجدير بالوفاء، وإن أحق الناس بالوفاء لمن أعطى بيعة، من كان مثلك، في خطرِكَ وشرفِكَ ومنزلةِكَ التي أنزلك الله بها. وإن كان الذي بلغني باطلاً، فإنك أنت أعدل الناس لذلك. فعط نفسك، وبعهد الله أوف، فإنك متى تُكرّني أنكركَ، ومتى تُكرّني أكذك. فاتتني شق عصا هذه الأمة، وأن يردّهم الله على يدك في فتنة. فقد عرفت الناس ببلوتهم، فانظروا لنفسك ولدينك ولأمة محمد، ولا يستخفك الشفهاء والذين لا يعلمون».

وكان وقع كتاب معاوية عند الحسين، وهو يرى من مهازيل الحكم ومآسيه، وقع النار في الهشيم، فما تلبث حتى كتب إلى معاوية كتابه الخالد الذي كان وثيقة اتهامية خطيرة للسلطات العليا، وقائمة إحصاء بالأعمال الاعتيالية التي ارتكبتها، وكان، إلى هذا، استجواباً وإنذاراً شعيباً، قال:

«أما بعد: فقد بلغني كتابك، تذكّر فيه أنه انتهت إليك عني أمور أنت لي عنها راغب، وأنا بغيرها عندك جدير، وأن الحسنات لا يهدي لها ولا يسدّد إليها إلا الله تعالى.

وأما ما ذكرت أنه رقي إليك عني، فإنه إنما رقاؤه إليك الملاقون المشاؤون بالنسيمة، المرفقون بين الجمع، ما أزدت لك حزباً ولا عليك خلافاً، وإن كنت لأخشى الله في ترك ذلك منك، ومن الإغذار فيه إليك وإلى أوليائك القاسطين... ألفت القاتل حُجَرَ بن عديّ أخا كندة وأصحابه المصلين العابدين، الذين كانوا

يُكْرَهُونَ الظُّلْمَ وَيَسْتَفْظِعُونَ الْبِدْعَ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَا يَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، ثُمَّ قَتَلْتَهُمْ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا مِنْ بَغْدٍ مَا أُعْطِيَتْهُمْ الْإِيمَانُ الْمَغْلُظَةَ وَالْمَوَاتِيقَ الْمُؤَكَّدَةَ، جَرَاءَةً عَلَى اللَّهِ وَاسْتِخْفَافًا بَعْدِهِ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ عَمْرُو أَبِي الْحَمِقِ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ الْعَبِيدِ الصَّالِحِ الَّذِي أَهْلَيْتُهُ الْعِبَادَةَ، فَتَحَلَّ جِسْمُهُ وَأَصْفَرَ لَوْنُهُ، فَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا أَمْنْتَهُ وَأَعْطَيْتَهُ مِنَ الْغُيُودِ مَا لَوْ فَهَمَّتْهُ الْعُصْمُ لَنَزَلَتْ مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ؟ أَوْلَسْتَ قَدْ سَلَطْتَ زِيَادًا عَلَى النَّاسِ يَقْتُلُهُمْ وَيَقْطَعُ أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ، وَيَسْمُلُ أَعْيُنَهُمْ وَيُصَلِّبُهُمْ عَلَى مُجْدُوعِ التَّخْلِ، كَأَنَّكَ لَسْتَ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَلَيْسُوا مِنْكَ؟ أَوْلَسْتَ قَاتِلَ الْحَضْرَمِيِّ الَّذِي كَتَبَ إِلَيْكَ فِيهِ زِيَادٌ أَنَّهُ عَلَى دِينِ عَلِيٍّ، وَدِينُ عَلِيٍّ هُوَ دِينُ أَبِي عَمْرٍو الَّذِي أَجْلَسَكَ مَجْلِسَكَ الَّذِي أَنْتَ فِيهِ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَانَ شَرَفُكَ وَشَرَفُ آبَائِكَ تَجَسُّمَ الرَّحْلَتَيْنِ، رِخْلَةَ الشَّتَاءِ وَالصَّيْفِ؟

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: أَنْظِرْ لِنَفْسِكَ وَلِدِينِكَ وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ، وَأَتَّقِ شَيْئَ عَصَا هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَنْ تَرُدَّهُمْ إِلَى فِتْنَةٍ. وَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِتْنَةً أَعْظَمَ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنْ وَلَايَتِكَ عَلَيْهَا، وَلَا أَعْظَمَ نَظْرًا لِنَفْسِي وَلِدِينِي وَلَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ أَفْضَلَ مِنْ أَنْ أَجَاهِدَكَ، فَإِنْ فَعَلْتُ فَإِنَّهُ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ تَرَكْتُهُ فَإِنِّي أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِدِينِي، وَأَسْأَلُهُ تَوْفِيقَهُ لِإِرشَادِ أَمْرِي.

وَقُلْتَ فِيمَا قُلْتَ: إِنِّي إِنْ أَنْكَرْتُكَ تُنْكِرُونِي وَإِنْ أَكَيْدَكَ تَكِيدُنِي، فِكَيْدُنِي مَا بَدَأَ لَكَ، فَإِنِّي لِأَرْجُو أَنْ لَا يَضُرَّنِي كَيْدُكَ، وَأَنْ لَا يَكُونَ عَلَى أَحَدٍ أَضَرُّ مِنْهُ عَلَى نَفْسِكَ. لِأَنَّكَ قَدْ رَكِبْتَ جَهْلَكَ، وَتَحَرَّضْتَ عَلَى نَقْضِ عَهْدِكَ، وَلَعَمْرِي مَا وَفَيْتَ بِشَرْطٍ، وَلَقَدْ نَقَضْتَ عَهْدَكَ بِقَتْلِ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ الَّذِينَ قَتَلْتَهُمْ بَعْدَ الصُّلْحِ وَالْإِيمَانِ وَالْغُيُودِ وَالْمَوَاتِيقِ، فَقَتَلْتَهُمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا قَاتِلُوا وَقَتُلُوا. وَلَمْ تَفْعَلْ ذَلِكَ بِهِمْ إِلَّا لِذِكْرِهِمْ فَضْلَنَا وَتَعْظِيمِهِمْ حَقًّا، فَقَتَلْتَهُمْ مَخَافَةَ أَمْرٍ، لَعَلَّكَ لَوْ لَمْ تَقْتُلْهُمْ مِتَّ قَبْلَ أَنْ يَفْعَلُوا، أَوْ مَاتُوا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكُوا.

فَأَبْشِرُوا يَا مُعَاوِيَةُ بِالْقِصَاصِ، وَاسْتَيْقِنِ الْحِسَابَ، وَاعْلَمْ أَنَّ لِلَّهِ كِتَابًا لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا. وَلَيْسَ اللَّهُ بِنَاسٍ لَأَخْذِكَ بِالظُّلْمَةِ، وَقَتْلِكَ أَوْلِيَاءَهُ عَلَى النَّهْيِ، وَنَفْيِكَ أَوْلِيَاءَهُ مِنْ دَوْرِهِمْ إِلَى دَارِ الْعُزَّةِ. مَا أَرَاكَ إِلَّا قَدْ خَيْرْتِ نَفْسَكَ وَتَبَرَّتِ دِينَكَ، وَغَشَشْتَ رَعِيَّتَكَ، وَأَخْرَبْتَ أَمَانَتَكَ، وَسَمِعْتَ مَقَالََةَ السَّفِيهِ الْجَاهِلِ، وَأَخَفْتَ الْوَرَعَ التَّقِيَّ، وَالسَّلَامَ».

كَانَ جَدِيرًا بِهَذَا الْكِتَابِ أَنْ يُحَرِّكَ فِي هَيْئَةِ الْحُكْمِ ضَمَائِرَهُمْ وَيُرْدَهُمْ عَنْ غَوَايَاتِهِمْ، وَيَضَعُ حَدًّا لِسِيَاسَةِ الدَّمَاءِ، أَوْ عَلَى الْأَقْلُ يُخَفِّفُ مِنْ أَسَالِبِ الْبَطْشِ وَالْاِعْتِسَافِ. فَإِنَّ صِلَةَ الرَّاعِي بِالرَّعِيَّةِ صِلَةُ الْعَاطِفَةِ بِالْمُخْلِصَةِ، وَكُلَّمَا كَانَتْ صِلَةُ الْمُنْفَعَةِ بِالْخَالِصَةِ فَهَنَّاكَ يَوْجَدُ أَفْطَحَ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِ اللَّصُوصِيَّةِ وَالْاِعْتِصَابِ.

نَعْرِفُ أَنَّ إِحْصَاءَ الْأَخْطَاءِ عَلَى الْمُخْطِئِ يَذْفَعُهُ نَفْسِيًّا إِلَى تَصْحِيحِ الْخَطَأِ، إِلَّا إِذَا بَنِيَتْ النَّفْسُ عَلَى الشُّذُوزِ، كَمَنْ يَتَغَطَّشُ إِلَى الدَّمَاءِ، بِمَا فِيهِ مِنْ رَحْشِيَّةٍ كَامِنَةٍ، فَهَذَا يُحَسُّ بِلَذَّةٍ فِي نَهْرِ الدَّمَاءِ وَإِهْرَاقِهَا، وَتَأْخُذُهُ نَشْوَةٌ خَفِيَّةٌ يَتَرَدِّدُهَا وَتَقْدِادُهَا؛ إِلَّا إِذَا اسْتَحَالَ حُبُّ الذَّاتِ إِلَى فِكْرَةٍ ثَابِتَةٍ، فَيَسْتَحِيلُ الْخَطَأُ إِلَى صِفَةٍ نَفْسِيَّةٍ ثَابِتَةٍ أَيْضًا، هِيَ قَصْدُ الْخَطَأِ، فَلَا يَزَالُ صَاحِبُهَا يَقْصِدُ الْأَخْطَاءَ وَيَفْعَلُ الْإِجْرَامَ بِمَحْضِ الرَّغْبَةِ فِي تَوْفِيرِ شَهَوَاتِ الذَّاتِ وَتَنْمِيَةِ كِبْرِيَائِهَا.

وهذا ما قد حَدَّثَ بِالْفِعْلِ فِي حَاشِيَةِ مُعَاوِيَةَ، فَلَمْ يَكُنْ لِلْكِتَابِ مِنْ أَثَرٍ سِوَى مَا عَبَّرَتْ عَنْهُ رِوَايَةُ التَّارِيخِ أَبْلَغَ تَغْيِيرٍ: لَمَّا قَرَأَ مُعَاوِيَةَ الْكِتَابَ قَالَ:

«لَقَدْ كَانَ فِي نَفْسِهِ ضَبٌّ - أَيْ حِقْدٌ - مَا أَشْعُرُ بِهِ.

فَقَالَ يَزِيدُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَجِبْهُ جَوَابًا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ، تَذَكَّرْ فِيهِ أَبَاهُ بِشَرِّ فَعَلِهِ... وَدَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ:

أَمَا رَأَيْتَ مَا كَتَبَ الْحُسَيْنُ؟

قال: وما هو؟... فَأَقْرَأَهُ الْكِتَابَ، فقال: وما يَمْنَعُكَ أَنْ تُجِيبَهُ بِمَا يُصَغِّرُ إِلَيْهِ نَفْسَهُ؟ قالَ يَزِيدُ:

أَرَأَيْتَ - يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - رَأْيِي؟ فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ، وقال:

أَمَّا يَزِيدُ فَقَدْ أَشَارَ عَلَيَّ بِمِثْلِ رَأْيِكَ.

قالَ مُحَمَّدٌ: قَدْ أَصَابَ يَزِيدُ.

قالَ مُعَاوِيَةُ: أَخْطَأْتُكُمْ. أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَتَيْتُ دَهْبِثُ لَعَيْبِ عَلِيٍّ، فَمَا عَسَيْتُ أَنْ أَقُولَ فِيهِ، وَمَتَى مَا عَيْبْتُ رَجُلًا بِمَا لَا يَعْرِفُهُ النَّاسُ لَمْ يَخْفُلْ بِهِ، وَلَا يَرَاهُ النَّاسُ شَيْعًا وَكَذَّبُوهُ، وَمَا عَسَيْتُ أَنْ أَعَيْبَ حُسَيْنًا، وَاللَّهِ مَا أَرَى لِلْعَيْبِ فِيهِ مَوْضِعًا؛ قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْهِ أَتَوَعَّدُهُ وَأَتَهْدُدُهُ، ثُمَّ رَأَيْتُ أَلَّا أَفْعَلَ.

بعدَ هذا لم يَسعِ الحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يُشْرِفَ كَثِيرًا مِنْ دُنْيَا الْهَيْكَلِ، الَّتِي يَتَحَنَّنُهَا وَيَحْيَاهَا، إِلَى دُنْيَا النَّاسِ الَّتِي تَعُجُّ بِمَجْمُوعَةِ الْأَحْيَاءِ، وَتَخْتَلِطُ وَتَمُورُ بِالْبَغْيِ، يُضْلِخُ مِنْهَا مَا وَسِعَتْهُ إِضْلَاحُهُ وَيَحْدُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُغْيَانِ السُّلْطَاتِ عَلَى الْجَمَاعَاتِ وَالْأَفْرَادِ.

وَيُظْهِرُ أَنَّ السُّلْطَةَ، فِي كُلِّ مَكَانٍ، كَانَتْ قَدْ آتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا مِنْهَاجَ عَمَلٍ شاذٍّ، فَهِيَ تَسْعَى لِلْحَيَاةِ مَا وَسِعَتْهَا، دُونَ التَّقْيِيدِ بِقَانُونٍ أَوْ نِظَامٍ، فَضَاعَتْ حُقُوقُ الضُّعَفَاءِ ضِياعًا تامًّا، وَأَضْطَرُّوا الْأَفْرَادُ إِلَى اسْتِغْمَالِ وَسَائِلِ قُوَّتِهِمْ لِلْإِحْتِفَافِ بِحُقُوقِهِمْ، أَوْ دَفْعِ عَادِيَةِ الضُّمَمِ عَنْهُمْ، حَتَّى أَضْطَرُّوا أَخِيرًا إِلَى إِحْيَاءِ الْوَسَائِلِ الشَّائِعَةِ وَاعْتِمَادِهَا قَبْلَ نُشُوءِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ، مِنْ مِثْلِ مَا يُسَمَّوْنَ «حِلْفَ الْفُضُولِ»، وَهُوَ يُعَبَّرُ عَنْ تَكْتُلِ أَفْرَادٍ، أَوْ جَمَاعَاتٍ، عَلَى وَجْهَةِ نَظَرٍ تَتَعَلَّقُ بِالْخَيْرِ وَحِمَايَةِ الضَّعِيفِ. وَتَكُونُ مِثْلُ هَذِهِ الْوَسَائِلِ ضَرُورِيَّةً فِي غَيْرِ وَسَطِ الْحُكُومَةِ النَّظَامِيَّةِ بِالطَّبِيعِ، وَلَكِنَّ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا فِي وَسَطِهَا مَعْنَاهُ أَنَّ الْحُكُومَةَ نَفْسَهَا بَاتَتْ

خَطَرًا عَلَى الْأَمْنِ وَالْحُقُوقِ.

«كَانَ بَيْنَ الْحُسَيْنِ وَبَيْنَ الْوَلِيدِ بْنِ عُثْبَةَ، وَهَذَا يُؤَمِّدُ أَمِيرَ عَلَى الْمَدِينَةِ، مُنَازَعَةً فِي مَالٍ كَانَ بَيْنَهُمَا، فَتَحَامَلَ عَلَى الْحُسَيْنِ فِي حَقِّهِ لِسُلْطَانِهِ. فَقَالَ الْحُسَيْنُ: أَخْلِفُ بِاللَّهِ لِنُصِفَتْنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي، ثُمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ، ثُمَّ لَأَدْعُوَنَّ بِخَلِيفِ الْفُضُولِ!

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَهُوَ عِنْدَ الْوَلِيدِ: وَأَنَا أَخْلِفُ بِاللَّهِ لِعَيْنِ دَعَا بِهِ لَأُخَذَنَّ سَيْفِي ثُمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ تَمُوتَ جَمِيعًا... وَبَلَغَتْ الْمِشْوَرَةَ بَنَ مَخْرَمَةَ الزُّهْرِيِّ فَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَبَلَغَتْ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنُ عُثْمَانَ التَّيْمِيَّ فَقَالَ... وَيُظْهِرُ أَنَّ الْخِلَافَ رُفِعَ إِلَى مُعَاوِيَةَ وَاسْتَصْرَحَهُ الْوَلِيدُ عَلَى الْحُسَيْنِ، فَكَانَ مِنْ مُعَاوِيَةَ تَدَحُّلًا، وَكَانَ مِنْهُ مَيْلٌ بِالضَّرُورَةِ إِلَى جَانِبِ الْوَلِيدِ.

«فَقَالَ الْحُسَيْنُ لِمُعَاوِيَةَ: إِخْتَرْ مِنِّي ثَلَاثَ خِصَالٍ، إِمَّا أَنْ تَشْتَرِيَ مِنِّي حَقِّي، وَإِمَّا أَنْ تَرُدَّهُ عَلَيَّ، أَوْ تَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ ابْنَ عُمَرَ أَوْ ابْنَ الزُّبَيْرِ، وَإِلَّا فَالرَّابِعَةُ وَهِيَ الصَّبْلُ^(١).

قَالَ مُعَاوِيَةَ: وَمَا هِيَ؟

(١) الصَّبْلُ فِي أَصْلِهِ مَقْنَأُ السَّيْفِ، ثُمَّ جَرَى كَيْفَاةً عَنِ الْأَخْذِ بِالشَّدَّةِ وَالْمَقَاتِلَةِ بِالْعُنفِ. وَجُلِفَ الْفُضُولُ هَذَا، كَانَ وَسِيلَةَ أَنْتِصَافٍ مِنْ غَاشِمٍ أَوْ ظَالِمٍ، وَهُوَ مَزُورٌ مِنْ مَتَابِقَاتٍ مَا قُتِلَ الْإِسْلَامُ وَاسْتَشْرَفَ فِيهِ... يُشَارِكُ مَا يُعْرَفُ الْيَوْمَ بِالْإِطْرَابِ الْعَامِ بِمَعَاهُ الْإِيجَابِيِّ أَيْ الْمَضْحُوبِ بِالْمُقَاوَمَةِ، وَلَيْسَ بِالْمَعْنَى السَّلْبِيِّ فَقَطْ أَيْ الْإِتِنَاعِ عَنِ الْقَتْلِ.

وَالْمَعْنَى الْإِيجَابِيُّ الْمُبَاحُ لَا يَتَلَعَّ دَرَجَةَ الْعُضْيَانِ التَّمَرُّدِيِّ التَّخْرِيصِيِّ، أَوْ مَا يُمَكِّنُ أَنْ تُسْتَعْبَى: الْقَبْقَبَةُ، وَهِيَ فِي الْعَرَبِيَّةِ الْأَصْلِيَّةِ: الْقَقْقَعَةُ بِالسَّنَانِ أَوْ الْأَشْنَانِ... وَأَخْبِيئُهَا مِنْ قَبْلِ فِي الْأَرَبِيَّاتِ لِيَكُونَ مُقَابِلًا لِكَلِمَةِ Sabotage الَّتِي هِيَ مِنْ كَلِمَةِ Sabot الْقَبْقَابِ. وَكَانَ الْعَمَلُ فِي مَطْلَعِ مَدِينَتِنَا الصَّنَاعِيَّةِ يَتَّبِعُونَ الْقَبَاقِبَ الْحَشِييَّةَ فِي أَثْنَاءِ أَدَاءِ الْقَتْلِ وَمُبَاشَرَتِهِ، فَإِذَا نَقَمُوا لِأَمْرِ مَا لَجَّوْا إِلَى الْأَشْتِكَافِ وَالضَّرْبِ بِالْقَبَاقِبِ عَلَى الْأَلَابِ إِلَى حَدِّ الْإِثْلَافِ أحيانًا.

قال: أَهْتِفُ بِحِلْفِ الْفُضُولِ... ثُمَّ قَامَ فَخَرَجَ مُغَضَّباً، فَمَرَّ بِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَئِنْ هَتَفْتُ بِهِ وَأَنَا مُضْطَّجِعٌ لَأَقْعُدَنَّ، أَوْ قَاعِدٌ لَأَقُومَنَّ، أَوْ قَائِمٌ لَأَمْشِيَنَّ، أَوْ مَاشٍ لَأَسْعِيَنَّ، ثُمَّ لَتَنْفُذَنَّ رُوحِي مَعَ رُوحِكَ أَوْ لَيُنْصِفَنَّكَ! فَلَبَعَثَ مُعَاوِيَةَ فَقَالَ: لَا حَاجَةَ لَنَا بِالصَّيْلِمْ... ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَيْهِ: أَنْ آتَعْتَ فَانْتَقِدْ مَا لَكَ، فَقَدِ ابْتَغْنَاهُ مِنْكَ».

إِنَّ حِلْفَ الْفُضُولِ كَانَ يُعْبَرُ عَنْ ثَوْرَةِ اسْتِنْكَارٍ مُنْظَمَةٍ غَيْرِ هَائِجَةٍ وَلَا مُتَحَكِّمَةٍ، دَائِمَةِ الْحَيَاةِ دَائِمَةِ التَّزْوِيعِ، يُطْلِقُهَا الشَّعْبُ بِمِقْدَارٍ وَيَضُمُّهَا بِمِقْدَارٍ، يَجْمَعُهَا الصَّالِحُ الاجْتِمَاعِي كَمَا يَنْشُرُهَا هُوَ أَيْضاً، فِي تَقْدِيرٍ مُوزُونٍ.

*

فِي جِسْمِ الْبَاطِلِ حَاوَلَ الْحَقُّ أَنْ يَجِدَ نُقْطَةً يَتَكَرَّرُ فِيهَا...
وَمَا هُوَ حَتَّى آمَنَدَّ وَتَفَرَّغَ، وَأَخَذَ عَلَى الْبَاطِلِ سَبِيلَ آمْتِدَادِهِ...
فَذَهَبَ فِي ضُمُورٍ شَيْئاً وَرَاءَ شَيْءٍ، وَضَاقَتْ بِهِ الْحَيَاةُ فَلَفَظَتْهُ...
وَإِذَا بِهِ يَبْحَثُ عَنْ وُجُودِهِ فِي عَرَاءِ الْعَدَمِ، وَهُوَ خِصَمُ سَرَابٍ لَا يَمُتُّ
بِالْوُجُودِ...

*

فِي الْمَحِيطِ الْمِلْحِ يُنْبِتُ نَفْعٌ عَذْبٌ يَكُونُ بَيْئَةً لِلْأَلَى...
فَأُغْرِى الْمَحِيطُ بِلَالِيهِ قَرَاخٌ يَغْتَصِرُ طَبِيعَتَهُ فِي مِثْلِهَا...
وَلَكِنَّهُ تَمَحَّضَ طَوِيلاً، وَأَنكَشَفَ عَنْ حَصَى تَارَةٍ، وَتَارَةً عَنْ دُنْيَا مِنَ الْمِلْحِ
الْمَرِيرِ...

*

في لَوَحِ حَالِكٍ وَقَعَتْ نُقْطَةُ نَورٍ...
فَتَشَرَّتْ أَشِعَّتُهَا، وَكَانَ السَّوَادُ أَكْثَرَ إِظْهَاراً لَطَبِيعَتِهَا، وَإِنْدَاءً لِمَا آجَمَعَ فِي
وُجُودِهَا مِنْ سَنَى وَسَنَاء...
وراح السَّوَادُ، كُلَّمَا تَغَيَّظَ وَبَالَغَ فِي إِظْهَارِ طَبِيعَتِهِ، يُضِيفُ إِلَى كَوْكَبَةِ النُّورِ
جِدَّةً إِشْرَاق...
*

وَكَانَ كُلَّمَا ذَهَبَ يَقُولُ: «أَنَا» يَشْرِقُ بِحَسَنِ الشُّعَاعِ وَأَشْوَكَ الضِّيَاءِ،
فَتُحْتَضِرُ كَلِمَتُهُ دُونَ لِسَانِهِ...
فَلَمْ يَقَعْ فِي سَمْعِ الْحَيَاةِ إِلَّا كَلِمَةً قَالَتْهَا كَوْكَبَةُ النُّورِ، وَمَشَتْ بِهَا الْحَيَاةُ فِي
التَّارِيخِ، وَرَجَعَتْهَا أَبَدِيَّةُ الضَّمِيرِ...
* * *

مع أُرَيْنَب

هناك على شاطئ دجلة، في زاوية خليج البصرة، كانت الأبلّة^(١) مهوى
مُتَمَاجِنِينَ ومُتَمَاجِنَاتٍ، ومُهَيَّطٍ وَخِي الهوى والشباب، وملهى كُلِّ فَتَى وَفَتَاةٍ تَلَوَّرَ
المرح طبعتهما، ثُمَّ أَطْلَّ يَنْظُرُ إِلَى صورته فيها. وليس في جس هؤلاء عَنِ الحَيَاةِ
سوى أنها شيء يخلو ويلهو، كأنداء السحر في شفاء الأقاح والياسمين،
وكلُّ لَوَاتِ الطَّلِّ في حُدُودِ الورد والرياحين... فهُمْ يُفَنِّونَهَا سَكْرَى مَرَحٍ وَنَشَاوَى
مُجَوِّن... وَلَا يَطِيفُ بِسَمْعِهِمْ سوى نَعْمَاتٍ تَتَنَاهَى مُتَلَاشِيَةً في هذا القَرَار:

يا للشباب المَرَح، التَّصَابِي... زَوَائِحِ الجَنَّةِ في الشباب

ففي أعماقهم صَوْتُ يُهَيِّبُ بِهِمْ إِلَى التَّجَنُّبِ في فضاء المراح، والفناء في لا
وَعِي الظُّلُوفِ الغَزَل... وهل الحَيَاةُ، مِنْ وَاجِهَةِ الشَّبَابِ، سوى إغراءٍ تَقُومُ في اللُّهُوِ
العَابِثِ إِلَى أُخْرَى تَسْتَوِي في الجَانَةِ اللَّاعِبَةِ؟ ثُمَّ هَلِ الدُّنْيَا سوى إغراءٍ مُتَجَلِّبِ
إِغْرَاءٍ، يُبَالِغُ في أَشْرِهِ حَتَّى لَيْسْتَ دَنِي إِلَيْهِ مَنْ أَحْتَضِرُ الشَّبَابَ في قُلُوبِهِمْ بِالْعُغْرِ أَوْ
بِالْفِكْرِ، فَيَسْتَهْوِيهِمْ، وَرُبَّمَا آسْتَفَوْهُمْ أَيْضاً بِمَا يَتَنَفَّسُ بِهِ مِنْ خَلَب:

إِنَّ بِالْحَيَرَةِ قَساً قَدْ مَجَّنَ فَتَنَ الرُّهْبَانَ فِيهَا وَافْتَنَّتْ

(١) نَهْرُ الأَبْلَةِ كَانَ مُتَقَرِّباً مَعْدُوداً فِي جَنَاتِ الدُّنْيَا الثَّلَاثِ.

تَرَكَ الْإِنْجِيلَ حِيناً لِلصَّبَا وَرَأَى الدُّنْيَا مُجُوناً... فَزَكَّنَ

هَذِهِ قِصَّةُ شَابٍّ آخِضٍ الشَّبَابَ بَيْنَ بُرْذِيهِ بِفِكْرَةِ التَّقْوَى، وَلَكِنَّهُ أَطْلَعَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ كُوَّةِ الْمُقْبِدِ الْمُتَكَلِّلِ بِالصُّمُوتِ الْوَقُورِ، فَرَأَى مَا تَجِيئُ بِهِ مِنْ إِغْرَاءٍ، وَمَا يَتَمَوَّجُ فِيهَا مِنْ فُتُونٍ، فَأَخَذَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ وَاسْتَوَتْ طُيُوفُهَا فِي نَاضِرِيهِ، فَاسْتَيْقَظَ شَبَابُهُ الْغَافِي، وَمَشَتْ رُوحُ الشَّبَابِ تَتَرَاقِصُ فِي قَلْبِهِ سَكْرَى.

مَضَى فِي ظَنِّهِ سَاخِرًا... يُجَرِّبُ هَذَا الْمُجُونَ حِيناً فَقَطْ، وَيَزْهِي ظِلْمَةُ الصَّبَا الْمَكْبُوحِ، ثُمَّ يَعُودُ فَيَحْمِلُ كِتَابَ تَقْوَاهُ... يَبْدُو أَنَّهُ رَأَى الدُّنْيَا لَا تَتَكَشَّفُ إِلَّا عَنْ مُجُونٍ. وَكُلَّمَا نَضَتْ ثَوْباً مَسَّتْهُ لَمَسَةُ فُتُونٍ، وَدَبَّ فِي حَنَائِهِ مِنْ شَوَاطِئِ الشَّبَابِ طَائِفٌ مُجُونٍ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ رَكَزَ... وَإِذَا فِكْرَةُ التَّقْوَى لَدَيْهِ تَنَقَّلَتْ هِيَ التَّجَرِبَةُ، وَيَسْتَنْبِهُ مُسْتَوْخِيًّا عَلَى مَتْنٍ مُوَجَّهٍ مُزْبَدَةٍ، مِنْ مَجَانَةِ هَذَا الْوُجُودِ الْمَسْحُورِ. بِهَذَا كَانَ يَتَحَدَّثُ الدَّلَالُ^(٢) فِي جَمْعٍ مِنْ ظُرَفَاءِ الْحِجَارِ جَمَعَهُمُ التَّصَادُفُ فِي الْأُبْلَةِ، بَيْنَهُمْ أَشْعَبُ، فَقَالَ لَهُ هَذَا:

مِنْ ثَمَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّكَ أَبَدًا إِلَّا جَمْعُ الرِّجَالِ إِلَى النِّسَاءِ، وَمَلَأَ الدُّنْيَا بِصَحْبِ الْمُجُونِ وَعَرَبِدَاتِ الْجُفُونِ. إِنْ كَانَ هَذَا رَأْيُكَ فَعَسَى أَنْ تَضَعِ الْأَقْدَارُ فِي طَرِيقِكَ صَاحِبَنَا الْأَعْرَابِيَّ الشَّوَهَةَ، فَتَمْتَعُ حُزْبَاءَ قَلْبِكَ بِالْمَجَانَةِ إِلَيْهِ، أَشْحَنَ اللَّهُ عَيْنَكَ، إِنَّ الْمُجُونَ لَا يَمْلُحُ إِلَّا مَعَ جَمَالٍ أَوْ ظَرْفٍ... فَقَهَقَ الدَّلَالُ، وَانْقَلَبَ الصَّحْبُ يُسْأِلُونَ أَشْعَبَ عَنْ خَبَرِهِ فَحَدَّثَهُمْ:

دَخَلْتُ يَوْمًا عَلَى الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ، وَعِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ قَبِيحُ الْمَنْظَرِ، أَشَدَّ مَا يَكُونُ قُبْحًا، مُخْتَلِفُ الْخَلْقَةِ مُشَوَّهًا، فَسَبَّحْتُ مُتَأَفِّفًا، وَزَادَ بَيْنِي التَّأَفُّفُ، فَقُلْتُ لِلْحُسَيْنِ: أَبَايَ أَنْتَ وَأُمِّي. أَتَأَذُنُ لِي أَنْ أَسْلَحَ عَلَيْهِ... فَأَبْتَسَمَ يَظُنُّ أَنَّ الْأَعْرَابِيَّ يَعْرِفُنِي بِالزَّوْجِ

(٢) الدَّلَالُ كَسَاحِبِ شَخْصِيَّةٍ قَبِيحَةٍ غَرِيزَةٍ، وَكَانَ يَتَعَاطَى سَمْسَرَةَ الزَّوْاجِ، وَلَهُ أَشْبَهُ مَا يُسَمَّى الْيَوْمَ بِمُكْتَبِ الزَّوْاجِ. رَاجِعْ أَخْبَارَهُ فِي: الْأَغَانِي لِلأَصْفَهَانِيِّ، وَمَحَامِيحِ كُتُبِ الْأَدَبِ كُلِّهَا..

فَيَحْتَمِلُهَا مِنِّي.

فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ مُتَهَكِّمًا: إِنَّ شَيْئًا... وَمَعَهُ قَوْسٌ وَكِنَانَةٌ، فَفَوْقَ نَحْوِي
سَهْمًا، وَوَأَصَلَ: وَاللَّهِ لَئِنْ فَعَلْتَ لَتَكُونَنَّ آخِرَ سَلْحَةٍ سَلَحَتْهَا... وَأَنْقَدَحَتْ عَيْنَاهُ،
وَلَمَسْتُ مِنْهُ الْجِدَّ فِي الشَّرِّ، فَقُلْتُ لِلْحَسَنِ: جُعِلْتُ فِدَاكَ. أَخَذَنِي الْقَوْلُ لُجْ وَعُشْرُ
الْخُرُوجِ! وَطَفِقَ الصَّحْبُ يَضْحَكُونَ فِي رَنِينٍ مُتَجَاوِبٍ طَوِيلٍ.

كَانَ يَوْمًا مُفْعَمًا بِسَيْلٍ مِنْ غَرَائِقِ الْفَتَيَانِ وَغَوَانِي الْفَتَيَاتِ، هَذَا النَّيَّوْرُ...
حَتَّى كَأَنَّ الْحَيَاةَ اتَّخَذَتْ فِيهِ مَغْرِضَهَا، فَأُطْلِعَتْ أَقْصَى مَا فِي إِبْدَاعِهَا الْفَنِّيِّ مِنْ
آيَاتِ الْجَمَالِ النَّاطِقَةِ بِالْهَوَى، وَالِدَّاعِيَةِ بِالْقِيَامِ إِلَى الْحُبِّ، وَالْمُشِيرَةِ بِأَسْرِ السَّحْرِ
فِي الْعُيُونِ وَالشَّفَاهِ إِلَى فَوْزِ الْخُلْدِ السَّعِيدِ، وَلَا عَجَبَ، فَتَهَرَّ الْأُبُلَّةُ مَغْدُودٌ أَحَدَ
مَسَارِحِ الْجِنَانِ عَلَى الْأَرْضِ فِي حِسِّ هَوْلَاءِ.

وَكَانَ يَزِيدُ - الشَّابُّ الطَّرِيرُ الَّذِي بَالَعَ فِيهِ نَزَقُ الشَّبَابِ، وَذَابَ فِي لُعَابِهِ -
قَدْ ذَهَبَ مَوِغَلًا فِي الصَّحْرَاءِ مُنْذُ حِينَ يَصِيدُ الطُّبَاءَ، وَيَتَّبِعُ آثَارَ السَّوَانِحِ مِنَ الْجَاذِرِ
وَالْأَرَامِ وَالْوُعُولِ وَالْأَيَّالِ، كَيْفَمَا ذَهَبَتْ وَأَنْعَرَجَتْ. وَلَذَتْهُ الْمَطَارِدَةُ وَأَخَذَتْهُ
نَشْوَتُهَا، فَمَضَى يَلْهُو وَلَا يَأْلُو، وَزُمَرَةُ لَهْوِهِ تَتَّبِعُهُ، إِنَّهُ لَا يُلْوِي عَلَى شَيْءٍ فِي مَدَاهِ.

لَمْ يَشْعُرْ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ جُمُوعِ اللَّاهِنِينَ فِي نَهْرِ الْأُبُلَّةِ، فَالْتَفَتَ يَضْحَكُ إِلَى
رِفَاقِهِ مُتَعَجِّبًا: لَقَدْ قَطَعْنَا صَحْرَاءَ الشَّامِ إِلَى الْعِرَاقِ، وَنَحْنُ لَمْ نُدْرِكْ... وَمَالَ يُزْبِتُ
عَلَى كَيْفِ تَزَوُّبٍ مِنْ أَتْرَابِهِ ضَاحِكًا مُنْتَشِيًا، وَيَتَأَبَّطُ ذِرَاعَ هَذَا، وَيَدْفَعُ ذَاكَ لَاهِيًا
عَابثًا. إِنَّهُ يُحِسُّ بِحَيَاةٍ جَدِيدَةٍ وَدُنْيَا جَدِيدَةٍ.

رَاحَ يَتَنَقَّلُ بَيْنَ الْجُمُوعِ وَفِي إِثْرِهِ سَرْجُونُ رَاعِي طُفُولَيْهِ وَصِبَاهُ، وَلَكِنَّهُ وَقَفَ
فَجْأَةً عِنْدَ سُرَادِقِ مُنِيفٍ، عَرَفَ أَنَّهُ سُرَادِقُ أَمِيرِ الْعِرَاقِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامِ الْقُرَشِيِّ.
فَقَدْ أَخَذَتْهُ بَغْتَةً وَجْهِ غَانِيَةٍ نَصِيفٍ، كَبَغْتَةِ بَدْرِ أَنْشَقَ عَنْهُ الْعَمَامُ، وَأَسْتَعْرَى دُونَهُ لَيْلٌ

بِهِمْ حَالِكٌ، فَزَجَّ نَفْسَهُ رَجًّا عَنيفاً، وَتَلَبَّسَهُ دُورُ الْجَمَالِ الَّذِي مَالَ يَتَلَاشَى بِطَيْمًا
لِيُنْكَسِفَ عَنْ غَفْوَةٍ فِي حُبِّ الْقَلْبِ، وَتَلَهَّفَ الْعَقْلُ السَّلِيبُ، تَمُدُّهُ يَقْظَةٌ فِي الْغَرَائِزِ
الْمُفْعَمَةِ.

كَانَ فِي خَيَالِهِ وَجْهٌ يَتَنَفَّسُ بِمِثْلِ عَبَقِ الزُّهْرِ، وَعَيْنَانِ تَبْتَثَانِ مِثْلَ السُّحْرِ،
وَشَفَتَانِ تَنْطَلِقَانِ بِمِثْلِ دُوبِ الْغَرَامِ. وَزَادَهُ بِهَا أَنَّ قَلْبَهَا لَا يَتَجَاوَبُ بِصَدَى عَوَاطِفِهِ،
فَتَدُورُ عَاطِفَتُهُ نِصْفَ دَوْرَةٍ وَتَنْكَسِرُ مُتَلَاشِيَةً فَلَا تُتِمُّ دَوْرَتَهَا، بَلْ تَمْحِي رُسُومَهَا فِي
أَنْبِيَاهِمْ كَالْحِجِّ، وَغُمُوضِ يَائِسٍ مُتَجَهِّمٍ وَتَعَوُّرٍ فِيهِ صَحِيحُ الْإِتِحَارِ.

وَالْمَرْأَةُ تَزِيدُ فِيهَا جَازِبِيَّةُ الْأُنُوثَةِ نُضْجاً وَرُوءاً إِذَا أَصْحَتْ زَوْجَةً، فَقَدْ
أَنْحَسَرَتْ أَكْمَامُ طَبِيعَتِهَا الْمُغْلَقَةِ تَنْشُرُ أَرْبَاجَهَا كَالزُّهْرَةِ مَيَّاسَةً نَاعِمَةً فِي الْهَوَاءِ.
إِنَّ الْمَرْأَةَ تُحْيِي بِشَيْءٍ مُبْهِمٍ، وَهُوَ جَوْهَرَةُ الْأُنُوثَةِ فِي أَقْصَى كِيَانِهَا، فَهِيَ تَرْعَاهُ بِسِيَاحِ
الْحَيَاءِ وَالْخَفَرِ كَأَنَّهَا تَحْتَضِنُهُ. فَإِذَا اسْتَحَالَتْ زَوْجَةً فَقَدْ اسْتَحَالَتْ الْآنَ فَقَطُّ أَثْنَى
كَامِلَةِ الْمَعْنَى. لَقَدْ أَصْحَتْ لَوْلُؤَةَ الْأُنُوثَةِ الْحَبِيبَةِ فِي حِقَاقِهَا، وَالْمُنْطَوِيَّةَ عَلَيْهَا
صَدَفَتْهَا، وَهِيَ حَلِيَّةٌ مَنْشُورَةٌ.

فِيمَا بَعْدُ عَرَفَ يَزِيدُ عَنْ عُرُوسِ أَحْلَامِهِ هَذِهِ أَنَّهَا أُرْزِنِبُ آئِنَةُ إِسْحَقَ الْأَمِيرِ،
وَسَيِّدَةُ السُّرَادِقِ. فَعَرَضَتْ فِي خَاطِرِهِ كَلِمَاتٌ مُتَقَطَّعَةٌ هَازِيَّةٌ، فَرَاخَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ:
كَيْفَ لِي بِهَا؟ بَيْنِي وَبَيْنَهَا هُوَّةٌ سَحِيقَةٌ، وَمَسَافَةٌ تَزِيدُ مَعَ الْأَيَّامِ تَنَائِيًا
وَبُعْدًا...

وَتَلَبَّثَ زَمَنًا لَمْ يَكُنْ بِالْقَصِيرِ، يَرُودُ مَعْنَاهَا وَيُرَاوِدُ قَلْبَهَا، وَلَكِنَّهَا عَرِيضَةٌ
الْأَغْرَاقِ، وَإِنْ كَانَ هُوَ الشَّابُّ النَّصِيرَ، فَبَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرِينِهَا مَا شَاءَ الْهَوَى الْعَبْقُ، وَمَا
شَاءَتْ سَعَادَةُ الْأَزْوَاجِ الْخُلَطَاءِ.

بَاتَ كَاسِفًا أَرْقًا يُرَدِّدُ وَلَا يَفْتَأُ:

وفي الحَيِّ نَعْمَ قُوَّةُ الْعَيْنِ وَالْهَوَى وَأَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى قَدَمِ نَعْمٍ
وَتَخَوُّفَ مُرَيَّبِهِ سَرَجُونُ، فَزَيَّنَ لَهُ الرُّجُوعَ إِلَى الشَّامِ لَعَلَّهُ يَسْلُو، فَأَجَابَهُ وَعَادَ
بَصَحْبِهِ يُرِيدُونَ دِمَشْقَ. وَبَيْنَمَا هُوَ آخِذٌ بِمَحَاجِزِ الصَّخْرَاءِ وَمَقَاوِزِهَا، حَانَتْ مِنْ يَدِهِ
لَمْسَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَوْسِيهِ، الَّذِي فَصَلَ فِي غُدُوهِ يَصِيدُ بِهِ الطُّبَاءَ، فَتَذَكَّرَ رَيْعَةَ الَّذِي
صَادَهُ... فَشَدَّ الْقَوْسَ إِلَيْهِ وَاعْتَصَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فِي نَوْرَةِ قَلْبٍ:

حَطَّمِ الْقَوْسَ عَلَى صَحْرَائِهِ وَأَتَكِي يَسْقِيهِ مِنْ مَاءِ الشَّكَاةِ
أَيُّ هَذَا الْقَوْسِ أَنْتَ مَثَلٌ مِثْلُ قَلْبِي، حَطَّمْتُهُ الْعَاصِفَاتُ
وَسَأُخِيكَ بِمُنْهَلِ الدُّمُوعِ إِنَّمَا دَمَعُ الْحَبِيبِينَ حَيَاةً
لَمْ يَزِدْهُ بُعَادُهُ فِي دِمَشْقَ إِلَّا كَمَدًا وَأَسَى، وَلَمْ يُورِثْهُ الْهِجْرَانُ إِلَّا لَهْفَةً
وَجَوَى. شَأْنُ الَّذِينَ يُحِبُّونَ بَعْرَائِرِهِمْ، فَعَوَاطِفُهُمْ أَبَدًا تَكُونُ عَنيفَةً مُهْتَاجَةً عَلَى
الذِّكْرِ، لِأَنَّهُمْ وَحْيُ الْأَعْصَابِ... بَيْنَمَا الْعَوَاطِفُ إِذَا كَانَتْ مِنْ وَحْيِ الْقَلْبِ أَوْ
حَاسَّةِ الْفَنِّ، فَإِنَّهَا تَذَكُّرُ وَتَسْمُو بِالتَّلَهُّفِ الْعَاطِفِيِّ، فَالْحُبُّ الَّذِي يَكُونُ عَامِلَةً الْقَلْبِ
أَوْ حَاسَّةُ الْفَنِّ، يَذْهَبُ فِي آسْتِحَالَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ: عُذْرِيَّاءُ، فِيمَالِيَّاءُ؛ بَيْنَمَا حُبُّ
الْأَعْصَابِ يَشْتَهِي أَعْصَابًا وَجَسَدًا فَقَطْ، يَهِيْجُ بِالْفَرَاغِ، وَيَهْمَدُ بِالْإِمْلَاءِ، أَمْتِلَاءِ
الْيَدِ مِنْهُ.

فَتَنَاهَى «أَمْرُ يُرِيدَ إِلَى ضُمُورٍ» وَسَلَوَى الْمُتَعِّ وَالْإِنْكِمَاشِ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَيِّ
مَكَانٍ آسْتَمَلَ عَلَيْهِ... فَهَذَا الَّذِي كَانَ يَمْلَأُ الْقَصْرَ لَهَوًا وَمَرَحًا، وَيَقْطَعُ اللَّيْلَ عَزْبَةً
سَكْرَى، وَيَزِينُ مَعَانِي الْأُنْسِ بِشَاشَةٍ وَحُبُورًا... وَالَّذِي لَمْ يَكُنْ مِنْ هَمِّهِ إِلَّا أَنْ
يَقْطِفَ مِنْ رِيَاضِ الْعَوَانِي الْكَوَاعِبِ بَاقَاتِ زَنَاقٍ وَوُرُودِ، وَيَهْتَصِرُ مِنْهُنَّ عُصُونًا
لَدَنَةً، وَيَعْتَصِرُ عَلَيْنَهُنَّ رُمَانًا سَهِيًّا... غَدَا ذَاهِلًا ذُهُولَ الْمُقْبِلِ عَلَى الْمَوْتِ، ضَاوِيًا
كَأَنَّهُ يَضُو فَلَاقَةً أَوْ مَنَزُوفُ دِمَاءٍ، حَبِيسَ هَوَى وَمُبْتَلَسَ خَيَالٍ، غَيْرَ سَهِيٍّ إِلَى شَيْءٍ

مِنْ مَلاهِبِهِ الَّتِي كَانَ لَا يَسْتَطِيعُ عَنْهَا صَبْرًا، وَلَهَا مُجَابَبَةٌ، وَفِي أَنْتِهَاجِهَا
أَخْتِشَامًا... حَتَّى أَضْطُرَّ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَزْجُرَهُ فِي رِفْقٍ، وَيَأْخُذَ عَلَيْهِ تَهْتُّكَهُ فِي تَحْيِيلٍ،
فَقَالَ:

«يَا بُنَيَّ: مَا أَقْدَرَكَ عَلَى أَنْ تَصِيرَ إِلَى حَاجَتِكَ، مِنْ غَيْرِ تَهْتُّكِ يَذْهَبُ
بُرُوءَتِكَ وَقَدْرِكَ، وَأَنْشَدَهُ:

إِنْصَبَّ نَهَارًا فِي طِلَابِ الْغَلَا وَأَصْبِرْ عَلَى هَجْرِ الْحَبِيبِ الْقَرِيبِ
حَتَّى إِذَا اللَّيْلُ أَتَى بِالْذُّجَى وَآكُتَحَلَّتْ بِالْعَمُضِ عَيْنُ الرَّقِيبِ
فَبَاشِرِ اللَّيْلِ بِمَا تَشْتَهِي فَإِنَّمَا اللَّيْلُ نَهَارُ الْأَرِيبِ
كَمْ فَايَقِي تَحْسَبُهُ نَاسِكًا قَدْ بَاشَرَ اللَّيْلَ بِأَمْرِ عَجِيبٍ»
أَمَّا الْيَوْمَ فَهُوَ مُدْنَفٌ كَلِيفٌ مَضْرُوفُ الْهَوَى، لَا يُرَى إِلَّا مُنْتَحِيًا إِلَى نَفْسِهِ،
فِي ظِلِّ شَجِيرَاتٍ كَانَ يَتَشَهَّى فَيْتَقُهَا سَاعَةً غَزَلٍ أَوْ طَرْبِ.

وَكَانَ سَرْجُونٌ مُرَيِّبُهُ يُرَاقِبُهُ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَلْزَمُهُ دُونَ أَنْ يَرَاهُ أَوْ يَلْمَحَهُ. فَانْتَهَى
إِلَى سَمْعِهِ مِنْ نَجْوَى يَزِيدَ لِنَفْسِهِ:

أَوَاهُ، أُرِينَبْ! يَا مَنْ لَا تَشْعُرِينَ بِوُجُودِي وَآلَامِي وَخَلَجَاتِ قَلْبِي، وَأَرَاكِ مِلْءَ
الدُّنْيَا لَذَاذَةً وَمُتَعَةً وَنَعِيمًا، أَوْ لَيْفَتِكَ تَشْعُرِينَ! إِذَا لَكُنْتُ سَعِيدًا.

أَيَا هَلْ تَصُدَّقُ أَخْلَامِي فَأَرَاكِ عِنْدَ يَدِي، تَنْحَنِينَ عَلَيَّ فَتُصَمِّدِينَ جِرَاحَ
فُؤَادِي، وَتَمْلِكِينَ وُجُودِي إِشْرَاقًا بِأَلْتِي وَجْهِكَ الْعَبْقَرِيَّ الْحُسْنِ. حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَلَكِنَّ
دَوْنَهُ مَفَاوِزَ الْحَجِيمِ الْعَبْقَرِيَّةِ الْأَشْوَالِ وَالْأَهْوَالِ أَيْضًا. ثُمَّ أَطْرَقَ وَتَنَاهَى بِهِ الْإِطْرَاقُ،
وَلَبِثَ طَوِيلًا كَأَنَّمَا آتَبَلَعَهُ ضَبَابُ الْمَسَاءِ فِي لَيْلَةٍ رَمَى بِهَا الشِّتَاءُ فِي الْعَاصِفَةِ. عَلَى
أَنَّهُ رَفَعَ رَأْسَهُ أَحْيَرًا، وَعَيْنَاهُ تَدُورَانِ فِي بَرِيقٍ مُخِيفٍ، يَقُولُ:

لا لا ! إني لَن أَنتَظِرُ هِبَةَ الأُفْدَارِ حَتَّى تَصْعَها فِي طَرِيقِي وَزَدَةَ مُصَوِّحَةً
 نَاضِبَةً، إِنَّ الضَّعِيفَ فِي شَرِّعِ الطَّبِيعَةِ الحَيَّةِ حَمَلٌ مَنهُوبٌ، والقَوِيُّ هُوَ أَتَمُّ الطَّبِيعَةِ
 البَكْرُ، وَقَدْ وَهَبَتْهُ، سائِعاً زُلالاً، كُلُّ ما آسَتْطَاعَتْ أَنْ تَلْفَهُ قُوَّتُهُ، أَوْ يَمُرَّ فِي جَوْها.
 هذِهِ هِيَ الحَقِيقَةُ الفَدَّةُ الَّتِي نَراها بَينَ أَذُنَي الأَحْياءِ وَأَعْلاها، مِنْ بَدْيِ النَّباتِ
 إِلَى رَفِيعِ التَّكُونِ؛ الإنسان.

وَأَمَّا أُولَئِكَ الَّذِينَ شَرَعُوا الشَّرَائِعَ والنُّظُمَ، وَحَدَّدُوا مَسِيرَ الحَيِّ فِيمَا سَمَّوَهُ
 أَخْلاقاً، فَإِنَّهُمْ مَجْبَناءُ ضُعْفاءُ وَأَنانِيونَ أَيْضاً، قَعَدَتْ بِهِمْ قُوَّتُهُمْ عَنْ أَنْ يُدْرِكُوا أَيَّ
 نَصِيبٍ مِنْ مُتَمِّعِ الحَيَاةِ وَلَدَائِها، أَوْ أَذْرِكُوا نَصِيباً حَقِيراً فَأَتَبَكَّرُوا قَانُونََ الأخْلاقِ
 والقانونِ، وَحَدَّدُوا سَعْيَ الأَحْياءِ وَفَقَّها وَعَلَى طَبِيقِها، فَأَوَجَدُوا لَأَنْفُسِهِمْ أَوْفَرَ فُرْصِ
 الحَيَاةِ الماتِعةِ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ أَذَناءُ مِنْ أَنْ أُخْتَرِمَهُمْ، إِنَّهُمْ ضُعْفاءُ مُمَوَّهونَ، خَلَبُوا النَّاسَ
 بِأَساطِيرِهِمْ، فِيا وَبِخِ الجاهِلينَ.

إِنَّهُمْ شَاوُوا العَيْشَ عَلَى حِسابِنَا نَحْنُ الأَقْوياءُ، وَحِيارَةَ النُّصِيبِ الأَوْفَرَ أَيْضاً،
 أَلَا كَيْفَ يُفَكِّرُ النَّاسُ الحَقِيقِي الثَّعْساءُ؟ لا أَدْرِي...

إِنِّي لا أَفْهَمُ مَعْنَى لَهذِهِ النُّظُمِ سِوَى أَنَّها سُمُومُ الضُّعْفاءِ، يَنْفُثُونِها فِي
 جَوِّنا، نَحْنُ الأَقْوياءُ، لِنَسْتَرِخِي، فَيَجِدَ الضَّعْفُ فِي جَوْ القُوَّةِ فُرْصَةَ البَقاءِ.

إِنَّ ما أَفْهَمُ ، هُوَ هَذَا فَقَطْ، أَنَّ الحَيَاةَ واللَّذَّةَ والسَّعَادَةَ فُرْصٌ، والقُوَّةُ وَحْدَها
 سَبِيلُ الاسْتِخْواذِ عَلَيْها، فَالحَيَاةُ هِيَ القُوَّةُ.

إِنَّ الأَسَدَ قَدْ يَعْفُ - وَهُوَ نَهيكُ جَوْعٍ - عَنِ الطَّعامِ الحَقِيرِ الوَضِيعِ، لِأَنَّهُ لا
 يَجِدُ فِيهِ لَذَّةَ القُوَّةِ، وَلَكِنَّهُ لا يَعْفُ أَلْبَتَّةَ عَنِ الصَّرَاوَةِ، وَعَنِ الحَثَلِ والافْتِراصِ
 أحياناً، وَهِيَ مَجْلَى القُوَّةِ. فَالَّذِي تُمْلِيهِ طَبِيعَةُ الأَحْياءِ: قَسْوَةٌ، وَتَعْنِي، وَلَدَاتٌ. هَذَا ما

نَجِدُهُ كُلَّمَا حَلَلْنَا غَنَاصِرَ الْحَيَاةِ وَأَنْوَاعَ الْأَحْيَاءِ، فَمَنْ أَمْلَى عَلَى أَوْلَيْكَ الْجُبْنَاءِ
أَسَاطِيرَهُمْ؟ إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدًا سِوَى الْجُبْنِ وَالْعَجْزِ وَخَوْفِ الْآلَامِ.

وَأَسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ

نعم! نعم! إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِيدُ!

أُرَيْبُ! أَنْتِ حُلُمٌ سَعِيدٌ، وَقَدْ بَتَّ مُتَعَةً قَرِيبَةً الْمَنَالِ مِنِّي!

أُرَيْبُ! لِنَقُصِّمْ فِي سَبِيلِكَ سُيُولَ الدِّمَاءِ وَرَايَاثَ الْجَمَاجِمِ وَالْأَشْلَاءِ، فَإِنِّي
سَأَسِيرُ عَلَيْهَا إِلَيْكَ، فِي آبِتْسَامَةِ الْقَسْوَةِ وَفَهْقَةِ جَبَرُوتِ الْبَطْشِ! إِنَّ أَيْنَ الْفَرِيسَةِ
- وَعِظَامَهَا تَتَقَصِّقُضُ بَيْنَ فَكِّي الْأَسَدِ - يُطْرِبُهُ وَيُشْهِيه، لِأَنَّهُ مَقَاطِعُ مِنْ أَنْشُودَةٍ
كَبِيرَاءِ الذَّاتِ وَكَبِيرَاءِ الْوُجُودِ، فَإِنَّ مَعْنَى نَشِيدِ الْأَيْنِ: أَنْتَ أَنْتَ هُوَ الْجَدِيرُ بِالْوُجُودِ
وَحَذْكَ... وَلِذَا كَانَ الْأَسَدُ لَا يَطْعَمُ إِلَّا عَلَى أَلْحَانِ نَايِ الْأَشْلَاءِ.

أُرَيْبُ! أَنْتِ عَرُوسُ أَحْلَامِي، وَسَتُصْبِحِينَ عَمَّا قَرِيبٍ عَرُوسَ لَذَاتِي! فَمَا
أَجْمَلَهَا نَشْوَةً، وَجِسْمُكَ الْبَضُّ أَهْتَصِرُهُ بَيْنَ ذِرَاعِي الْمُشْتَعَلِينَ، وَأَعْتَصِرُهُ فِي وَقْدَةِ
الصُّلُوحِ الْمُتَلَطِّطَةِ، وَقَوَائِمِكَ يَتَأَطَّرُ وَيَتَنَتَّنِي الْأَفْعَوَانِ، وَيَتَلَوَّى تَلَوَّى الْخَيْرَانِ.
فَمَا أُحْيِلِي قَوْلِكَ!... إِنَّهُ دُنْيَا مِنَ اللَّذَاتِ الْعَذَابِ، وَلَوْ لَفَّ فِي جَحِيمِ الْعَذَابِ!

أُرَيْبُ! إِنَّنِي سَوْفَ أَلْهُو بِكَ أَمْدًا كَالزُّهْرَةِ تَرُودُهَا النَّحَالُ بَتْلَهْفٍ إِلَى
الْإِمْتِصَاصِ، ثُمَّ سَيَّانٍ عِنْدِي أَذْكَرُوكُ أَمْ نَسِيْتُكَ بَعْدُ، أَلَسْتَ أَمْرَأَةً، وَالْمَرْأَةُ لُغْبَةٌ
الرَّجُلِ وَمُتَعَتُهُ فَقَطْ، وَلَا شَيْءَ وَرَاءَهُمَا؟ ثُمَّ أَلَيْسَتْ النِّسَاءُ فِي النَّوْعِ رِيَّاحِينَ كَمَا
قِيلَ، وَهِيَ تَذْهَبُ فِي سَمَائٍ أَوْ دُونَهَا، وَتَبْلَى فِتْنَتُهَا... فَأَعْتَنِيهَا فَوْصَةً لَذَاذَةً
كُبْرَى مُعْرَبَدَةً، وَأَنْتِ فِيهَا فَوَاحَةٌ بِالْعَبِيرِ.

آه! إِنْ ظَلَمَائِي لَا يَزُودُونِي إِلَّا سَيْلًا مِنْ دِمَائِي، إِذَا وَقَفَ فِي وَجْهِهِ ذَلِكَ الْعِلْجُ
أَبْنُ سَلَامٍ. إِنَّنِي أَحْسُ بِأَسْنَانِي تَتَأَكَّلُ كَأَنَّ عَلَيْهَا حِكَّةً جَرَبٍ. إِنَّهَا تَشْتَهِي مُضْغَةً

مِنْ كَبِيدِهِ أَلَوْكُهَا! إِنَّنِي لَأَشْعُرُ أَنَّ فِي أَسْنَانِي هِنْدَ جَدَّتِي يَوْمَ الْأَحَدِ، وَهِيَ تُحْرِقُ الْأَرَمَ عَلَى كَبِيدِ حَمْرَةَ! سَوْفَ أَبَارِزُهُ فَأَقْتُلُهُ أَوْ أَرَصُّدُهُ فَأُعِمِدُ فِيهِ وَرَاءَ السَّيْفِ يَدِي.

وَلَمْ يَزَلْ مَعَ طُيُوفِهِ الَّتِي أَخَذَتْ تَتَجَسَّمُ لَهُ، فَيَرَاهَا قَرِينَةً مِنْهُ دَانِيَةً إِلَيْهِ، وَكَأَنَّ طَيْفَ آبْنِ سَلَامٍ عَرَضَ لَهُ فِي بَعْضِ الطُّيُوفِ، فَهَبَّ يَخْتَرِطُ سَيْفَهُ، وَقَبَضَ عَلَى قَائِمَتِهِ، وَهَزَّهُ فِي الْهَوَاءِ هَزَاتٍ، ضَحِكَ فِي إِثْرِهَا ضِحْكَاً عَصِيْباً، وَفَجْأَةً تَقَلَّصَتْ تَقَاطِيعُ وَجْهِهِ، وَآرَتْ إِلَى الْوَرَاءِ فِرْعَاءً مُتَعَقِّدَ الْأَيْدِي يَقُولُ، وَقَدْ عَرَضَ لَهُ طَيْفُ الْعَدَالَةِ: إِنَّنِي يَزِيدُ! يَزِيدُ الْأَمِيرُ... وَلَكِنَّهُ لَمْ يَزَلْ يَزِيدُ إِلَى الْوَرَاءِ فِي دُغْرِ يَقُولُ: لَسْتُ، لَسْتُ أَنَا! هِيَ هِيَ أَغْرَثْنِي!... وَغَرَاهُ دُورًا، فَقَدْ أَخَذَتْهُ أَعْرَاضُ حُمَيِّ خَبِيثَةٍ، وَكَانَ يَهْدِي تَحْتَ وَطْأَةِ الدَّاءِ. فَوَجَلَ سَرْجُونُ وَجَلًّا شَدِيدًا، وَلَمْ يَجِدْ بُدًّا مِنْ أَنْ يَتَعَرَّضَ لَهُ، وَيَقْطَعَ عَلَيْهِ مَا هُوَ فِيهِ مِنْ خَيَالَاتٍ.

أَفَاقَ بَعْدَ جِينٍ، وَزَائِلُهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ هَذْيَانٍ، فَقَدْ تَمَازَلَتْ نَحْوُ الشِّفَاءِ وَالْإِبْلَالِ مِنَ الدَّاءِ، وَبَقِيَ فِي تَضْمِيمِهِ ثَابِتًا: اغْتِيَالُ الرَّجُلِ وَانْتِرَاعُ مَعْشُوقَتِهِ أَنْتِرَاعًا، رَضِيَتْ أَمْ أَبَتْ. وَعَرَفَ مِنْهُ سَرْجُونُ ذَلِكَ الْعَزَمَ وَخَشْيَتِي مُجَازَفَتَهُ، فَأَسْرَ إِلَى الْإِدْنَةِ مَيْسُونَ أَبْنَةَ بَحْدَلِ الْكَلْبِيَّةِ بِكُلِّ خَبْرَةٍ، فَأَطْرَقَتْ بِرَأْسِهَا، وَقَالَتْ:

فَإِنَّكَ مَرَضُهُ إِذَا... وَكَانَ يَزِيدُ وَلَيْدَهَا الْأَوْحَدَ الْمَفْدَى، فَلَمْ تُطِقْ آلَامُهُ فِي سَبِيلِ امْرَأَةٍ، وَلَمْ تُطِقْ أَلْبَسَةَ لِرَجُلٍ، مَهْمَا كَانَ خَطَرُهُ وَمَنْزِلَتُهُ، أَنْ يَحُولَ بَيْنَ أَبْنَاهَا وَرَغْبَاتِهِ، فَقَالَتْ تُخَاطِبُ سَرْجُونُ: وَمَنْ هَذَا آبْنُ سَلَامٍ زَوْجُهَا؟
قَالَ: هُوَ أَمِيرُ الْعِرَاقِ مِنْ قِبَلِ الْمَلِكِ... فَانْقَلَبَتْ ضَاحِكَةً، تَقُولُ:

يَكُونُ مِنْ عَمَالِنَا وَيُقِيمُ لَهُ يَزِيدُ هَذَا الْوَزْنَ؟ إِنَّا نَحْنُ نَرْفَعُهُ أَوْ نَحْفُضُهُ. ثُمَّ هَلْ هُوَ إِلَّا مُنْقَذٌ لِرَغْبَاتِنَا عَلَيْهِ، هُوَ صَنِيعَتُنَا فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجَتُهُ إِحْدَى إِمَائِنَا، نَتَصَرَّفُ فِيهِ وَفِيهَا كَيْفَمَا نَهْوَى. إِنَّنِي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ وَاجِمًا مِنْ أَجْلِ امْرَأَةٍ

يَسْتَهِيهَا، وَلَسْتُ أَطِيقُ أَنْ أَسْمَعَ أَنَّهُ يُمْنَعُ عَنْهَا بِالْعَةِ مَا بَلَغَتْ مِنْزِلَتَهَا.
بَلِّغِ الْمَلِكَ أَنِّي لَا أَطِيقُ أَنْ أَرَى يَزِيدَ مَحْزُونًا يَبْكِي، بَلِّغُهُ أَنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ يَجِبُ
أَنْ تَكُونَ فِي مَجْمَلَةِ إِمَاءٍ يَزِيدُ يَعْتَبُ بِهَا وَيَلْهَوُ!
قَالَ سَرْجُونُ: لَعَلَّ زَوْجَهَا لَا يُرْضِيهِ تَزُكُّهَا، أَوْ لَعَلَّهَا لَا تَرْضَى هِيَ إِنْ كَانَ
مِنْهُ ذَلِكَ...

قَالَتْ، وَضَرَبَتْ يَدَيْهَا عَلَى رِسَادَةٍ بِجَنْبِ مَقْعِدِهَا: وَمَا قِيَمَةُ رِضَاهُ أَوْ
رِضَاهَا؟ إِنَّا نُرِيدُ ذَلِكَ وَكَفَى!

فَاتَّبَعَسَ سَرْجُونُ وَقَالَ: أَظُنُّ الْأَمِيرَةَ لَا تَعْنِي تَمَامًا مَا تَقُولُ، أَوْ لَا تَجِدُ كُلَّ
الْجِدِّ. فَلَا بَنٍ سَلَامٍ خَطَرُهُ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ بِذِي خَطَرٍ فَلَا يَسْعُنَا أَنْتِهَا كُهُ أَنْتِهَا كَأُ
مَكْشُوفًا، وَتَحْدِيهِ فِي شَرْفِهِ. وَلَكِنْ نَسْتَأْتِيهِ فِي غَيْرِ شُعُورٍ مِنْهُ.

قَالَتْ مُتَأَفِّفَةً مُتَبَرِّمَةً وَهِيَ تَهْرُ كَتِفَيْهَا: إِنِّي لَا أَفْهَمُ مَعْنَى لِحْشِيَّتِكَ...
فَقَالَ، وَتَمَثَّلَ لَهُ عَهْدُهُ فِي بِلَاطِ الْعَسَاسِيَّةِ، وَهُوَ أَكْثَرُ رِعَايَةٍ لِلْحَقُوقِ:
وَلَكِنَّكَ تَفْهَمِينَ فَقَطْ مَعْنَى خَدَشِ كَرَامَةِ الرَّجُلِ؟

قَالَتْ: إِذَا كُنْتُ تَرَى فِي ذَلِكَ بَأْسًا فَاسْتَأْتِ كَيْفَ شِئْتُ، فَأَنَا أُرِيدُ أَنْ يَصِلَ
يَزِيدُ إِلَى غَرَضِهِ كَيْفَمَا كَانَ، وَلَيْسَتْ تَهْمُنِي الطُّرُقُ الَّتِي سَتَسْلُكُهَا. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ
تَقَرَّ عَيْنُ يَزِيدَ بِهَا، وَلَا يَغْنِينِي مَا وَرَاءَ ذَلِكَ... فَاسْتَدَارَ سَرْجُونُ عَلَى عَقَبَيْهِ وَهُوَ
يَقُولُ:

أَمَّا كَذَلِكَ فَتَعَم...

*

دَخَلَ سَرْجُونُ مَجْلِسَ الْمَلِكِ، وَمِنْ حَوْلِهِ حَاشِيَتُهُ يَتَدَبَّرُونَ أَمْرَ يَزِيدَ، وَمَا

عَسَاءُ أَنْ يَكُونَ طَرَأَ عَلَيْهِ. وَبَدَا مُعَاوِيَةُ مُغْتَمًّا، فَهُوَ لَا يُطِيقُ سَمَاعَ أَنْ يَرِيدَ مُكْتَبِتَ، وَهُوَ بِكُرِّ الإِمَارَةِ الْمُتَرَعُّجِ بِالدَّلَالِ، وَفِي قَرَارَةِ نَفْسِهِ أَنْ يَقَرَّ بِهِ عَيْنًا وَهُوَ وَلِيُّ عَهْدِهِ، كَمَا زَادَ بِهِ ضَنْئًا بَعْدَ أَنْ «أَصَابَ مِنْهُ سَيْفُ الْخَارِجِيِّ مَسْرَى الْبَنِينَ».

كَانَ فِيمَا يُسَيِّطِرُ عَلَى الْمَجْلِسِ مِنْ وُجُومٍ، مَا جَعَلَ سَرَجُونَ يَقِفُ طَوِيلًا قَبْلَمَا أَسَرَ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِشَأْنِ آبْنِهِ الْبَكْرِ، رُغِمَ قُرْبِهِ مِنْ مُعَاوِيَةَ وَمُنْزِلِيهِ الْمَرْفُوعَةِ الْحِجَابِ لَدَيْهِ. وَظَلَّ وَاجِمًا هُوَ أَيْضًا، فَقَدْ عَدَّتْهُ رُوحُ الْمَجْلِسِ، وَسَيَّطَرَ عَلَيْهِ جَوْهُ، حَتَّى قَطَعَ الْوُجُومَ عَمَرُو بْنُ الْعَاصِ بِقَوْلِهِ:

وَمَاذَا تَظُنُّونَ أَصَابَتْهُ وَهُوَ فِي جِسْمِ الْفِيلِ وَنَشْطَةِ النَّيْرِ؟... وَآبَتْسَمَ، لَعَلَّ إِحْدَى غَانِيَاتِهِ الْمَدْلَلَاتِ فَارَكَّتْهُ وَقَطَعَتْ أَسْبَابَ وَدِّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: مَا هَذَا يَا عَمْرُو؟

قَالَ: لَمْ يَقَعْ فِي مَدَى خَاطِرِي سِوَى هَذَا، وَعَلَى كُلِّ «فَهُوَ أَمْرٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ إِلَّا مِنْ جِهَةِ وَالِدَتِهِ»، لَعَلَّهَا تَنْتَرِعُ مِنْ بَيْنِ شَفَثِيهِ كَلِمَةً سِرِّهِ الرَّهِيْبِ... وَأَطَالَهَا كَالسَّاحِرِ... وَهُنَا وَجَدَ سَرَجُونَ مُنَاسَبَةَ الْإِفْضَاءِ إِلَيْهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ يُسَارُّهُ، وَمَا لَبِثَ أَنْ ضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَهُوَ يَقُولُ:

عِنْدَ ظَنِّكَ يَا عَمْرُو، وَلَكِنَّهَا غَانِيَةٌ جَدِيدَةٌ!

قَالَ عَمْرُو: وَإِنْ شِئْتُ قُلْ صَبِيَّةٌ جَدِيدَةٌ... فَأَبْتَسَمَ الْحُضُورُ، وَطَلَبَ مُعَاوِيَةُ أَنْ يَخْلُوَ بِنَفْسِهِ سِوَى عَمْرُو، فَقَالَ:

مَنْ أَرَيْنَبُ؟ وَهَلْ تَعْرِفُ عَنْهَا شَيْئًا؟

قَالَ: نَعَمْ، هِيَ مِنْ «أَغْرَقِ الْحِجَارِيَّاتِ نَسْبًا، وَأَكْثَرِهِنَّ مَالًا، وَمَثَلٌ فِي الْجَمَالِ بَيْنَ غَرَائِرِ زَمَانِهَا»، كَانَتْ عِنْدَ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ مِنْ قَبْلُ، ثُمَّ صَارَتْ إِلَى عَبِيدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ أَمِيرِ الْعِرَاقِ الْيَوْمَ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ: تَرَى أَنَّهُ عَزِيزٌ عَلَيْنَا أَصْطِيادُهَا؟

قَالَ: هُوَ ذَاكَ، وَأَمْنَعُ مَا تَكُونُ.

قَالَ: وَلَكِنْ كَيْفَ بَرَعَتُهُ يَزِيدُ الْحَارَّةَ، فَإِنَّهُ يَحْزُ فِي نَفْسِي أَنْ يَبِيَتْ آسِيفًا، لَا يَقْضِي لُبَانَتَهُ، وَيُشْبِعَ شَهْوَةَ نَفْسِهِ، وَيَزْوِيَ ظَمَأَ قَلْبِهِ.

قَالَ: وَمَا هَذَا؟ أَأَنْتَ أَيْضًا تُسَايِرُهُ فِي مُجُونِهِ وَعَبِيْهِ، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ مَا يَتَّظَاهَرُ بِهِ مِنْ كَمَدٍ هُوَ مِنْ حِيلِهِ عَلَى الْمُجُونِ، وَمِنْ ذَلَالِهِ عَلَى التَّثْوِيلِ كَيْ يَجْعَلَ مِنَّا مَطَايَا شَهَوَاتٍ وَأَوْطَارٍ. إِنَّ النَّاسَ تَحَمَّلُوا مِنَّا ضَرَاوَةً فِي السِّيَاسَةِ، وَضَرَاوَةً فِي الْأَمْوَالِ، إِلَى ضَرَاوَةٍ وَضَرَاوَةٍ فِي الْأَحْكَامِ، وَلَا أَرَاهُمْ إِلَّا نَائِرِينَ بِنَا، إِذَا جَعَلْنَا بُيُوتَهُمْ هَدَفًا لَضَرَاوَةِ شَهَوَاتِنَا أَيْضًا...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هُوَ ذَاكَ. وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِالتَّوْفِيهِ عَنْ يَزِيدَ، فَإِنِّي لَا أَقْدِرُ أَنْ أَرَاهُ كَاسِيفًا؟ أَلَا فَفَكَّرْ مَعِيَ وَتَحَايَلْ مَا وَسِعَتْكَ لِبَاقَةُ الْحِيلَةِ. فَفَكَّرَا مَلِيًّا وَكَانَ عَمْرُو أَسْبَقَهُمَا، فَهَتَفَ: لَقَدْ وَجَدْتُهَا، وَإِنْ كَانَ فِيهَا تَسْخِيرُكَ إِيَّايَ حَتَّى لِشَهَوَاتٍ وَلَدِكَ أَيْضًا.

قَالَ مُعَاوِيَةُ يَغْبِطِيَّةً: هَابْ! هَابْ! وَعَسَاهَا أَنْ تَكُونَ مِنْ وَحْيِ شَيْطَانِكَ يَوْمَ صِفِّينَ، وَخِدْعَةً كَخِدْعَةِ رَفْعِ الْمَصَاحِفِ... يَعْنِي مُوَفَّقَةً...

قَالَ عَمْرُو: أَنَاخُذُهَا عَلَيَّ وَبِهَا أَتَقَدِّتُكَ وَبِوَأُتِّكَ عَرْشَكَ، وَجَمَعْتُ بِهَا عَلَيْكَ مَا هُوَ مُجْتَمِعٌ فِي يَدَيْكَ مِنْ أَشْبَابِ الْمَلِكِ، وَمُحْتَبِكٌ عَلَيْكَ مِنْ مَظَاهِرِ السُّلْطَانِ؟
قَالَ: كَأَنْتَ مِنْ أَجْلِ دُنْيَا جَزَيْنَاكَ عَلَيْهَا بِدُنْيَا، وَمَا أَظُنُّنِي بِحَسْبِكَ الْأَجْرِ. وَكَسَرَ جَفْنَ عَيْنِهِ الْيُسْرَى، وَكَانَ لَا يَفْعَلُ هَذَا إِلَّا «وَهُوَ يَتَّخِذِي» وَمَا يَجْهَلُ عَمْرُو مِنْهُ ذَلِكَ.

فَقَالَ وَسَمِئْتُهُ رَهْبَةً: رُوَيْدَكَ، إِنِّي لَا أَتَّخِذُكَ وَإِنَّمَا ظَنَنْتُكَ تَعْمِرُ عَلَيَّ...

فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَدْ أَدْرَكَ سِرَّ رَهْبَتِهِ، وَقَالَ:

لَكَ الْعُتْبَى يَا عَمْرُو حَتَّى تَرْضَى. وَهَلْ مِثْلُكَ يُنْخَسُ قَدْرُهُ وَيُرَوَّعُ؟ وَإِنَّمَا
قَصَدْتُ مَدَاعِبَتَكَ فَلَا تُثْرِبْ عَلَيْكَ. لَطَالَمَا خَدَمْتُ آلَ أَبِي سُفْيَانَ، فَلَسْتُ أُنْسَى
بِالْأَمْسِ كَيْفَ أَنْقَذْتَنِي وَكَانَتْ لَكَ يَدٌ عِنْدِي، وَأَنَا أُعْرِفُ الْيَوْمَ تَأْتِيكَ لِإِنْقَاذِ يَرِيدٍ
وَلَدِي، وَهِيَ يَدٌ لَكَ عِنْدَهُ لَيْسَ يَنْقُصُهَا.

قَالَ عَمْرُو: حُمَادَاكَ، فَإِنِّي عِنْدَ ظَنِّكَ... رَأَيْتُ أَنْ تَشْتَدِّجَ آتِينَ سَلَامٍ
بِالْإِلْطَافِ «وَكَرَائِمِ الْأَمْوَالِ وَالْخَلِيعِ»، وَثَرِيَّةَ جَانِبِ الْوُدِّ مِنْكَ، وَثَرِيَّةَ بَرِيَارَتِكَ
وَالْقُدُومِ عَلَيْكَ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ: وَبَعْدُ؟

قَالَ عَمْرُو: ذَلِكَ عَلَيَّ حِينَهُ...

*

فَصَلَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ مِذَّاقَتَرَنَ بِأُرَيْبِ، وَهُوَ يَرَى حُلْمَ سَعَادَتِهِ يَنْتَشِرُ
لِيَجْتَمِعَ فِي حُدُودِهَا، فَأَحْلَاهَا مِنْهُ مَحَلَّ الْقَلْبِ، فَكَانَ إِذَا خَلَا إِلَى قَلْبِهِ وَجَدَ
أُرَيْبَ، وَإِذَا خَلَا إِلَى أُرَيْبِ وَجَدَ قَلْبَهُ. وَكَثِيرًا مَا كَانَ يَقُولُ لَهَا: لِيَخْلِلْ إِلَيَّ أَتُكِّ
لَسْتُ سِوَى قَلْبِي مُصَوَّرًا، وَشَاءَ أَنْ يَتَجَسَّدَ فِي شَكْلِ بَنَاتِ الْحُلْدِ، فَيُرِيَنِي كَمْ هُوَ
سَعَادَةٌ، وَكَمْ يَجِبُ أَنْ أَكُونَ بِهِ سَعِيدًا. لَوَدِدْتُ يَا أُرَيْبُ أَنَّي أَتَحَوَّلُ هَالَةً فِي أَبَدِيَّةِ
عَيْنَيْكَ الْفَاتِنَتَيْنِ... أُرَيْبُ! آه أُرَيْبُ!...

آه! يَا مَا أَسْعَدَ الْأَزْوَاجَ إِذَا كَانَ لِكُلِّهِمْ مِثْلُ أُرَيْبِ!...

وَكَانَتْ أُرَيْبُ لَا تَقِيلُ عَنْهُ إِحْسَاسًا بِسَعَادَتِهَا بِهِ، فَقَدْ عَاطَتْهُ مِنْهَا أَيْضًا مِثْلَ
عَوَاطِفِهِ فَقَالَتْ: أَوْ قُلْ مَا أَسْعَدَهُنَّ حَقًّا إِذَا كَانَ لِكُلِّهِنَّ مِثْلُ عَبْدِ اللَّهِ.

قالت له صباحَ يومٍ، وقد قَطَفَا أَوَّلَ إِشْرَاقَةِ مِنْ شُعَاعَةِ الشَّمْسِ: لا أَذْري
لِمَاذَا؟ لِمَاذَا يُعَاوِدُنِي فِي أَقْصَى هَوَاجِسِي الْعَمِيقَةِ الْحَقِيقَةِ مُنْذُ لَيَالٍ، أَنْتَ لَمْ تَعُدْ لِي،
وَتَعْتَادُنِي طُيُوفَ خَبِيثَةٍ أَظْلُ مِنْهَا فِي رَهْبَةٍ؟ وَتَعَلَّقْتُ بِهِ. إِنِّي خَائِفَةٌ.

تَرَفَّرَتْ فِي عَيْنَيْهَا دَمْعَتَانِ كَبِيرَتَانِ، تَرَاخَتْ إِحْدَاهُمَا سَاقِطَةً، وَاسْتَمْسَكَتِ
الْأُخْرَى مُتَبَلِّوْرَةً بَيْنَ جَفَتَيْهَا اللَّذَيْنِ كَانَا فِي نِصْفِ إِغْمَاضَةٍ، فَأَهْوَى يَضُّعُهَا إِلَيْهِ
ضَمًّا غَنِيْفًا كَأَنَّهُ يُحَاذِرُ، فَقَدْ عَرَاهُ مِثْلُ هَاجِسِهَا أَوْ سَرٍّ مِنْهُ، عَرَاهُ أَنَّ هُنَاكَ مَنْ
يُحَاوِلُ اخْتِطَافَهَا، فَهوَ يَشُدُّهَا إِلَيْهِ، يَضُّ بِهَا وَيَقْتَدِيهَا.

إِسْتَوَيَا فِي مَقْعَدِهِمَا، ثُمَّ لَمْ يَخْطُوْا إِلَّا قَلِيلًا فِي حَدِيقَةِ الْقَصْرِ، حَتَّى اسْتَأْذَنَ
حَامِلُ الْبَرِيدِ يُسَلِّمُهُ كِتَابَ الْمَلِكِ.

اسْتَطِيرَ فَرَحًا، وَاسْتَحَفَّهُ الْإِنْعَامُ الْمَلِكِيُّ عَلَيْهِ، وَكَانَ مُفَاجِئًا حَتَّى لَقَدْ ذَهَلَ
عَنْ أَنَّهُ يُعَاذِرُ زَوْجَتَهُ الْحَقِيقَةَ عِنْدَهُ، دُونَ أَنْ يُلْقِيَ عَلَيْهَا نَظْرَةً وَامِقَةً تُشِيرُ إِلَى أَنَّهُ
سَيَعُودُ إِلَيْهَا، بَعْدَ مُتَعَةٍ قَصِيرَةٍ بِالنَّظَرِ إِلَى مَا أَهْدَى إِلَيْهِ.

وَقَفَتْ تَنْظُرُ بَاهِتَةً وَعَاوَدَتْهَا هَوَاجِسُهَا. فَلَمْ تُطِيقْ وَقُوفَهَا طَوِيلًا، فَانْسَنَتْ إِلَى
مَقْعَدِ قَامَتْ مِنْ فَوْقِهِ مُتَعَانِقَاتُ «البواري» فِي شَكْلِ جَعَلَ مِنْهُ وَكَانَ عَاشِقَيْنِ أَوْ
طَائِرَيْنِ حُبِّ. وَقَالَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: آه! لَقَدْ وَقَعَ مَا كُنْتُ أَهْجِسُ بِهِ فِي خَاطِرِي،
وَالَّذِي كَانَ يَحْبِكُ فِي صَدْرِي مِنْ وَسَاوِسٍ؛ لَيْتَ الْهَدَايَا الَّتِي اسْتَحَفَّتُهُ كَانَتْ عِنْدَ
قَدَمِي لِأَطَّاهَا مُسْتَحَفَّةً بِأَنْفَسِ مَا فِيهَا، وَلَا أَقْطَعُ عَلَى نَفْسِي لِحْظَةً قَلْبٍ كَانَ يَخْفِقُ
فِيهَا بِمَعْنَى الْحُبِّ، وَهُوَ كُلُّ الْحَيَاةِ وَكُلُّ السَّعَادَةِ...

أَتَشْغَلُهُ عَنِّي هَدَايَا حَقِيرَةٌ؟! مَهْمَا بَلَغَتْ نَفَاسَتُهَا، فَلَنْ تَكُونَ إِلَّا حَقِيرَةً
بِجَنْبِ مَا هُوَ دُونَ حَسَنَةِ طَائِرٍ مِنْ نَشْوَةٍ مَا كُنَّا فِيهِ، بَلْ بِجَنْبِ خَلْجَةٍ رَاعِشَةٍ مِنْ
تِلْكَ الْخَلْجَاتِ الْمُفَعَّمَةِ...

الآن فقط، بدا لي طفلاً تفتنه لعبة عن لعبة، ويأخذ أليماً وقَعَ عليه بكلِّ
بصره. لم يكن إذاً إلا طفلاً، ولم أكن، كلُّ هذا الوقت، سوى لعبة كبيرة يلهو بها
دُميَّة، ودُميَّة حيَّة تمتع قلبه الباردة بحرارة أنفاسها المتداف... وهؤلاء الذين يرون المراءة
دُميَّة ذات حرارات، هم باردو القلوب، وإنما يطلبون فيها الأضطلاء والدَّفء
فقط، أما أنا، وأحسُّ بقلبي مُشتَعلاً، فأريدُ قلباً مُشتَعلاً أيضاً يفتيان على بغضهما
في تلهب جميعاً...

أف للرجل! إنه طفلٌ في حِسِّ القلب ولا يريد، ثم لا يشعُر من العاطفة إلا
على مقدار العَبَث، وليست للأشياء قيمة عنده، إلا على قدر ما تملك من إحياء
اللَّهُو عليه وتشيُّعه فيه.

لا، لا لست أرضى أن أكون عنده متاعاً صِنُو هذه الهدايا، بل خيِّل إليَّ
أنِّي أخفَرُ منها في نظره. فغادرني يخفُّ إليها، ولم يترك، عند مَوقِفنا، نظرة أشعل
بها حتى يَؤوب، إنها أخذت بكلِّ هواه، حتى لم أعُد شيئاً أذكر...

أف للرجل! إنه في دُنيا القلبِ طفلٌ، وأيضاً طفلٌ ذو طبعٍ بليد خشين...

يا لك من هدايا مشؤومة! إنك هدايا فيك كلُّ ما في السموم من روح،
وكلُّ ما في الأفاعي من مغنى مخيف ووجود راعِب... وما يُدريني فلعلها خبايل
وشباك منسوجة من حُمات العقارب وأوبارها... وما هو حتى رآته مُقبلاً مُغتبطاً،
تشييع الابتسامة المشعة الضاحكة في وجهه، يحيل بين يديه كرائم الجوهر وعقود
اللالى البعيدة الشطوع، المتماوجة بالسنى والسناء، يقول وهو يُقلِّبها في كفِّه:

إليك! إليك! لقد جاءت كأنها تقول: كنتُ جوهرة يتيمة حتى وجدتك! أما
تسمعين؟ أما تسمعينها؟... وراح في تشوة ضاحكة، ولكتها ظلت جامدة لا
تُحير جواباً. فبهِت وعراه خدر كالدهول، فاسترخى كفاه، وتساقط ما آستوى

عَلَيْهِمَا مِنْ دُرِّي الْأَحْجَارِ الْكَرِيمَةِ، وَهُوَ لَمْ يُحْسَ. وَكَانَتْ تَنْظُرُ وَتَرَى، فَأَلَمَتْ بِمَا عَرَاهُ فَأَعْتَبَطَتْ، وَلَمْ تَلْبَثْ حَتَّى أَخَذَتْهُ بَيْنَ ذِرَاعَيْهَا نَشْوَى.

عِنْدَ شُرُوفِ الصَّبَاحِ، بَعْدَ أَيَّامٍ، حَيْثُ كَانَا وَاقِفَيْنِ يَنْظُرَانِ إِلَى الْأَفْقِ الْبَعِيدِ، قَالَ، وَهُوَ يَحْسِبُ بَعْضاً مِنْ أَنْفَاسِهِ الَّتِي أَحَسَّ أَنَّهَا تَخْرُجُ جُمْلَةً ثُمَّ لَا تَعُودُ:

لَعَلِّي لَا أَغِيبُ عَنْكَ طَوِيلًا، وَسَوْفَ... قَالَتْ مُرْتَعِدَةً:

تَغِيبُ عَنِّي؟ مَاذَا تَقُولُ؟ وَإِلَى أَيْنَ؟

قَالَ: رَأَيْتُ مِنْكَ، يَوْمَ الْهَدَايَا، أَنَّكَ غَيْرُ مُعْتَبِطَةٍ فَلَمْ أُخْبِرْكَ. جَاءَ فِي كِتَابِ الْمَلِكِ أَيْضًا أَنَّهُ يَغْرُمُ عَلَيَّ بِالْحُضُورِ، وَلَا أَذْرِي لِمَاذَا؟ هَدَايَا مُفَاجِئَةً وَدَعْوَةً مُفَاجِئَةً! وَلَكِنِّي أَظُنُّ أَنَّ سَعَادَتِي بِكَ جَذَبَتْ إِلَيَّ سَعَادَةً أُخْرَى... وَرَبَّتْ عَلَى كَتِفِهَا.

إِنْتَفَحَتْ أَوْدَاجُ أَرْيَنَبَ، وَغُصَّتِ الْكَلِمَاتُ فِي حَلْقِهَا، وَلَكِنَّهَا حَوَّلَتْهَا كَأَنَّهَا تَلُوكُ حُرُوفَهَا لَوْكَ:

أَيْثُهَا النَّفْسُ أَجْمَلِي جَزَعًا فَإِنَّ مَا تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

فَقَالَ يُدَاعِبُهَا: هَذَا قَوْلُ أَوْسَ بْنِ حَجَرٍ يَزُثِي بِهِ. وَهَا أَنَا فَجَسِي يَدِي... قَالَتْ، وَوَضَعَتْ يَدَهَا عَلَى فَمِهِ تَأْخُذُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِمْرَارِ، فَقَدْ أَرْهَبَهَا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ ظَنُّهُ وَلَوْ مُدَاعَبَةً:

إِنِّي لَسْتُ أُرْثِي سِوَى نَفْسِي إِلَى نَفْسِي... وَحَاوَلَ الْكَلَامَ فَقَطَعَتْهُ عَلَيْهِ بِقَوْلِهَا: لَسْتُ مُعْتَبِطَةً بِسَفَرِكَ، وَبِوَدِّي أَنَّكَ لَا تَذْهَبُ، بَلْ بِوَدِّي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْهِ عَمَلُهُ وَتَعْتَرَلَ. فَلِي مِنْ أَمْوَالِي الْكَثِيرَةِ وَدُنْيَايَ مَا يُغْنِيكَ عَنْ أَمْوَالِهِ وَدُنْيَايَ، وَلَكَ مِنْ سَيَادَتِكَ وَنَشَبِكَ مَا يُغْنِيكَ عَنِ التَّسَوُّدِ بِهِ.

إِنَّهُ يُزْهِنِي! إِنِّي لَا أَطْمَئِنُّ إِلَيْهِ، وَبِهِ تُحِيطُ عِصَابَةٌ لَا أَذْرِي بِمَاذَا أَنْعَتْهَا...

إِنْتَزَعَتْهَا مِنْ لِسَانِهَا كَلِمَةً: إِنَّهَا دَمَوِيَّةٌ تَجْرِي وَرَاءَ شَهَوَاتِ حُمْرَاءٍ، ثُمَّ لَا يَحُولُ بِهَا عَنْهَا شَيْءٌ مِنْ عَارِفَةٍ أَوْ قَانُونٍ.

قَالَ: هُوَ ذَاكَ؛ وَلَكِنِّي لَا أَذْرِي كَيْفَ أَرُدُّ عَلَيْهِ. إِنَّ هِيَ إِلَّا أَيَّامٌ قَصِيرَاتُ الْمَدَى، أَعُودُ إِلَيْكَ عَلَى أَثَرِهَا، وَأَصِيرُ إِلَى رَغْبَتِكَ بِأَغْتِرَالِ عَمَلِهِ... وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ تَرَوِّعُ إِلَيْهِ أَنْ لَا يَزْخَلَ، وَحَانَتْ مِنْهَا لَفْتَةٌ فَرَأَتْ أَفْرَاسَ الْبَرِيدِ جَاءَتْ تَحْمِلُهُ؛ فَلَمْ تُطِيقْ تَرَاهُ يَسِيرُ، فَذَهَبَتْ تَذْفِيقُ وَجْهَهَا فِي رَاخَتَيْهَا، وَتُجْهِشُ كَأَنَّمَا هِيَ مُنْخَرِطَةٌ فِي نَشِيجِ مَرِيرٍ، وَرَدَّدَ عَبْدُ اللَّهِ، وَقَدْ تَمَادَى بِهِ الْمَسِيرُ، وَلَفَّهَ قَتَامُ الرُّكْبِ.

وَكَمْ تَشَبَّهَتْ بِي يَوْمَ الرِّحِيلِ ضُحَى وَأَذْغِي مُسْتَهْلَاتٍ وَأَذْغِي أَسْتَوْدِعُ اللَّهَ فِي بَغْدَادَ لِي قَمَرًا بِالْكَوْخِ مِنْ قَلِّكَ الْأَزْرَارِ مَطْلَعُهُ وَدَّغُهُ وَبِرْدِي لَوْ يُودَّعُنِي صَفْوُ الْحَيَاةِ، وَأَتِي لَا أُوَدَّعُهُ...

*

كَانَ عِنْدَ مُعَاوِيَةَ، بَعْدَ أَيَّامٍ لَمْ تُكُنْ طَوِيلَةً، فِي غَيْرِ حِسِّ أُرَيْنَبَ وَحِسَابِ عَبْدِ اللَّهِ، فَتَلَقَّاهُ بِالْأَلْطَافِ وَالْأُنْسِ النَّاعِمِ، فَعَجِبَ كَثِيرًا وَفَكَّرَ كَثِيرًا، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ لَوَجْهِ الْأَمْرِ، وَتَحَيَّرَ بِهِ تَقْدِيرُهُ، فَلَمْ يَطْمَئِنَّ إِلَى أَيِّ وَجْهِ أَنْصَرَفَ إِلَيْهِ. بَيَدَ أَنَّهُ مَعَ ذَلِكَ كَانَ مُغْتَبِطًا، وَتَرَايَدَ بِهِ الْإِغْتِيَاطُ إِزَاءَ مَا يَلْقَى مِنْ خِفَاوَةٍ وَآخِرَامٍ وَرِعَايَةِ مَقَامٍ، حَتَّى لَمْ يَعُدْ يُفَكِّرُ بِشَيْءٍ إِلَّا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ جَدِيدٌ لَا عَهْدَ لَهُ بِالزَّمَنِ.

لَمَسَ صِدْقًا فِي كُلِّ مَا يَلْقَاهُ مِنْ مَظَاهِرٍ، وَبَاتَ أَمِلًا بِشَيْءٍ لَمْ يَذَرِ كُنْهَهُ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ بُشْرَى عَلَى أَيِّ حَالٍ. لَمْ يَكُنْ يُرَى إِلَّا مَدْعُوًّا إِلَى مَجَالِسِ أُنْسٍ مُعَاوِيَةَ، وَأُنْدِيَةِ السَّمَرِ الْغَزَلِيَّةِ، وَإِلَّا مُنْتَشِشًا عَلَى مِثْلِ الطُّيُوشِ فِي لِيَالِي الْقُصُورِ الشَّرْقِيَّةِ الْمَاجِنَةِ، الَّتِي كَانَتْ ذَاتَ نَسَبٍ قَرِيبٍ بَلِّيَالِي أَلْفِ لَيْلَةٍ فِيمَا بَعْدَ، الْعَارِقَةِ فِي أَخْلَامِ الشَّهَوَاتِ الْمُعْزَبَةِ.

إِسْتَيْقَظْتُ فِي نَفْسِ آبْنِ سَلَامٍ صَبُوءٌ لَمْ يَكُنْ يَعْهَدُهَا، صَبُوءٌ مِنْ نَوْعِ
الصَّبُوءِ الْحَادَّةِ، فَلَمْ يُعَدِّ يُفَكِّرْ فِي مَدَى أَنْطِلَاقِهَا إِلَّا بِإِزْوَائِهَا، وَدَارَتْ فِيهِ نَهْمَةٌ
كَأَنَّهَا أَنْفَطَرَتْ مِنْ طَبِيعَةِ الظُّمَأِ. فَقَدْ هَبَطَ مِنْ فِرْدَوْسِ الْحُبِّ الْقَلْبِيُّ السَّعِيدِ،
أَنْبَعَثَتْ حَيَاتُهُ عَلَيْهِ، نَزَوَاتٌ كَأَنَّ يَكْبُثُهَا الْقَلْبُ فِي نَشْوَاتِهِ الْعَبَقْرِيَّةِ الْإِلْتِهَابِ،
الْمُتَلَطِّئَةِ بِالشُّعْلِ الْحَمْرَاءِ.

كَانَ فِي هَذَا الْجَوْ الحَمَرِيِّ اللَّذَاتِ الْمَهْوُودِ بِحَمَائِلِ الشَّهَوَاتِ، مَا أَحَالَ
أُرْيَنْبَ، فِي جَوْ نَفْسِهِ، إِلَى ذِكْرِ مِنَ الصَّبَابِ لَمْ تَزَلْ تَتَأَلَّفُ وَتَحْتَجِبُ، وَعَادَ لَا
يَذْكُرُ إِلَّا مَا هُوَ فِيهِ، وَتَمَنَّى لَوْ طَالَ أَمَدُ هَذِهِ الْمُتَعَةِ اللَّازُورْدِيَّةِ فِي لِسَانِ اللَّهَبِ،
وَتَشَهَّى أَنْ لَا تَنْقُضِي، وَكَانَ مُنْذُ قَرِيبٍ لَا يَسْتَطِيعُ سَاعَةً بُعَادٍ عَنْ أُرْيَنْبِ مَهَاتِهِ
النَّايِضَةِ بِالطُّهْرِ فِي وَثَبَاتِ الْحُبِّ الْقَلْبِيِّ الْخَالِصِ...

إِنَّهُ أَسَفٌ مُنْجِدِرًا إِلَى مُحِيطٍ مِنَ الْحَمَاقَةِ الْبَعِيدِ الْقَرَارِ، وَأَصْفَتْ عَلَى نَاطِرِيهِ
الْوُحُولُ فَلَمْ يُعَدِّ يَرَى، وَأَتَمَّا بَاتَ يُجِسُّ فِي طَرَاوَةِ الْوُحُولِ نَعُومَةَ الرُّبْدِ، فَرَاخَ يَهِيمٍ
فِي خَيَالِ الْوُحُولِ.

إِنَّ الْحُبَّ فِي حَقِيقَتِهِ رَغْبَةٌ بِالْإِسْتِحَالَةِ، وَبِتَغْيِيرِ آخَرِ رَغْبَةٍ فِي التَّحْوِيلِ،
وَلِمَكَانِ الشُّعُورِ بِوُجُودِ الذَّاتِ يَذْهَبُ الْكَائِنُ، إِذَا صَدَّمَ مَشَاعِرَهُ أَنْفِعَالٌ خَدِيرٌ
كَأَنْفِعَالَاتِ اللَّذَّةِ عَلَى أَنْوَاعِهَا، يُحَاوِلُ الْإِسْتِحَالَةَ بِهَذَا الْإِنْفِعَالِ إِلَى وُجُودِ شُعُورِيٍّ
آخَرَ، وَلَا يَزَالُ يُبَالِغُ، تَحْتَ تَأْثِيرِ هَذَا الْإِنْفِعَالِ الَّذِي يَتَزَايَدُ وَضُوحًا، رَغْبَةً بِالْإِسْتِحَالَةِ
حَتَّى يَطْلُبَ مُلَاشَاةَ كِيَانٍ فِي كِيَانٍ، حِينَمَا تَشْتَوِي هَذِهِ الرَّغْبَةُ فِي الْأَعْصَابِ،
وَكُلَّمَا زَادَتْ تَمَكُّنًا وَأَسْتِوَاءً زَادَ الْكَائِنُ نَهْمًا، وَهَذَا الشُّعُورُ هُوَ الَّذِي أَنْطَقَ آبْنُ
الرُّومِيِّ بِقَوْلِهِ:

أُعَانِقُهَا وَالتَّفْسُ بَعْدُ مَشُوقَةٌ إِلَيْهَا، وَهَلْ بَعْدَ الْعِنَاقِ تَدَانِي؟

وَأَلَيْتُمْ فَاهَا كَي تَزُولَ صَبَابَتِي فَيَشْتَدُّ مَا أَلْقَى مِنَ الْهَيْمَانِ

كَأَنَّ فُؤَادِي لَيْسَ يَشْفِي غَلِيلَهُ سِوَى أَنْ يَرَى الرُّوحَيْنِ تَمْتَرِجَانِ

فالحُبُّ البقائي، أو الرُّوجي، رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْوَلَدِ، وَالْحُبُّ الاستِغْلَائِي رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الْعَاطِفَةِ فِي الذَّاتِ الْعَلِيَّةِ؛ فِي الرُّبَانِيَّةِ فِي اللَّهِ، وَالْحُبُّ الشَّهْوِي رَغْبَةٌ بالاستِحَالَةَ فِي الشَّهْوَةِ.

وَإِذَا كَانَتْ رَغْبَةُ الاستِحَالَةَ فِي كُلِّ الْوُجُودِ، فَفِي طَبِيعَةِ الْوُجُودِ إِذَا طَبِيعَةُ الْحُبِّ، بَلِ الْبَقَاءِ لِحَظَاتٍ مُتَوَاصِلَةٍ مِنْ رَغْبَةِ الاستِحَالَةِ، وَاسْتِحَالَاتٍ بِالْفِعْلِ، فَإِذَا انْقَطَعَتْ تَقَلَّصَتْ أَسْبَابُ الْبَقَاءِ، وَذَهَبَ مُضْمَجَلًّا.

تَمَلَّكَ أَهْبَنَ سَلَامٍ، فِي لِيَالِي الْقَصْرِ الْمَشْخُورِ، أَنْفِعَالَاتٍ حُبِّ شَهْوِيٍّ طَلَبَ مَعَهَا التَّمَادِي فِي دُنْيَا الشَّهَوَاتِ، وَامْتَلَأَ رَغْبَةً بِالتَّعَرُّفِ إِلَى كُلِّ فُنُونِهَا وَفُنُونِهَا، وَشَتَّى أَلْوَانِهَا.

فِي لَيْلَةٍ مَاتِعَةٍ مِنْ لِيَالِي الْقَصْرِ الرَّاهِيَةِ الْعَبْقَةِ، أَذْنَاهُ مُعَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَعَاطَاهُ حَدِيثًا مُذَهَّبَ الْأَطْرَافِ، مُغْرِي الْبَدَوَاتِ، وَقَالَ لَهُ فِيمَا قَالَ:

هَلْ لَكَ زَوْجَةٌ؟

قَالَ: نَعَمْ... فَضَرَبَ يَدًا عَلَى يَدِهِ، وَأَصَابَ وَجْهَهُ بِبَعْضِ يَدِهِ، فَمَالَ عَلَى أُذُنِهِ عَمُرُو، وَقَدْ أَظْهَرَ أَنَّهُ اعْتَمَّ مِنْ إِيْجَابِيَّتِهِ، وَسَارَّهُ:

يَا عَبْدَ اللَّهِ، إِنَّ الْمَلِكَ أَرَادَ أَنْ يُزَوِّجَكَ ابْنَتَهُ لِمَا عَرَفَ مِنْ شَرَفِكَ، «وَأَنْتَ تَعْرِفُ أَنَّ بَنَاتِ الْمُلُوكِ لَا تَدْخُلُ عَلَى ضَرَائِرٍ».

فَقَالَ لِعَمُرُو: كَيْفَ الْحِيلَةُ؟

قَالَ لَهُ: إِذَا دَخَلْتَ غَدًا وَسَأَلْتَكَ، «فَقُلْ لَيْسَ لِي زَوْجَةٌ فَقَدْ طَلَّقْتُهَا»

وَأَشْهَدْتُ أبا هُرَيْرَةَ وأبا الدَّرْدَاءِ... باتَ لَيْلَتَهُ أَرْقَا، فَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ ذِكْرَى أُرَيْبٍ
الْغَايَةِ فِي أَعْمَاقِ نَفْسِهِ قَوِيَّةً عَنِيقَةً، وَأَخَذَتْهُ طُيُوفُهَا الْبَادِيَةُ كَالْمَلَائِكِ فِي أَثْوَابِ
طَهَارَتِهَا...

فَرَّاحٌ يُتَمَتِّمُ: أَلَا أُخَوِّنُهَا. أَلَا أَنَا؟ كَلَّا يَا مَلَاكِي! لَنْ أَفْعَلَ مِنْ أَجْلِ شَهَوَاتِ
رَعْنَاءٍ تَذُوبُ لَذَائِهَا سَرِيعاً، وَتَبْقَى آلَمُهَا مُسْتَطِيرَةً مُسْتَفْجِلَةً... وَإِذَا بِهِ يَبْدُو
مُبْتَسِماً، فَقَدْ بَارَكَهُ طَيْفُهَا، وَلَكِنْ لَا يَلْبَثُ حَتَّى تَسْتَجِيشَ بِهِ شَهَوَاتُ مَوَارَةِ، تُرْبِهِ
الدُّنْيَا وَالسَّعَادَةُ، بَلْ وَالْخُلْدُ فِي حُدُودِهَا، وَتُطْلِعُ لَهُ رُؤُوسَ فُتُونِهَا، فَيَسْتَرْخِي وَهُوَ
يَرَى السُّلْطَانَ وَالْجَاهَ وَكِبَرِيَاءَ الْحُكْمِ تَعْنُو أَمَامَ قَدَمَيْهِ، إِذَا اسْتَجَابَ إِلَى مُعَاوِيَةَ،
وَرَضِي مِنْهُ بِالْأَقْرَانِ إِلَى آتِيَتِهِ... وَتَمَتَّتْ:

حَسْبُ أُرَيْبٍ بِكُرْنَا خَالِدٌ، وَأَنَا إِذَا طَلَّقْتُهَا فَلَمْ أَفَارِقْهَا وَإِلَى الْأَبَدِ، فَصِلَةُ
بَيْنِنَا أَبَدًا وَلِيدُنَا الْعَزِيزُ... وَصَمَتَ قَلِيلاً، وَعَادَ يُنَاجِي نَفْسَهُ:

وَأَنَا إِذَا فَعَلْتُ، أَلَسْتُ أَخُونُ خَالِدًا أَيْضاً فَوْقَ خِيَانَتِي أُمِّهِ؟ أَلَسْتُ أَكُونُ قَدْ
دَفَعْتُهُ إِلَى الْحَقْدِ عَلَيَّ؟ وَكَيْفَ أَطِيقُ هَذَا، وَلَوْ فِي التَّصَوُّرِ وَالْخِيَالِ؟ إِنِّي لَا أَطِيقُ...
وَبَدَا لَهُ طَيْفٌ وَلَدِهِ خَالِدٍ فِي طُفُولَتِهِ السَّادِجَةِ بِالْحُبِّ، كَأَنَّهُ يَرُوحُ أَنْ لَا يَفْعَلَ،
وَسَاوَرَتْهُ عَاطِفَةُ قَلْبِهِ مُسَاوَرَةً، فَصَرَخَ مَعَهَا:

لا. لا. لَنْ أَفْعَلَ... وَاسْتَعْرَقَ فِي لَحْظَةِ تَهْوِيمٍ أَنْكَشَفَتْ لَهُ فِيهَا زَوَايا الْمَجْهُولِ
مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ، ثُمَّ اسْتَفَاقَ وَعَلَى لِسَانِهِ:

أَلَيْسَ فِي هَذَا التَّسْوُدِ الشَّامِخِ مَا يَخْدِمُ وَلَدِي فِي مُسْتَقْبَلِ أَمْرِهِ؟ فَلَا شَكَّ فِي
أَنَّهُ يَغْفِرُ لِي خِيَانَتِي، وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ أُرَيْبَ تَغْفِرُهَا لِي أَيْضاً. فَأَصْبَحَ وَقَدْ عَزَمَ
عَلَى الْخِيَانَةِ يُعْلَلُ نَفْسَهُ بِأَنَّهُ لَمْ يَخُنْهَا خِيَانَةً قَلْبٍ وَلِذَلِكَ هُوَ لَنْ يَنْسَاهَا، وَحَمَلَ
الْهَوَاءَ قُبْلَةَ وَدَاعٍ مِنْ بَعِيدٍ، فَهَذَا آخِرُ الْعَهْدِ بِأُرَيْبٍ...

وَتَعَرَّضَتْ لَهُ أَطْيَافُ رَاقِصَةٍ مِنْ بَدَوَاتِ الْأَطْمَاعِ الْكُبْرَى، فَسَارَ فِي بَهْجَتِهَا
كَأَنَّهُ يَجْنُحُ طَائِرًا، وَكَأَنَّ يَجْتَهِدُ أَلَا يَذْكُرُ شَيْئًا، يَجْتَهِدُ أَنْ يَشْعُرَ أَنَّهُ مَخْلُوقُ الْيَوْمِ،
وَلَيْسَ لَهُ عَهْدٌ سَابِقٌ بِالْوُجُودِ.

سَارَ غَيْرَ مُثْقَلٍ بِأَيَّةٍ ذِكْرَى مِنَ التَّارِيخِ، وَأَيَّةٍ فِكْرَةٍ تَتَّصِلُ بِمَاضِيهِ، إِنَّهُ وَلِيدٌ
مُصَادَفَةٌ جَدِيدَةٍ، وَلَوْلَيْدٌ بَهْجَةٍ جَدِيدَةٍ، يُقْبَلُ عَلَيْهَا بِمَا تَشَاءُ مِنْ بَهْجَاتٍ، فَكَانَ مِنْهُ
مَا أَشَارَ عَلَيْهِ بِهِ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، فَقَالَ مُعَاوِيَةُ لِأَبِي الدَّرْدَاءِ وَأَبِي هُرَيْرَةَ:

«أَدْخُلَا عَلَى ابْنَتِي فَأُعْلِمَاهَا بِالْأَمْرِ عَلَى وَجْهِهِ... فَظَاهَرَتْ لَدَيْهِمَا
بِالْاهْتِمَامِ وَالشُّرُورِ، وَصَرَفَتْهُمَا لِتَشَالٍ عَنْ دَخِيلَةِ أَمْرِهِ «وَأَنْتَ عَلَى ابْنِ سَلَامٍ».

وَلَكِنْ ابْنُ سَلَامٍ شَعَرَ، فَوَزَّ طَلَاقِهِ أَرْثَنَ، أَنْ مُعَاوِيَةَ لَمْ يَغْدُ لَهُ كَمَا كَانَ،
بَلْ عَدَا يَلْقَاهُ بِفُتُورِ نَفْسٍ، وَأَنْكِمَاشٍ تَوْجِيحٍ، فَأَوْجَسَ سَرًّا «وَأَسْرَعَ إِلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ
وَصَاحِيهِ يَسْتَحِجُّهُمَا» فَأْتِيَا ابْنَةَ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَتْ:

«إِنِّهَا سَأَلَتْ عَنْهُ فَوَجَدَتْهُ غَيْرَ مُوَافِقٍ لِمَا تُرِيدُ... فَلَمَّا بَلَغَاهُ لِحْنُ جُنُونِهِ،
وَأَسْقَطَ فِي يَدِهِ، وَعَلِمَ أَنَّهُ ذَهَبَ صَبِيحَةً خِدْعَةً لَتِيْمَةٍ لَيْسَ يَدْرِي غَايَتَهَا.

إِنْقَلَبَ إِلَى الدَّارِ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلزُّوْلَةِ، فَوَجَدَهَا تَعُجُّ بِالْأَشْبَاحِ الْمُخِيفَةِ، وَتَزَاوُرُ
فِي مِثْلِ تَجَاوِبِ الذُّنَابِ، فَاسْتَطِيرَ دُغْرًا، وَمَشَى فِي أَنْفَاسِهِ هَلَعٌ نَكِيرٌ، فَفَرَّ يَغْدُو إِلَى
الْحَلَاءِ وَقَدْ أَنْطَبَعَتِ الْأَشْبَاحُ فِي عَيْنَيْهِ، وَالتَّتَفَّتِ الْأَصْوَاتُ تَمُورٌ فِي أُذُنَيْهِ. فَرَاخَ
يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ وَكَفَّاهُ عَلَى أُذُنَيْهِ يَجْرِي، إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ لَا يَرَى وَلَا يَسْمَعَ، يُرِيدُ غَفْوَةً فِي
الذُّهُولِ وَلَا هَذِهِ الْيَقَظَةُ الْمَجْنُونَةِ. وَمَا آسْتَرْخَتْ كَفَّاهُ عَنْ أُذُنَيْهِ حَتَّى آسْتَعْوَى بِهِ
صَوْت:

خَائِنٌ! خَائِنٌ! وَعَلَى يَدَيْكَ دِمَاءُ الْجَرِيْمَةِ، تَمْشِي عَلَيْهَا أَرْوَاحُ صَحَايَا ثَلَاثٍ:
قَلْبُ زَوْجَتِهِ هِيَ تِمْنَالُ الْإِخْلَاصِ فِي الْحُبِّ، وَقَلْبُ غُلَامٍ هُوَ تِمْنَالُ طُفُولَةِ الْأَخْلَامِ

البريقَةُ البَيْضَاءِ، والثَّالِثَةِ هِيَ قَلْبُكَ أَنْتَ...

بَعْدَ ذَلِكَ أَضْحَى يُنْطَلِقُ كَالَّذِي فَارَ فِي خَيَالِهِ جُنُونٌ، يَنْقُلُ الْوَاقِعَةَ، وَيَبِثُّ الشُّكَاةَ، وَيَنْشُرُ الطُّعْنَ نَثْرًا دُونَ رَهْبَةٍ أَوْ وَغْيٍ. وَتَسَامَعُ النَّاسُ بِالْحَبَرِ، وَعَلَّقُوا عَلَيْهِ بِأَشْمِئَزَازٍ وَنُفُورٍ، وَبَاتَ الْكَثِيرُ يُنْظَرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ فِي شِفَاوِهِ مَقْلُوبَةٍ وَتَنَكُّرٍ، «وَهَكَذَا ذَاغَ أَمْرُهُ وَشَاعَ، وَتَنَاقَلَهُ النَّاسُ إِلَى الْأَمْصَارِ، وَتَحَدَّثُوا بِهِ فِي الْأَسْمَارِ». وَرَزَّوْا كَثِيرًا لَمَّا آتَتْهُ إِلَى حَالِهِ، فَكُنْتُ لَا تَسْمَعُ فِي كُلِّ مَكَانٍ إِلَّا مَنْ يَقُولُ:

أَتَبْلُغُ الْقِحَّةُ بِهَذِهِ الْعِصَابَةِ حَدَّ التَّأْمُرِ بِسَعَادَةِ أُسْرَةٍ هَانِيَةٍ، تَمْرُحُ فِي حُبِّ وَتَسْرُحُ فِي وَارِفِ إِخْلَاصٍ، أَمَّا يَسْرِهَا يَوْمٌ، أَمَّا تَحُلُو لَهَا حَيَاةً، إِلَّا إِذَا وَلَعَتْ فِي دَمٍ أَوْ عَبَنَتْ بِكَرَامَةٍ، لَقَدْ عَدَوْا أَقْدَارَ أَنْفُسِهِمْ، فَلَا يُرَوْنَ إِلَّا رَاقِصِينَ عَلَى الْأَشْلَاءِ، لَا هِينَ بِالْجَمَاجِمِ.

وَتَنَاهَتْ بِعَبْدِ اللَّهِ الْحَالَ إِلَى حَيْرَةٍ يَائِسَةٍ وَذُحُولٍ شَقِيٍّ يَائِسٍ، ثُلَاجِقُهُ طُيُوفٌ وَتَتَنَكَّرُ لَهُ أَشْبَاحٌ، وَتَتَفَوَّرُ مِنْ حَوْلِهِ الْأَلَامُ، وَكَانَ لَا يَفْتَأُ يَقُولُ، يُنَاجِي نَفْسَهُ:

لَوَدِدْتُ أَنِّي أَفِرُّ إِلَى أَرِينَبَ، وَلَكِنْ هَيْهَاتَ! أَنَا الَّذِي نَكَبْتُهَا وَأَشَقَيْتُهَا، أَزِيدُهَا شَقَاءً بِوَجْهِهِ الَّذِي غَدَا يُمَثِّلُ الْخِيَانَةَ الرَّوْجِيَّةَ عَلَى أَقْبَحِ صُورِهَا؟ فَلَا تَجْرُعُ آلَامَ قَلْبِي وَغُصَصَ ضَمِيرِي وَمَرَارَتِي وَحِيدًا مُنْعَزِلًا؟ كَيْفَ أَعْتَذِرُ إِلَيْهَا؟ كَيْفَ أَسْتَغْفِرُ وَلَيْدِي الصَّغِيرَ؟...

رُحْمَاكَ رَبِّي وَحَنَانِكَ! أَتُبْقِ اللَّهُمَّ عَلَى قَلْبِي لَا يَتَمَزَّعُ!

*

ظَلَّتْ أَرِينَبَ، مُنْذُ غَادَرَهَا زَوْجُهَا الْحَبِيبُ، لَا تَشِيْعُ عَلَى شَفَتَيْهَا إِلَّا آتِسَامَةٌ مُتَمَاوِنَةٌ إِذَا أَلَحَّتْ عَلَيْهَا أَحَادِيثُ وَصِيفَاتُهَا بِالْإِتْسَامِ.

وَكَانَ الْإِكْتِابُ يَتَرَايِدُهَا، يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ، فِي إِحْسَاسٍ يُلِجُّ عَلَيْهَا بِهِوْلٍ

غامِضٍ تَشْعُرُ بِهِ فِي أَعْمَاقِهَا يُنْذِرُ بِالْوَيْلِ.

وَكَانَ لَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ جَلْسَةٌ، تَارَةً عِنْدَ مَقْعَدِ أَصْطَبَاحِهَا فِي أَقْيَاءِ الْبَوَارِي
الْمُحَيِّمَاتِ، وَتَارَةً فِي شُرْفَةِ الْمَسَاءِ تُودِّعُ النَّهَارَ، وَتَسْتَقْبِلُ كَوَاكِبَ اللَّيْلِ تَبْثُهَا نَجْوَاهَا
وَزَفَرَاتِهَا، وَتَقُولُ فِي وَقْفَةٍ إِلَى ذَوْبِ الشَّفَقِ الَّذِي كَانَتْ ذَوْبُ قَلْبِهَا.

وَفِي يَوْمٍ، عَلَى عَادَتِهَا وَهِيَ فِي شُرْفَةِ الْمَسَاءِ، رَأَتْ عِنْدَ أَقْصَى الصَّحَرَاءِ،
الَّتِي تَسْتَرْخِي مُتَكَيِّفَةً عَلَى عَتَبَةِ دَارِهَا وَفِي فِنَائِهَا، قَافِلَةً كَانَتْهَا مُقِيلَةً مِنْ جَانِبِ
الشَّامِ، فَلَبِثَتْ تَنْشُدُ فِيهَا أَمَلَهَا، وَإِنْ لَمْ تَطْمَخْ بِهِ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ تَرَوْسَمَ هَذِهِ الْقَافِلَةُ
فِي نَفْسِهَا رُسُومًا مُبْهِمَةً، إِلَّا أَنَّهَا مُفْرِحَةٌ أَيْضًا، تَتَنَفَّسُ فِي فُؤَادِهَا بِنَدَى رَوِيِّ.
مَرَّتِ الْقَافِلَةُ تَحُبُّ تَحْتَ شُرْفَتِهَا، وَكَانَ حَادِي الْإِبِلِ يُشْجِي الرُّكْبَ بِصَوْتِهِ
الْعَذْبِ النَّعْمَاتِ:

أُرَيْيْبُ لَيْتَنِي وَسُدْتُ قَبْرًا وَلَمْ أَفْعَلْ، فَفِي الْأَحْشَاءِ نَارُ
«نَدِمْتُ نَدَامَةً الْكُسْعِيِّ لَمَّا غَدْتُ مِتِّي مُطْلَقَةً نُوَارُ»
يَطْلِفُ عَلَى فُؤَادِي رُوحُ آهٍ وَذَوْبُ أَسَى، وَفِي كَيْدِي أَنْفَاطُ
أُرَيْيْبُ، أَنْتِ ذِكْرِي مِنْ نَعِيمٍ وَمِنْ طَهْرٍ، وَمِنْ عَبَقِ يُنَارُ
أُرَيْيْبُ، هَلْ تَرِفُّ عَلَيَّ دُنْيَا مِنْ الْأَخْلَامِ، هَلْ تَوْبُ يُعَارُ؟
ذَكَرْتُ وَفِي فُؤَادِي نُوْحُ بَاكِ هَوَانَا، وَالضَّمِيرُ بِهِ أَوَارُ
وَهَلْ قَدَّرَ يُطَالِعُنَا بِفَجْرِ وَيَمْرُخُ فِي مَسَارِجِهِ النَّهَارُ
فَنَسْعَدَ، وَالْأَصِيلُ لَهُ أَفْتِرَاؤُ وَنَشْئِي، وَالْعُدُوُّ لَهُ آزْدِهَارُ

فَسَقَطَتْ عَلَى نَفْسِهَا هَلْكَى. وَلَمْ تَكُ إِلَّا أَيَّامٌ مِنْ حُلُولِ الرُّكْبِ حَتَّى شَاعَ
خَبَرُ عَبْدِ اللَّهِ فِي الْعِرَاقِ، وَتَنَاهَى إِلَى سَمْعِهَا، فَلَمْ تُعْذُ نَعِي. وَكَانَتْ لَا تَرَى إِلَّا

مَوْلَاهُ حَتَّى عَنْ وَحِيدِهَا الْمَفْدَى. وَكَانَتْ لَا تُرَى إِلَّا مُعْتَنِقَةً لَهُ، تُشَدُّهُ إِلَيْهَا مُدْلَاهُ،
كَأَنَّهَا تَطْلُبُ فِيهِ رِيًّا، وَلَكِنَّهَا ظَلَّتْ ظِلْمَاىَ، وَظَلَّتْ كَأَنَّهَا لَاهِئَةٌ تَطْلُبُ النَّدى
وَالرَّيَّ.

لَمْ تُطِقْ بَقَاءً فِي الْعِرَاقِ بَعْدُ، فَقَدِ اسْوَدَّتْ نَوَاحِيهِ فِي نَوَاحِي نَفْسِهَا،
فَانْطَلَقَتْ بِحَشَمِهَا وَذَوِيهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، تَطْلُبُ فِيهَا دُنْيَا جَدِيدَةً، تُغْرِى خَيَالَهَا فِي
أَنَّهَا أَصْبَحَتْ مَخْلُوقًا جَدِيدًا آخُتَصِرَ فِي نَفْسِهِ الْمَاضِي، وَالذُّكْرِيَّاتِ. رَثَتْ لَهَا نِسَاءَ
الْمَدِينَةِ، وَذَهَبْنَ يَوَاسِيَتَهَا بِكُلِّ مَا عِنْدَ الْمَوَاةِ مِنْ خِصْبٍ عَاطِفَةٍ، وَالنِّسَاءِ يُحْسِنْنَ،
بِالْمَاسِي بَنُوعٍ خَاصٍّ، مُكَبَّرَةً ذَاتِ مُبَالِغَاتٍ، وَفِي شُعُورِهِنَّ شُيُوعٌ، فَهِنَّ يُحْسِنْنَ
بِأَنْفُسِهِنَّ فِي كُلِّ مَأْسَاةٍ تَقَعُ، وَيَجِدْنَ قُلُوبَهُنَّ فِي التَّكْبَاتِ، وَهَذَا الشُّيُوعُ فِي
الشُّعُورِ جَعَلَهُنَّ يَشْعُرْنَ بِأَخْدِاثِ الْآلَامِ قَبْلَ وَقُوعِهَا، وَجَعَلَهُنَّ أَصْدَقَ تَطْلُعًا،
وَأَرْهَفَ حِسًّا بِالْجَانِحَاتِ الصَّاعِدَاتِ مِنْ أَعْمَاقِ الْمَجْهُولِ، وَالْغَارِبَاتِ الْهَابِطَاتِ
إِلَى أَعْمَاقِهِ.

فَتَجَاوَزَتِ الْمَدِينَةَ بِمَأْسَاةٍ أُرِينَبَ، عَلَى مَا أَضَافَ إِلَيْهَا النِّسَاءُ مِنْ رُوحِهِنَّ
الْآسِيَةِ، فَكَانَتْ لِادْعَةِ الْوَقْعِ، وَفِيْدَةِ الْأَثَرِ، شَائِكَةً فِي نَوَاحِي الضَّمِيرِ...

أَرْسَلَ مُعَاوِيَةَ أَبَا الدَّرْدَاءِ وَأَبَا هُرَيْرَةَ، رَسُولَيْنِ مِنْ قَبِيلِهِ، يَخْطُبَانِ أُرِينَبَ عَلَى
أَيْتِهِ يَزِيدَ، فَذَهَبَا إِلَى الْعِرَاقِ، فَبَلَّغَهُمَا أَنَّهَا آتَتْ قَلَّتْ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَتَنِيَا رَوَاجِلَهُمَا إِلَيْهَا.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ، إِذْ ذَاكَ، قَبَسَ الْهِدَايَةِ، وَمَشَكَاةَ الطُّهْرِ، وَتَمَوَّجَ الْأَخْلَاقِ
الْفَاضِلَةِ، وَقِبْلَةَ الْأَنْظَارِ، وَكَانَ إِلَى ذَلِكَ، مُفْرَعُ الْهَارِبِينَ مِنْ وَجْهِ الظُّلْمِ، وَفِي
رِحَابِهِ يَنْتَصِفُ مَهْضُومُو الْحُقُوقِ الضُّعَفَاءُ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَيُحْسِنُ فِي أَعْمَاقِهِ أَنْ
وَاجِبًا عَلَيْهِ أَنْ يَخْشَعَ بِالْمَثُولِ بَيْنَ يَدَيْهِ، بَلْ يَشْعُرُونَ، فَوْقَ ذَلِكَ، أَنَّهُ رَأْسُ
الْوَاجِبَاتِ. فَلَمْ يَجِدْ كُلُّ مَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ وَصَاحِبِهِ، حَيْثَمَا هَبَطَا الْمَدِينَةَ، بُدْأَ مِنْ أَنْ
يَبْدَأَ بِزِيَارَتِهِ قَبْلَ أَيِّ وَاجِبٍ آخَرَ، مَهْمَا سَمَتْ بِهِ قِيَمَتُهُ، فَلَمَّا مَثَلَا بَيْنَ يَدَيْهِ يُقَدِّمَانِ

إليه أنواع الاحترام بمُناسبة قُدميهما، أنس إليهما وقابلهما بحفاوته التي تعودها الناس منه، على اختلاف منازلهم، وكانت فيه خليقة وطبيعة.

لكنه أحس، مع ذلك، أن في مقدّميهما المفاجيء حدثاً هاماً، فقال لهما:
الأمير قد وثقما؟

قالا: نعم.

قال: وما هو؟ فما كتماه أن معاوية وجههما في خطبة أرينب على آبيه يزيد. فابتنسم الحسين أبينامة من قد أدرك كل شيء، ومن قد فهم غاية المناورة وبالعفة المداورة التي بات معاوية يحبك خيوطها، وينسجها كالعنكبوت حول فريسته... ونعى إلى نفسه «خدعه معاوية حتى طلق امرأته، ولما أرادها لأبيه. فبئس من استوعاه الله أمر عباد، ومكنه في بلاده، وأشركه في سلطان، يطلب أمراً بخدعة من جعل الله إليه أمره... وواصل: لن نهنأ لي حياة إلا بإعادة مياه حياتهما إلى مجراها، ولن تفر عيناى وأشد، إلا إذا قوت عيناها بالعودة وسعدا، ففي سعادة قلبين مخلصين ينصان بالحب، ويخفان بالعاطفة البريقة سر سعادتي. فعلي أن أهديم على معاوية أحاييله، وأصيده بشباكه. أف للغاشمين الذين يرفصون على الأشلاء، ويتيسمون في دموع الناس ويتشون كما لو بها يغتسلون؟ لقد استغوا فبات أبى سلام طعماً في جبالته.

فقال الحسين لهما: لقد «كنت أردت نكاحها، وقصدت الإرسال إليها، فأخطبنا علي وعليه، وأعطياها من المهر مثل ما بذل عن آبيه ولتخير...»

استأذناها بالدخول، وبعد أن استوى بهما مقعدهما، قال أبو الدرداء:

أي بُنية! إنك لم ترالي شابة في غفوان الشباب وميعة النشاط، وأنا بك جد ضنين أن تذهبي نهياً للحواطر، وتذهب نضارتك شعاعاً في اكتئاب. وإذا

سَاءَ لِكَ مِنْ آتَنِ سَلَامٍ مَا لَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ وَمَا لَمْ تَكُونِي بِهِ جَدِيرَةً، فَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكَ فِي سِوَاهُ بَدَلٌ خَيْرٌ.

قَالَتْ: مَعَاذَ اللَّهِ يَا أَبَتِ، فَقَدْ خَبِرْتُ الرِّجَالَ وَبَلَوْتُ عَاطِفَةَ قُلُوبِهِمْ فَمَا حَمِدْتُهَا، وَبَحَسْبِي فَنَائِي أَرْعَاهُ.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَمَنَيْتُ لَوْ كُنْتُ لِكَ، وَقَعَلْتُ مَا يُشِيرُ بِهِ أَبُو الدَّرْدَاءِ... فَأَبْتَسَمَتْ وَهِيَ لَا تَنْتَظِرُ مِنْ مِثْلِهِ مُدَاعَبَةً، وَوَاصَلَ: وَهَلْ مِثْلُ أَبِي الدَّرْدَاءِ يُرَدُّ وَيُخْتَلَفُ عَلَيْهِ... وَلَمْ يَزَالَا بِهَا، وَتَعَرَّضَتْ لَهَا خِيَانَةُ عَبْدِ اللَّهِ فَمَالَتْ إِلَى التَّكَايَةِ، وَرَغِبَتْ بِالْإِنْتِقَامِ.

فَقَالَتْ: وَبَعْدُ... فَعَرَفَا بِذَلِكَ إِجَابَتَهَا.

فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: أَرَادَكَ لِنَفْسِهِ «أَمِيرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَآبِنُ مَلِكِهَا، وَوَلِيُّ عَهْدِهِ وَالْمَلِكُ مِنْ بَعْدِهِ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ. وَكَذَلِكَ أَرَادَكَ الْحُسَيْنُ ابْنُ بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ، وَسَيِّدُ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ. وَقَدْ جِئْنَاكَ خَاطِبَيْنِ عَلَيْهِمَا، فَأَخْتَارِي أَيُّهُمَا شِفَتْ...» وَهِيَ مَا سَمِعَتْ أَسْمَ مُعَاوِيَةَ وَيَزِيدَ حَتَّى وَجَمَتْ، وَكَظَمَتْ بُزُكَانَ خَفِيطَتِهَا، وَهَلْ هَدَمَ سَعَادَتَهَا، وَهَنَاءَةً مَا كَانَتْ فِيهِ إِلَّا هَذَانِ وَعِصَابَتُهُمَا؟! وَهِيَ الَّتِي طَالَمَا حَدَرَتْ شَقِيقَ قَلْبِهَا مِنْ شَبَابِكِهِمَا، وَوَدَّتْ لَوْ آغْتَرَلَ عَمَلُهُمَا، فَهَلْ تُلْقِي نَفْسَهَا، بِكُلِّ اخْتِيَارٍ وَطَوَاعِيَةٍ، فِي قَبْضَتِهِمَا الْقَاسِيَةِ الرَّهْبِيَّةِ، فَتُغْتَصَرَ لَا! لَا! إِنِّي لَسْتُ فَاعِلَةً وَلَوْ أَوْطَأَنِي يَزِيدُ الدِّيَابِجَ وَأَحَاطَنِي بِمِثْلِ زَعْبِ النُّعَامِ!

لَيْتَ شِعْرِي! كَيْفَ أَرْضَى بِهِ، وَهَلْ آجَتَوَيْتُ الْحَيَاةَ إِلَّا بِسَبِيلِ مِنْهُمَا؟ وَهَلْ فَرَزْتُ وَتَشَرَّدْتُ إِلَّا عَنْهُمَا؟ لَوَدِدْتُ أَنْ أُعِيشَ فِي دُنْيَا لَا تَعْرِفُ عِصَابَتَهُمَا أَوْ لَا يَغْرِفُونَهَا. وَطَالَ بِهَا الصُّمْتُ وَهِيَ فِي مَعْرِضِ خَوَاطِرِهَا، فَقَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ:

غَلَامَ عَوْلَتْ؟ وَأَيُّهُمَا آخَتَرْتَ؟ فَقَدْ خَيَّلَ لِي صَمْتُكَ أَنَّكَ غَدَوْتَ دُؤْمِيَّةً لَا

تَنْطِقِينَ... فَأَنْقَطَعَتْ سِلْسِلَةُ خَوَاطِرِهَا، وَكَرِهَتْ رَدَّ وَسِيلَتَيْهِمَا، فَقَالَتْ:

وَمَنْ تَخْتَارُ أَنْتِ؟

قَالَ: الْأَمْرُ إِلَيْكَ.

فَقَالَتْ، مُعْرِجَةً لَهُ وَعَلِمَتْ أَنَّهُ لَنْ يُفْضَلَ يَزِيدَ بِحَالٍ: لَوْ أَنَّ «هَذَا الْأَمْرَ جَاءَنِي وَأَنْتَ غَائِبٌ، لَأَسْخَضْتُ فِيهِ الرُّسْلَ إِلَيْكَ وَأَتَّبَعْتُ فِيهِ زَأْيَكَ، فَيْكَفَ وَأَنْتَ الرُّسْلُ. فَقَدْ قَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ»، فَأَخْتَرْتُ لِي أَرْضَاهُمَا.

فَقَالَ: أَيُّ بُنْيَةٍ! إِنَّ «أَبْنَ رَسُولِ اللَّهِ أَحَبُّ إِلَيَّ وَأَرْضَى عِنْدِي، وَاللَّهُ أَغْلَمُ بِخَيْرِهِمَا إِلَيْكَ»... فَأَتَّبَعْتُ أَبُو هُرَيْرَةَ يَقُولُ:

نعم. نعم. وأنا والله لا أَقْدُمُ أَحَدًا عَلَى صَاحِبِ قِمِّ قَبْلَهُ رَسُولَ اللَّهِ، فَيَا لِعِظَمَتِكَ بِهَذَا الْقَمِّ وَهَاتَيْنِ الشَّفَتَيْنِ! لَيْتَنِي كُنْتُ أَرِيئِبَ، إِذَا لَسَالُ لُعَابِي وَتَلَمَّظُ... فَقَالَتْ وَهِيَ تَضْحَكُ مِنْ قَوْلِهِ:

قَدْ أَخْتَرْتُهُ.. فَتَرَوُجَهَا الْحُسَيْنُ وَسَاقَ لَهَا مَهْرًا عَظِيمًا، وَبَلَغَ ذَلِكَ مُعَاوِيَةَ فَتَعَاظَمَهُ، وَلَا مَهْمَا أَشَدُّ لَوْمٍ، وَقَرَّعَهُمَا أَعْنَفَ تَقْرِيعٍ، وَلَكِنَّهُ أَنْقَلَبَ مَعَ ذَلِكَ يُرَدِّدُ: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

كَانَ جُهْدُ الْحُسَيْنِ، بَعْدَ ذَلِكَ مَعَهَا، أَنَّهُ يُوَاسِيهَا، وَإِذَا ذَكَرَتْ أَبْنَ سَلَامٍ وَمَا سَمِعَتْهُ خِيَانَةً زَوْجِيَّةً، أَثْنَى عَلَيْهِ وَهَوَّنَ فِعْلَتَهُ، وَأَفْهَمَهَا إِيَّاهَا عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي رَاحَتْ تَفْهَمُهَا عَلَيْهِ، وَأَبَانَ لَهَا أَنَّ الْحَادِثَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا هُوَ عَظِيمٌ نَكِيرٌ، فَإِنَّمَا هُوَ إِقْدَامٌ مِّنْ هَيَأَ لَهُمَا أَشْبَابُ الشَّقَاءِ. ثُمَّ أَلَمَ تَقُولِي فِي بَعْضِ كَلَامِكَ إِنَّهُ طِفْلٌ، فَلَا عَجَبَ إِذَا اخْتَلَبُوا فِيهِ عَقْلَهُ، وَاسْتَبَدُّوا بِهِوَاهُ. فَإِذَا هِيَ تَنْظُرُ إِلَى مَا أَفْتَرَفَ أَبْنُ سَلَامٍ مِنْ أَفْقٍ جَدِيدٍ، وَإِذَا هِيَ تَرَى فِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إِلَّا صَحِيَّةً أَغْرَاضٍ وَأَهْوَاءٍ وَشَهَوَاتٍ مِثْلَهَا، وَإِذَا بِهَا تُدْرِكُ أَنَّ مِنْ وَاجِبِهَا أَنْ تُوَاسِيَهُ بِجُهْدِهَا، وَقَدْ بَاتَ شَقِيئًا. فَبَدَأَتْ تَحِيُّ

إليه، وبَدَأَتْ تُعَاوِدُهَا ذِكْرَاهُ فِي رَغِيْبَةِ قَلْبٍ، وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُحِسُّ هَذَا مِنْهَا، فَيَفِيضُ بِشْرًا وَتَتَنَصَّرُ تَقَاسِيمُ وَجْهِهِ بِشَاشَةٍ وَإِشْرَاقًا، فَقَدْ نَجَحَ وَأَذْنَى قَلْبًا بَاتَ نَفُورًا، مِنْ قَلْبٍ بَاتَ وَقَدْ تَشَطَّرَ وَيْلًا وَثُبُورًا.

*

أَمَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ فَقَدْ ظَلَّ فِي الشَّامِ يَوْمِي الْهَيْئَةَ الْحَاكِمَةَ بِكُلِّ سَنَاءٍ وَعَارٍ، وَيَطْعَنُ فِيهَا أَلْبَغَ مَا وَسِعَهُ الطَّعْنُ، وَهُوَ لَا يُبَالِي غَضَبًا وَلَا رِضًى، إِنَّهُ مَفْجُوعٌ مَوْتُورٌ.

فَاطَرَحَهُ مُعَاوِيَةُ لِمَكَانٍ هَذَا الطَّعْنِ وَالتَّغْرِيزِ بِالشُّنَيْعِ، وَعَزَلَهُ عَنْ إِمَارَةِ الْعِرَاقِ، وَقَطَعَ عَنْهُ رَوَافِدَهُ، فَقَلَّ مَا فِي يَدَيْهِ قَلَّةً بَاتَ مَعَهَا مُعْدِمًا، وَعَدَا مَثَلًا لِلْبُؤْسِ الْحَيِّ وَالشَّقَاءِ الشَّاخِصِ.

وَتَحَتَّ إِلْحَاحِ الْبُؤْسِ عَلَيْهِ، تَذَكَّرَ أَنَّهُ كَانَ قَدِ اسْتَوْدَعَ أَرْيَنِبَ مَالًا عَظِيمًا، وَتَذَكَّرَ أَنَّهَا أَضْحَتْ فِي عِصْمَةِ الْحُسَيْنِ، وَهُوَ لَنْ يَدَعَ لَهَا سَبِيلًا لِلانْتِقَامِ «فَتَجَحَّدَهُ إِثَابَهُ لَطَاقِهَا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ»، فَانْتَقَلَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَلَقِيَ الْحُسَيْنَ وَذَكَرَ لَهُ ذَلِكَ، وَهُوَ فِي سَكَلِ الصُّحْبَةِ الشَّقِيَّةِ، وَالْفَرِيْسَةِ الطَّرِيقَةِ الَّتِي لَمْ تَزَلْ آثَارُ أَثْيَابِ السَّبْعِ بَارِزَةً فِيهَا، رَاسِمَةً أَنْكَرَ آيَاتِ وَخَشِيَّتَيْهَا، فَزُثِيَ لِمَوَاهُ، وَرَقَّ لَهُ كَثِيرًا وَوَاسَاهُ كَثِيرًا. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَيْهَا وَخَضَّهَا عَلَى رَدِّ مَالِهِ إِلَيْهِ، فَقَالَتْ:

هَا هُوَ بِطَاعَتِهِ لَمْ أَمْسَسْهُ... وَقَصَدَ حُسَيْنٌ أَنْ يُدْخِلَهُ عَلَيْهَا بِشَقَائِهِ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَتَلَقَّاهُ بِشَفَقَتَيْهَا وَحَنَانِهَا دُونَ غِلْظَةٍ أَوْ جَفْوَةٍ. وَكَذَلِكَ كَانَ، فَتَلَاقِيَا وَاسْتَصْبِرَا طَوِيلًا فِي ذُحُولٍ وَوُجُومٍ، وَغَفَلًا عَنْ وُجُودِ الْحُسَيْنِ بِقُرْبِهِمَا، فَتَوَافَقَتْ نَظَرَاتُهُمَا نَاطِقَةً بِالْحُبِّ وَالذَّمِّ طَافِيَةً، يُخَيَّلُ لِمَنْ رَأَاهُمَا أَنَّ مِنْ وَرَاءِ عَيْنَيْهِمَا قَلْبَيْنِ يُطْلَانِ، وَقَدْ تَدَانِيَا كَثِيرًا حَتَّى رَسَمَا دَائِرَةً تَدَوَّرُ فِيهَا لَحْظَةُ حُبٍّ نَشْوَى.

وكانت عينا الحسني تبتغان بالشروع؛ وأخذ طريقه إلى الهيكل وقد أنصرف
عنهما زوجين، كي يشتغل عليه الحراب من جديد، إنه جد مغتبط الروح.

*

حطت فراشة بيضاء كأنها الزهرة على كتف غصن يمس، وكانت ناعمة
تلهو بأعاني سعادتها...

فبصر بها عنكبوت صغير، ود لو يزوي بهناءتها شهوات نفسه الحرة...
وما لبث حتى جاء قوم العناكب يبادر، وراح ينسج شباكه من حولها...
وإذ ذاك حوّم بلبل غريد كان ينشر بألحانه في الأزواج نشوات منوعات،
وحط حيث انتصبت أشارك المأساة...

فنفذ القرم نقدة، ومضى يغرد تغريداً كان مغناه: «ومكروا ومكر الله، والله
خير الماكرين...».

*

ظن «الصغير» أن القوة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
وظن «الكبير» أن الحيلة هي كل شيء، وفوق كل شيء...
ولكن حين وقع الحق في شخص الإنسان الكامل، «بطل ما كانوا يعملون،
فغلبوا هنالك وأنقلبوا صاغرين»!...

* * *

تقوى

كَانَ يَوْمًا أَرْدَهَتْ فِيهِ دَمَشْقُ بِكُلِّ أَفَانِيْنِهَا، وَبَرَزَتْ فِيهِ بِكُلِّ قُتُونِهَا، هَذَا
الْيَوْمُ الَّذِي أَطْلَلَ مَعَهُ الرِّبْعُ فِي آتِسَامَةِ الْأَزْهَارِ وَعَبَقِي آتِسَامَتِهَا، مُرْصَعًا بِخُيُوطِ
الشَّمْسِ الْمُقَنَّنَةِ يَقْنَاعٍ مِنَ الْمُزْنِ الرَّقِيقِ الشَّفَافِ.
كَانَ عَادَةً، عِنْدَ نَاسِهَا، اسْتِقْبَالُ الرَّبْعِ بِأَشْيَاءِ الْأَنْسِ وَالْحَفَاوَةِ، وَبِمَا تُوحِيهِ
الْمُنْتَعَةُ الْمُسْتَبْشِرَةُ، فَكَانَ يُحَيَّلُ لِلْمُشَاهِدِ أَنَّهُمْ نَسُوا حَتَّى الزَّمَانَ فِي وُجُودِهِمْ، ثُمَّ لَمْ
يَذْكُرُوا إِلَّا مَا هُمْ فِيهِ مِنْ أَشْبَابِ اللَّهْوِ الْعَابِثِ الْبَرِيِّ، فَيَقْبَلُونَ عَلَيْهِ بِلَهْفَةِ الطَّامِسِ
عَلَى الْيَتْبُوعِ، وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى كُلِّ مَعْنَى نَضِيرٍ، وَيَنْتَثِرُونَ أَنْتِثَارَ الطَّيْرِ فِي كُلِّ
فَضَاءٍ.

فَمِنْ هُنَا تَنْبَعُ صَحِكَاتٌ، وَمِنْ هُنَاكَ تَنْطَلِقُ زَقَزَقَاتٌ مِنْ غَنَنِ الطُّفُولَةِ،
وَمِنْ هَذَا الْوَجْهِ جَمْعٌ يَحْلُمُونَ فِي أَنْسٍ وَمُنْتَعَةٍ شَرُودٍ، وَعَلَى ذَلِكَ الْوَجْهِ قَوْمٌ يَنْعَمُونَ
فِي مِثْلِ وَثْبِ الطُّبَاءِ وَخَطَرَاتِ الْوُعُولِ، وَتَلَفَّعَتِ الْآفَاقُ، فِي حِسِّ هَوْلَاءِ اللَّاهِمِينَ،
بِكَلَلٍ مِنْ أَلْقٍ فَوْحَةٍ كُبْرَى.

وَكَانَ هَذَا الْيَوْمُ كَأَنَّهُ، فِي حِسِّ الْفَلَكَ، سَاعَةً مِنَ لَاوَعِي الزَّمَنِ، يَسْبِيحُ مِنْهَا
فِي عَرَبْدَةٍ حَالِمَةٍ أَوْ أَحْلَامٍ مُعَرَّبَةٍ. وَعَزِيزٌ عَلَى الْحَيِّ الشَّاعِرِ، أَنْ تَطْيِفَ بِهِ هَذِهِ
السَّاعَةُ مِنَ لَاوَعِي الزَّمَانِ، وَلَا يَغْرُقَ مَعَهَا فِي خِصَمِّ النَّسِيَانِ مِنْ قُبُودِ الْوَعْيِ
وَالْفِكْرِ.

في هذا اليوم كَانَ مُعَاوِيَةُ فِي قَصْرِهِ الْمَشِيدِ، وَفِي الْجَنَاحِ الْغَارِقِ بِالْمُتَعِ،
يَقْطِفُ مَعَ جَمْعٍ مِنْ حَاشِيَتَيْهِ زَنْبَقَةً زَهْوِ الْيَوْمِ. وَكَانَ بُدَيْخُ مَوْلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ
يُؤْنِسُهُمْ بِطَرَائِفِ أَخْبَارِهِ وَمُلَحِ نَوَادِرِهِ، فَأَنْتَهَى بِهِ الْحَدِيثَ إِلَى أَخْبَارِ صَابِقَةِ الْإِغْرِيقِ
الْحَرَائِيقِينَ، وَعَجَائِبِ مَا شَاهَدَ بَيْنَهُمْ، وَكَانَ فِيمَا قَالَ:

كَأَنَّ نِسَاءَهُمْ خُلِقْنَ مِنْ طَبِيعَةِ الْجَمَالِ، إِنْ لَمْ تَكُنْ فِكْرُهُ الْجَمَالِ صِغَتْ مِنْ
طَبِيعَتِهِنَّ، بَلْ لَعَلَّهُنَّ فِي بَحْرِ الْجَمَالِ لَآلِيُهُ. فَقَدْ أَفْتَرْنَ فِيهِنَّ إِدَاعُ الْخَلْقِ حَدًّا
أَبْرَزَهُنَّ مُثَلًّا نَاطِقَةً بِالْفَنِّ... فَأَيُّهُ تَقَاطِيعَ فِي أَيِّ وَجْهِ؟... وَدَارَ بِهِ نَظَرُهُ كَالَّذِي
تَذَكَّرُ صَبَابَةً قَدِيمَةً طَبَعَ عَلَيْهَا الْإِخْفَاقُ، فَأَرْسَلَ آهَةً طَوِيلَةً أَخْتَنَقَتْ فِي حَلْقِهِ قَبْلَ
نَهَائَتِهَا...

قَالَ بَعْضُ مَنْ حَضَرَ: لَكَآَنَّ لَكَ بَيْنَهُنَّ ذِكْرَى طَرِيقَةً بِمَوْقِعِهَا عَلَى قَلْبِكَ، وَإِنْ
قَدَّمَ بِهَا الْعَهْدُ... فَرَاخَ يُحَاوِلُ الْإِخْفَاءَ عَلَى شَتَّى مَزَاهِيهِ وَأَسَالِيهِ، وَلَكِنْ كَانَ فِي
عَيْنَيْهِ مَا يُفْصِحُ بِكُلِّ خَبَرٍ قَلْبِهِ، فَقَدْ عَدَدْنَا تُغْفِيَانِ تَحْتَ هَبَاءَةِ كَثِيفَةٍ مِنَ الدُّهُولِ،
حَتَّى لَيْطُنُ النَّاطِرِ إِلَى مُقْلَتَيْهِ أَنَّهَمَا جَمَدَتَا فِي غَيْرِ حَيَاةٍ، لَوْلَا بِصِيصُ رَفِيعِ الْخُيُوطِ
كَانَتْ تُرْسِلَانِيهِ قَلْقًا، عَلَى أَنَّهُ مَالٌ يَتَخَافُ فِيمَا تَمَوَّهَتْ بِهِ عَيْنَاهُ مِنْ دَمْعٍ رَقِيقٍ،
لَمَّا يُؤْذَنُ لَهُ فَيَتَحَدَّرُ.

وَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى تَرْسُلِهِمْ وَتَبَسُّطِهِمْ، أَسْتَأْذَنَ الْحَاجِبُ، وَأَعْلَمَ الْمَلِكَ أَنَّ كَبِيرَ
النَّحَّاسِينَ أَتَى بِجَارِيَةٍ فَائِقَةٍ «يَوَدُّ عَرَضَهَا» فَقَدْ كَانَ مُتَعَارِفًا أَنَّهُ يَبْدَأُ بِالْقَصْرِ،
فَيَعْرِضُ عَلَيْهِ مَا يَهْيِطُ بِهِ مِنَ الْإِمَاءِ وَالْعِلْمَانِ، فَأَذِنَ الْمَلِكُ، وَأُجْرِيتُ «مَرَاسِيمُ»
الدُّخُولِ.

وَكَانَ عَجَبُ الْحُضُورِ كَبِيرًا حِينَمَا مَثَلَتْ بَيْنَهُمْ، فَهِيَ تَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ
جَمَالِ الرُّؤْيَى فَوْقَ الْخَوَالِبِ مِنَ الْقَسَمَاتِ، حَتَّى لَقَدْ كَانَ يَرَى لِلْكَثِيرِينَ مِنْهُمْ
أَنَّهُمْ يُنْصَرِّفُونَ مَنْظَرًا مِنْ جَمَالِ فَنِّ خَيَالِيٍّ، يَجِيءُ مِنْ دُونِهِ كُلُّ مَا فِي طَاقَةِ الْحَيَاةِ

مِنْ قُرْنِ الْجَمَالِ.

هَبَطْتُ عَلَى جَمْعِهِمْ هُبُوطَ الْبِرْعَةِ عَلَى جَمَاعَةِ الطَّيْرِ فِي الْغَابِ مَعَ ظَلَامِ
الْمَسَاءِ. فَاهْتَزَّتْ أَغْصَابُهُمْ كَالْأَوْتَارِ، وَنَطَقَتْ بِلَحْنِ الْحَيْنِ الْمَوَاجِ، فَحَامَتْ فِي
مَدَى بَدَوَاتِ هَذَا الْإِبْدَاعِ. كَانَتْ عَلَى أَغْصَابِهِمْ صَدْمَةٌ جَمَالٍ فَعَلَتْ فِيهَا مِثْلَمَا
تَفْعَلُ صَدْمَةُ الضُّوءِ، أَوِ النَّعَمِ، الَّتِي يَتَجَاوَبُ مَعَهَا فُضَاءُ النَّفْسِ الْخَلَاءِ بِنَوْعِ
أَهْتِزَازِهَا، فَتَمِيدُ أَوْ تَذْهَلُ، وَالصَّدْمَةُ الشُّعُورِيَّةُ كُلَّمَا كَانَتْ أَشَدَّ تَمَكُّنًا مِنَ الْأَغْصَابِ
كَانَتْ أَكْثَرَ تَأْثِيرًا، وَأَدْوَمَ أَمْدًا.

وهذه الفتاة الكاعب تَرَكَتْ فِيهِمْ أَثْرًا أَتَّخَذُوا حَادًا لَمْ يَزَلْ يَتَزَايَدُ، حَتَّى بَاتُوا
مِنْهَا مِثْلَ النُّحَالِ، وَقَدْ عَرَضَ لَهَا مِصْبَاحُ كَثِيرِ التَّوَقُّدِ وَالْأَلْقِ فِي لِسَانِ الشَّعَاعِ.
وَكَانَ فِي هَذَا الدُّهُولِ الَّذِي عَرَاهُمْ، مَا جَعَلَ أَحَدًا لَا يَفْطِنُ إِلَى مَا اسْتَبَدَّ
بِبُدَيْحٍ مِنْ أَضْطِرَابٍ، وَمَا تَمَلَّكَهُ مِنْ تَلَهُّفٍ، كَمَا لَمْ يَفْطِنُ أَحَدٌ أَيْضًا إِلَى مَا
سَاوَرَهَا مِنْ خَلَجَاتٍ غَنِيَّةٍ كَطَمَنَتِهَا، فَعَرَبَدَتْ عَلَى قِمَمِ مُقْلَتَيْهَا نَاطِقَةً بِاللُّحْظِ
الْوَثَابِ. كَانَ لِإِنَاظِرٍ أَنْ يَقْدُرَ أَنْ بُدِيحًا أَكْثَرُهُمْ أَخَذًا بِهَا لِأَنَّهُ كَانَ أَكْثَرَ تَذَوُّقًا
لِلْجَمَالِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْدُرَ أَنَّهَا بِالذَّاتِ نَفْسٌ فَاتَيْنِيهِ الَّتِي اخْتَفَطَ بِهَا ذِكْرُ نَدِيَّةٍ
بِالْغَرَامِ، وَعَرَضَتْ لِنَفْسِهِ مِنْذُ هُنَيْيَةِ فِي بَعْضِ الْحَدِيثِ، فَهَذَا مَا لَمْ يَكُنْ يَقَعُ فِي
مَذْهَبِ الْخَاطِرِ الْمَوْسَلِ.

لَقَدْ قَطَعَ هَذَاةَ وَجُجٍ الْإِنْجِدَابِ، مُعَاوِيَةَ بِقَوْلِهِ مُخَاطِبًا كَبِيرَ النُّحَاسِينَ: لَسْتُ
مَا أَذْهَشْتُنَا حُورًاؤُوكَ، فَمِنْ أَيْنَ هِيَ؟ وَمَا أَسْمُهَا؟

قَالَ الرَّجُلُ: «إِسْمُهَا هَوَى»... فَانْبَعَثَ بُشْرُ بْنُ أَرْطَاةَ أَنْبِعَاءً يَقُولُ:

«هِيَ وَاللَّهِ كَأَسْمِهَا هَوَى»، تَخْفِضُ مِنْهُ وَتَرْفَعُ، وَتُطِيلُ بِهِ وَتُقْصِرُ، وَتَنْشُرُ
مِنْهُ وَتَطْوِي.

قال عمرو بن العاص: وماذا يكون الهوى إن لم تكنه؟ وكان بُدِيح قد
صَبَطَ أَرْشِيَّةَ قَلْبِهِ الْفَائِرِ بِالذِّكْرِى وَالْحُبِّ، وَالْآلَامِ وَالْبُعْدِ وَالْقُرْبِ، أَوْ الْقُرْبِ الَّذِي
كَانَ فِي مَعْنَاهُ نُقْطَةُ الْعَوْرِ فِي الْبُعْدِ السَّحِيقِ. شَعَرَ الْآنَ فَقَطُّ أَنَّهَا نَأَتْ عَنْهُ وَإِلَى
الْأَبَدِ، أَمَّا عَرِضَتْ عَلَى الْمَلِكِ وَنَالَتْ أَسْتِحْسَانَهُ وَحَظِيَّتْ بِإِعْجَابِهِ، فَهُوَ لَا مَحَالَةَ
سَيَصُصُّهَا إِلَى جُمْلَةِ وَصَائِفِ الْقَصْرِ وَوَلَائِدِهِ، فَكَانَ فِي حِسِّ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ يَعْصُ
عَلَى جَانِبِ قَلْبِهِ يَمْضَعُهُ.

كَيْفَ لَمْ يَبْتَعِثْهُ الْقَدَرُ إِلَى الْخُرُوجِ مِنْهُ هُنَيْهَةً وَيَتَلَقَّاهَا عَرَضاً، فَقَدْ كَانَ
يَحُولُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الدُّخُولِ وَيَحْطِي بِهَا لِنَفْسِهِ، وَهُوَ الَّذِي ظَلَّ يَتَمَنَّى حَيَاتَهُ لَحْظَةً
لِقَاءِ مِنْهَا. لَقَدْ مَدَّهُ الْقَدَرُ بِسَاعَةِ لِقَاءِ عَفْواً، وَلَكِنْ فِيهَا مَرَارَةُ التَّكَايَةِ وَالتَّلَوِيحِ
الْيَائِسِ، فَفَاضَتْ نَفْسُهُ حَسْرَاتٍ، يَبْدَأُ أَنَّهُ ظَلَّ يُعَالِجُ مَشَاعِرَهُ، وَيَحْتَمِي وَرَاءَ بَرَايِعِ
صَفِيْقَةٍ مِنَ التَّجَلُّدِ، فَقَالَ:

مثلاً هي براعم الأزهار كانت حقاً للجمال والعبير في الزهرة، فللعواطف
الحية حقائق أو براعم، تتفتق عن زهرة جمال أيضاً، وعن زهرة هوى أحياناً، وعن
زهرات معانٍ أخرى أيضاً.

وهذه الغادة كما أراكم تُحسِنون - بُوعَمَةُ الْهَوَى فِي دُنْيَا الْقَلْبِ الشَّاعِرِ -
تَتَنَفَّسُ بِأَرْبَعِهِ مَعَ السَّحْرِ النَّدِيِّ كَمَا تَتَنَفَّسُ الْوُرُودُ. وَفِي حِسِّي أَنَّ الْأَزْهَارَ
تُعَبِّرُ عَنِ الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي قَلْبِ الطَّبِيعَةِ الصَّامِتَةِ، كَمَا تُعَبِّرُ هَذِهِ الْغَانِيَاتُ عَنِ
الْعَوَاطِفِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي صَمِيرِ الطَّبِيعَةِ الْحَيَّةِ، وَقَلْبِ الْإِنْسَانِ.

وفي غابر أيامي، مَعَ نَزْوَةٍ مِنْ نَزَوَاتِ شَبَابِ الْقَلْبِ، أَحْدَثْتُ هَوًى وَأَحْدَثْتُ
فِيهِ بِهَذَا الْمَعْنَى شِعْراً:

يا وَرْدَةً فِي رِيَاضِ الْحُبِّ يَانِعَةً تُرْجِي الْهَوَى، كُلُّمَا مَرَّ الْهَوَا فِيهَا
هَيَّا أَنْشُرِي عِطْرَكَ الْغَانِي الَّذِي آمَتَزَجَتْ بِهِ الدُّمُوعُ، وَرَوَّثُهُ مَاقِيهَا

فَسِرُّ عِطْرِكَ هَذَا، أَدْمُغْ سِكَبَتْ عَلَى جُذُورِكَ فِي نَجْوَى لَيَالِيهَا
ثُمَّ اسْتَحَالَتْ عَبِيرًا مِنْ طَهَارَتِهَا فَتَوَهَّى بِالْهَوَى مَا شِئْتَ تَنْوِيهَا
فَأَنْتِ ذِكْرِي مُحِبٌّ طَالَمَا آخَتَبَسْتُ أَنْفَاسُهُ، ثُمَّ خَانَتْهُ خَوَافِيهَا
كَمْ مِنْ صَرِيحِ هَوَى، قَدْ عَاجَ مُنْتَجِحًا إِلَى ظِلَالِكَ شَاقَتْهُ مَعَانِيهَا
فَرَاخَ يَنْظِمُ آهَاتٍ مُقَطَّعَةً وَرَاخَ يَنْثُرُ مَعْنَى مِنْ مَعَانِيهَا
حَتَّى أَنْتَهَى، فِي خِصَمِّ الدَّهْرِ مِثْلَ صَدَى وَأَنْتِ ذِكْرِي هَوَاهُ بِتِ تَحْيِيهَا^(١)

وَكَانَ بُدَيْخٌ يُنْشِدُهَا بِصَوْتِ زَافِرِ الرِّثَابِ، خَافِتِ المَقَاطِعِ وَالكَلِمَاتِ، وَبَوَاجِ
سَاهِمِ النَّظَرَاتِ بَادِي الدُّهُولِ، حَتَّى لَقَدْ خُيِّلَ لَكَثِيرٍ مِمَّنْ خَضَرَ أَنَّهُ اسْتَحَالَ صَدَى،
كَمَا رَاخَ يُنْشِدُ وَيَقُولُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: لَكَأَنِّي بِكَ، يَا بُدَيْخُ، أَخَذْتُ بِهَا هَوَى جَدِيدًا.
قَالَ بُدَيْخُ: بَلْ إِنَّمَا تَعَلَّقْتُ بِأَسْبَابِ هَوَى قَدِيمٍ، وَأَسْتَقْفِظُ فِي قَلْبِي رَسِيسُ
حُبِّ ضَاقَ بِهِ النَّشِيَانُ. وَأَنْقَطَعَ بِهِمْ عَارِضُ الْحَدِيثِ، فَعَادَ النَّحَاسُ إِلَى مَقَالِهِ:
وَهِيَ صَابِئَةُ الْمَنِيِّ وَالنُّجَارِ، تَرَقَّى إِلَيَّ أَنَّهَا أُعِدَّتْ لَتَكُونَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ
رَبَّةِ الْجَمَالِ عِنْدَهُمْ، وَالصَّابِئَةُ يَتَخَرَّوْنَ فِي مِثْلِهَا أَنْ تَكُونَ نَسَقًا فِي الْمَلَامِجِ
وَالْتَّقَاطِيعِ وَالشُّكْلِ مَعَ آلِهِتِهِمْ، لِيُثْبِرَ لَهُمْ فِي الْمَوَاسِمِ وَالْأَغْنِيَادِ، وَكَأَنَّ رَبَّةَ الْجَمَالِ
بَرَزَتْ لَهُمْ أَوْ تَقَمَّصَتْهَا، فَانْتَهَتْ بِهَا صُرُوفُ الْأَقْدَارِ إِلَى حَيْثُ تَرَى.
وَالْعَجَبُ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - أَنَّهَا ذَاتُ فَلَسَفَةٍ فِي الْحَيَاةِ رَغِبَتْ بِهَا عَنْ مُتَعِ
الْحَيَاةِ، أَلْفَقَتْهَا فِي مِثْلِ الزُّهْدِ.

(١) من قصيدة لي في وردة كُنْتُ غَرَسْتُهَا «أَيَّامَ زَمَانٍ»، كما يقولون، حين كانت لي دَارٌ وكانت لي
حديقة... كما هو الشأن في المقطعات الشعرية الأخرى المبثوثة في «مَعْ أَرْزِيب».

وَأَعْجَبُ مِنْ هَذَا أَنَّهَا سَكَنَتْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَطْمَأْنَنْتْ إِلَيْهِ فَأَعْتَنَقَتْهُ،
وَأَنْتَ فِي فَهْمِهِ بِالْعَجَبِ الْعُجَابِ...

قَالَ مُعَاوِيَةُ نَاشِطًا: كَيْفَ تَقُولُ؟

قَالَ: نَعَمْ هُوَ مَا أَقُولُ لَكَ... فَضَمَّهَا إِلَى قَصْرِهِ، وَقَدْ بَدَلَ فِيهَا «مِائَةَ أَلْفٍ
دِرْهَمٍ». وَوَصَلَ: لَقَدْ صَدَقَ وَاللَّهِ بُدَيْخٌ فِي مَا مَضَى يُحَدِّثُكُمْ بِهِ...
وَلَكِنْ لَمْ تَبْغِدِ الْوَصَائِفُ بِهَا، حَتَّى آسَتَوَى وَكَانَ مُتَكِبًا، فَقَالَ:
«لِمَنْ تَصْلُحُ هَذِهِ الْجَارِيَةُ؟»

قَالَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ: مَنْ «سِوَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ تَصْلُحُ لَهُ؟» وَكَذَلِكَ قَالَ
آخَرُ وَآخَرُ، وَمُعَاوِيَةُ يَقُولُ لَا، وَيَبْتَسِمُ كَالَّذِي يُعَايِيهِمْ.
وَبَعْدَ أَنْ أَخَذَ مِنْهُمْ الشُّؤْفُ مَا أَخَذَهُ، وَتَزَايَدَهُمُ التَّلَهُّفُ - وَالرَّاعِبُ يَكُونُ
أَمِلًا أَبَدًا - فَكَانَ أَكْثَرُهُمْ تَشَوُّقًا بُدَيْخَ، فَقَدْ عَرَضَ فِي خَاطِرِهِ أَنْ مُعَاوِيَةَ قَرَأَ قَلْبَهُ.
وَبَعْدَ أَنْ نَطَقَتِ التَّطِلُّةُ الْبَادِيَةَ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَيْضًا، وَبَعْدَ لَأَيٍّ، قَالَ لَهُمْ
مُعَاوِيَةُ:

إِنَّهَا بِرُوحِيَّتِهَا وَكَمَالِهَا لَا تَصْلُحُ إِلَّا لِلْحُسَيْنِ، «فَإِنَّهُ أَحَقُّ بِهَا، لِمَا لَهُ مِنَ
الشَّرَفِ، وَلِمَا كَانَ قَدْ سَجَرَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ أَبِيهِ»... فَازْتَسَمَّتْ عَلَى وَجْهِ الْحُضُورِ آثَارُ
مَشَاعِرٍ مُخْتَلِفَةٍ مُتَنَاقِضَةٍ. أَمَّا بُدَيْخُ فَكَانَ مَحَلًّا لَأَنْوَاعِ شَتَّى مِنَ الشُّعُورِ، فَقَدْ
أَنْشَرَحَ وَأَكْتَأَبَ، وَطَرَبَ وَحَزَنَ، فِي دَرَجَةٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْإِنْفَعَالِ. إِنَّهُ أَمَلَ أَنْ يَكُونَ
مَوْضِعًا لِسُقُوطِ هَذَا الثَّدْيِ، وَتَمَتَّى، وَهُوَ الظَّامِئُ بِالْهَوَى، أَنْ تَكُونَ رِيَّةُ هَذِهِ
الْغَادَةِ الَّتِي هِيَ غَادَةُ قَلْبِهِ، وَلَكِنْ خَابَ أَمَلُهُ فَاتَّكَبَأَ. يَتَدَأَّ أَنَّهُ مَشَى فِي حَوَاشِي هَذَا
الْاِكْتِنَابِ عِنْدَهُ أَنْشِرَاحٌ، مَصْدَرُهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ، وَهُوَ الْمُنْتَشِي بِرَحِيقِ الْهَيْكَلِ
وَالْمُسْتَعْرِقِ فِي التَّأَمُّلِ الْإِلَهِيِّ، أَضْحَتْ صِنُوقُ مَقَامِهِ بَيْنَ آلِ أَبِي طَالِبٍ، هُوَ يَتَشَهَّى

أَنْ تَكُونَ قَرِيبَةً مِنْهُ وَكَفَى، إِنَّهُ يُرِيدُهَا مُتَعَةً قَلْبٍ وَقَدْ سَقَطَ عَلَى أَفْنِيَّتِهِ مِنْهَا.

فَقَارَ فِي نَفْسِهِ يَنْبُوعُ بَشَرٍ، ضَحِكَ مَعَهُ ضِحْكاً خَفِيفاً فِي الْخِيَالِ، وَزَادَ بِهِ حَتَّى أَنْفَجَرَ يَضْحَكُ كَالْمَعْرُودِ الْغَرْدِ، يَمَّا جَعَلَ الْحُضُورَ يَزُومُقُونَهُ بِأَسْتِغْرَابٍ، وَطَافَ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ: مَا بَالُ بُدِيحٍ؟... وَلَكِنْ قَطَعَهُ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ:

إِنَّهَا سَتَكُونُ مُفَاجَأَةً لَذَّةِ الْوَقْعِ عَلَى الْحُسَيْنِ، لَا سِيَّمَا وَقَدْ كَانَتْ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ، وَهُوَ الْحَالِمُ الْهَائِمُ بِالْجَمَالِ الْمُفْعَمِ بِهِ ضَمِيرُ الْوُجُودِ.

بَعْدَمَا تَنَاوَلَتْهَا الْوَصَائِفُ بِالتَّطْرِيقِ وَالْهَنْدَمَةِ مَعَ أَصْلُوبِ الْقَصْرِ، بَرَزَتْ كَالرَّبِّةِ الَّتِي تَحْلُمُ، وَالْبَحِيرَةُ تَضْطَفِقُ بِأَمْوَاجِهَا الرَّقِيقَةِ عِنْدَ الشَّاطِئِ.

كَانَتْ سَاحِرَةً اللَّفْتَةِ صَارِخَةً الْفِتْنَةِ، مُغْرِيةَ الْجَمَالِ، وَلَكِنهَا تُرَى، مَعَ ذَلِكَ، كَالْهَائِمَةِ مَعَ ضَمِيرِهَا. فَلَمْ تُكُنْ بِمَنْظَرِهَا تُشِيرُ أَصْدَاءَ الشَّهَوَاتِ، بَلْ تَنْشُرُ أَخْلَاماً نَشَوَى مِنْ أَخْلَامِ الرُّوحِ، تُلْقِي النَّاطِلَ قَسْراً فِي مِثْلِ الْمِحْرَابِ الَّذِي يُشِيعُ فِي الْقَلْبِ مِثْلَ مَعْنَى صَلَاةٍ خَاشِعَةٍ.

وَهَذَا اللَّوْنُ مِنَ الْجَمَالِ غَيْرُ مُحَبَّبٍ إِلَّا لِلْهَائِمِينَ فِي دُنْيَا ضَمَائِرِهِمْ، وَأَمَّا الْآخَرُونَ الَّذِينَ يَهيمُونَ فِي دُنْيَا أَغْصَابِهِمْ وَيَنْطَلِقُونَ فِي مَدَى رُسُومِهَا، فَإِنَّهُمْ يَنْفِرُونَ مِنْ هَذَا الْجَمَالِ الَّذِي يُغْرِيهُمْ بِمَعْنَى مُبْهَمٍ لَا يَتَذَوَّقُونَهُ، فَيَطْعَمُونَ فِيهِ مَرَارَةً الْفَقْدِ، ثُمَّ لَا يُحَرِّكُ أَيْ وَتَرٍ مِنْ أَوْتَارِ قَيْثَارَةِ خِيَالِهِمْ الْمُرَكَّبَةِ تَرْكِيباً لَا تَنْطِقُ مَعَهُ بِمِثْلِ هَذَا الْجَمَالِ، أَوْ تَنْطِقُ بِنَعَمَاتٍ مُتَنَافِرَةٍ تُوحي بِالْمَرَارَةِ.

إِنَّ طَبِيعَةَ الْإِنْسَانِ الْمَعْنَوِيَّةَ مُرَكَّبَةً تَرْكِيباً نَعْمِيّاً (مُوسِيقِيّاً) لِأَنَّهُ مُتَنَاعِمٌ بِطَبِيعَةِ تَأْلِيفِهِ الْعُصْبِيِّ، وَهِيَ - عَلَى نَسَقِ أَوْتَارِهَا الْمُتَحَرِّكَةِ بِرِيشَةِ الْبَوَاعِثِ، إِذَا صَحَّ هَذَا التَّعْبِيرُ - مُتَنَوِّعَةٌ الْأَلْحَانِ وَالْإِيحَاءِ. فَمِنْهَا مَا يُوحِي بِالشَّهْوَةِ، وَمِنْهَا مَا يُغْري بِالتَّأَمُّلِ، وَمِنْهَا مَا يَجِيشُ بِالْدَّمَاءِ، وَمِنْهَا مَا يَمُورُ بِالْخِنَانِ وَالْحُبِّ، وَمِنْهَا مَا يَدْفَعُ إِلَى

الاستغلاء. إِنَّ اللَّذَّةَ، فِي حَقِيقَتِهَا، أَنْطِبَاعَاتٌ وَأَرْتَسَامَاتٌ، فَإِذَا مَرَّتْ بِالنَّفْسِ
نَمَازِجُهَا اسْتَجَابَتْ إِلَيْهَا، وَتَحَرَّكَتْ مَعَهَا حَرَكَةً أَنْسِجَامٍ لَذَّةً.

أَمَضَّتْ فِي الْقَصْرِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، كَانَتْ لَا تَفْتَأُ خِلَالَهَا تُفَكِّرُ فِي مُصَادَفَةِ هَذَا
اللقاءِ مَعَ بُدَيْحٍ، وَهِيَ الَّتِي بَاتَتْ فِي يَأْسٍ مِنْ لِقَائِهِ، وَقَدْ بَاعَدَتْ بَيْنَهُمَا أَسْبَابٌ
وَأَزْمَانٌ.

وَدَهَبَتْ تُنَاجِي نَفْسَهَا: وَيَحْ بُدَيْحِ، إِنَّهُ لَمْ يَزَلْ فِي مِثْلِ يَقْظَةِ عَوَاطِفِهِ لَيْلَةً
لِقَائِنَا لِلْمَرَّةِ الْأُولَى، يَنْ أَرْوَقَةَ هَيْكَلِ فِينُوسَ. وَيَحْ بُدَيْحِ! لَقَدْ كَاتَبْتُ فِي سَبِيلِي كَثِيرًا،
وَتَحَرَّعَ أَمْرُ الْغُصَصِ وَالْآلَامِ مِنْ أَجْلِي، ثُمَّ تَنَاهَى بِهِ بُعَادٌ يَغْتَصِرُ عَلَيْهِ قَلْبُهُ، فَكَمْ ذَا
يُقَاسِي؟

يَا مَا أَلَذَّ وَفَقَةً أَنْتَظِرُ، فِي لَحَظَاتِ تَوَلُّهِ وَتَلَهُّفٍ، كُنْتُ أَقِفُهَا عِنْدَ بَعْضِ
أَعِمَّةِ الْهَيْكَلِ، وَبُدَيْحٍ مُقْبِلٍ تَحْتَ رِداءِ اللَّيْلِ يُمْتِنِعُنِي بِنَفْسِهِ فِي جُلُوءِ قَلْبٍ مُغْرَمٍ،
أَصْفَتْ عَلَيْهَا خُلُوءَ الْأَحْلَامِ! يَا مَا أَقْدَسَ تِلْكَ الرَّعْشَاتِ، وَأَعَذَّبَ وَقَعُهَا!!

إِنِّي لِأَذْكُرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَقَدْ هَبَّتْ فِيهَا الْأَعَاصِيرُ، وَلَعِبَتْ فِي مَسْرِحِهَا
الْعَاصِفَةُ، وَكَانَتْ الْآفَاقُ تَزْأُرُ زَثِيرًا مُخِيفًا، وَالْعَمَامُ يَهْبِطُ مَعَ جُنْحِ الظَّلَامِ كَثِيفًا
كَثِيفًا، كَأَنَّهُ شَاءَ أَنْ يَطْمُرَ الْأَرْضَ بِمَا هُوَ مُنْزَرَعٌ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ وَالْأَحْيَاءِ، وَكَانَتْ
الرِّمَالُ تَتَعَالَى وَتَتَعَانَقُ فِي شَكْلِ الْأَقْوَاسِ، وَدُعِرَتْ فِيهَا حَتَّى طُبُورُ اللَّيْلِ،
فَانْكَفَأَتْ مُنْكَمِشَةً مُنْخَسِئَةً... فِي الْمَغَاوِرِ وَالْحَفَائِرِ، وَقَدْ أَمْسَكَتْ حَتَّى الرُّكُزَ
وَالْهَمْسَ مِنْ نَأْمَتِهَا.

وَإِنِّي لَتَمَيَّنْتُ، وَأَنَا وَاقِفَةٌ عِنْدَ عَمُودِ الرُّوَاكِ الدَّاخِلِيِّ، أَنْ لَا يَأْتِيَنِي فِي لَيْلَةٍ
بُؤْسَانِ السَّمَاءِ. وَبَيْنَا أَنَا وَاجِفَةُ اللَّبِّ بِالتَّخَوُّفِ وَالتَّرْقُبِ، أُحْرِقُ قَلْبِي لِلرَّبِّ قُرْبَانًا
كِي تَحُوطَهُ وَتَرْعَاهُ، إِذَا هُوَ مُقْبِلٌ كَأَنَّمَا رَمَى بِهِ الْإِعْصَارُ فِي الْعَرَاءِ، وَتَمَحَّصَتْ عَنْهُ

العاصِفَةُ وَوَضَعَتْهُ فِي التَّيَّارِ الدَّائِرِ فِي جُنُونٍ.

أَسْرَعْتُ إِلَيْهِ أَعْتَنَقُهُ دُونَ الْهَيْكَلِ، وَهُوَ يُلْفَنِي كُثْلَةَ طُفُولَةٍ، حَذَرًا عَلَيَّ مِنْ طَيْشِ هَذَا اللَّيْلِ، وَفِي الْهَيْكَلِ اسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي كَالَّذِي خَرَجَ مِنَ الْمَعْرَكَةِ ظَافِرًا، يُجَدِّدُ حَيَاتَهُ فِي جِسِّ مَخْلُوقٍ جَدِيدٍ، إِنَّهُ خَرَجَ ظَافِرًا مِنَ مَعْرَكَةِ الْعَنَاصِرِ، وَقَدْ اسْتَدَارَتْ عَلَيْهِ بَضْرَاوَتُهَا. اسْتَنَدَ إِلَى صَدْرِي وَأَطْمَأَنَّ كَأَنَّهُ يَجِدُ فِيهِ يَنْبُوعَ حَيَاةٍ، فَهُوَ يَسْتَمِدُّهُ بَعْضُ مَا أَنْتَهَيْتُهُ الْعَاصِفَةُ، وَهُوَ يُصَارِعُ الْإِغْصَارَ.

قُلْتُ لَهُ، وَأَنَا أَدْعُدُّ جَبْهَتَهُ وَأَعْبْتُ بِشَعْرِهِ الْمُتَطَلِّلِ^(٢) الَّذِي كَمَنْتُ فِيهِ أَصَابِغَ الْعَاصِفَةِ: لِمَاذَا رُكُوبُكَ الْإِغْصَارَ إِلَى مِخْرَابِ حُبِّنَا؟ لَكَأَنَّكَ مِنْ عَدَمِ مُبَالَايِكَ مُحِبِّ فَوْقَ بُرْكَانٍ... فَأَبْتَسَمَ وَأَخَذَ وَجْهِي بَيْنَ كَفَّيْهِ يَقُولُ:

أَعْرِفُ أَنَّكَ تُصَلِّينَ فِي مِخْرَابِ الْحُبِّ وَلَا أَسْعَى إِلَيْكَ بِأَجْنَحَةِ الطَّيْرِ، كَيْ أَشَارِكَ تَوْنِيْمَةَ الْهَوَى وَتَوْنِيْلَةَ الْهَيْامِ؟ إِنَّكَ لَتَفْسِينِ عَلَيَّ فِي الظَّنِّ بِي.

قُلْتُ: عَفْوَكَ! أَرَدْتُ أَنْ تَتَّخِذَ لِنَفْسِكَ مِخْرَابًا فِي الذِّكْرَى، وَلَا تَتَجَشَّسَ هَذِهِ الْأَخْطَارَ إِلَيَّ.

قَالَ: إِنَّ مِخْرَابَ الذِّكْرَى يُغْرِي بِالظَّمِّ فِي الْحُبِّ وَيُضَاعِفُ شُعُورَهُ، وَأَمَّا الرَّؤْيُ فِي الْحُبِّ فَإِنَّمَا يَهْبِطُ فِي مِخْرَابِ هَذَا الصَّبْرِ الَّذِي يَمْرُخُ فِي فَضَائِهِ قَلْبٌ يَمْدُ بِنَدَى الْعَرَامِ.

إِلَيْهِ غَادَةَ أَحْلَامِي! لَيْسَتْ الْعَاصِفَةُ الرَّعُوبُ هِيَ الَّتِي تَشْهَدِينَ فِي حَوَاشِي هَذَا اللَّيْلِ، وَإِنَّمَا هِيَ عَاصِفَةُ الْقَلْبِ وَقَدْ فَارَتْ فِيهِ فَائِزَةُ الْبَيْعِ، بَلْ تِلْكَ، بِجَنْبِ هَذِهِ، زَعَزَعَاتُ وَأَبْتِسَامَاتُ وَزَفَرَقَاتُ تُرْسِلُهَا الطَّيْرُ مَعَ السَّحْرِ... قَسَمًا لَوْ حَالَتْ دُونَكَ أَرْضُ زُرْعَتْ فِيهَا كُلُّ الْبَرَاكِينِ، لَتَخَطَّيْتُهَا إِلَيْكَ مُغْتَبِطًا مَسْرُورًا.

(٢) نَغْنِي بِالْمُتَطَلِّلِ الْمُتَّخِذِ شَكْلِ الْأَطْلَالِ، وَتَقَعْلَ بِهِدَا الْمَعْنَى قِيَاسِي.

فَقُلْتُ مُعْتَرِضَةً: لَا تُبَالِغْ، فَإِنَّ هَذَا بَيْنَ الْبَشَرِ لَا يَكُونُ، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْ طِبَاعِ
الرَّيَّاتِ وَالْأَرْبَابِ... فَذَهَبَ ضَاحِكاً يَقْصُ عَلَيَّ قِصَّةَ ذَلِكَ الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ الَّذِي
طَلَبَتْ مِنْهُ فَتَاهُ هَوَاهُ وَرَدَّةَ حُمْرَاءٍ وَأُخْرَى صَفْرَاءٍ، وَكَانَتْ حَدِيقَةُ الْوُرُودِ فِي يَقْظَةِ
حُرَّاسٍ أَشِدَّاءَ، وَفِي عَيْنٍ أَسْوَدَ غِضَابٍ، وَيُفْصِلُ دُونَهَا نَهْرٌ يَعُجُّ بِالتَّيَّارَاتِ، فَانْطَلَقَ
الْعَاشِقُ فِي مَدَى رَعْبَتِهَا يَخْوِضُ النَّهْرَ، وَتَقَلَّبَ فِي حَدِيقَةِ الْوُرُودِ يَبْتَخُ عَنِ
الْوَرْدَةِ الْحُمْرَاءِ فَلَمْ يَجِدْهَا. فَعَادَ مُبَلَّلَ الثِّيَابِ يَقُولُ لَهَا مُبْتَهَجاً: لَقَدْ أَتَيْتُكَ
بِهِمَا... فَإِنَّهُ كَانَ يَحْمِلُ فِي يَدِهِ الْوَرْدَةَ الصَّفْرَاءَ، وَأَمَّا الْوَرْدَةُ الْحُمْرَاءُ فَكَانَ يَحْمِلُهَا
فِي صَدْرِهِ تُغْرِقُ فَوَارَةً بِالْدمَاءِ، فَقَدْ أَصَابَ سَهْمُ الْحُرَّاسِ قَلْبَهُ فَسَطَرَهُ...

قُلْتُ لَهُ مُفْجَعَةً: أَيْكُونُ ذَلِكَ حَقّاً؟!

قَالَ: لَيْسَ هُوَ بَعِيداً عَنْكَ، أَلَا فَامْتَحِنِي فِي الْعَاشِقِ الْكُرْدِيِّ. أَقُولُ لَكَ وَأَنَا
أَعْنِي مَا أَقُولُ، لَوْ تَحَدَّثْتَنِي كُلُّ أَرْبَابِ الْأَوْلِيَّاتِ كَمَا تَحَدَّثُ هِرْقَلٌ لِقَاوِمُثُهَا فِي سَبِيلِكَ
سَاحِراً بِقُوَّتِهَا... فَأَخَذْتُ عَلَيْهِ سَبِيلَ الْاسْتِغْرَارِ، وَقُلْتُ لَهُ:

بِحَقِّي لَا «تُجَدِّفْ» عَلَى الْأَرْبَابِ، وَأَيْضاً فِي هَيْكَلِ رَبِّةِ الْجَمَالِ فِينُوسَ، إِنِّي
أَخَافُ عَلَيْكَ... فَانْقَلَبَ يَقْهَقُهُ قَائِلاً:

لِمَاذَا لَا تُفَكِّرِينَ أَنَّكَ أَنْتِ الرَّبَّةُ الْحَقِيقِيَّةُ، وَأَمَّا فِينُوسُ فَرَبَّةٌ خَيَالِيَّةٌ أَثِيرِيَّةٌ
فَقَدَتْ حَرَارَتَهَا، وَيَاإِبْرَازِكَ كَاهِنَةً فِي هَيْكَلِهَا، يَمْدُونُ وُجُودَهَا الْبَارِدَ فِي الْخِيَالِ،
بِحَرَارَةِ أَنْتِ تَنْشُرِينَهَا وَتُورِّعِينَهَا. فَوَضَعْتُ يَدِي مُتَوَلِّهَةً عَلَى فَمِهِ أَقُولُ:

لَا لَا أُرِيدُ أَنْ أَسْمَعَ مِنْكَ تَجْدِيفاً. آوْ لَقَدْ فَجَعْتَنِي، أَأَنْتِ أَيْضاً يَا بُدَيْحُ
تَتَكَلَّمُ بِ «الْهَرُوطَاتِ»؟...

لَقَدْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْحَيْنِ مُؤْمِنَةً بِقُدْرَةِ الرِّيَّاتِ، وَأَنَا أَرْغَبُ عَلَى مَنْ أُحِبُّ
بأنَّ يَكُونُ مِثْلِي رَأياً وَإِيمَاناً، لَكُنِّي عَرَفْتُ، بَعْدَ ذَلِكَ، أَنَّ بُدَيْحاً كَانَ أَعَمَّقَ مِنِّي

معرفةً وأهدى تفكيراً.

لقد كنتُ مُفعمَةً بالإيمان، فَصَوَّرُهُ لي حديثُهُ صورةً مُنكرةً توحى بالشُّرِّ الكَرِيهِ، فَأَنْقَبَضْتُ عَنْهُ وَذَعِرْتُ مِنْهُ، وَبَالَغَ بي هذا الدُّعْرُ فَكَرِهْتُهُ، وَعَدْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أَتَحَاشَاهُ وَأَنْفِرُ مِنْهُ، أَوْدُ أَنْ لَا أَرَاهُ. وَكُنْتُ أُسَائِلُ نَفْسِي: أَيْكُونُ بُدِيحٌ مُجَدِّفاً وهو في نَفْسِي صورةً مِن مَلَائِكَةٍ؟ كَلَّا لَا أَوْدُ أَنْ أَخُنُقَ بِيَدِي بُدِيحاً الْعَائِشَ فِي خَيَالِي، أَوْدُ أَلَّا تَتَشَوَّهَ صَوْرَتُهُ فِي نَفْسِي، وَأَنَا، إِذَا اجْتَمَعْتُ إِلَى بُدِيحٍ سَتَمَتُّتُ يَدُهُ إِلَى تَشْوِيهِ مَا آسَتَوَى فِي خَيَالِي عَنْهُ. وَلَكِنْ بُدِيحاً الْخَيَالِيِّ مُحَبَّبٌ إِلَيَّ الْحُبُّ كُلُّهُ، وَأَتَمَنَّى أَنْ أَظِلَّ مُتَمَتِّعَةً بِهِ، مُتَشَبِّهَةً بِمِثَالِيَّتِهِ، وَمِثْلِي كَاهِنَةً رَاضَتْ نَفْسُهَا عَلَى الْأَخْلَامِ، إِنَّمَا تُحِبُّ فِي أَخْلَامِ الرُّوحِ دُونَ حُبِّ فِي أَخْلَامِ الْأَعْصَابِ، فَكَانَ طَبِيعِيًّا أَنْ كُنْتُ أَتَوَارَى كُلَّمَا تَعَرَّضَ لِي بَعْدَ ذَلِكَ. وَهَذَا مَا يَقَعُ إِذَا لَمْ يَكُنِ الْإِيمَانُ فِكْرَةً فِي النَّفْسِ، بَلْ كَانَ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ؛ أَوْ أَرَمَةً فِي الْوِجْدَانِ. وَكُلَّمَا كَانَ إِيْمَانُ الْمَرْءِ عُقْدَةً فِي الرُّوحِ تَكُونُ عَوَاطِفُهُ قَاصِرَةً عَلَى مَنْ يُشَارِكُهُ هَذَا الْإِيمَانُ دُونَ سِوَاهُ، بَلْ يَتَعَدَّى ذَلِكَ فَتُساوِرُهُ نَزَغَاتٌ يَتَحَرَّكُ مَعَهَا تَعَضُّبُهُ.

أَمَّا الْفِكْرُ الْمَجْرُودُ فَإِنَّهُ لَا يَعْرِفُ تَعَضُّبًا، وَإِنَّمَا التَّعَضُّبُ فِي مَكَانِ الْوِجْدَانِ مِنَ النَّفْسِ، فَهِيَ، أَيُّ نَزَوَاتِ النَّفْسِ، تَتَحَرَّكُ بِالْعَوَاطِفِ وَتُكْسِبُهَا لَوْنَهَا. وَكُلَّمَا كَانَ الْفِكْرُ أَكْثَرَ ضَيْقًا، وَالْوِجْدَانُ أَكْبَرَ عُقْدًا، فَهُنَاكَ يَوْجَدُ شَرُّ أَنْوَاعِ التَّعَضُّبِ، وَعِنْدَهُ يَسْتَضِيْقُ الْمَرْءُ حَتَّى يَوْجِدَ مَنْ لَا يُشَارِكُونَهُ عُقْدَةَ الْإِيمَانِ عَلَى لَوْنٍ مَا وَنَحْوِ مَا. وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا بَعْضٌ مِنَ طَبِيعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فِي الْبَشَرِيِّ وَلَا أَقُولُ الْإِنْسَانَ، فَإِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ فِكْرَةً إِيْمَانٍ فَهُنَاكَ تَدْيِينٌ صَحِيحٌ عَلَى نَهْجِ إِنْسَانِيٍّ، وَأَمَّا إِذَا كَانَ فِي التَّدْيِينِ إِنْسَانِيَّةٌ إِيْمَانٍ فَهُنَاكَ أَخْطَرُ شَكْلِ مِنْ أَشْكَالِ اللَّائِنْسَانِيَّةِ الْتُكْرَاءِ.

فَنَزْعَةُ التَّدْيِينِ الصَّحِيحَةِ هِيَ الَّتِي تَجْعَلُنَا نَحْكُمُ الْإِيمَانُ بِالْفِكْرِ، دُونَ الْعَكْسِ الَّذِي يَتَوَلَّدُ مِنْ أَرَمَةِ نَفْسٍ وَيُولَدُ أَرَمَةُ نَفْسٍ وَحَيَاةٌ أَيْضًا. أَمَّا الْفِكْرُ فَلَيْسَ يَقْبَلُ

عُقْدَةً، بَلْ مِنْ وَظِيفَتِهِ أَنْ يَحُلَّ الْعُقْدَ فِي النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْحَيَاةِ وَالْوُجُودِ... وهو إذا قَبِلَ الْعُقْدَ أَحْيَاناً فَإِنَّمَا يَقْبَلُهَا فِي ضَرْبٍ مِنَ الْامْتِحَانِ، وَفِي ضَرْبٍ خَفِيَّةٍ مِنَ الْاِزْتِيَابِ، فَالْفِكْرُ يُرَادِفُ الْامْتِحَانَ أَوْ النَّقْدَ الْمُجَرَّدَ. وَتَقَدُّمُ الْإِنْسَانِ مَعْنَاهُ تَقَدُّمُهُ فِي الْفِكْرِ الَّذِي يُنتِجُ حُلَّ أَكْثَرِ مَقْدَارٍ مِنَ الْعُقْدِ. وَفِي ظَنِّي الْيَوْمَ أَنَّ تَقَدُّمَ الْفِكْرِ لَيْسَ مَعْنَاهُ الْقُدْرَةُ أَوْ الْغِنَى فِي التَّفْكِيرِ، بَلْ مَعْنَاهُ الْكِفَاةُ عَلَى التَّفْكِيرِ بِدُونِ أَغْصَابٍ، أَيْ بِتَجَرُّدٍ لِلْفِكْرِ، وَمِنْ ثَمَّ لَا تُحِبُّ أَوْ تُكْرَهُ وَفَقَّ مَا نَعْتَقِدُ وَنَهْوِي، وَلَا يَضُرُّ بِنَا الْقُرْبُ أَوْ الْبُعْدُ، بَلْ تَمَّحِي فِكْرَتُهُمَا ثَمَّ لَا تَتَصَرَّفُ بِعَوَاطِفِنَا تَبَعاً لِهَما.

لَيْتَنِي كُنْتُ أَغْرِفُ هَذَا مِنْ قَبْلُ، إِذَا لَمَّا جَفَوْتُهُ وَنَفَرْتُ مِنْهُ، وَظَلَلْنَا فِي مُثْعَةٍ الْحُبِّ الْخَالِدِ... لَقَدْ رَأَى بُدَيْخٌ مِنِّي ذَلِكَ الْإِعْرَاضَ فَلَمْ يُطِيقِ الْحَيَاةَ وَاجْتَوَاهَا، فَذَهَبَ عَلَى وَجْهِهِ، لَا أَذْرِي أَيْنَ رَمَتْ بِهِ يَدُ الْأَقْدَارِ؟

وَلَقَدْ أَحْسَسْتُ وَاللَّهِ، بَعْدَ مَا فَقَدْتُهُ، بِالْأَسَى الْوَاحِزِ الْأَسِيفِ، فَطَلَبْتُ السَّلَوةَ فِي الشُّرُودِ بِالْمَعْرِفَةِ، فَانْدَفَعْتُ إِلَى فِكْرِ جَدِيدٍ؛ وَهَجَرْتُ الْهَيْكَلَ وَأَبْتَدَأْتُ رِخْلَتِي وَرَاءَهُ مِنْ نُقْطَةِ هَائِمَةٍ، فَانْتَهَتْ بِي قَرَايِنَةُ الرُّومِ إِلَى حَيْثُ مَكَانِي، وَكَانَ قَدَرًا مَايَعَا، فَقَدْ رَأَيْتُ بُدَيْخًا...

بَعْدَ مَقَامٍ قَصِيرٍ فِي الْبِلَاطِ «حُمِلْتُ إِلَى الْمَدِينَةِ مَشْفُوعَةً بِأَمْوَالٍ عَظِيمَةٍ وَهَدَايَا كَثِيرَةٍ مُتَنَوِّعَةٍ، وَمُحَاطَةً بِكُوكِبَةٍ مِنَ الْفُرْسَانِ، وَزَوْدَ الْمَلِكِ رَئِيسِ الرُّكْبِ كِتَابَةً إِلَى الْحُسَيْنِ، جَاءَ فِيهِ:

إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ اشْتَرَى جَارِيَةً فَأَعْجَبْتُهُ فَأَتْرَكَ بِهَا».

أَدْخَلْتُ عَلَى الْحُسَيْنِ وَهُوَ مُنْصَرِفٌ إِلَى قُرْآنِهِ، سَابِخُ فِي مَدَى تَأْمُلَاتِهِ يَقْرَأُ «وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ، قَالَ يَا بُشْرَايَ، هَذَا غُلَامٌ. وَأَسْرَوْهُ بِضَاعَةً. وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ».

وكان في الجوّ الذي يكتنف الحُسَيْنَ ما أعادَ إليها ذِكرى الهَيْكَلِ، ونَقَلَهَا إلى مِثْلِ الحِرَابِ، وزادَ بها هذا الشُّعورُ، فأَعْتَقَدَتْ يَقِيناً أَنَّها لم تُعَدْ في شَيْءٍ بِمَا يَتَّصِلُ بِدُنْيَا النَّاسِ، فَحَفَّتْهَا سَكِينَةٌ، وَلَفَّتْهَا هَذَاهُ رُوحٌ، وَغَرِقَتْ فِي خِصَمٍ بَعِيدِ الْفَرَارِ. وَأَحْسَسَتْ أَنَّها مِثْلُ غُرْنِيقِ (طَيْرِ الْمَاءِ) تَتَرَجَّحُ بِهِ الْأَمْوَاجُ الْحَالِمَاتُ، وَكَانَتْ سَكْرَى بِمَا يَسْأَقُطُ إِلَى سَمْعِهَا مِنْ نَعَمَاتٍ مَسْحُورَةٍ، تَشْعُرُ بِهَا فِي مَدَى رُوحِهَا عَذْبَةً نَدِيَّةً.

كَانَتْ لَهَا هَذَاهُ طَوِيلَةٌ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا إِلَّا عَلَى صَوْتِ الحُسَيْنِ يَسْتَقْبِلُ رَئِيسَ الرُّكْبِ، وَرَاحَ هَذَا يُخْبِرُهُ بِكُلِّ خَبَرِهَا، وَيَزُوي لَهُ كُلَّ مَا تَرَفَّى إِلَى سَمْعِهِ مِنْ أَنْبَائِهَا. فَالْتَفَتَ الحُسَيْنُ إِلَيْهَا فِي آبِتْسَامَةٍ مُوَاسِيَةٍ يَقُولُ:

لَطَّنِي بِكَ، وَأَنْتِ جَدِيدَةٌ عَهْدٍ بِالْاِغْتِرَابِ، أَنْتِ مَوْحِشَةُ النَّفْسِ، وَبِوَدِّي أَنْ تَتَذَارَكَكِ حَالٌ تَأْنَسِينَ بِهَا وَتَطْمَئِنِّي.

قَالَتْ لَهُ هَوَى: كُنْتُ خَلِيقَةً بِالْوَحْشَةِ فِي غَيْرِ مَكَانِكَ. وَلَكِنِّي، وَأَنَا فِيهِ، فَإِنِّي جَدِيرَةٌ بِأَطْمَئِنَانٍ فِي النَّفْسِ وَالضَّمِيرِ...

شَاعَتْ عَلَى وَجْهِ الحُسَيْنِ آبِتْسَامَةٌ هَادِئَةٌ هَانِيَّةٌ، وَقَالَ دَهْشاً: لَقَدْ سَبَقَ إِلَى ظَنِّي أَنَّكَ لَا تُجِيدِينَ الْعَرَبِيَّةَ عَلَى نَسَقٍ مَا أَسْمَعُ، وَلَكِنْ أَمَا وَأَنْتِ مِثْلُ أَصِيلَةٍ فِي اللِّسَانِ، فَلَنْ تَكُونِي غَرِيبَةً عَنْ حَيَاةِ بَيْتِنَا الْعَرَبِيَّةِ، إِنْ لَمْ تَتَذَوَّقِيهَا مِثْلَ أَصِيلَةٍ فِيهَا أَيْضاً...

فَابْتَسَمَتْ فِي أَشْتِخَاءٍ وَإِغْضَاءٍ وَقَالَتْ: بَلْ يَا مَوْلَايَ - لِأَجِسُ فِي كَنَفِكَ أَنِّي عَرَبِيَّةٌ صَلْبِيَّةٌ، عَرِيقَةُ الْهَوَى وَالْقَلْبِ فِي مَوَاقِعِ رَغَبَاتِهَا وَمُيُولِهَا، وَلَقَدْ حَبَّبَ إِلَيَّ لِسَانَ الْعَرَبِ أَنَّهُ يَتَمَتَّعُ بِأَكْبَرِ قِسْطٍ مِنْ وَحْيِ الطَّبِيعَةِ وَالْفِطْرَةِ، فَفِيهِ صُورٌ وَأَصْدَاءٌ، وَمَنَاظِرُ تَامَّةٌ صَادِقَةٌ أَنْتَزَعَتْ مِنَ الطَّبِيعَةِ مُبَاشَرَةً، وَسُكِبَتْ فِي قَوَالِبِ

الألفاظ بِدِقَّةٍ وَحَقِيقَةٍ، بَلْ لَقَدْ أَفْرَعَتِ الطَّبِيعَةُ أَشْيَاءَ ذَاتِيَّتِهَا فِي الْكَلِمَاتِ، كَأَنَّهَا طَلَبَتْ حَرَكَتَهَا الْحَيَّةَ فِي اللَّغَةِ.

وَفِي لِسَانِ الْعَرَبِ أَيْضاً مَشَاعِرُ وَأَحَاسِيسُ إِنْسَانِيَّةٌ وَحَيَوِيَّةٌ، لَمْ تَتَحَرَّفْ وَتَتَكَسَّرْ بِتَحَكُّمِ الْفِكْرِ وَآخِثِلَاقِهِ، وَبِعِبَارَةٍ أَصَحَّ تَشْوِيهِهِ. فَهَذَا اللَّسَانُ طَبِيعَةٌ وَحَيَاةٌ وَإِنْسَانِيَّةٌ فِي أَصْدَقِ أَلْوَانِهَا، وَمُفْرَدَاتُهُ كَلِمَاتُ الطَّبِيعَةِ أَوَّلُ مَا تَحَوَّكَتْ وَنَطَقَتْ، فَقَدْ تَصَيَّدَهَا الْعَرَبِيُّ وَانْتَحَتَهَا، وَهُوَ بَعْدُ يَتَوَجَّهُ بِالْقَرِيبَةِ النَّقِيبَةِ، دُونَ آلِتَوَاءَاتِ الْفِكْرِ وَالتَّيَافَاتِ، فَهِيَ أَنْتَى مَا تَكُونُ لُغَةٌ فِي مَذْهَبِ التَّعْبِيرِ.

وَلَقَدْ عَمَدْتُ إِلَى كَهْفٍ رُوحِي فَوَجَدْتُهُ قَائِماً حَالِكاً، وَرَأَيْتُ مِضْبَاحَ فِكْرِي خَائِياً، وَهُوَ إِذَا تَوَقَّدَ وَسَّعَ، فَلَا يُضْيِئُ كَهْفَ رُوحِي، وَأُظْلِمُ مِنْهُ فِي دَيْجُورٍ، فَقَدْ حِيلَ بَيْنَهُمَا بِشُدُودِ كَثِيفَةٍ صَفِيقَةٍ، لَكِنِّي وَجَدْتُ دِينَكُمُ الْجَدِيدَ قَدْ حَاوَلَ، وَنَجَحَ إِلَى أَكْبَرِ حَدٍّ، فِي رَفْعِ هَذِهِ الشُّدُودِ الْقَائِمَةِ فِي دُرُوبِ النَّفْسِ، وَأَذَكَّى شُعْلَةَ الْفِكْرِ، فَاتَّصَلَ مَا بَيْنَ الْفِكْرِ وَالرُّوحِ بِالشُّعَاعِ وَبِثُّ مُتَالِّقَةِ الْمَعْنَى، فَسَكَنْتُ إِلَى دِينِكُمْ، وَطَعِمْتُهُ أَيْضاً فَتَعَشَّقْتُهُ، إِنَّهُ رَفَعَ الشُّدُودَ فِي دُرُوبِ رُوحِي، وَكَانَتْ هَائِمَةً مُتَحَبِّطَةً بَيْنَ سَدٍّ وَسَدٍّ، وَأَطْلَالٍ خُرَافَاتٍ وَأَسَاطِيرِ.

قَالَ: لِلَّهِ أَنْتَ! أَكُنْتَ حَكِيمَةً أَمْ أَدِيَّةً؟ هَلْ «تُجِدِينَ الْقُرْآنَ» تِلَاوَةً؟

قَالَتْ: نَعَمْ.

قَالَ: فَأَقْرَئِي عَلَيَّ، إِنْ شِئْتَ... فَرَأَحَتْ تَنَلُّو «وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَمَا تَنَشَّقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ، وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ، وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ، ثُمَّ يَنْبَعُثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى، ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ، ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ، وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ

حَفَظَةً، حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا، وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ، أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ»... وَكَانَتْ تَتَوَاجَدُ فِي تِلَاوَتِهَا تَوَاجَدَ مَنْ قَدْ أُخِذَ بِنَشْوَةِ مُفَعَّمَةٍ.

قَالَ لَهَا: يُخَيَّلُ إِلَيَّ أَنَّكَ أَكْثَرُ وَغِيًّا لِهَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ كَثِيرٍ مِنَ الْعَرَبِ أَنْفُسِهِمْ، لِمَا رَأَيْتُ عَلَيْكَ مِنْ سَبَحَاتِ الْحَشْيَةِ.

قَالَتْ: يَبْذِي أَنْ أَكُونَ عِنْدَ ظَنِّ مُؤَلَايَ بِي. وَلِمَ لَا يَغْرُونِي مَا قَدْ عَرَانِي؟ وَأَنَا أَتْلُو هَذِهِ الْآيَاتِ الْقَوَارِعَ الَّتِي تَجْعَلُنِي فِي مُحِيطِ عِلْمِ اللَّهِ وَكَأَنِّي كُلُّ مَا فِي الْحُيْطِ أَوْ لَيْسَ غَيْرِي فِيهِ، عَلَى أَنَّنا مِنْ هَذِهِ الْحَيَاةِ فِي مَسَرِّحِ نَقُومٍ عَلَيْهِ بِأَدْوَارِنَا، وَلَسْنَا نَذْهَبُ أَمْحَسِينُونَ نَحْنُ فِي أَدْوَارِنَا أَمْ مُسْعِينُونَ، ثُمَّ هَلْ هُنَاكَ أَنْقَى تَصْوِيرًا لِعَلَاقَةِ اللَّهِ السَّبَبِيَّةِ فِي الْوُجُودِ، وَلِعَلَاقَةِ اللَّهِ الْأَدَبِيَّةِ بِالْإِنْسَانِ؟ أَمَا فِي كُلِّ هَذَا مَا يَبْعَثُ عَلَى الدَّهْشَةِ وَالْحَشْيَةِ جَمِيعًا؟ أَمَا فِيهِ مَا يُغْرِي الرُّوحَ بِلَحْظَةِ سَكِينَةٍ وَهَذَاهُ تَأْمُلُ؟

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُقَاطِعُهَا بِقَوْلِهِ: إِيهَ! إِيهَ! أَيُّ بُنْيَّةٍ، فَقَدْ أَحْسَنْتِ وَاللَّهِ!...

وَوَاصَلَتْ تَقُولُ: أَمَا يَجِدُ مُؤَلَايَ فِي الْوُقُوفِ عِنْدَ هَذَا التَّعْبِيرِ «مِفْتَاحُ الْغَيْبِ» مَا يَبْعَثُ عَلَى التَّأْمُلِ الطَّوِيلِ، وَيُنْشُرُ فِي الْقَلْبِ وَجَمَّةَ تَفْكِيرٍ مَدِيدٍ؟ هَذَا التَّعْبِيرُ الَّذِي يَرِثُهُ الْغَيْبُ فِي الْخَيَالِ عَلَى هَيْئَةٍ أَذْرَاجٍ قَامَتْ عَلَيْهَا الْأَغْلَاقُ، وَفِي كُلِّ أَشْيَاءِ الْوُجُودِ وَالطَّبِيعَةِ غَيْبٌ مَسْتَوْرٌ، أَوْ فَضَاءٌ وَدُنْيَا مِنْ عَالَمٍ غَيْبِيٍّ مَحْجُوبٍ، فَالْشَّيْءُ مِنَ الْوُجُودِ دَرَجٌ غَيْبِيٍّ يَنْسَبُخُ فِيهِ عَالَمٌ خَفِيٌّ مَدِيدٌ، وَعِنْدَ اللَّهِ مِفْتَاحُهُ، وَمَا مُحَاوَلَاتُنَا الْحَثِيئَةَ فِي اسْتِكْنَاهِهِ إِلَّا غَوْصٌ وَوُقُوفٌ عِنْدَ الشَّاطِئِ بِإِزَاءِ هَذَا الْمَجْهُولِ الْمُتَنَظَّرِ وَضُوحُهُ بِكَلِمَةِ «مِفْتَاحِ» الدَّائِرَةِ فِي حَرَكَتِهَا عَلَى الْأَغْلَاقِ.

قَالَ: لَقَدْ زِدْتَ عَلَى الْإِحْسَانِ، أَيُّ بُنْيَّةٍ... وَأَضْفَى صُمُوتٌ طَوِيلٌ كَانَ

مَسْرَحَ خِوَاطِرِ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْحُسَيْنَ قَطَعَهُ بِقَوْلِهِ:

أَلَا تَزَوِينَ «شَيْعاً مِنْ شَيْعِرِ الْعَرَبِ» وَأَذْبِهِمْ؟

قَالَ: بلى... وكانت لم تزل في إثارة من صوفيَّتها، فَأَنْشَدَتْهُ أَيْبَاتاً جَاءَ

بَيْنَهَا:

أَنْتَ نِعَمَ الْمَتَاعِ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

وَلَذَّاهَا الْإِنْشَادُ فِي هَذَا اللَّوْنِ الْمُبْطِنِ بِالزَّوْجِ وَلَفَتَاتِ الْإِشْرَاقِ، فَأَنْشَدَتْهُ شِعْراً سَبَقَ لَهَا أَنَّهَا أَنْشَأَتْهُ مُعَبَّرَةً عَنْ شُعُورِ نَفْسِهَا «فِي مَجْلِسِ مُعَاوِيَةَ»، وَمَا قَدْ كَوَّنَتْهُ مِنْ نَظَرَةٍ إِلَى الْحَيَاةِ وَقِيَمَتِهَا وَمُجْهِدِ الْحَيِّ فِيهَا:

رَأَيْتُ الْفَتَى يَمْضِي وَيَجْمَعُ مُجْهِدُهُ رَجَاءَ الْغِنَى، وَالْوَارِثُونَ قُعُودُ

وَمَا لِلْفَتَى إِلَّا نَصِيبٌ مِنَ الثَّقَى إِذَا فَارَقَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ يَعُودُ

فَلَمْ يَمْلِكِ الْحُسَيْنُ إِلَّا أَنْ يَتَوَاجَدَ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ فَاضَ فِي قَلْبِهِ يَنْبُوعُ حَنَانٍ، تَنَدَّتْ مَعَهُ مُقْلَتَاهُ، وَتَبَلَّوْرَ فِيهِمَا مِثْلُ الدَّمْعِ، وَإِلَّا فَهُوَ عُصَارَةُ شُعُورٍ بَعَثَتْ الثَّقَى. ثُمَّ قَالَ لَهَا: إِذْهَبِي «فَأَنْتِ حُرَّةٌ، وَمَا بَعَثَ بِهِ مُعَاوِيَةُ مَعَكَ فَهُوَ لَكَ»، عَلَى أَنَّكَ عِنْدِي أَبَدًا مِثْلُ كَرِيمَةٍ عَزِيزَةِ الْمَكَانِ فِي هَوَى أَهْلِهَا...

وَمَا هُوَ حَتَّى أَقْبَلَ بُدَيْعَ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَوْفَدَهُ مَوْلَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَعْفَرٍ إِلَى دَعْوَةِ الْحُسَيْنِ، وَلَكِنَّهُ مَا إِنْ مَثَلَ بَيْنَ يَدَيْهِ حَتَّى رَأَى مَهَاةَ قَلْبِهِ مَرَّةً أُخْرَى، بَيَّنَّ أَنَّهُ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ كَانَ أَغْنَفَ شُعُوراً بِهَا، فَقَدْ جَدَّدَتْ عَهْدَ هَوَاهُ فِي دِمَشْقَ، وَقَدْ أَحَالَتْ قَلْبَهُ الَّذِي كَانَ كَثِيلُو تَنَاهَى فِي حُبِّ ضَامِرٍ قَدِيمٍ، إِلَى قَلْبٍ جَدِيدِ حَيَاةٍ، أَنْصَبَ فِيهِ جَدِيدُ حُبٍّ مَا فَصَلَ عَنْهُ أُمْسٌ وَعَدَّ. فَتَاهَتْ حُرُوفُ كَلِمَاتِهِ فِي قَمِيهِ، وَاتَّخِضَتْ مُضْطَرِبَةً عَلَى لِسَانِهِ، وَقَسَّراً وَجَمَ فِي دُحُولٍ طَالَ بِهِ مَدَاهُ...

وَتَدَارَكُهَا مِثْلُ شُعُورِهِ وَغُصَّةِ قَلْبِهِ فَأَنْحَطَفَ لَوْنُهَا، وَالْحُسَيْنُ يَرَى فَأَطْرَقَ
إِطْرَاقَةً مَائِجَةً بِالْإِيحَاءِ. مَرَّ فِي خَاطِرِهِ مَعَهَا أَنَّ بُدَيْحاً يَنْتَهِي إِلَى مِثْلِ غُرْبَتِهَا، فَغَيْرُ
بَعِيدٍ أَنْ تَكُونَ ذَاتَ هَوًى بِهِ وَضَرَبَ الزَّمَانُ بَيْنَهُمَا، فَبَاعَدَهُمَا قَدَرٌ عَادَ فِي دَوْرَةِ
أُخْرَى يَضُمُّهُمَا... وَجَدِيذٌ بِي أَنْ أَكُونَ خَطَّ النِّهَايَةِ فِي دَوْرَةِ الْقَدَرِ الْمُبْهَمَةِ،
فَالْتَفَتَ إِلَى بُدَيْحٍ وَقَالَ:

كُنْتُ عَلَى أَهْبَةِ أَنْ أَسْتَقْدِمَكَ إِلَيَّ يَا بُدَيْحُ، فَسَقَطْتُ مِنْ نَفْسِي عَلَى مَوْعِدٍ،
أَنْتَ عِنْدِي مِثْلُ كَرَمٍ عَزِيزٍ، وَهِيَ عِنْدِي مِثْلُ... فَاسْتَحَفَّ بِبُدَيْحٍ عَاصِفُ فَوْحَةٍ
كُبْرَى، حَتَّى كَأَنَّهُ دَفَعَ إِلَى الْخُلْدِ مِنْ نَافِذَةٍ، بَعْدَ أَنْ حِيلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْبَابِ طَوِيلًا.
وَلَمْ يَزَلْ مُكَبِّبًا عَلَى يَدِ الْحُسَيْنِ يُقْبَلُهَا، فِي مَوْضِعٍ تَلَاقَى عَلَيْهِ ثَغْرَانِ: ثَغْرُهُ وَثَغْرُهَا.
وَكَانَ فِي مَنْظَرٍ وَضَعِيهِمَا مَا أَفْعَمَ قَلْبَ الْحُسَيْنِ بِغِبْطَةِ الرُّوحِ «فَفَاضَتْ مُقْلَتَاهُ»
بَدْمَعِ الشُّرُورِ، الشُّرُورِ غَيْرِ الْمَحْدُودِ. وَبَدَّلَ لَهُمَا «أَلْفَ دِينَارٍ، وَقَامَ إِلَى صَلَاتِهِ»
هَانِيءَ الْقَلْبِ رَيَّانَ، نَاعِمَ الضَّمِيرِ نَشْوَانَ...

*

جَاوَرَا يَفْتَنِيصُونَهُ بَغَانِيَةً مِنْ فُتُونِ الدُّنْيَا...
لَعَلَّهُمْ يَهَيِّطُونَ بِهِ إِلَى مِثْلِ خَضِيضِهِمْ وَرُغَامِهِمْ...
يَبِيدُ أَنَّهَا مَا آسَتْهُوَتْهُ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ آسَتْهُوَاهَا...
فَقَدْ مَسَّهَا بِشُغْلَةٍ مِنَ الْإِشْرَاقِ، غَدَتْ بِهَا خَلْقًا آخَرَ...

*

وَجَدَ قَلْبًا حَائِرًا يَنْحُتُ عَنْ قَلْبِ تَائِهِ...
وَكُلَّمَا أَوْشَكَ أَنْ يَلْتَقِيَا، يُضْبِعَانِ الطَّرِيقَ مَرَّةً أُخْرَى...

فَكَانَ هُمُ أَنْ يَصْنَعَهُمَا سَعِيدَيْنِ.. فَضَمَّ قَلْبًا إِلَى قَلْبٍ، وَمَزَجَ نَفْسًا
بِنَفْسٍ!....

* * *

إشارة

أَفَاقَ مَنْ فِي الْبَلَاطِ الْأُمَوِيِّ، عَلَى حَرَكَاتٍ غَيْرِ عَادِيَّةٍ، أَمْتَارَتْ بِالنَّشَاطِ فِي تَجْمَعَاتٍ تَشَاوِرِ هَامِسٍ، وَكَانَ جَوْ هَذَا التَّجْمُعِ مَطْبُوعاً بِطَابِعِ الْاهْتِمَامِ وَالْحِدِّ، فَقَدْ أَرْمَعَ أُسَاطِينُهُ إِحْدَاثَ أَنْقِلَابٍ خَطِيرٍ يَمَسُّ الْقَاعِدَةَ الْأَسَاسِيَّةَ لِلْحُكْمِ، وَفَوْقَ ذَلِكَ أَرْمَعُوا عَلَى أَخْذِ الْعَرَبِ بِحُكُومَةِ الْفَرْدِ، بَعْدَ أَنْ رَاضُوهُمْ عَلَيْهَا أَمْدًا لَيْسَ بِالْقَصِيرِ، وَبِأَسَالِيبِ كُلِّهَا الْعُنْفُ وَالْاِغْتِسَافُ فِي فِتْرَةٍ طَالَتْ دَوَابَتْهَا، فَكَانَتْ تَارِيخًا أَمْتَلًا بِشُهَدَاءِ الْحُرِّيَّةِ وَالشَّعْبِيَّةِ فِي مَذْهَبِ الْحُكْمِ.

وَكَانَ قَدْ سَبَقَ الْمَلِكُ وَوَجَّهَ دَعْوَةً عَامَّةً إِلَى أُمَرَاءِ الْأُمَصَارِ، فَاجْتَمَعُوا لَدَيْهِ يَنْتَظِرُونَ سَمَاعَ الْمُفَاجَأَةِ الَّتِي مِنْ شَأْنِ هَذَا الْاهْتِمَامِ أَنْ يَنْطَوِيَ عَلَيْهَا. وَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ تَكَلَّمَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ، وَكَانَتْ السَّنُ قَدْ تَنَاهَتْ بِهِ، فَلَمْ يَكُنْ صَوْتُهُ يَبِينُ، فَقَالَ: تَعْرِفُونَ أَنَّكُمْ الشُّعُورُ دُونَ الدُّنَا عِنْدَ الْمَلِكِ، فَعَلَيْكُمْ يَعْتَمِدُ، وَأَنْتُمْ الْبِطَانَةُ الَّتِي عَلَيْهَا يَتَّكِلُ، فَمَصَالِحُكُمْ مُزَبَّطَةٌ، وَأَمْرُكُمْ بِأَمْرِهِ مُتَّصِلٌ، وَقَدْ آتَجَّهَ رَأْيِي الْمَلِكُ إِلَى أَمْرِ خَطِيرٍ أَحَبُّ أَنْ يُفَاوَضَ بَكُمْ بِهِ، وَيَشْتَشِيرَ بَكُمْ قَبْلَ أَنْ يَعْتَرِضَهُ وَيَعْقِدَهُ... فَاشْرَأَبْتُ أَعْنَاقَهُمْ وَتَطَلَّعُوا فِي إِضْغَاءٍ مُوَهَّفٍ، وَوَاصَلَ الْمُغِيرَةُ:

رَأَى الْمَلِكُ أَنَّ لَا يُثْرَكَ النَّاسُ، بَعْدَهُ، سُدِّي «كَالضَّأْنِ لَا رَاعِي لَهَا»، وَقَدْ اخْتَارَ أَبْنَهُ الرَّشِيدَ يَزِيدَ، وَمَنْ أَكْفَأُ بِأَعْيَاءِ هَذَا الْأَمْرِ مِنْهُ؟ وَزَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ فَاحِصَةٍ

مُتَحَدِّثَةٍ، وراحوا يَنْظُرُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَلَفَّهُمْ صَمْتُ طَوِيلٍ قَطَعَهُ زِيَادٌ بِقَوْلِهِ:

«إِنَّ عِلَاقَةَ أَمْرِ الْإِسْلَامِ وَضْمَانَهُ عَظِيمٌ، وَيَزِيدُ صَاحِبَ رِسَالَةٍ وَتَهَاوُنٍ، مَعَ مَا قَدْ أُولِعَ بِهِ مِنَ الصَّيْدِ، فَوَزَّيْدُنَا بِالْأَمْرِ... فَأَقِمُّنَا أَنْ يَتِمَّ لَنَا مَا نُرِيدُ. وَلَا نَعْجَلْ، فَإِنَّ دَرْكَاً فِي تَأْخِيرٍ، خَيْرٌ مِنْ تَعْجِيلٍ عَاقِبَتُهُ الْفَوْتُ»، فَقَدَفَهُ الْمُغِيرَةَ بِنَظَرَةٍ شَزْرَةٍ صَاعِقَةٍ، وَقَالَ:

أَكُنْتُ تَظُنُّ أَنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا إِبْدَاءُ الرَّأْيِ؟ وَهَلْ نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَى رَأْيِ أُمْنَالِكَ؟ إِنَّ الْمَشُورَةَ هُنَا مَغْنَاهَا السَّمَاعُ وَالتَّنْفِيدُ وَالطَّاعَةُ فَقَطْ حَسَبُ. فَهَبْ عُيَيْدُ بْنُ كَعْبٍ التَّمِيمِيُّ، وَكَانَ مُشْتَشَارَ زِيَادٍ، يَشْرُحُ كَلَامَهُ وَمَا قَصَدَ إِلَيْهِ، فَقَالَ:

نَعَمْ. هُوَ مَا تَقُولُ، فَلَيْسَ عَلَيْنَا إِلَّا السَّمْعُ وَالطَّاعَةُ، وَزِيَادٌ «لَمْ يُرِدْ أَنْ يُفْسِدَ عَلَى الْمَلِكِ رَأْيَهُ وَيُمِيتَ إِلَيْهِ آتَنَهُ. وَلَئِنَّمَا قَصَدَ أَنْ يُخَوِّفَ يَزِيدَ مِنْ خِلَافِ النَّاسِ لِهِنَاتٍ يَتَقِمُونَهَا عَلَيْهِ، فَتَسْتَحْكِمُ لِلْمَلِكِ الْحُجَّةَ عَلَى النَّاسِ، وَيَسْهَلُ لَهُ مَا يُرِيدُ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: نَعَمْ مَا قُلْتَ، وَنَعَمْ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ زِيَادُ.

وَلَمْ يَكُنْ زَمَنٌ طَوِيلٌ حَتَّى أُعْلِنَ ذَلِكَ فِي مَسْجِدِ دِمَشْقَ عَلَى النَّاسِ، وَكَانَ مُعَاوِيَةُ قَدْ حَفَلَ لَهُ، وَطَلَبَ الْوُفُودَ مِنْ كُلِّ الْأَمْصَارِ، «وَقَرَأَ عَلَى الْجُمُوعِ عَهْدَهُ، وَفِيهِ عَقْدُ الْوِلَايَةِ لِيَزِيدَ»، فَأُصِيبَ بَعْضُ بِمَثَلِ الذُّهُولِ، وَبَعْضُ بِمَثَلِ الطُّيْشِ، وَكَانَ بَيْنَ هَؤُلَاءِ صَنَائِعُ ذَهَبُوا يُطْرَبُونَ وَيُزَيَّنُونَ، «فَقَامَ الضُّحَاكُ بْنُ قَيْسٍ فَقَالَ:

يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: إِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ وَالٍ بَعْدَكَ، وَالْأَنْفُسُ يُعْدِي عَلَيْهَا وَبِرَاحٍ، وَإِنَّ اللَّهَ قَالَ: «كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ»، وَلَا تَدْرِي مَا يَخْتَلِفُ بِهِ الْعَصْرَانِ. وَيَزِيدُ آتَنُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، فِي مُحْسِنٍ مَعْدِنِهِ وَقَصْدٍ سِيرَتِهِ، مِنْ أَفْضَلِنَا جِلْماً وَأَحْكَمِنَا عِلْماً، فَوَلِّهِ عَهْدَكَ، وَاجْعَلْهُ لَنَا عِلْماً بَعْدَكَ. فَإِنَّا قَدْ بَلَوْنَا الْجَمَاعَةَ وَالْأُلُفَّةَ، فَوَجَدْنَاهَا أَحْقَنَ لِلدَّمَاءِ وَأَمَنَ لِلشُّبُلِ وَخَيْراً فِي الْعَاقِبَةِ وَالْآجِلَةِ».

وَقَالَ عَمْرُو بْنُ سَعِيدٍ:

«أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ يَزِيدَ أَمَلٌ تَأْمَلُونَهُ، وَأَجَلٌ تَأْمَنُونَهُ، طَوِيلُ الْبَاعِ، رَخْبُ الدَّرَاعِ، إِذَا صِرْتُمْ إِلَى عَدْلِهِ وَسِعْكُمْ، وَإِنْ طَلَبْتُمْ رَفْدَهُ أَعْنَاكُمْ. جَذَعُ قَارِغٍ، سُوبِقُ فُسْتَبَقٍ، وَمُوجِدٌ فَمَجَدٌ، وَقُورِعٌ فَقَرَعٌ. خَلَفًا مِنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا خَلَفَ مِنْهُ...»
فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنْ جَلَسَ، أَبَا أُمَيَّةَ، فَلَقَدْ أَوْسَعْتَ وَأَحْسَنْتَ.

فَقَالَ الْأَخْنَفُ بْنُ قَيْسٍ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ: «أَنْتَ أَعْلَمُ بِيَزِيدَ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، وَسِرِّهِ وَعَلَانِيَتِهِ، وَمَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُهُ لِلَّهِ رِضَى وَلِهَذِهِ الْأُمَّةِ، فَلَا تُشَاوِرِ النَّاسَ فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ مِنْهُ غَيْرَ ذَلِكَ، فَلَا تُزَوِّدُهُ الدُّنْيَا وَأَنْتَ تَذْهَبُ إِلَى الْآخِرَةِ». فَأُحْسِنَ يَزِيدُ بْنُ الْمُقَفِّعِ، فَوَثَبَ مُزْعِدًا مُبْرِقًا، وَقَالَ:

«أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ هَذَا» وَأَشَارَ إِلَى مُعَاوِيَةَ «فَإِنْ هَلَكَ فَهَذَا» وَأَشَارَ إِلَى يَزِيدَ، «فَمَنْ أَيْ هَذَا...» وَأَشَارَ إِلَى السَّيْفِ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: آجِلِسْ فَإِنَّكَ سَيِّدُ الْخُطَبَاءِ.

وَقَامَ الْمَشْكِينُ الدَّارِمِيُّ الشَّاعِرُ، فَأَنشَدَ:

إِذَا الْمَيْتَرُ الْغَرْبِيُّ خَلَّاهُ رَبُّهُ فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ
وَتَهَيَّأَ مُعَاوِيَةُ، فَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْمُبَايَعَةِ «فَقَالَ رَجُلٌ: أَللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ
شَرِّهِ.

قَالَ مُعَاوِيَةُ لَهُ: تَعَوَّذْ مِنْ شَرِّ نَفْسِكَ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْكَ، وَبَايِعْ.

فَقَالَ: إِنِّي أَبَايِعُ وَأَنَا كَارِي لِلْبَيْعَةِ.

قَالَ لَهُ: بَايِعْ أَيُّهَا الرَّجُلُ، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا».

وما هو إلا أن حمَلَ النَّاسَ على البيعة في الشَّامِ والعِراقِ، فَتَوَجَّهَ مُعَاوِيَةُ لِإِعْدَادِ الرَّأْيِ العامِّ في المَدِينَةِ مِنْ أَجْلِ البيعةِ. «فَكَتَبَ إِلَى مَرْوَانَ بْنِ الحَكَمِ، وَكَانَ عامِلُهُ على المَدِينَةِ، أَنْ أَدْعُ النَّاسَ عِنْدَكَ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، فَإِنَّ أَهْلَ الشَّامِ والعِراقِ قد بَايَعُوا. فَخَطَبْتُهُمْ مَرْوَانُ فَخَضَّهُمْ على الطَّاعَةِ وَحَذَّرَهُمُ الفِتْنَةَ، وَدَعَاهُمْ إِلَى بَيْعَةِ يَزِيدَ، وَقَالَ هِيَ سُنَّةُ أَبِي بَكْرٍ الهَادِيَةِ المَهْدِيَةِ».

فَكَانَ لِهَذِهِ الدَّعْوَةِ وَقَعُ النَّارِ في الهَشِيمِ، وَسَرَتْ بَيْنَ الجُمُوعِ نَأْمَاتُ اسْتِنْكَارٍ، وَأَصْوَاتُ تَسْخِطٍ، وَتَزَايِدَ بِهِمْ هَذَا الاسْتِنْكَارُ وَهَذَا التَّسْخِطُ، فَأَنْدَفَعُوا يَطْعَنُونَ وَيُقْذَعُونَ فِي الطُّعْنِ، وَمَضَوْا يَنْشُرُونَ الاِخْتِجَاجَ نَفْراً دُونَ رِعَايَةِ وَحَذَرٍ.

فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ: «مَا صَدَقْتَ، إِنَّ أَبَا بَكْرٍ تَرَكَ الْأَهْلَ والعَشِيرَةَ، وَبَايَعَ لِجُلٍّ مِنْ بَنِي عَدِيٍّ رَضِيَ دِينُهُ وَأَمَانَتُهُ، وَأَخْتَارَهُ لَأُمَّةٍ مُحَمَّدٍ... وَتَرَادَا طَوِيلًا، وَأَنْتَقَلَ بِهِمَا التَّجَاوُزُ إِلَى التَّشَاوُشِ والمُهَاوِزَةِ مِنْ قِبَلِ مَرْوَانَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ: إِنَّ «هَذَا الْمُتَكَلِّمَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ: «وَالَّذِي قَالَ لَوْلَايَهِ أَفْ لَكُمْ، أَنْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرِجَ وَقَدْ خَلَّتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي» فَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: أَفِينَا تَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ؟»...

وَقَطَعَ الحُسَيْنُ عَلَيْهِمَا، إِذْ هَبَّ وَاقِفًا، وَعَلَى سِيَمَائِهِ مَشَتْ غَضَبُهُ مَكْظُومَةٌ رَاحَتْ تَنْطَلِقُ، وَقَدْ وَجَدَتْ سَبِيلَهَا:

«إِلَى النَّارِ تَذْفَعُونَ النَّاسَ بَعْدَ العَارِ»، لَقَدْ حَمَلُوا أَطْمَاعَكُمْ مُتَبَرِّمِينَ، وَتَرَكَوْا لَكُمْ أَنْتِهَابَ الدُّنْيَا كَمَا شِئْتُمْ وَشَاءَ الهَوَى، وَلَكِنْ آخِلَوْا فِي أَفْوَاهِكُمْ المُسْتَوْخَمَ فَتَخَطَّيْتُمُ الدُّنْيَا إِلَى العَبَثِ بالدِّينِ، فَأَخْرَبْنَا أَنْ تَذْفَعَ النَّارَ بِالنَّارِ.. وَمَا هُوَ حَتَّى هَبَّ النَّاسُ يُنْكَرُونَ وَلَايَةَ يَزِيدَ فِي مِثْلِ الزُّرْئِ الدَّامِي.

فَكَتَبَ مَرْوَانُ إِلَى مُعَاوِيَةَ بِذَلِكَ ، فَأَقْبَلَ إِلَى المَدِينَةِ فِي أَلْفٍ، فَلَمَّا قَارَبَهَا تَلَقَّيْتُهُ

الْجُمُوعُ عِنْدَ مَا تِيهَا وَمَدَاخِلُهَا، وَمَا أَخَذَ نَظْرُهُ الْحُسَيْنَ حَتَّى قَالَ: مَوْحِبًا بِ «سَيِّدِ شَبَابِ الْمُسْلِمِينَ»، قَرَّبُوا دَائِبَةً لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ. وَقَالَ مِثْلَ ذَلِكَ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ ابْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَلِابْنِ الرُّبَيْرِ. ثُمَّ أَنْطَلَقَ بِهِمْ حَتَّى أَتَى مَكَّةَ فَقَضَى حُجَّهَ، وَلَمَّا أَرَادَ الشُّخُوصَ أَمَرَ بِأَثْقَالِهِ فَقُدِّمَتْ، وَأَمَرَ بِالْمُنْبَرِ فَقَرَّبَ مِنَ الْكَعْبَةِ، وَهُنَا بَدَأَ مُفَاجَأَتَهُ الْإِنْتِخَابِيَّةَ دُونَ تَقْيِيدِ بَعْضِهِ أَوْ قَانُونٍ، فَأَرْسَلَ إِلَى الْحُسَيْنِ وَعُصْبَتِهِ، وَهَؤُلَاءِ لَمْ يَخَفْ عَلَيْهِمْ مَا يَفْتَلِحُ فِي نَفْسِهِ، فَاجْتَمَعُوا وَتَدَبَّرُوا الْأَمْرَ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ، وَتَرَكَوا الْمُرَادَّةَ وَالْمُدَارَهَةَ لِابْنِ الرُّبَيْرِ، فَأَقْبَلُوا عَلَى مُعَاوِيَةَ، فَوَحَّشَ بِهِمْ، وَقَالَ:

«قَدْ عَلِمْتُمْ نَظْرِي لَكُمْ وَتَعْطِفِي عَلَيْكُمْ وَصِلْتِي أَرْحَامَكُمْ، وَيَزِيدُ أُوْحُوكُمْ وَآبَنُ عَمَّكُمْ. وَلَئِنَّمَا أَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَهُ بِاسْمِ الْخِلَافَةِ، وَتَكُونُوا أَنْتُمْ الْأَمْرَيْنِ النَّاهِيَيْنِ يَدِيهِ». فَرَدَّ ابْنُ الرُّبَيْرِ:

«عِنْدَنَا إِحْدَى ثَلَاثٍ، أُيُّهَا أَخَذَتْ فَهِيَ لَكَ رَغْبَةٌ وَفِيهَا بَحِيَارٌ، إِنْ شِئْتَ فَاصْنَعْ فِينَا مَا صَنَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ (ص)، قَبِضْهُ اللَّهُ وَلَمْ يَسْتَحْلِفْ، فَدَخَ هَذَا الْأَمْرَ حَتَّى يَخْتَارَ النَّاسُ لِأَنْفُسِهِمْ. وَإِنْ شِئْتَ فَمَا صَنَعَ أَبُو بَكْرٍ: عَهْدَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ قَاصِيَةِ قُرَيْشٍ، وَتَرَكَ مِنْ وَلَدِهِ وَمِنْ رَهْطِهِ الْأَذْنَيْنِ مَنْ كَانَ لَهَا أَهْلًا. وَإِنْ شِئْتَ فَكَمَا صَنَعَ عُمَرُ: صَيَّرَهَا إِلَى سِتَّةِ نَفَرٍ مِنْ قُرَيْشٍ يَخْتَارُونَ رَجُلًا مِنْهُمْ، وَتَرَكَ وَلَدَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ، وَفِيهِمْ مَنْ لَوْ وَلِيَهَا لَكَانَ لَهَا أَهْلًا».

قَالَ مُعَاوِيَةُ: هَلْ غَيْرُ هَذَا؟ قَالَ: لَا. ثُمَّ قَالَ لِلْآخَرِينَ: مَا عِنْدَكُمْ؟ قَالُوا: نَحْنُ عَلَى مَا قَالَ ابْنُ الرُّبَيْرِ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: إِنِّي أَتَقَدَّمُ إِلَيْكُمْ وَقَدْ أَعْدَرْتُ مَنْ أَنْذَرَ، «فَأَنَا قَائِمٌ فَقَائِلٌ مَقَالَةً، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ لَيْنَ رَدِّ عَلَيَّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَلِمَةً فِي مَقَامِي هَذَا، لَا تَرْجِعْ إِلَيْهِ كَلِمَتُهُ حَتَّى يُضْرَبَ رَأْسُهُ»... وَأَمَرَ أَنْ يَقَوْمَ عَلَى رَأْسِ كُلِّ رَجُلٍ مِنْهُمْ رَجُلَانِ بِسَيْفَيْهِمَا، وَخَرَجَ وَأَخْرَجَهُمْ مَعَهُ حَتَّى رَقِيَ الْمُنْبَرِ، وَخَفَّ بِهِ أَهْلُ الشَّامِ، وَاجْتَمَعَ النَّاسُ.

فَقَالَ، بَعْدَ حَمْدِ اللَّهِ وَالنَّشَاءِ عَلَيْهِ: «إِنَّا وَجَدْنَا أَحَادِيثَ النَّاسِ ذَاتَ غَوَارٍ، قَالُوا: إِنَّ حُسَيْنًا، وَأَبْنَ أَبِي بَكْرٍ، وَأَبْنَ عُمَرَ، وَأَبْنَ الزُّبَيْرِ لَمْ يُبَايَعُوا لِيَزِيدَ، وَهَؤُلَاءِ الرَّهْطُ سَادَةُ الْمُسْلِمِينَ وَخِيَارُهُمْ لَا نُبْرِمُ أَمْرًا دُونَهُمْ، وَلَا نَقْضِي أَمْرًا إِلَّا عَنْ مَشُورَتِهِمْ، وَإِنِّي دَعَوْتُهُمْ سَامِعِينَ مُطِيعِينَ، فَبَايَعُوا وَسَلَّمُوا وَأَطَاعُوا»... ثُمَّ قُرِبَتْ رَوَاجِلُهُ فَرَكِبَ وَمَضَى إِلَى الشَّامِ، تَارِكًا النَّاسَ فِي دَهْشَةٍ الْمَفَاجَأَةِ يَنْظُرُونَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، عَلَى أَنَّهُمْ أَنهَالُوا أَحْيَرًا عَلَى الْحُسَيْنِ وَأَصْحَابِهِ يَشْتَبِتُونَهُمْ، فَأَجَابُوا: «كَأَنَّا بِكُمْ وَكَأَدَّكُمْ بِنَا».

كَذَلِكَ أَنْتَهَتْ الْمَفَاجَأَةُ الَّتِي حَبَكَهَا مُعَاوِيَةُ، وَطَلَعَ بِهَا عَلَى النَّاسِ، غَيْرِ عَابِيءٍ بِأَنَّهُ أَقَامَ وَلَايَةً وَلَدِهِ عَلَى الْبُرُكَانِ، وَوَضَعَ الْقُبْلَةَ فِي أُسُسِ الْبِنَاءِ.

فَإِنَّ الْحُسَيْنَ - الَّذِي شَهِدَ الْمَثَلَ الْأَعْلَى لِلْحُكْمِ أَزْمَانَ جَدِّهِ وَأَبِيهِ وَمَنْ يَتَنَّهُمَا، وَتَقَلَّبَ فِي الثَّوْرَةِ عَلَى الْحُكْمِ الشَّاذِّ، وَخَاضَ مَعْمَعَةَ الْبَطْشَةِ الْكُبْرَى الَّتِي كَالَهَا وَالِدُهُ فِي كُلِّ مَكَانٍ تَأَشَّبَ عَلَيْهِ أَعْدَاءُ الشَّعْبِ وَخُصُومُ حُرِّيَّتِهِ، وَرَافَقَ حَرَكَةَ التَّطْهِيرِ الَّتِي بَدَلَتْ فِيهَا مِنْ قَلْبِهِ وَنَفْسِهِ - يَجِبُ أَنْ يَغْضَبَ، وَأَنْ يَتَنَمَّرَ، وَأَنْ يَتَدَفَّعَ مُتَلَطِّيًا، وَأَنْ يَثُورَ مُبَغِّثًا فَبَنَاءً.

فَإِنَّ الْبِنَاءَ عَلَى الْفَسَادِ تَزْمِيمٌ لِلْفَسَادِ، وَأَصْطِنَاعٌ لِفَسَادٍ آخَرَ جَدِيدٍ. بَيِّنْدَ أَنَّهُ فِي صُورَتِهِ الْجَدِيدَةِ فَسَادٌ مُرَكَّبٌ، وَهُوَ أَغْقَدُ أَمْرًا، وَأَكْثَرُ حَيَوِيَّةً، وَأَطْوَلُ بَقَاءً وَنِضَالًا.

لِذَلِكَ كَانَ عَمَلُ الْمُصْلِحِينَ الْحَقِيقِيِّينَ هَذَا وَبِنَاءً، وَلِذَلِكَ كَانَ الشَّطْرُ الْأَوَّلُ دَائِمًا أَرْوَعَ وَأَشَقُّ وَأَقْدَسَ، فَهُوَ كِفَاحٌ وَتَضَحُّيَّةٌ وَتَغْيِيدٌ.

وَبِهَذَا، وَلَهُ فَقَطْ، رَأَيْنَا الْحُسَيْنَ يُوَلِّي وَجْهَهُ قِبَلَ الثَّوْرَةِ، قَبْلَ الْإِنْتِشَاءِ وَالْخَلْقِ مِنْ جَدِيدٍ.

*

فَلَمَّا يَبْزُرُ الْأَسَدُ، إِلَّا عِنْدَمَا تَتَنَاقُحُ الْأَرْجَاءُ بِالْعَوَاصِفِ...
كَأَنَّهُ يَأْبَى عَلَيْهَا أَنْ تُبَدِّدَ أَمْنَ الْغَابِ وَشُكُونَ جَلَالِهِ...
وعندما آخَتَدَمَتْ عَوَاصِفُ الْأَهْوَاءِ، أَنْطَلَقَ أَسَدُ الْإِنْسَانِيَّةِ يَدْفَعُ الْعَادِيَاتِ
عَنِ الْإِنْسَانِ...

*

الْبُزُكَانُ نَذِيرٌ بِالْإِنْغِلَابِ...
وَكَانَ الْحُسَيْنُ يُزَكِّي الْإِصْلَاحَ...
وقد مضى كُلُّ مُصْلِحٍ بِقَبَسٍ مِنْ ذَلِكَ الْبُزُكَانِ، يُزِيلُهُ مَنَاراً يَهْدِي فِي
الْحَلَكِ!...

* * *

الحمد لله

في صَبِيحَةِ يَوْمٍ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ سِتِّينَ، أَفَاقَ النَّاسُ فِي الْمَدِينَةِ عَلَى أَصْوَاتِ
الْعِلْمَةِ، يَمْرُحُونَ فِي الْأَرْقَةِ، وَهُمْ يَتَنَاشِدُونَ مَقَالَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ هَلَالِ السَّلُولِيِّ:

إِصْبِرْ يَزِيدُ... فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا مِقَّةٍ وَأَشْكُرُ جِبَاءَ الَّذِي بِالْمَلِكِ حَابَاكَ

لَا رُزْءَ أَعْظَمُ فِي الْأَقْوَامِ، قَدْ عَلِمُوا بِمَا رَزَنْتَ، وَلَا عُقْبَاكَ كَعُقْبَاكَ

فَأَذْرَكُوا أَنَّ مُعَاوِيَةَ قَدْ قَضَى، وَأَنْ يَزِيدَ قَدْ خَلَفَهُ، فَانْقَلَبُوا وَبَعْضُهُمْ يُحْرِقُ
الْأُرُومَ، وَيَتَمَيَّزُ حَقَقًا، وَبَعْضُهُمْ يَشُدُّ عُضْوَتَهُ تَجَهُمًا، وَيَدْعُ وَجْهَهُ يَتَمَدَّدُ وَيَتَقَلَّصُ
دَهْشَةً وَرُغْبًا. وَمَشَى الْخَبَرُ كَمَا يَمْشِي النَّعْيُ، حَتَّى أَنْتَهَى إِلَى الْحُسَيْنِ فَعِينَ عَلَيْهِ
حَتَّى الْإِعْمَاءِ، كَأَنَّ الْأَرْضَ دَارَتْ بِهِ دَوْرَتَهَا سَرِيعَةً سَرِيعَةً، وَاللَّمْ بِهِ إِطْرَاقُ عَنيفٍ،
كَانَ مَزِيجًا مِنَ اللَّوْعَةِ الْمُرَّةِ، وَالْأَسَى الْحَادِّ، وَالتَّنَمُّرِ الْعَضُوبِ. عَلَى أَنَّهُ طَفِيقٌ يُنَاجِي
نَفْسَهُ، وَقَدْ تَبَدَّتْ لَهُ مَاضِيَاتُ الثَّبَوَةِ وَدُنْيَا الْقُرْآنِ وَجَلَائِلُ الْعَدْلِ الْإِسْلَامِيِّ:

إِلَهِي! مَاذَا أَسْمَعُ؟ أَيَكُونُ يَزِيدُ خَلِيفَتَكَ فِي عِبَادِكَ، وَهُوَ مَنْ عَزَفْتَهُ صَارِمًا لَا
يَشْعُرُ بَعْدَ وَجُودِهِ، أَوْ يَشْعُرُ بِوُجُودِ الْآخَرِينَ، وَلَكِنْ فِي مَذْهَبِ نَهْمِهِ الدَّامِي
الْمُفْتَرِسِ، مِثْلَمَا تَشْعُرُ الذُّنَابُ بِوُجُودِ فَرَائِسِهَا الَّذِي هُوَ مُبَالِغَةٌ فِي عَدَمِ الشُّعُورِ بِغَيْرِ
وُجُودِهَا فَقَطْ، إِنَّهُ يَشْعُرُ بِهِمْ شُعُورَ الْإِمْتِصَاصِ وَإِزْوَاءِ نَهْمِ الذَّاتِ، إِنَّ ظُمَائَتَهُ
تَطْلِفُ بِهِمْ مُحَاوَلَةً لَوْ تُحِيلُهُمْ قَطْرَةً تُنْثَدِي بِهَا لُعَابُهَا.

أَيَكُونُ يَزِيدُ الْقَائِمَ عَلَى شَرِيعَةِ رَسُولِكَ؟ وَشَرِيعَتُهُ ذَوْبٌ رَحْمَةٍ فِي ذَوْبٍ
عَدَالَةٍ وَرَفَقٍ، وَهَيْهَاتَ أَنْ تَجِدَ مَكَانَهَا فِي غَيْرِ ضَمِيرٍ فِيهِ مِنْ مَعْنَاهَا، وَفِيهِ مِنْ
رُوحِهَا؛ وَإِلَّا فَهِيَ عَافِيَةٌ كَالطَّلَلِ، وَذَاوِيَّةٌ كَالْهَشِيمِ يَغْبُثُ بِهَا الْهَوَى، وَيَتَقَادَفُهَا
مِثْلَ أَوْرَاقِ الْخَرِيفِ، فِي أَوْدِيَةِ الشَّهَوَاتِ، وَبَيْنَ الْمَغَاوِرِ وَالْكُهُوفِ الضَّاجَّةِ بِالْفُسُوقِ.

إِنَّ الشَّرِيعَةَ، كَكُلِّ تَعْلِيمٍ، كَائِنٌ يَزْدَوِجُ بِالْحَيَاةِ، فَيَنْفَعِلُ بِهَا لِيُحْيَا، وَيَفْعَلَ فِيهَا
لِتَوْقَى. فَإِذَا لَمْ يَتِمَّاسًا ظَلَّتِ الْحَيَاةُ جَامِخَةً فَاجِرَةً، وَظَلَّتِ الشَّرِيعَةُ مِثْلَ شَرَارَةٍ
مَخْرُوتَةٍ لَمْ تَنْقِدِخْ فِي قَمِ الْمِصْبَاحِ فَتُحْيَا بِهِ وَيَنْطِقُ بِهَا، صَادِعًا بِلِسَانِ الضَّيَاءِ،
وَمُغْلِنًا بِيَدَاءِ الثُّورِ.

إِنَّ شَرِيعَةَ رَسُولِكَ وَجَدَتْ حَيَاتَهَا فِي حَيَاتِهِ، وَاسْتَمَدَّتْ رُوحَهَا مِنْ رُوحِهِ،
فَقَرَّامَتْ بِالضَّيَاءِ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ، وَطَبَعَتْ بِحَقِيقَتِهَا مَادَّةَ الزَّمَانِ، فَسَعِدْنَا حِينَا بَدُنَا
الْقُرْآنَ.

على أَنَّهُ عَادَ إِلَى اسْتِعْرَاقِهِ، وَكَانَ أَيْضًا عَمِيقًا، وَلَكِنْ لَمْ يَبْرَحْ حَتَّى سَاوَرَهُ
غَضَبٌ مَكْظُومٌ اسْتَعَلَّ فِي غَيْبَتِهِ، وَرَاحَ يُنَاجِي نَفْسَهُ فِي نَبْرَاتٍ حَادَّةٍ كَأَنَّهَا
تَلْتَهَبُ:

نعم. نعم. نحنُ بَايَعْنَا اللَّهَ عَلَى التَّقْوَى، وَلَنْ نُبَايِعَ إِلَّا عَلَيْهَا، أَوْ نَمُوتَ فِي
سَبِيلِهَا. أَلَا إِنَّهُ اخْتَارَنَا لِحَمَلِ أَمَانَتِهِ الْعُظْمَى، وَأَنْتَظِرُ مِنَّا الْوَفَاءَ وَالْإِفْتِدَاءَ بِكُلِّ
عَظِيمٍ. وَمَنْ نَذَرَ نَفْسَهُ لِلَّهِ فَقَدْ أَرْخَصَهَا لَهُ.

«إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ، يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى
بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِيُبْعِثُكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ».

إِنَّ السَّمَوَاتِ - وَهُوَ جَاهِلِيٌّ لَمْ يَتَأَنَسْ قَلْبُهُ بِالْإِشْرَاقِ - عَاهَدَ إِنْسَانًا،
وَاسْتَجَابَ حِينَ دَعَاهُ الْوَفَاءُ، وَكَانَ دَامِيًا.

إِسْتَجَابَ جَاهِلِيٌّ لِلشَّرَفِ، فَكَيْفَ لَا أَسْتَجِيبُ لِلإِيمَانِ؟ إِنِّي إِذَا لَنَكَلُ
خَوَارٍ...

«أَلَمَوْتُ خَيْرٌ مِنْ رُكُوبِ الْعَارِ...»

وَالْعَارُ خَيْرٌ مِنْ دُخُولِ النَّارِ...

وَاللَّهُ مِنْ هَذَا وَهَذَا، جَارِي...

فَكَيْفَ إِذَا بِالْعَارِ وَالنَّارِ، أَجْمَعُهُمَا عَلَى نَفْسِي فِي دُنْيَا الظَّالِمِينَ!...
وَيَنْمَا الْحُسَيْنُ فِي سَبْحَاتِهِ الْقُدْسِيَّةِ وَنَجْوَاهُ الْمَائِجَةِ بِرُوحِ الْأَصْطِفَاءِ، تَبَدَّى
لِنَظَرِيهِ، فِي وَجْهَةِ قَلْبِهِ، أَطْيَافٌ يَسْتَمِلُهَا الرِّضَا، وَتَلْفَعُهَا نَشْوَةُ الْأَغْتِبَاطِ، وَهِيَ
ثُبَارُكُهُ وَتَشْدُ عَزْمُهُ، وَتُهَيِّبُ بِهِ إِلَى الْوَثْبَةِ، إِلَى الْوَثْبَةِ الْكُبْرَى، فَهَتَفَ مُسْتَبْشِرًا:
رَبَّاهُ! مَاذَا أَرَى؟ إِنَّهَا أَطْيَافُ جَدِّي الْمُصْطَفَى، وَأَبِي الشَّهِيدِ، مِنْ وَرَائِهِمَا
الْمَلَائِكُ، تَدْعُونِي إِلَى اللَّهِ، إِلَى التَّضْحِيَةِ الْعُظْمَى.

كَانَ الْكَبْشُ، فِي يَوْمٍ، فِدَاءَ نَبِيِّ «فِي حِكَايَةِ إِبْرَاهِيمَ وَأَبْنَيْهِ»...

وَلَكِنَّ النَّبِيَّ الْأَعْظَمَ، إِنَّمَا يَكُونُ لَهُ الْفِدَاءُ الْأَعْظَمُ...

وَحَبِيبٌ إِلَى نَفْسِي أَنْ أَكُونَ ذَلِكَ الْفِدَاءَ... «فِي حِكَايَةِ الْأَسْتِشْهَادِ يَوْمَ
كَوْبَلَاءَ».

*

كَانَ الْحُسَيْنُ لَمْ يَزَلْ فِي نَجْوَاهُ، حِينَ «أَسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، رَسُولُ
الْوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ يَدْعُوهُ، وَكَانَ يَوْمَئِذٍ أَمِيرَ الْمَدِينَةِ. فَأَمَرَ الْحُسَيْنُ بِالْإِنْقِلَابِ إِلَيْهِ، وَقَامَ
الْحُسَيْنُ، وَجَمَعَ بَعْضًا مِنْ غِلْمَانِهِ وَمَوَالِيهِ، وَأَمَرَهُمْ بِحَمْلِ السَّلَاحِ، فَأَنْتَهَى إِلَى
الْوَلِيدِ، وَقَالَ لِأَصْحَابِهِ:

إِذَا دَخَلْتُ فَاجْلِسُوا عَلَى الْبَابِ، وَإِنْ دَعَوْتُكُمْ أَوْ سَمِعْتُمْ صَوْتِي قَدْ عَلَا،
فَاقْتَحِمُوا عَلَيَّ بِأَجْمَعِكُمْ، وَإِلَّا فَلَا تَبْرَحُوا حَتَّى أُخْرِجَ إِلَيْكُمْ. فَدَخَلَ الْحُسَيْنُ عَلَى
الْوَلِيدِ - وَمَرَوَانُ عِنْدَهُ - وَجَلَسَ، فَأَقْرَأَهُ الْوَلِيدُ الْكِتَابَ، وَنَعَى إِلَيْهِ مُعَاوِيَةَ، فَقَالَ
الْحُسَيْنُ:

إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أَمَّا الْبَيْعَةُ فَإِنَّ مِثْلِي لَا يُعْطِي بَيْعَتَهُ سِرًّا، وَلَا أَرَاكَ
تَقْنَعُ بِهَا مِثِّي كَذَلِكَ... قَالَ: أَجَلٌ. قَالَ: فَإِذَا خَرَجْتَ إِلَى النَّاسِ فَدَعَوْتَهُمْ إِلَى
الْبَيْعَةِ دَعَوْتَنَا مَعَهُمْ، فَكَانَ الْأَمْرُ وَاحِدًا. فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: عَلَى آسَمِ اللَّهِ، حَتَّى تَأْتِيَنَا
مَعَ جَمَاعَةِ النَّاسِ.

قَالَ مَرَوَانُ لَمَّا وَلَّى: عَصَيْتَنِي وَاللَّهِ، لَا قَدَرْتَ مِنْهُ عَلَى مِثْلِهَا أَبَدًا، حَتَّى
تَكُتَّرَ الْقَتْلَى بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ... وَكَانَ مَرَوَانُ قَدْ أَشَارَ عَلَيْهِ أَنْ آتِبْعَثَ إِلَى الْحُسَيْنِ، فَإِنْ
بَايَعَ، وَإِلَّا فَاصْزُبْ عُقْبَهُ.

قَالَ الْوَلِيدُ: وَيَحْكُ! أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِقَتْلِ الْحُسَيْنِ؟ وَاللَّهِ إِنَّ الَّذِي يُحَاسِبُ بَدَمَ
الْحُسَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لَخَفِيفُ الْمِيزَانِ عِنْدَ اللَّهِ.

رُغِمَ مَا يَغْتَلِجُ فِي قَلْبِ الْحُسَيْنِ مِنْ عَاصِيفٍ يَكَاذُ يَنْطَلِقُ، وَبُزُكَانٍ يَكَاذُ
يَثُورُ، أَبْدَى فِي هَذَا الْمَوْقِفِ الْحَرِجِ الدَّقِيقِ أَقْصَى مَا يُتَصَوَّرُ مِنْ ضَبْطِ الْأَعْصَابِ،
وَحُسْنِ الثَّأْتِي الْفَائِقِ فِي تَصْرِيفِ الْأُمُورِ، وَاللِّبَاقَةِ الْبَالِغَةِ فِي الْحِوَارِ السِّيَاسِيِّ.

خَرَجَ الْحُسَيْنُ مِنْ مَكَانِ الْوَلِيدِ مُزْمِعًا عَلَى خُطَّةٍ، وَإِنْ تَكُنْ رَهْبَةً، خَفَقَ لَهَا
قَلْبُهُ، وَاسْتَجَابَ إِلَيْهَا بِكُلِّ مَشَاعِرِهِ، حَتَّى لَبَدَتْ عَلَى سِيَمَائِهِ وَجَزَتْ عَلَى لِسَانِهِ،
وَهُوَ قَاصِدٌ إِلَى مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ، فَقَدْ سَمِعَهُ أَبُو سَعِيدٍ الْمُقْبِرِيُّ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ يَزِيدَ بْنِ
رَبِيعَةَ بْنِ مُفَرِّغٍ:

لَا دَعَرْتُ السَّوَامَ فِي فَلَقِ الصُّبِّ حِجْ مُغِيرًا، وَلَا دُعَيْتُ يَزِيدًا
يَوْمَ أُعْطِيَ مِنَ الْمَهَانَةِ ضَيْمًا وَالْمَنَايَا يَرْصُدُنَنِي أَنْ أَحِيدًا

وما هو حتّى هَبَطَ بِأَهْلِهِ مَكَّةَ لثَلَاثِ مَضَبَيْنَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ سِتِّينَ، وَلَبِثَ فِيهَا
حَتَّى يَوْمِ التَّرْوِيَةِ مِنْ ذِي الْحِجَّةِ...

*

فِي مَكَّةَ، حَيْثُ الذُّكْرِيَّاتُ الْمُلهِمَاتُ الَّتِي تَصْفُرُ عَلَى كُلِّ مَكَانٍ مِنْ أَرْضِهَا
وَسَمَائِهَا، وَعِنْدَ مُعْتَنَقِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، حَيْثُ يَقَعُ الْأَفْقُ الْمَكْلَلُ بِالْوَحْيِ، لَبِثَ
الْحُسَيْنُ يَزُونُو، وَقَدْ ذَابَتْ فِي نَظَرَاتِهِ أَوْهَامُ النَّاسِ فِي الْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ.

إِنَّ نَظَرَهُ اعْتَلَقَ بِالْأَبَدِ الْفَسِيحِ الَّذِي تَبْدُو الدُّنْيَا، بِكُلِّ أَشْيَائِهَا مِنْ آفَاقِهِ،
صَدَقَةَ حَقِيرَةٍ فِي لُجِّ الْفَنَاءِ.

وَقَدْ رَأَى هُنَاكَ أَنَّ الْأَحْيَاءَ يَعِيشُونَ فِي عَالَمِ أَعْمَالِهِمْ عَلَى حَقَائِقِهَا،
وَالْأَعْمَالُ فِيهِ لَيْسَتْ مَاتِي فَقَطْ تَتَقَضَّى مَعَ أَنِهَا وَجِينَهَا، بَلْ هِيَ مَوَالِيدُ يَخْيَاهَا
الْمَرْءُ فِي خَلَاوَتِهَا وَمَرَارَتِهَا، وَفِي نُورِهَا وَظِلَامِهَا. وَالْمَرْءُ هُنَاكَ لَا يُحْسِنُ بِالْأَلَمِ أَوْ
اللَّذَّةِ، وَالْفُتُوحِ أَوْ الْجَمَالِ، إِحْسَاساً مِثْلَمَا هُوَ شَأْنُ إِحْسَاسِ الْفَنَاءِ، بَلْ تَحْيَا فِيهِ
كُلِّيَّاتُ هَذِهِ الْمَعَانِي حَيَاةَ جَوْهَرِهَا.

وَكَاثَتْ تِلْكَ الذُّكْرِيَّاتُ الْخَالِدَاتُ لَا تَفْتَأُ تَتَنَادَى بِهِ إِلَى آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ،
آسْتِغْنَاكِ الْجِهَادِ الْأَوَّلِ الَّذِي بَدَأَهُ جَدُّهُ الْمُصْطَفَى، مُكَافِحاً وَحِيداً وَبَطْلاً فَرِيداً،
حَتَّى أَمَالَ دُنْيَا وَأَثْبَتَ دُنْيَا، وَمَا قَعَدَ بِهِ أَنَّ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ إِلْبَ، وَهُوَ
وَحْدَهُ الَّذِي يَدْعُو إِلَى سَبِيلِ الرَّبِّ.

إِنَّ كَلِمَةَ اللَّهِ فِي فَمِ الْإِنْسَانِ تَنْتَشِرُ مِثْلَ شُعَلَاتِ.

تُحْرِقُ فِي مَدَاهَا كُلَّ مَا لَيْسَ مِنْهَا.

فَإِذَا لَهَا عَلَى الْأَرْضِ ضِيَاءٌ، كَمَا لَهَا فِي السَّمَاءِ ضِيَاءٌ.

«اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

كَانَتْ تَمُرُّ بِهِ هَذِهِ التَّصَوُّرَاتِ، وَقَدْ مَسَحَهَا جَوْ مَكَّةَ بِمَا فِيهِ مِنْ أَقْدَاسٍ
وَذِكْرِيَّاتٍ عَزَمَ لَا يُقْفَهُزْ، فَهَبَّ نَاشِطاً فِي مِثْلِ الزَّرِيرِ الَّذِي يُبَادِرُ الانْطِلَاقَ، غَيْرَ
ثَابِتٍ أَمَامَ نَاطِرِيهِ إِلَّا «وَلَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ».

وَأُسْوَتِي بِهِ، أَنْ أَجَالِدَ جِلَادَهُ، وَأَنْ أُنَافِخَ مُنَافَحَتَهُ، وَأَنْ أَنْتَهِيَ لِعَايَتِهِ.

أَلَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَّ الْبَغْيِ وَالْبَاغِي، وَذَكَ دُنْيَا الْأَوْثَانِ بِمَا فِيهَا، وَإِنَّ الْبَاغِي
الْيَوْمَ يُحَاوِلُ الْإِنْفِلَاتَ، وَأَوْثَانُ الْآلِهَةِ اسْتَوْلَدَتْ أَوْثَانُ النَّاسِ. فَكَيْفَ أَتَلَبُّ دُونَ أَنْ
أُغْلَّ ذَاكَ، وَأُعْتَصِرَ هَذَا، وَمَا أَبَالِي أَكَانَتْ فِيهِ مَبِيتِي أَمْ كَانَتْ فِيهِ أُمِّيَّتِي...

وَإِنَّ مُحَمَّدًا أَخْرَجَ مُهَاجِرًا يَدْعُو إِلَى اللَّهِ فِي مُبَالَعَةِ الْغُيُونِ وَالْأَرْصَادِ، فَكَيْفَ
لَا أَخْرُجُ دَاعِيًا إِلَيْهِ غَيْرَ مُبَالٍ بِالْحَيَاةِ، وَلَا مُكْتَرِبٍ بِالْمَوْتِ فِي سَبِيلِهِ؟

وَلَسْتُ أَبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا عَلَى أَيِّ جَنْبٍ كَانَ فِي اللَّهِ مَضْرَعِي

وَكَفَى بَعْمَلِي عِنْدَ اللَّهِ رِضًا، أَنْ يَكُونَ الْهِجْرَةُ الثَّانِيَّةَ.

إِنَّ الْهِجْرَةَ الْأُولَى، هِجْرَةُ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْبِنَاءُ.

وَإِنَّ الْهِجْرَةَ الثَّانِيَّةَ، هِجْرَةُ سَبْطِ رَسُولِ اللَّهِ، كَانَتْ، وَغَايَتُهَا الْحُفَاطَةُ عَلَى
ذِيَالِكَ الْبِنَاءِ.

وَمَا هُوَ حَتَّى تَسَامَعَ النَّاسُ بِعَزْمِ الْحُسَيْنِ، وَمَا هُوَ حَتَّى مَشَى الْكَثِيرُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ غَايَتِهِ، يَوْعِبُونَ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَفْعَلَ، وَيُتَبَطِّطُونَ مِنْهُ وَيُوْهِنُونَ مَا آسَتُوهُ عَلَيْهِ
عَزْمُهُ. فَقَالَ آبْنُ عَبَّاسٍ، وَقَالَ آبْنُ الزُّبَيْرِ، وَبَدَّهَهُ هَذَا، وَثْنَى ذَاكَ، إِلَى كَثِيرٍ كَثِيرٍ،
وَكُلُّهُمْ قَوْمٌ عَشِيرٌ، وَقَحْرٌ قَبِيلٌ.

وَكَانَ الْحُسَيْنُ يَسْتَمِعُ إِلَيْهِمْ وَكَأَنَّهُ بَطْلُ الْمَعْرَكَةِ الْمُنتَظَرِ، يَرَى فِي تَحَامِي

الْفُوسَانِ جُبْنًا أَكْبَرَ عَارًا، فَيَزِيدُهُ تَلْظِيًا وَحِمِيَّةً، وَفِي تَقَهُّقِرِ الشُّجْعَانِ خَوْرًا أُبْلَغَ غَوْرًا
وَأَعَمَّقَ أَثْرًا، فَيَرْقُدُهُ عَزْمًا وَيَضْطَئِبُهُ شَكِيمًا.

إِحْتِضَارُ نَسْرِ... فِي هَمْسٍ كَالزَّئِيرِ

مَرَّ نَسْرٌ يُحَلِّقُ فَوْقَ الْآكَامِ، فَتَكَثَّفَتْهُ بُعَاثُ النَّسْرِ- أَيِ ضِعَافِهَا - مِنْ كُلِّ
مَكَانٍ...

تُهِيبُ بِهِ أَنْ لَا يَمُضِيَ بَعِيدًا، فَهُنَاكَ صُقُورٌ تَعِيثُ فُسَادًا وَتَبْثُ رُغْبًا.
وَلَكِنَّ النَّسْرَ شَدَّ جَفْنَيْهِ طَوِيلًا، كَأَنَّهُ لَا يُصَدِّقُ أَنَّ هَذِهِ لَعَةُ نَسْرِ...
عَلَى أَنَّهُ مَضَى، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّ النَّسْرَ شَيْءٌ فِي الْمَعْنَى، وَلَيْسَ شَيْئًا فِي
الشَّكْلِ...

فَإِذَا آسَتْحَالَ الْمَعْنَى شَكْلًا فَقَطْ، فَهُنَاكَ مُسَوِّخٌ لَا نُسُورًا...
ثُمَّ أَنْطَلَقَ يَهْوِي عَيْرٌ مُبَالٍ بِمَا سَوْفَ يَعْتَرِضُهُ.

*

وَمَا هُوَ حَتَّى وَائْتَبَتْهُ جَمَاعَةُ الصُّقُورِ، فَنَالَ مِنْهَا كَثِيرًا وَنَالَتْ مِنْهُ مَقْتَلًا...
عَلَى أَنَّهُ كَانَ مُعْتَبِطًا أَيْضًا، فَقَدْ هَمَسَ فِي أَنْفَاسِ الْمُحْتَضِرِ...
سَوْفَ يَظَلُّ فِي الْأَجْيَالِ أَنَّهُ هُنَا يَرْقُدُ نَسْرٌ وَجَدَ حَقِيقَتَهُ...
وَهُنَاكَ تَحْيَا نُسُورٌ فَقَدَتْ حَقِيقَتَهَا...

إِنَّنِّي أَقْضِي، وَيَقِفِي فِي ضَمِيرِ الْوُجُودِ أَنَّ اقْتِحَامَ الطَّرِيقِ، دَائِمًا فِي
الْإِمْكَانِ...

مَتَّ مَوْتَ هَذَا النَّسْرِ، عَيْنٌ فِي مُقْلَةِ الشَّمْسِ وَجَنَاحٌ لَهُ فِي الْأَفَاقِ...

وَلَمْ تَمُتْ مَوْتَ الْبَهْمِ عِنْدَ الشُّفُوحِ، لِتَظَلَّ عَلَى لِسَانِ الدُّهُورِ وَتَعَاقِبِ
الْعُصُورِ، أُسْطُورَةَ تُزَوِّى...

*

إِنْطَلَقَ الْحُسَيْنُ مُودِّعًا الْكَعْبَةَ، بَيْتَ اللَّهِ، حَامِلًا رُوحَهَا يَتَيْنَ جَنْبَيْهِ، وَشُعَلَتَهَا
يَكِلْتَا يَدَيْهِ...

تَوَارِكَبُهُ الْمَلَائِكُ وَتُبَارِكُهُ، وَتَطْيِفُ بِهِ كَأَنَّهَا حَذِيرَةٌ عَلَيْهِ...
فَإِنَّهُ الْبَقِيَّةُ مِنْ إِرْثِ السَّمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ!...

*

رَغِيًّا لِذِكْرِكَ أبا عَبْدِ اللَّهِ، فَقَدْ أَحْسَسْتُ بِرُوحِ الْأَخْلَاقِ فِي رُوحِ الْوُجُودِ...
فَأَرَدْتُ الْحَيَاةَ دُنْيَا مِنْ الْأَخْلَاقِ وَالْفَضِيلَةِ وَالْحُبِّ...
وَأَرَادَهَا الْآخِرُونَ دُنْيَا مِنَ الشَّهَوَاتِ وَالرَّذِيلَةِ وَالْأَحْقَادِ...
أَرَدْتُهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الْأَعْصَابِ بِالْأَلَمِ...
وَأَرَادُوهَا كَوْنًا مِنْ لَذَّةِ الْأَعْصَابِ، وَلَوْ فِي شُعُورِ الرُّوحِ بِالْأَلَمِ...
فَاسْتَحَالَتِ الْآلَامُ الْكُبْرَى، فِي حِسِّ النَّاسِ، لَذَّةَ كُبْرَى فِي حِسِّكَ!...

*

حَتَّى لَقَدْ شَعَرْتُ حِيَالَ الدَّمِ الْمَسْفُوحِ، أَنَّهُ شَفَقٌ مِنْ شُعَاعِ الرُّوحِ...
وَرَأَيْتُ، فِي حُمْرَةِ الدِّمَاءِ، لُؤْلُؤَةً جَمَالِ الْحُسْنِ...
وَلَا يَدْعُ، فَقَدِيمًا قِيلَ الْمَثَلُ السَّائِرُ: «إِنَّ الْحُسْنَ أَحْمَرُ»...

* * *

مَنْبَهَةٌ... لهذه الطَّبعة (ز) - (ل)
الفاتحة (م) - (س)
مُقَدِّمة (ف) - (ث)

يوم المدينة (٢٥) يوم الميلاد (٦٧)
يوم القرآن (٤١) مشاهد (٧٧)
يوم الايمان الشامخ (٥٥) يوم الدولة (٨٩)
دموع (٩٩)

من أيَّام العهد الراشدي

مع خليفة (١٠٩) في الثورة (١١٩)
جهاد الشباب (١١٣) في الزوينة (١٣٩)
إلتياح (١٦١)

من أيَّام الحسين السبط (ع)

في الهيكل (١٧٥) تقوى (٢٢٧)
في وجه الظلم (١٨٣) استشارة (٢٤٥)
مع أُرَيْنب (١٩٧) إلى الله (٢٥٣)

... فمُحَمَّدٌ لَمْ يَصْنَعْ أُمَّةَ بَيْرِ الْأُمَمِ، بَلْ صَنَعَ
أُمَّةً فِي عِدَادِ الرُّسُلِ إِلَى كُلِّ الْأُمَمِ، وَأَكْبَرُ ظَنِّي
أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَنْطَلِقُ فِي جَسَمِ الْعَالَمِ الْمُتَدَاعِي، كَمَا
تَنْطَلِقُ الْعَصَاةُ، وَفِيهَا الْحَرَارَةُ وَالْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ.



9 782910 355005

ISBN: 2-910355-00-4